كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

حققه وعلق عليه
إبراهيم الزيبق

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة



كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

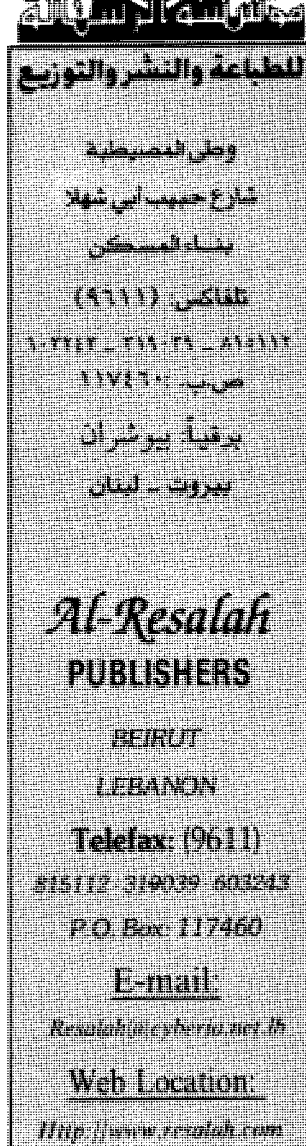
النورية و الصلاحية

١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

يعد كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة من أهم الكتب وأشهرها التي أرخت لدولتي نور الدين وصلاح الدين، وما تخللهما من حروب مع الصليبيين، وقد امتاز هذا الكتاب بمنهج واضح، وحسن استخدام للموارد، فأبو شامة بحسه التاريخي المرهف ساق مقتبساته بانسجام جعلها تبدو وكأنها قطعة واحدة من أسلوبه.

وبرأيي أن الذي جعل كتاب الروضتين ينبض بسحر التاريخ هو موقف مؤلفه الفكري الواضح، والذي تجلى من خلال اختياره لعنوانه «كتاب الروضتين»، فأبو شامة الذي كاد يدرك عصر صلاح الدين[1] عاش في فترة مضطربة، يتقاتل فيها الإخوة باستماتة على الحكم، رأى في دولتي نور الدين وصلاح الدين روضتين في صحراء هذه الفوضى المترامية، بل أحس ــ وهو المفجوع بعصره ــ كأن ثمة شبهاً بين عمر بن الخطاب وعمر بنِ عبد العزيز وبين نور الدين وصلاح الدينِ، فتحمس لإنشاء هذا الكتاب، مستجيباً لنداء ظامىء إلى العدل والاستقرار، مخاطباً ملوك عصره وكل عصر: لن أكتب لكم عن العمرين فقد بَعُدَ زمانهما، وتشعرون بعجز عن التشبه بهما، حسناً، هاكم سيرة ملكين من عصركم، وهما من بعض ملوك دهركم، ولن تعجزوا عن التشبه بهما.

فأبو شامة لم يكتب تاريخه ليقدمه إلى السلطان طمعاً في نوال أو ثناء، بل كتبه منهجاً في الإدارة العملية من خلال حكم ملكين عادلين، ومن ثم جاء كتابه بهذا الاتساق الرائع والبناء المحكم، وبلغةٍ يفهمها الخاص والعام ــ على حد تعبيره ــ وفي أكبر جوامع دمشق ــ الجامع الأموي ــ راح يقرؤه الناس.

وكما انطلق أبو شامة في تأليف كتابه من موقف فكري واضح ننطلق نحن من الموقف ذاته في إخراج الكتاب إخراجاً علمياً دقيقاً.

---

(١) بين وفاة صلاح الدين وولادة أبي شامة عشر سنوات.

ففي صراعنا مع الصهيونية الآن تكتسب الكتب التي تحدثنا عن الحروب الصليبية أهمية خاصة، للتشابه الواضح بين الصليبيين والصهيونيين. . .

إننا نقدم للباحثين نصوصاً عن تلك الفترة يمكن أن يطمئنوا إلى صحتها، من أجل أن تقوم دراستهم على أسس سليمة علمياً، فالذين لا يؤمنون بمقولة: «التاريخ يعيد نفسه» يستبعدون الاستفادة من تاريخنا في صراعنا الآن مع الصهيونية. وبرأيي أن التاريخ لا يعيد نفسه تماماً، فلكل عصر ظروفه وأحواله، ولكن ثمة ثوابت ومتغيرات في كل عصر، ثوابت نلتقي فيها مع العصور الأخرى، ومتغيرات نتأى بها عن العصور الأخرى أيضاً، فإذا استطعنا إدراك الثوابت التي مكنت أجدادنا من الانتصار على الصليبيين نكون قد وضعنا قدمنا على أول طريق التحرير. . .

إن الصهيونيين أنفسهم يدركون هذا التشابه بين احتلالهم لأرضنا واحتلال الصليبيين لها من قبل، ويقومون بدراسة موقف أجدادنا ويحللونه من جذوره كي يتفادوا نهاية كنهاية حطين وما بعد حطين، وثمة فِرَقُ عمل كاملة في الجامعة العبرية تتخصص في هذا الموضوع(١). . .

فلم لا نستفيد نحن من تاريخنا في إدراك هذه الثوابت كي نصنع حطين أخرى؟. .

طبعتا الكتاب

هذا الكتاب الهام والمشهور تم طبعه منذ مئة وإحدى وعشرين سنة هجرية في مطبعة وادي النيل بمصر (١٨٧١ م ــ ١٢٨٨ هـ) عن نسخة خطية فرغ من نسخها سنة (٧٣٤ هـ)(٢).

هذه الطبعة ــ على ما فيها من أوهام وتحريفات وتصحيفات ــ ظلت عمدة الباحثين في تاريخ تلك الفترة حتى نشر الدكتور محمد حلمي محمد أحمد من مصر سنة (١٩٥٦ م) القسم الأول من الجزء الأول، ثم نشر سنة (١٩٦٢ م) القسم الثاني من الجزء الأول. وتوقف منذ ذلك التاريخ إصدار تتمة الكتاب، وتراوحت استفادة الباحثين بين الطبعة القديمة ونشرة الدكتور محمد حلمي الناقصة. بل ظن بعض الباحثين أن نشرة الدكتور محمد حلمي هي الكتاب تاماً.

هكذا بقي الكتاب موزعاً بين جزئه الأول المحقق، وجزئه الثاني الذي هو بحاجة إلى تحقيق.

---

(١) انظر «من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس» للدكتور شاكر مصطفى مجلة «تاريخ العرب والعالم» العددان: ١٠٥ ــ ١٠٦ (١٩٨٧).

(٢) هي نسخة القاهرة لم نتمكن ــ رغم محاولتنا ــ من الوقوف عليها.

وهذا الجزء الأول المحقق والذي نشره الدكتور محمد حلمي أسوأ من طبعة وادي النيل، فعدا التصحيفات والتحريفات التي وقع بها في قراءته للنص، وقع بخطأ أفدح ـ كانت طبعة وادي النيل بنجوة منه ـ وهو شرحه لبعض المفردات وتعريفه ببعض الأماكن مجانباً الصواب فيما يشرح.

ولم أتتبع هذا الضرب من أخطائه في تحقيقي للجزء الأول، وحسبي أن أشير إلى نموذجين منه هنا[1]:

يقول محمد بن نصر القيسراني في قصيدة له:

وعسكرك الذي استولى مسيحاً ... على ما بين فامية وسيح

يقول المحقق في الحاشية: «سيح اسم ماء، وسيح الغمر، وسيح النعامة وسيح البردان مواضع باليمامة. معجم البلدان: ٥/ ١٩٢. أي أن ملكه امتد واتسع وشمل ما بين هاتين المنطقتين»[2].

هكذا ببساطة مذهلة يقرر أمراً تاريخياً، مبنياً على خطأ في قراءته، وهو أن ملك نور الدين امتد من أفامية حتى اليمامة في الجزيرة العربية ـ وهي مسافة شاسعة، ومتى؟ قبل سنة (٥٤٨ هـ) لأن القيسراني الشاعر توفي في هذه السنة.

والبيت على الصحيح هو:

وعسكرك الذي استولى مشيحاً ... على ما بين فامية وشيح

مشيحاً: يعني مُجِدًّا. وشيح: قرية كانت تعد قديماً في أعمال أنطاكية[3].

أي أن جيش نور الدين استولى مُجِدًّا على ما بين فامية وشيح؛ هذه القرية القريبة من أنطاكية.

أو كقوله تعليقاً على خبر نور الدين: «وأقام بحلب أياماً بحيث جدد ما ذهب له من اليزك...»:

اليزك: لفظ فارسي معناه طلائع الجيش. السلوك ١/ ١٠٥ حاشية ٣، Dozy[4].

وما أدري كيف يجدد نور الدين طلائع الجيش ولم يفقد منه إلا النفر اليسير؟

---

(١) وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٣٩ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) انظر كتاب الروضتين ق ١/ج ١/ ١٥٥ من نشرة الدكتور محمد حلمي.

(٣) انظر «الأعلاق الخطيرة»: ج ١/ق ١/ ١٢٦، وص ٢١١ من هذا الجزء.

(٤) انظر كتاب الروضتين: ق ١/ج ١/ ١٤٣ من نشرة الدكتور محمد حلمي.

والصواب هو «البرك» بفتح الراء وسكونها، وهو المتاع والثقل والسلاح[١].

هذا النوع من الأوهام يشعر القارىء بحق أن المحقق غريب عن النص، غريب عن روحه وأماكنه وحوادثه[٢].

تجزئة الكتاب

قسم أبو شامة كتاب الروضتين إلى جزأين:

يبدأ الجزء الأول من مقدمة الكتاب وينتهي في آخر حوادث سنة (٥٧٣ هـ).

ويبدأ الجزء الثاني من سنة (٥٧٤ هـ) حتى آخر حوادث سنة (٥٩٧ هـ) وبه يتم الكتاب.

وقد ارتأيت تسهيلاً لإخراج الكتاب أن أجزئه إلى أربعة أجزاء:

١ ــ الجزء الأول يبدأ من أول الكتاب وينتهي سنة (٥٦٠ هـ).

٢ ــ الجزء الثاني يبدأ من سنة (٥٦١ هـ) وينتهي سنة (٥٧٣ هـ).

٣ ــ الجزء الثالث يبدأ من سنة (٥٧٤ هـ) وينتهي سنة (٥٨٣ هـ).

٤ ــ الجزء الرابع يبدأ من سنة (٥٨٤ هـ) وينتهي سنة (٥٩٧ هـ) وبه يتم الكتاب[٣].

وصف المخطوطات

اعتمدت في تحقيق الجزء الأول ــ حسب تجزئة المؤلف ــ على ثلاث نسخ خطية[٤].

١ ــ نسخة كوبنهاجن، ورقمها

وهي أقدم نسخ الكتاب، نقلت عن نسخة بخط المؤلف، وقوبلت بالأصل الذي

---

(١) انظر أيضاً «تكملة المعاجم العربية» (الترجمة العربية): ١/ ٣٠٤، و «الخزانة الشرقية» لحبيب الزيات: ٤/ ١٦٩ ــ ١٧٠، وص ١٩٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر نقد الدكتور صلاح الدين المنجد للقسم الأول من الجزء الأول من الكتاب في مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الخامس، الجزء الأول: ١٥١ ــ ١٥٤.

(٣) ثم ألحق أبو شامة به مذيلاً سماه «المذيل على الروضتين» ذكر فيه ما فاته ذكره ابتداء من سنة (٥٩٠ هـ) ــ وهي السنة التي تلت وفاة صلاح الدين ــ حتى سنة (٦٦٥ هـ) ــ وهي سنة وفاته ــ وقد اتبع فيه نظام الحوليات كذلك، وسنصدره بإثر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى.

(٤) أرجأت الحديث عن وصف بقية المخطوطات التي اعتمدتها في تحقيق الجزء الثاني ــ حسب تجزئة المؤلف ــ إلى مكانه في مقدمة الجزء الثالث، إن شاء الله تعالى.

نقلت منه. إذ جاء في آخر الجزء الأول: «آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى...».

وقد كتب في هامشها: بلغ مقابلة بأصله.

«ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ست وسبعين وست مئة...».

أي: بعد وفاة المؤلف بأحد عشر عاماً.

ويبدو أن ناسخها قد قابلها أيضاً على نسخة أخرى منقولة عن أصل المؤلف بخطه ومقروءة عليه، وهي نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي[1]، كما ذكر الناسخ في الحاشية التي سترد ص ٤٣٠ تعليق رقم (٥).

وهذه النسخة تقع في (٢١٩) ورقة، لم يعرف ناسخها، وخطها مقروء، ولم تخل ــ على جودتها ــ من عيب، إذ بها خَرْمان، الأول يقع في ثلاث ورقات يبدأ من ص (٣٠/أ) وينتهي في ص (٣٢/ب) والثاني يقع في ورقتين، يبدأ من ص (٢١٢/أ)، وينتهي ص (٢١٤/أ)، وقد استعيض عنهما بأوراق مكتوبة بخط حديث[2].

وقد جعلتها أصلاً لي في التحقيق، فإياها أعني حين أقول: في الأصل. ما عدا الأوراق المخرومة، فنسخة (ل) كانت أصلاً في تحقيقها.

٢ ــ نسخة بودليان بأكسفورد، ورقمها

وهي نسخة جيدة، مكتوبة بخط نسخي مضبوط، تقع في (٢٥٠) ورقة، أرجح أنها مكتوبة في القرن الثامن الهجري، وفي هامشها استدراكات تدل على أنها مقابلة على نسخة أخرى، وعلى صفحة العنوان تملك يعود تاريخه إلى سنة (٨٠٨ هـ)، فيها خرم في آخرها يقع في ورقة واحدة، ذهب بآخر خبر الجزء الأول وباسم الناسخ وتاريخ النسخ[3]، وعلى الصفحة الأخيرة ترجمة لأبي شامة مكتوبة بخط متأخر.

وقد رمزت لها بالحرف (ل).

---

(١) وعلى نسخة يوسف هذه اعتمدنا في تحقيق الجزء الثاني ــ حسب تجزئة المؤلف ــ وسيأتي وصفها في مقدمة الجزء الثالث.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٢٦، وحاشيتنا رقم ١ ص ١٣٤ من هذا الجزء. وحاشيتنا رقم ٩ ص ٤٥١ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٤٨١ من الجزء الثاني.

٣ ــ نسخة ميونخ ورقمها ٤٠٤ :

وهي نسخة جيدة، مكتوبة بخط مقروء، تقع في (٣٨٣) ورقة، وأرجح أنها كتبت في القرن العاشر في هامشها استدراكات تدل على أنها مقابلة على نسخة أخرى، على صفحة العنوان مطالعة يعود تاريخها إلى سنة (١٠٨١ هـ) وفي الصفحة الأخيرة طُمِسَ تاريخ نسخها، تختلف هذه النسخة عن نسختي الأصل و (ل) بأنها تتم في أثناء حوادث سنة (٥٧٣ هـ)، وبينها وبين تتمة الجزء ورقتان تقريباً[١].

وقد رمزت لها بالحرف (م).

وهذه النسخة ــ على تأخرها ــ كثيراً ما هدتني إلى الصواب فيما ضنت به عليَّ نسختا الأصل و (ل).

منهج التحقيق

١ ــ اعتمدت نسخة كوبنهاجن أصلاً في التحقيق كما ذكرت، واتكأت فيما عرض لها من تصحيف أو تحريف على نسختي (ل) و (م)، وغالباً ما كنت أثبت في المتن ما اتفقت عليه نسختان إن استقام المعنى.

وأثبت في الهامش فروق قراءات النسخ، حتى تلك الفروق الطفيفة ــ على قلتها ــ خوفاً من أن يكون ما تركت أملك في المعنى مما أثبت.

٢ ــ وثقت الأخبار من مواردها التي ألمع إليها المؤلف، والتي أمكنني الوقوف عليها، ونبهت على بعض ما وقع فيها من تصحيف وتحريف لا يحسن السكوت عنه، أو خطأ في تعليق محقق حتى لا يظن أني أوافقه فيما ذهب إليه.

٣ ــ ما ورد في الكتاب من الأعلام عرفت بهم على النحو التالي:

(أ) إذا ذكر العلم مرات قليلة عرفت به على نحو يكشف صلته بما يحيط به من خبر، وحددت أهم التواريخ في حياته، وأهم صفاته، ثم أحلت على أهم المصادر التي ذكرت ترجمته.

(ب) إذا كان العلم كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوق اسمه إشارة إلى أن له ترجمة وافية في كشاف الأعلام[٢].

---

(١) انظر ص ٤٦٨ من الجزء الثاني.

(٢) هذه الكشافات ستكون كتاباً مستقلاً، أوطىء فيه لدراسة ذلك العصر من نواحيه كافة، أرجو أن ييسِّره الله لي.

(ج) لم أعرف بالأعلام الذين يدور عليهم موضوع الكتاب.

(د) ما عرف به المؤلف من الأعلام اكتفيت بما ذكره عنهم، مع الإحالة على أهم المصادر التي ترجمت لهم.

٤ ــ ما ورد في الكتاب من الأماكن عرفت بها على النحو التالي:

(أ) إذا ذكر المكان مرات قليلة عرفت به على نحو يبين موقعه القديم، ثم موقعه الحالي، مع عزو ذلك إلى المصادر التي استقيت منها المعلومات.

(ب) إذا كان اسم المكان كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوق اسمه إشارة إلى أن له تعريفاً وافياً في كشاف الأماكن.

(ج) لم أعرف بالأماكن المشهورة.

٥ ــ ما ورد في الكتاب من مصطلحات ــ وأعني بالمصطلح كل ما يخص ذلك العَصر من أسماء السلاح والوظائف وما يتبعهما من ألقاب ــ عرفت بها على النحو التالي:

(أ) إذا ذكر المصطلح مرات قليلة شرحت معناه بإيجاز مع الإحالة على المصادر التي استقيت منها الشرح.

(ب) إذا كان المصطلح كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوقه إشارة إلى أن له شرحاً وافياً في كشاف المصطلحات.

٦ ــ خرجت ما ورد في الكتاب من شعر من دواوين الشعراء التي استطعت الوقوف عليها، وقربت معانيه بشرح ما غُمَّ من مفرداته بالاعتماد على كتب اللغة، خاصة «لسان العرب» وثمة أبيات ــ لا سيما في شعر ابن منير ــ بقيت مشكلة لم أهتد إلى ضبطها، تركتها كما هي عسى أن تسفر لي يوماً عن وجهها، فأستدركها في آخر الكتاب، ووراء غموضها منهج أبي شامة في اختياره للشعر، فإنه ــ وهو المؤرخ ــ لم يكن يثبت منه إلا ما له دلالة تاريخية تعينه على تصوير حادثة ما، مما أَخَلَّ بترتيب الأبيات، وجعل بعضها مقطوع المعنى عما سبقه، إضافة إلى ما قد يعتري الناسخ من سبق نظر في أثناء أدى إلى تلفيق أبيات من صدور وأعجاز مختلفة.

وللقاضي الفاضل والعماد الكاتب كتب ورسائل أغربا في بعض كلماتها، لم ألتزم بشرحها خوفاً من إثقال الحواشي، واكتفيتُ بضبطها ليهتدي إلى معناها من يبحث عنها.

٧ ــ لم أتتبع ما وقع في مطبوعتي الروضتين من أوهام وتصحيف وتحريف ــ وهو كثير ــ إذ لم أجد فائدة في تشتيت ذهن القارىء بذكر ما تعثر الآخرون بقراءته.

٨ ــ صنعتُ فهرساً شاملاً للكتاب يضم فهرسة الأعلام والأماكن والمصطلحات والشعر والوقائع والحوادث.

٩ ــ أرجأت الدراسة عن حياة أبي شامة ومؤلفاته إلى حين الانتهاء من تحقيق الكتاب،

وسأدرجها في مقدمة «المذيل على الروضتين»، إن شاء الله تعالى.

١٠ ـ أبقيت لغة الوثائق والرسائل والحوارات على حالها دون تغيير ـ كما تركها أبو شامة من قبل ـ وإن كان فيها تساهل لغوي أو نحوي، لأنها تمثل أسلوب ذلك العصر من بعض جوانبه.

١١ ـ أثبت في الهامش أرقام صفحات طبعة وادي النيل لاشتهارها، ولتسهيل الرجوع إلى طبعتنا لمن كانت عنده تلك الطبعة.

وقد تكرَّم علي أستاذي العلامة أحمد راتب النفاخ، ملاذنا في حل المعضلات، فقرأ معظم ما ورد في هذا الجزء من الشعر، فبصَّرني بما أشكل علي، وأقام مناده، فله مني أعمق الشكر وأجزله، والله يتولى عني حُسْن جزائه[١].

وبعد..

أرجو أن أكون قد وفقت في إخراج الكتاب محققاً تحقيقاً علمياً، يرضى عنه الباحثون، وحسبي أني بذلت غاية جهدي، وإن كان جهدي دون أملي.

والله أسأل أن يوفقني لما يحب ويرضى، ويجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم. هو وليِّي في الدنيا والآخرة ﴿فَنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصير﴾.

إبراهيم الزيبق

دمشق في

٢٨ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ.

٤ شباط ١٩٨٩ م.

---

(١) وقد اختاره الله تعالى إلى جواره وهو يتلو الزهراوين صباح يوم الجمعة ١١ شعبان ١٤١٢ هـ، الموافق لـ ١٤ شباط ١٩٩٢ م، ونحن أحوج ما نكون إليه، فقد كان جبل علم راسخ، ما رآه أحد إلا ذكر أبا عمرو بن العلاء، وابن جني، وأبا علي الفارسي.. دقة وفهماً وعمقاً وأصالة، وبمثله قيل: قد نزل الناس بموته درجة، فرحمك الله أبا عبد الله.. وأكرم مثواك.

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله رب العالمين

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الاعمال وبكرمه وجوده تدرك الامال وعلى وفق مشيئته تصدر
الافعال وبارادته تتغير الاحوال واليه المصير والمرجع والمآل سبحانه هو الباقي
بلا زوال المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ذو
العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال نحمده على ما اسبغ من الانعام
والافضال وميزنا به من الاحسان والنوال حمدا لا توازنه الجبال ملء السموات
والارض على كل حال ونصلي على رسوله ونبيه وخيرته من خلقه وصفيه وخليله
ووليه وحبيبه المفضال سيدنا النبي التهامي محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ
والعلم الراسخ والفضل السابغ والكمال والجمال صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين
والانبيا والمرسلين وعترتهم الطيبين ما افل كوكب وطلع هلال وعلى آل محمد وصحبه
خير صحب واكرم آل وعلى تابعيهم باحسان وجميع الاوليا والابدال وعفا عن المقصرين
من امته اولي الكسل والملال وحشرنا في زمرته متمسكين بسنته مقتدين بسنته
مغتبطين بما ضرب من الامثال متحرين تحت لوائه في جملة اوليائه يوم لا بيع فيه ولا خلال
اما بعد فانه ممن قضى عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية واقتناص
الفرائد الادبية عن لي ان اصرف الى علم التاريخ بعضه فانه يجوز للسند العلم
فرضه احدا انسيه من مضى من علماء عصره فقل امام من الائمة الا ويحكى عنه اخبار من
سلفه وايد جمه منهم امامنا ابو عبد الله الشافعي رضي الله عنه قال مصعب الزبيري
ما رأيت احدا اعلم بايام الناس من الشافعي ويروى عنه انه اقام على تعلم ايام الناس والادب
عشرين سنة وقال ما اردت بذلك الا الاستعانة على الفقه قلت ولا اعظم
الفايدة طيبا العايدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من اخبار
الامم السالفة وانبا القرون الخالية مما فيه عبرة لاولي الابصار ويستفاد ادلتهم
بتلي السوال قال الله تعالى ومن اصدق من الله قيلا وكلا نقص عليك من انبا
الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وقال
سبحانه ولقد جاءهم من الانبا ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر وحدث
النبي صلى الله عليه وسلم بحديث ام زرع وغيره مما جرى في الجاهلية والايام [illegible]

الصفحة الأولى من نسخة كوبنهاجن

الحادثة المشنعة المصمة فقال ابن دريد : إلى الموت إلا آل صمة

والأناة المولى لحفظها دهي الحاسد وقيه شمتت به الشيطان بما [illegible] له الشيطان

لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله سبحانه ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى

الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله

إن المساءة قد تسر وربما كان السرور بما كرهت جديرا

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سلمة الخلال أول وزير لبني العباس قتل وبلغني أن الفاضل

كان ينشدهما ، وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريه مصرع الوزراء

قال العماد وكان نصير الدين ابن الشهرزوري قد سار في الرسالة إلى بغداد وتوقف

وبلغه بالموصل حادثة الوزير وابن [illegible] إلى الموصل ونعاه إلى عمه القاضي عماد الدين

أحمد القاضي شمس الدين ابن الشهرزوري وكان شابا وكان الفاضل ينكر ذلك [illegible]

[illegible] ونسعون صاحبها رائع اعتبط الولد

[illegible] الشباب المقتبل [illegible] المشيب المشتمل

ليعلم أن المشيب ليس [illegible] وأن الشباب [illegible] ليس بمانع ولم يكن أحمد [illegible]

من [illegible] الآجال في هذه العاجلة والله يطيل [illegible] أطال الله في العمر

آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثاني ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين

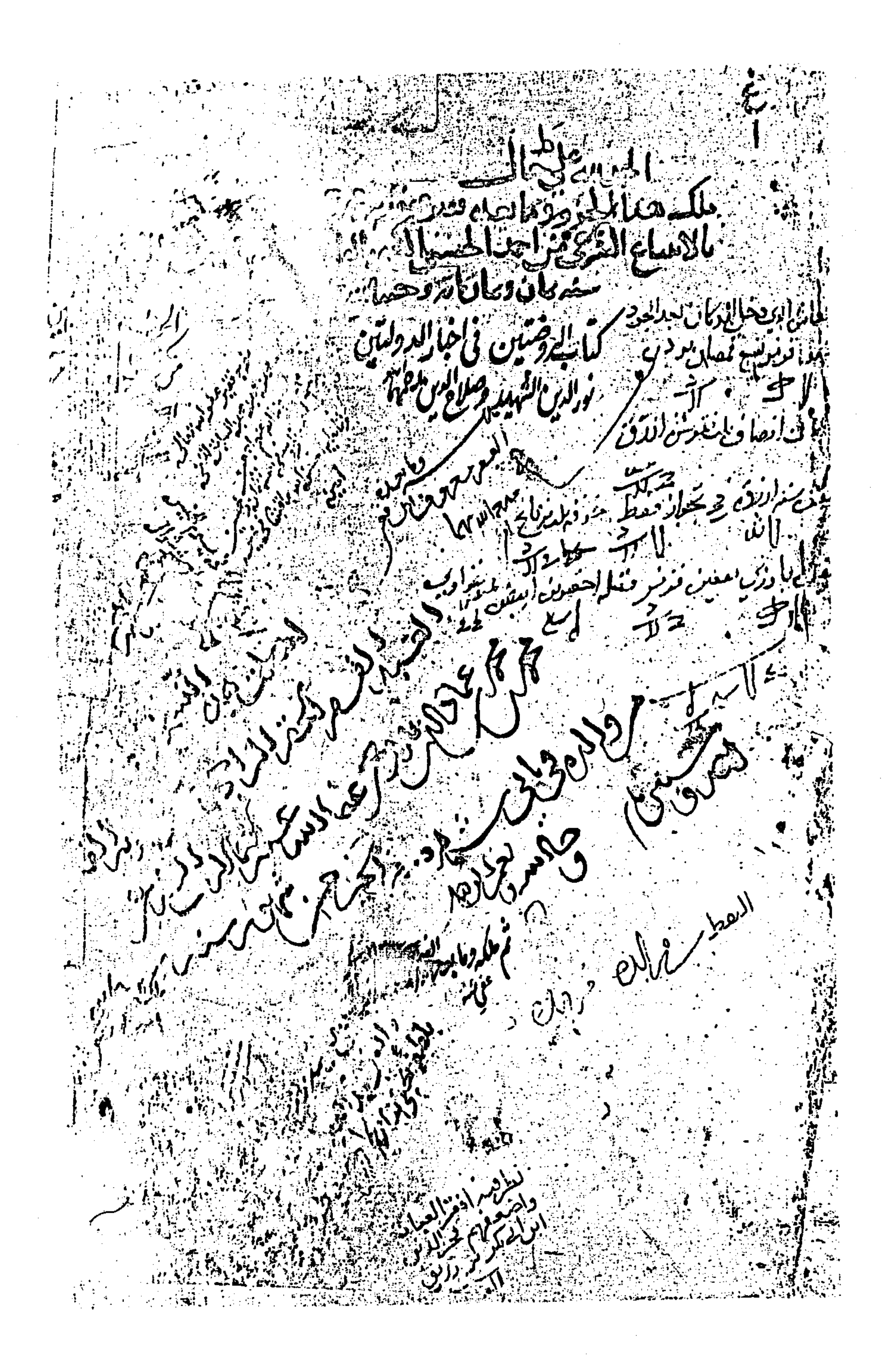
وخمسمائة ، قال العماد وكان شمس الدين ابن

المقدم من أكابر الأمراء

ووافق الفراغ منه في سابع شهر [illegible] سنة [illegible] غفر الله تعالى

لمؤلفه وكاتبه وصاحبه والمستمع وللمطلع عليه ولجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الصفحة الأخيرة من نسخة كوبنهاجن



صفحة الغلاف من نسخة بودليان

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال وبكرمه وجوده تدرك الآمال وعلى وفق مشيئته تتصرف الأعمال وبإرادته تتغير الأحوال وإليه المصير والمرجع والمآل سبحانه وهو الباقي بلا زوال المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ذو العرش والمعارج والطول والإكرام والجلال نحمده على ما أسبغ من الإنعام والإفضال ومنّ به من الإحسان والنوال حمداً لا توازنه الجبال ملء السموات والأرض وعلى كل حال ونصلي على نبيه ورسوله وخيرته من خلقه وصفيه وخليله ووليه وحبيبه المفضال سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ والعلم الراسخ والفضل الشامخ والجمال والكمال صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وعلى عباد الله الصالحين ما أفل كوكب وطلع هلال وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل وعلى تابعيهم بإحسان وجميع الأولياء والأبدال وعفا عن المقصرين من أمته أولي الإساءة [illegible] وحشرنا في زمرته متمسكين بشرعته مقتدين بسنته متعظين بما ضرب من الأمثال برحمته تحت لوائه في جملة أوليائه يوم لا بيع فيه ولا خلال أما بعد فإني [illegible] أن صرفت على عمري ومعظم دهري في اقتباس الفوائد الشرعية واقتناص الفرائد الأدبية عن لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى وفاضل إمام من [illegible] الأوحد عنه من أخبار من سلف من [illegible] منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه قال [illegible] الزبيري ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة وقال ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه قلت وذلك عظيم الفائدة جليل العائدة وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة والقرون الخالفة ما فيه عبر لذوي البصائر واستعداد [illegible] على السرائر قال الله تعالى

الصفحة الأولى من نسخة بودليان

الصفحة الأخيرة من نسخة بودليان



صفحة الغلاف من نسخة ميونخ

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الاعمال وبكرمه وجوده تدرك
الامال وعلى وفق مشيته تتصرف الافعال وبارادته تتحول
الاحوال واليه المصير والمرجع والمآل سبحانه هو الباقي بلا
زوال المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة
الكبير المتعال ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال
نحمده على ما اسبغ من الانعام والافضال ومن به من الاحسان
والنوال حمدا لا توازنه الجبال ملؤ السموات والارض وعلى
كل حال ونصلي على رسوله ونبيه وخيرته من خلقه وصفيه
وخليله ووليه وحبيبه المفضال سيدنا ابي القاسم
محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ والفضل الشامخ والعلم
الراسخ والجمال والكمال صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين
والانبيا والمرسلين وعن ائمة الطيبين ما افل كوكب وطلع
هلال وعلى آل محمد وصحبه خير صحب واكرم آل وعلى تابعيهم
باحسان وجميع الائمة والابدال وعفا عن المقصرين من
امته اولي الكسل والملال وحشرنا في زمرته متمسكين
بشرعته مقتدين بسنته متنصلين مما عرف من الامثال مندرجين
تحت لوايه من جملة اوليايه يوم لا بيع فيه ولا خلال

اما بعد فانه بعد ان صرفت جل عمري ومعظم
فكري في اقتباس الفوايد الشرعية واقتناص الفوايد
الادبية عن لي ان اصرف الى علم التاريخ بعضه فاحوز بذلك

الصفحة الأولى من نسخة ميونخ



الصفحة الأخيرة من نسخة ميونخ

/ بسم الله الرحمن الرحيم

١/٢

وما توفيقي إلاَّ بالله رب العالمين

الحمدُ لله الذي بلطفه تصلُح الأعمال، وبكرمِهِ وجُوده تُدْرَكُ الآمال، وعلى وَفْقِ مشيئته تتصرف الأفعال، وبإرادته تتغيَّر الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا زوال، المنزَّه عن الحلول والانتقال، عالم الغيبِ والشَّهادة الكبيرُ المتعال، ذو العرش والمعارج والطَّوْل[1] والإكرام والجلال؛ نحمَدُه على ما أسبغَ مِنَ الإنعام والإفضال، ومَنَّ به من الإحسان والنَّوال، حمداً لا تُوازنه الجبالُ، مِلْءَ السَّموات والأرض وعلى كلِّ حال، ونصلِّي على رسوله ونبيّه وخيرته مِن خَلْقه وصفيِّه وخليله ووليِّهِ وحبيبه المِفْضَال؛ سيدِنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشَّرف الباذخ، والعِلْم الراسخ، والفضل الشامخ، والجمال والكمال؛ صلَّى الله عليه وعلى الملائكة المقرَّبين، والأنبياء والمرسلين، وعِتْرتهم الطَّيِّبين، ما أَفَلَ كوكبٌ وطلَعَ هلال، وعلى آل محمدٍ وصحبه خيرِ صحبٍ وأكرمِ آل، وعلى تابعيهم بإحسان وجميع الأولياءِ والأبدال، وعفا عن المقصِّرين من أمّته أُولي الكسل والمَلَال، وحَشَرَنا في زمرته، متمسِّكين بشِرْعته، مقتدين بسُنَّته، مُتَّعِظين[2] بما ضَرَبَ مِنَ الأمثال، مزدحمين تحتَ لوائه، في جُمْلة أوليائه، يومَ لا بيعٌ فيه ولا خِلال.

---

(١) الطول: القدرة. «اللسان» (طول).

(٢) في الأصل: مغتبطين، والمثبت من (ل) و (م).

أما بعد، فإنه بعد أَنْ صرفت جُلَّ عُمري ومُعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عَنَّ لي أن أصرفَ إلى علم التاريخ بعضَه، فأحوز بذلك سُنَّةَ العلم وفرضَه؛ اقتداء بسيرة مَنْ مضى، مِنْ كلِّ عالمٍ مُرْتَضَى. فَقَلَّ إمامٌ مِنَ الأئمة إلا ويُحكى عنه من أخبار مَنْ سَلَف فوائدُ جمَّة؛ منهم إمامُنا أبو عبد الله الشَّافعي، رضي الله عنه. قال مُصْعَب الزُّبيري: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بأيام النَّاس مِنَ الشافعي. ويُروى عنه أنه أقام على تعلُّم أيام الناس والأدب عشرين سنةً، وقال: ما أردتُ بذلك إلا الاستعانة على الفِقْه.

قلتُ: وذلك عظيمُ الفائدة، جليل العائدة. وفي كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ مِنْ أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبرٌ لذوي البصائر، واستعدادٌ ليوم تُبْلَى السَّرائر. قال الله عزَّ وجلَّ وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي[2] النُّذُرُ﴾[3].

وحدَّث النبيُّ ﷺ بحديثِ أُمِّ زَرْع[4]، وغيرِهِ مما جرى في الجاهلية، والأيام الإسرائيلية. وحكى عجائبَ ما رآه ليلة أُسري به وعرج، وقال: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج»[5]. وفي «صحيح مسلم» عن سِمَاك بنِ

١/٣

(١) سورة هود: ١٢٠.

(٢) كذا في النسخ الخطية، والرسم العثماني بحذف الياء.

(٣) سورة القمر: الآيتان ٤، ٥.

(٤) حديث أم زرع هو ما قالته إحدى عشرة امرأة في أزواجهن، انظر الحديث في «صحيح البخاري» كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل. وقد أفرد القاضي عياض شرحاً له سماه «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» طبع في المغرب سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م بتحقيق صلاح الدين الإدلبي ورفاقه.

(٥) الحديث في «صحيح البخاري» باب ما ذكر عن بني إسرائيل، و«سنن الترمذي» أبواب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، و«المسند» لابن حنبل: ٤٦/٣.

حَرْب قال: قلتُ لجابر بن سَمُرَة: أكنتَ تجالسُ رسولَ الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً؛ كان لا يقوم من مُصَلَّاه الذي صلَّى فيه الصُّبْح أو الغَدَاة حتى تطلُعَ الشمس، فإذا طلَعَتْ قام، وكانوا يتحدَّثونَ فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ[1]، ﷺ.

وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عمرو[2]، رضي الله عنهما، قال: كان نبيُّ الله ﷺ يحدِّثنا عن بني إسرائيل حتى يُصبح، ما يقوم إلا إلى عُظْمِ صلاةٍ[3].

قلتُ: ولم يزل الصَّحابة والتابعون فَمَنْ بعدهم يتفاوضون في حديث مَنْ مضى، ويتذاكرون ما سبقَهُمْ من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، ويتطلَّبون الآثارَ والأخبار؛ وذلك بَيِّنٌ من أفعالهم لمن اطَّلع على أحوالهم، وهم السَّادة القُدْوة، فلنا بهم أُسوة. فاعْتَنَيْتُ بذلك وتصفَّحْته، وبحثْتُ عنه مدَّةً وتَطَلَّبْتُه[4]، فوقفتُ ـ والحمد لله ـ على جُمْلة كبيرة من أحوال المتقدِّمين والمتأخرين؛ من الأنبياء والمرسلين، والصَّحابة والتابعين، والخلفاء والسَّلاطين، والفقهاء والمحدِّثين، والأولياء والصَّالحين، والشُّعراء والنَّحْويين، وأصناف الخَلْق الباقين. ورأيتُ أن المطَّلع على أخبار المتقدِّمين كأنه قد عاصرَهُمْ أجمعين، وأنه عندما يفكِّر في أحوالهم أو يَذْكُرُهم كأنه مُشَاهِدُهم ومحاضِرُهُم؛ فهو قائمٌ له مقام طولِ الحياة، وإن كان متعجِّل الوفاة. قال

---

(١) «صحيح مسلم»: ١/٤٦٣، رقم الحديث (٦٧٠) وفيه «يصلي» بدل «صلى».

(٢) في الأصل و (ل) عمر، وهو تصحيف، وهو في (م) على الصواب.

(٣) كتاب العلم، باب الحديث عن بني إسرائيل رقم الحديث (٣٦٦٣). وعظم الشيء: أكبره؛ كأنه أراد لا يقوم إلا إلى الفريضة. «النهاية»: ٣/٢٦٠.

(٤) وقع في الأصل: وبحثت عنه مدة كشفه وتَطْلِبَتِه. والمثبت من (ل) و (م).

نُعيم بن حَمَّاد: كان عبدُ الله بنُ المبارك[1] يكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه! وفي روايةٍ قال: قيل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، تكثر القعودَ في البيت وحدَك! فقال: أنا وَحْدي؟! أنا مع النبي ﷺ وأصحابه ـ يعني النظرَ في الحديث. وفي رواية أخرى: وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان!

قلتُ: وقد أُنشدتُ لبعضِ الفُضَلاء:

كتابٌ أطالعُهُ مُؤْنِسٌ أحبُّ إليَّ مِنَ الآنِسَهْ
وأَدْرُسُه فيريني القرونَ حُضُوراً وأَعْظُمُهُمْ دارِسَهْ

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخرَ الأُمم، وأطلعنا على أنباء مَنْ تَقَدَّم، لنتَّعظَ بما جرى على القرون الخالية ﴿وتَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[2] ولنقتديَ بمن تقدَّمنا من الأنبياء، والأئمة الصُّلحاء، ونرجو بتوفيق الله عَزَّ وجل أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نُقِلَ إلينا عنهم، وذلك على رَغْمِ أنف من عَدِمَ الأدب، ولم يكن له في هذا العلم أَرَب، بل أقام على غَيِّهِ وأكبَّ، والمرء مع من أحبّ.

هذا، وإن الجاهلَ بعلم التاريخ راكبٌ عمياءَ، خابطٌ خَبْطَ عَشْواء؛ ينسُبُ إلى مَنْ تقدَّم أخبارَ من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبَّر، وإن رُدَّ عليه وَهْمُه لا يتأثر، وإن ذُكِّر فلجهله لا يتذكَّر؛ لا يفرِّق بين صحابي وتابعي، وحنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفةٍ وأمير، وسُلْطان ووزير؛ ولا يعرف من سيرة نبيه ﷺ أكثر من أنه نبيٌّ مُرْسَل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصَّدر

---

(١) كان من كبار الحفاظ، مجاهداً عاقلاً، وهو أول من صنف كتاباً في الجهاد، توفي سنة (١٨١هـ) منصرفاً من غزو الروم. انظر ترجمته في «الحلية»: ٨/١٦٢ ـ ١٩٠، و«الرسالة المستطرفة»: ٤٨.

(٢) سورة الحاقة: الآيتان ١٢، ٨.

الأوَّل! الذين بذكرهم ترتاح النفوس، ويذهب البُوس. ولقد رأيتُ مجلساً جَمَعَ ثلاثةَ عشرَ مدرِّساً، وفيهم قاضي القضاة لذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم ــ وأنا أسمع ــ ذِكْرُ مَنْ تحرُمُ عليه الصَّدقة؛ وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال جميعُهُمْ: بنو هاشم وبنو عبد المطَّلب. وَعَدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب. فتعجَّبْتُ من جهلهم؛ حيث لم يفرقوا بين عبد المطَّلب والمطَّلب، ولم يهتدوا إلى أن المطَّلب هو عمُّ عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلومِ كلِّ لائم، إذ هذا أصلٌ من أصول الشريعة قد أهملوه، وبابٌ من أبواب العلم جهلوه، وَلَزِمَ مِنْ قولهم إخراج بني المطَّلب من هذه الفضيلة. فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة، وأَنِفْتُ لنفسي من ذلك المقام، فأخذتها بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبتها، وإيضاح محجَّتها؛ فإنَّ كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها، وإنْ نَسَبَها خَلَّط فيها وصَرَفَها عن أصحابها. وهو بابٌ واسِعٌ غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زَلَّتْ فيه قَدَمُ كثيرٍ من نَقَلَةِ الأخبار ورواة الآثار.

ثم أردتُ أَنْ أجمعَ من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حَصَّلْتُه، وأتقنُ فيه ما خَبِرْتُهُ، فَعَمَدْتُ إلى أكبر كتابٍ وُضِعَ في هذا الفن على طريقة المحدِّثين، وهو «تاريخ مدينة دمشق حماها الله عَزَّ وجل»؛ الذي صَنَّفَه الحافظ الثقة أبو القاسم عليُّ بنُ الحسن العَسَاكري[1] رحمه الله، وهو ثماني

---

(١) لم أر فيمن ترجم لابن عساكر من نسبه هذه النسبة، وقد اشتهر بابن عساكر مع أنه لم يعرف أحد من أجداده بهذا الاسم. قال أبو شامة: وإنما هي تسمية لعلها جاءتهم من قبل أمهات بعضهم. انظر «المذيل على الروضتين» ترجمة فخر الدين ابن عساكر، في وفيات سنة ٦٢٠ هـ و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٢١٥، وقد تبنى مجمع اللغة العربية بدمشق طبع هذا السفر العظيم، وأخرج منه حتى الآن عدة مجلدات، وطبعت دار الفكر بدمشق مختصره لابن منظور.

مئة جُزْء في ثمانين مجلداً، فاختصرته، وهذبته، وزدته فوائدَ من كتبٍ أخرى جليلة، وأتقنته، ووقَفَ عليه العلماءُ، وسمعه الشيوخ والفضلاء، ومرَّ بـي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمةُ الملك العادل نور الدين؛ فأطربني ما رأيتُ من آثاره، وسمعت من أخباره، مـع تأخُّر زمانه، وتغيّر خِلاَّنه. ثم وقفتُ بعد ذلك في غيـر هذا الكتـاب على سيـرة سَيِّـد الملوك بعـده، الملكِ النـاصـر صلاح الدين، فوجدتُهما في المتأخّرين، كالعُمَرَيْن ــ رضي الله عنهما ــ في المتقدِّمين؛ فإنَّ كل ثانٍ من الفريقين حذا حَذْوَ من تَقدَّمه في العَدْل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد. وهما ملِكا بلدتنا، وسُلْطانا خُطَّتنا، خَصَّنا الله تعالى بهمـا، فوجَبَ علينا القيامُ بذكر فَضْلِهما. فعزمتُ على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك، مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أُبعد أنهما حُجَّةٌ من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنَّ الذكرى تنفـع المؤمنين. فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقةَ الخلفاء الراشدين، ومن حذا حَذْوَهُمْ من الأئمة السَّابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير. فكان فيما قَدَّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجَّة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يَعْجِزَ عن التشبُّه بهما أحد، إنْ وفَّقَ الله تعالى الكريمُ وسدَّد. وأخذتُ ذلك من قول أبـي صالـح شُعيب بن حَرْب المَدَائني رحمـه الله ــ وكان أحدَ السادة الأكابر في الحِفْظ والدين ــ قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثَّوْري يومَ القيامة حُجَّةً من الله تعالى على هذا الخَلْق؛ يُقال لهم: إن لم تدركوا نبيكم فقد أدركتم سفيان، ألا اقتديتم به؟! وهكذا أقول: هذانِ حُجَّةٌ على المتأخرين من الملوك والسلاطين. فَلِلَّهِ دَرُّهُما مِنْ مَلِكَيْنِ تعاقبا على حُسْنِ السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعيّ، شفى الله بهما كلَّ عِيّ، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا[1] حتى في

١/٤

(١) في الأصل: متقاربان، والمثبت من (ل) و(م).

العُمر ومدَّة الولاية، وهذه نكتة قَلَّ من فَطِن لها ونبَّه عليها، ولطيفةٌ هداني الله بتوفيقه إليها؛ وذلك أن نور الدين رحمه الله، ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة[1]، وتوفي سنة تسع وستين[2]، ووُلد صلاح[الدين][3] رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة[4]، وتوفي سنة تسع وثمانين[5]. فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنةٍ واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق [أن][6] بين وفاتيهما عشرين سنة، وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة. وملك نور الدين دمشق سنة تسعٍ وأربعين، وملَكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة[7] سنة، تُمحى فيها السيئة وتُكْتَب الحسنة؛ وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدّة الولاية ببلدةٍ معينة لملكين متعاقبين، مع قُرب الشبه بينهما في سيرتيهما، والفضل للمتقدِّم؛ فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محلِّه، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهَّدَ الأمور بعَدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق. وفَتَح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على مَن بعده على الحقيقة، سلوكُ تلك الطريقة، لكن صلاح [الدين][8] أكثرُ جِهاداً، وأعم بلاداً، صبرَ وصابر، ورابط وثابر،

---

(١) في هامش الأصل: سنة ٥١١.

(٢) تحتها في الأصل: ٦٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في هامش الأصل: سنة ٥٣٢.

(٥) تحتها في الأصل: ٨٩.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٧) في الأصل: تسعة عشر، وفي (ل) تسعة عشرة، وكلاهما وهم، والمثبت من (م).

(٨) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وذَخَـر [اللّـه][1] له من الفتوح أنفَسه، وهو فتـح الأرض المقدسة. فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشّاعر:

كـــم تَــرَكَ الأوَّلُ لـــلآخــر[2]

وألبسَ الله هـاتيكَ العِـظامَ، وإن بَلِين تحتَ الثـرى عفواً وغُفـرانـا
سقَى ثـرًى أُودِعُوه رحمـةً مـلأتْ مثـوى قبورِهمُ رَوْحـاً وَرَيْحانـا[3]

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعةٌ من العلماء، والأكابر الفضلاء. فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدِّمَشْقي في «تاريخـه»[4] ترجمةً حسنة لنور الـدين محمود بن زَنْكي رحمـه الله، ولأجله تمَّم ذلك الكتاب، وذكر اسمه في خطبته.

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بـن أسد التميمي في «مذيـل التاريخ الدّمشقي»[5] قطعةً صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م). وعلى هامش الأصل: أي حفظ.

(٢) هذا عجز بيت، صدره: «يقول من تقرع أسماعه»، وهو لأبي تمام في «ديوانه»: ١٦١/٢.

(٣) فـي هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذان البيتان من قصيدة لأسامة بن منقذ، يأتي بعضها في أخبار سنة اثنتين وخمسين، قالها في مرثية رهطه لما هلكوا بشيزر عام الزلازل المتتابعة، والله أعلم».
قلت: هما في «ديوانه»: ٣٠٩ مـع اختلاف في ترتيب البيتين، وانظر ص ٣٣٦ من هذا الجزء.

(٤) يعني «تاريخ دمشق»، انظر حاشيتنا رقم ١، ص ٢٥، من هذا الجزء.

(٥) وقف فيه عند حوادث سنة (٥٥٥ هـ) لأنها سنة وفاته، نشره المستشرق أمدروز وطبع في بيروت سنة ١٩٠٨ م بمطبعة الآباء اليسوعيين، وأعاد نشره الدكتور سهيل زكار، وطبعـه فـي دمشـق سنـة ١٩٨٣ م. انظـر «وفيـات الأعيـان»: ١٤٤/٧، و «معجـم المطبوعات»: ٢١٩.

وخمس مئة[1].

وصنَّف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن [محمد بن][2] عبد الكريم الجَزَرِي ـ عُرف بابن الأثير ـ مجلَّدةً في الأيام الأتابكية كلها[3]، وما جرى فيها، وفيه شيء من أخبار الدولة الصَّلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرِّعة عنها[4].

وصنَّف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المَوْصلي ـ عُرِف بابن شَدَّاد ـ قاضي حلب مجلَّدة في الأيام الصَّلاحية، وساق ما تيسَّر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى[5].

وصنَّف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوعٌ متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة؛ أحدهما «الفتح القدسي»[6]، اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين

---

(١) في هامش الأصل: «حاشية، فيبقى من مدة سلطنته رحمه الله تعالى تسع وعشرون سنة، والله سبحانه أعلم».
قلت: ما أدري كيف تستقيم هذه الحاشية، ومدة سلطنة نور الدين ثمانية وعشرون سنة، فيبقى من مدة سلطنته حتى وفاته أربع عشرة سنة.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٣) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: مع نور الدين.

(٤) سماه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل» حققه عبد القادر أحمد طليمات، وطبع في القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.

(٥) سمى ابن شداد كتابه بـ «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» طبع الكتاب غير مرة، آخرها بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، وطبع في القاهرة ١٩٦٤م، وقد ترجم أبو شامة لابن شداد في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٢ هـ). وهو من شيوخه.

(٦) طبع في ليدن سنة ١٨٨٨م، ثم طبع في القاهرة غير مرة، ثم حققه وشرحه محمد محمود صبح: نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة، بلا تاريخ، وكان العماد =

وسيرته، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمس مئة. والثاني «البرق الشّامي»(1)، ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق، وهي سنة اثنتين وستين وخمس مئة إلى سنة

١/٥ وفاة صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعةٍ كبيرة من أخبار أواخر الدَّولة النوريّة. إلا أن(2) العماد في كتابيه طويلُ النَّفَس في السَّجْع والوصف، يُمِلُّ الناظر فيه، ويُذْهِلُ طالبَ معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفتُ تلك الأسجاع إلا قليلًا منها، استحسَنْتُها في مواضعها، ولم تك خارجةً عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع، نحو ما ستراه في أخبار فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى، وانتزعت المقصود من الأخبار، من [بين](3) تلك الرسائل الطِّوال، والأسجاع المفضية إلى المَلال، وأردت أن يفهم الكلامَ الخاصُّ والعام. واخترت من

= قد سمى كتابه «الفتح القدسي» وعرضه على القاضي الفاضل، فقال له: سمه «الفتح القسي في الفتح القدسي، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته»، لكن الفيروزآبادي الذي اختصره سماه «الفيح القسي في الفتح القدسي». انظر «الفتح القسي»: ٥٧ ــ ٥٨، و«معجم المؤرخين الدمشقيين»: ٦٠.

(1) في سبعة مجلدات، وقد فقد الكتاب ما عدا المجلدين الثالث والخامس، فهما في مكتبة بودليان بأكسفورد برقم Marsh 425, Bruce 11، وطبع المجلد الثالث في عمان سنة ١٩٨٧ بتحقيق الدكتور مصطفى الحياري، وطبع المجلد الخامس بتحقيق رمضان ششن في استانبول ١٩٧٩ م، ثم أعاد تحقيقه الدكتور فالح صالح حسين، وطبع في عمان سنة ١٩٨٧، وقد اختصر الكتاب الفتح بن علي البنداري في مجلدين سماه «سنا البرق الشامي» طبع المجلد الأول منه، وهو يحوي حوادث سنوات (٥٦٣ هـ ــ ٥٨٣ هـ) حقق الدكتور رمضان ششن منه جزءاً حتى حوادث سنة (٥٧٦ هـ) وطبع في دار الكتاب الجديد ــ بيروت، سنة ١٩٧١، ثم نشرته كاملاً الدكتورة فتحية النبراوي، وطبع في القاهرة سنة ١٩٧٩، وهي نشرة سقيمة تعوزها الأناة والدقة. أما المجلد الثاني والذي يحوي حوادث سنة (٥٨٤ هـ ــ ٥٩٧ هـ) فلم يصلنا بعد.

(2) في الأصل: لأن، والمثبت من (ل) و(م).

(3) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

تلك الأشعار الكثيرة قليلاً ممَّا يتعلق بالقَصَص وشرح الحال، وما فيه نكتة غريبة، وفائدة لطيفة.

ووقفت على مجلَّدات من «الرسائل الفاضلية»[١]، وعلى جُملةٍ من الأشعار العمادية مما ذكره في «ديوانه» دون «بَرْقه»[٢]، وعلى كتبٍ أُخر[٣] من دواوين وغيرها، فالتقطتُ منها أشياء مما يتعلَّق بالدولتين أو بإحداهما، وبعضه سمعته من أفواه الرِّجال الثقات، ومن المدركين لتلك الأوقات. فاختصرت جميعَ ما في ذلك من أخبار الدولتين، وما حدَث في مُدَّتهما من وفاة خليفةٍ أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قَدْر خطير، وغير ذلك. فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلُح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر. وسميته «كتاب الرَّوضتين في أخبار الدولتين». ولله دَرُّ حبيب بن أوس حيث يقول:

ثُمَّ انقضَتْ تلك السِّنُونُ وأهلُها فكأنَّها وكأنَّهم أَحْلامُ[٤]

فصل

*أما الدولة النورية فَسُلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أَتابك وهو أبو سعيد[٥] زَنْكي بن قسيم الدَّوْلة آق سُنْقُر

---

(١) نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي، أخباره مبثوثة في أثناء الكتاب، وسترد ترجمته في ٤/ ٤٧٢، وانظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٥٨ ـ ١٦٣.

(٢) أي «البرق الشامي».

(٣) من هذه الكتب «السيرة الصلاحية» لابن أبي طي، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من الجزء الثاني، وص ١٥٦ من هذا الجزء.

(٤) البيت في «ديوانه» بشرح الخطيب التبريزي: ٣/ ١٥٢.

(٥) وكذلك كناه العظيمي فيما نقله عنه ابن العديم في «بغية الطلب» ٨/ ٣٨٤٦ وابن

التركي. ويلقب زَنْكي أيضاً بلقب والده قَسِيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم» وسنتكلَّم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه، وقدمتُ من إجمال أحواله ما يُستدلُّ به على أفعاله:

ذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخه» أنه وُلد سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وأن جدَّه آق سُنْقُر وَلِيَ حلب وغيرها من بلاد الشام، ونشأ أبوه زَنْكي بالعراق، ثم ولي ديار المَوْصِل والبلاد الشامية، وظهرت كفايتُه في مقابلة العدوِّ عند نزوله على شَيْزَر* حتى رجع خائباً، وفتح الرُّها*، والمَعَرَّة*، وكَفْر طاب*، وغيرَها من الحصُون الشاميّة، واستنقذَها من أيدي الكُفَّار. فلما انقضى أجلُه قام ابنُه نور الدين مقامَه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمس مئة. ثم قصد نور الدين حلب فملَكَها، وخرَج غازياً في أعمال تل باشر*، فافتتح حصوناً كثيرة من جُملتها قلعة عَزَاز*، ومَرْعَش*، وتل خالد*، وكَسَر إبرنس أَنْطَاكية، وقتلَه وثلاثة آلاف فرنجي معه، وأظهر بحلب السُّنَّة وغيَّر البِدْعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقَفَ الأوقاف، وأظهر العدل» وحاصَر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة، فضبط أمورَها وحصَّن سُورها، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح طُرقَها، ووسَّع أسواقها، ومنعَ مِن أَخْذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البِطِّيخ*، وسوق الغنم، والكيالة، وغيرِها. وعاقب على شُرب الخمر، واستنقَذ من العدو ثَغْر بانياس* والمُنَيْطِرَة* وغيرهما، وكان في الحرب ثابتَ القَدَم، حسن الرَّمي، صَلِيب[1] الضَّرْب، يَقْدُم أصحابَه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بُطُون السِّباع وحواصِل الطير، ووقَفَ رحمه الله تعالى وقُوفاً على المرضى ومُعَلِّمي الخط والقرآن وساكني الحرمين. وأقطعَ

عساكر في «تاريخ دمشق» (خ) س: ١٦/ ١٤٧ ب، وكنى ابن خلكان آق سنقر بأبي سعيد، وعماد الدين بأبي الجود، وفي «بغية الطلب» ٨/ ٣٨٤٥ كنى ابن العديم عماد الدين بأبي المظفر. انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٤١، ٢/ ٣٢٧.

(١) شديد. «القاموس المحيط» (صلب).

أمراء العرب لئلا يتعرَّضوا للحُجَّاج، وأمر بإكمال سُور المدينة[1] واستخراج العَيْن التي بأُحُد، وبنى الرُّبُط* والجُسور والخانات*، وجدَّد كثيراً من قُنيِّ السَّبيل. وكذا [صنع][2] في غير دمشق من البلاد التي ملَكَها. ووقَفَ كُتُباً كثيرة، وحَصَل في أسره جماعةٌ من أمراء الفرنـج، وكسر الرُّوم والأرمن والفرنـج على حارِم*، وكان عِدَّتُهم ثلاثين ألفاً، ثم فتـح حارم، وأخذ أكثر قرى أنطاكية، ثم فتـح الدِّيار المِصْرية وكان العدوُّ قد أشرف على أَخْذها، ثم أظهر بها السُّنَّة وانقمعت البِدْعة. وكان حسنَ الخطِّ، كثير المطالعة للكتب الدينية، متَّبعاً للآثار النبويَّة، مُوَاظباً على الصلوات في الجماعات، عـاكفاً على تـلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيفَ البطن والفرج، مقتصِداً في الإنفاق، متحرِّياً في المطاعم والملابس، لم تُسمـع منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضَجَره، وأشهى ما إليه كلمةُ حقٍّ يسمَعُها أو إرشاد إلى سُنَّةٍ يتبَعُها[3].

وقال أبو الحسن ابن الأثير: قد طالعتُ تواريـخ الملوك المتقدِّمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الرَّاشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادِل نور الدين، ولا أكثر تحرِّياً للعدل والإنصاف منهُ. قد قَصَرَ ليلَه ونهاره على عدلٍ ينشرُه، وجهادٍ يتجهَّز له، ومَظْلمة يُزيلُها، وعبادةٍ يقوم بها، وإحسانٍ يُوليه، وإنعامٍ يُسْديه. ونحن نذكر ما نعلمُ[4] به محلَّه في أمر دنياه وأُخراه، فلو كان في أُمَّة لافتخرَتْ به، فكيف بيتُ واحد؟

أما زهده وعبادَتُه وعِلْمه فإنَّه كان مـع سَعَة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لا يأكل ولا يَلْبَسُ ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلا مِنْ مِلْك كان له قد اشتراه ٦/١

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣١٦ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) انظر «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/١٤٧ ب ــ ١٤٨ ب.

(٤) في الأصل مهملة، والمثبت من (ل) و(م)، وفي «الباهر»: ١٦٣ «تعلم».

مِن سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المُرصدة لمصالـح المسلمين؛ أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحلُّ له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحِلِّه، ولم يتعدَّه إلى غيره البتّةَ، ولم يلبس قط ما حَرَّمه الشَّرع من حريرٍ أو ذهبٍ أو فِضَّةٍ. ومنـع من شُرب الخمر وبيعها في جميـع بلاده، ومن إدخالها إلى بلدٍ ما، وكان يَحُدُّ شاربَها الحدَّ الشرعي، كُلُّ الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديقٌ لنا بدمشق كان رضيـعَ الخاتون ابنة معين الدِّين[1]؛ زوجة نور الدين[2]، ووزيرَها، قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختصِّ به، وتقوم في خِدْمته لا تتقدَّم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختصُّ بهـا، ويتفرَّد[3] هو، تارةً يطالـعُ رِقاع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتابٍ أتاه ويجيب عنهما. وكان يصلي فيطيل الصَّلاةَ، وله أورادٌ في النهار، فإذا جاء الليل وصَلَّى العِشاء ونام، يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بُكْرة، فيظهر للركوب ويشتغِلُ بمهامِّ الدولة. قال: وإنها قلَّت عليها[4] النفقة، ولم يكفها ما كان قرَّره[5] لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها. فلما قلتُ له ذلك تنكَّرَ واحمرَّ وجهه، ثم قال: من أين أُعطيها؟ أما يكفيها مالُها! والله لا أخوضُ نارَ جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مُرَصَّدَةٌ[6] لمصالحهم، ومُعَدَّة لفتقٍ إن كان

---

(١) هو معين الدين أنر، توفي سنة (٥٤٤هـ). انظر أخباره مبثوثة في أثناء هذا الجزء، وانظر ص ٢٢٢، منه.

(٢) تزوجها نور الدين سنة (٥٤١هـ)، ثم بعد وفاته تزوجها صلاح الدين سنة (٥٧٢هـ). وتوفيت سنة (٥٨١ هـ). انظر ص ١٨٠ من هذا الجزء و ٢/ ٤٣١، و ٣/ ٢٤٣ من هذا الكتاب.

(٣) في (ل) و(م) ينفرد.

(٤) تحت هذه الكلمة في الأصل بخط دقيق «الزوجة».

(٥) تحت هذه الكلمة في الأصل بخط دقيق «نور الدين».

(٦) الضبط من الأصل.

من عدوِّ الإسلام، وأنا خازنُهم عليها فلا أخونهم فيها. ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة[1] دكاكين ملكاً وقد وهبتُها إياها فلتأخذها. قال: وكان يحصل منها قدرٌ قليل[2].

قال ابن الأثير: وكان رحمه الله، لا يفعل فعلاً إلا بنيّة حسنة. كان بالجزيرة رجل من الصَّالحين[3]، كثير العبادة والورع، شديدُ الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه أن نور الدين يُدْمِنُ اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنتُ أظنك تلهو وتلعب وتعذِّبُ الخيلَ لغير فائدة دينية. فكتب إليه نور الدين بخطِّ يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبَطَرُ، إنما نحن في ثَغْرٍ، العدوُّ قريبٌ منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، إذْ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَماماً[4] لا قُدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها [أيضاً][5] بسرعة الانعطاف في الكرِّ والفرّ في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جَمَامها وتتعوَّد سُرعَة الانعطاف، والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني[6] على اللعب بالكرة[7].

---

(١) في الأصل: ثلاث، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الباهر»: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: اسم هذا الشيخ محمد بن العوام، مسجده يلاصق الباب الجديد المعروف قديماً بباب النوبية، والله أعلم».

(٤) الجمام: الراحة، وجم الفرس يجم جماً وجماماً وأجم: ترك فلم يركب، فعفا من تعبه وذهب إعياؤه. «اللسان» (جمم).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في (م) و«الباهر» يبعثني.

(٧) «الباهر»: ١٦٤ ـ ١٦٥.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يَفْعَلُه بنيَّةٍ صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القُرُبات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنيَّة صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين[1].

قال: وحُكي لي عنه أنَّه حُمل إليه من مصر عِمامة من القَصَب الرفيع مُذْهبة، فلم يحضرها عنده، فَوُصِفَتْ له فلم يلتفت إليها. وبينا هم معه في حديثها، وإذا قد جاءه رجل صوفيّ، فأمر بها له، فقيل له: إنها لا تصلُح لهذا الرجل، ولو أُعطي غيرها كان أنفع له. فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أُعَوَّض عنها في الآخرة. فسُلِّمت إليه، فسار بها إلى بغداد، فباعها بست مئة دينار أميري أو سبع مئة دينار[2].

قلت: قرأتُ في حاشية هذا المكان[3] من كتاب [ابن][4] الأثير بخط ابن المُعْطَى إياها قال: أعطاها لشيخ الصُّوفية عماد الدين أبي الفتح بن حَمُّويه[5] بغير طلب ولا رغبة، فبعثها إلى هَمَذَان، فبيعت بألف دينار.

قال ابنُ الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين عليُّ بن السُّكَّري[6] ـ وكان خصيصاً بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصِّبا وأنس به، وله معه انبساط،

(١) في (م) العالمين، وانظر «الباهر»: ١٦٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في الأصل: الكتاب، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٥) هو شيخ الشيوخ عمر بن علي بن محمد بن حمويه، من جوين، ناحية في نيسابور، قدم دمشق سنة (٥٦٤ هـ)، فولاه نور الدين خوانق الشام، وكان يحبه ويحترمه، توفي سنة (٥٧٧ هـ)، وله أربع وستون سنة. انظر «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٧ هـ) و«العبر» للذهبي ٤/ ٢٣٢، وص ٢٦٤ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٦) في «الباهر» الشكري.

قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرُّها* والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدَّمَنا الظِّل، فلما عُدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفتُ ورائي؟ قلت: لا. قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا؛ تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها[1].

قلتُ: رضي الله عن ملكٍ يفكر في مثل هذا. وقد أُنشدتُ بيتين في هذا المعنى:

مَثَلُ الرِّزْقِ الذي تطلبُه   مَثَلُ الظِّلِّ الذي يمشي مَعَكْ
أنتَ لا تدركُهُ متَّبِعاً   فإذا ولَّيتَ عنه تَبِعَكْ

قال ابن الأثير: وكان ـ يعني نورَ الدين ـ رحمه الله، يصلِّي كثيراً من الليل، ويدعو ويستغفر ويقرأ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب.

جَمَع الشَّجاعة والخشوع لربِّه   ما أحسنَ المحرابَ[2] في المحرابِ[3]

قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، ليس عنده تعصُّب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء. وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتِّباع سُنَّة العَدْل والإنصاف، وتَرْك المحرَّمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك؛ فإنهم كانوا قبله كالجاهلية: هَمُّ[4] أحدهم بطنُه وفرجه، لا يعرِف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه «ومَنْ سَنَّ سُنَّة حسنةً كان له أَجْرُها وأجر مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»[5].

٧/١

(١) «الباهر»: ١٦٥ وانظر عن الأمير علي أيضاً ص ١٨٦، ١٩٢ منه.
(٢) رجل محراب: شديد الحرب، شجاع. «القاموس المحيط» (حرب).
(٣) «الباهر»: ١٦٥.
(٤) في (ل) و(م): همة.
(٥) هو حديث للنَّبيِّ ﷺ ورد بألفاظ مختلفة، انظر تخريجه في «صحيح ابن حبان»، برقم (٣٣٠٨) تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط.

قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر نبيَّ الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيِّد الزَّاهدين في زمانه. ونبيُّنا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشَّام إلى العراق، وهو على الحقيقة سَيِّد الزاهدين. قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها(١).

قال: وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً؛ فمن عدله أنه لم يترك في بلدٍ من بلاده ضريبةً ولا مَكْساً ولا عُشْراً، بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعها، والمَوْصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان المَكْس في مصر يؤخذ من كل مئة دينار خمسة وأربعون ديناراً، [فأطلقها و](٢) هذا لم تتسع له نفس غيره. وكان يتحرَّى العدل وينصفُ المظلوم من الظَّالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجبٍ ولا أمير. فلا جَرَمَ سار ذكره في شرق الأرض وغَرْبها(٣).

قال: ومن عدله أنه كان يُعظِّم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن شِحَنٌ(٤) لها نُمضي أوامرها. فمن اتباعه [أحكامها](٥) أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى إنساناً يحدِّث آخر ويومىء بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله. فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي

---

(١) «الباهر»: ١٦٦.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «الباهر».

(٣) «الباهر»: ١٦٦.

(٤) جمع شحنة، انظر معناها في كشاف المصطلحات.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

ليحضره إلى مجلس الحُكْم يحاكمني على المِلْك الفلاني. فعاد إليه ولم يتجاسر يعرِّفه ما قال ذلك الرجل، وعاد يَكْتُمُه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله، فألقى الجُوكان* من يده، وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي، وهو حينئذٍ كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[1]، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكماً، فاسلك [معي مثل][2] ما تسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى خصمه وخاصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حقٌّ، وثبتَ المِلك لنور الدّين، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر: هل ثبتَ له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المِلك الذي قد حاكمني عليه، وهو له دوني، وقد كنت أعلم أن لا حقّ له عندي، وإنما حضرتُ معه لئلا يظن بي أني ظلمتُه، فحيث ظهر أن الحقَّ لي وهبتُه له.

قال ابن الأثير: وهذا غاية العدل والإنصاف، بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل. فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة، المنقادة إلى الحق، الواقفة معه[3].

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحُكْم جماعةٌ من المتقدِّمين مثل عمر وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، ثم حُكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور. وقد نقلنا ذلك كله في «التاريخ الكبير»[4]، وفيه عن عبد الله بن

(١) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٢/ ٤٢٦

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) «الباهر»: ١٦٦ ــ ١٦٧.

(٤) التاريخ الكبير هو التاريخ الذي اختصره أبو شامة وهذبه وزاد فيه من تاريخ ابن عساكر، وهو في خمسة عشر مجلداً، وله أيضاً مختصر أصغر منه في خمسة مجلدات، انظر ترجمة أبي شامة في «المذيل على الروضتين» حين يعدد مؤلفاته. منه جزء في برلين ٩٧٨٢ وباريس أول ٢١٣٧، انظر «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) ٦/ ١٦. وص ٢٥ من هذا الجزء.

طاهر[1] قريبٌ من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمضِ إليه. وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استُدْعيَ مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه؛ فدخل حاجبه عليه متعجِّباً، وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجُّبه، وقام رحمه الله مسرعاً، ووجد في أثناء طريقه ما مَنَعه من العبور من حَفْر جُبٍّ بعض الحشوش واستخراج ما فيه، فوكّل مِن ثَمَّ وكيلاً، وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع.

قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم [يكن][2] يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظِّنة والتُّهَمَة، بل يطلب الشهود على المُتهم، فإن قامت البيِّنة الشرعية عاقبه العقوبةَ الشرعية من غيرِ تَعَدٍّ. فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدَّة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظِّنة، وأَمِنت بلاده مع سَعَتها، وقلَّ المفسدون ببركة العَدْل، واتباع الشرع المُطَهَّر[3].

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء. وأمر بردِّه وإعادته إلى كمال الدين ليردّه على صاحبه. فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردَّه إلى الخزانة وقال: إذا سأل الملك العادلُ عنه فقولوا له

(١) كان من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولي إمرة الشام مدة، وولّاه المأمون خراسان، وظهرت فيها كفايته، توفي سنة (٢٣٠هـ)، وقصة عبد الله بن طاهر مع خصمه في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٢٢٢/٩ ب ــ ٢٢٣ أ، وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٨٣/٣ ــ ٨٩، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ كالطبري والكامل وغيرهما.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) «الباهر»: ١٦٧.

عني: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرةً أخرى، [فرآه][1]، فأنكر على النُّوَّاب، وقال: ألم أقل لكم: يُعاد هذا المال على أصحابه؟! فذكروا له قولَ كمال الدين، فردَّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمةَ عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً[2].

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته ــ وهو من أعجب ما يُحكى ــ أن إنساناً كان بدمشق غريباً، استوطنها وأقام بها لِما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلما توفي تعدَّى بعضُ الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنصف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقَّ ثوبه ويقول: يا نور الدين، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك! وقصد تربة نور الدين، ومعه من الخَلق ما لا يُحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيَّة وإلّا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل ــ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ــ فطيَّب قلبه ووهبَه شيئاً وأنصَفَه، فبكى أشدَّ من الأول. فقال له صلاح الدين: لِمَ تبكي؟ قال: أبكي على سلطانٍ عَدَل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدلٍ فمنه تعلَّمناه[3].

8/1

قلتُ: ومن عدله أن بنى دار العَدْل*. قال ابنُ الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف، وسمَّاها دار العدل. وكان سببُ بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق، وأقام بها أمراؤه ــ وفيهم أسد الدين شِيركُوه، وهو أكبر أميرٍ معه، وقد عَظُمَ شأنه وعلا مكانه، حتى صار كأنه شريك في

(1) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م).
(2) «الباهر»: ١٦٧.
(3) المصدر السابق.

الملك ــ واقتنوا الأملاك وأكثروا، وتعدَّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين، فأنصف بعضهم من بعض، ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شِيركُوه، فأنهى الحالَ إلى نور الدين، فأمر حينئذٍ ببناء دار العدل*، فلما سمع أسدُ الدين بذلك أحضَرَ نوابه جميعهم، وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي؛ وإلا فمن هو الذي يمتنعُ على كمال الدين؟ ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنّه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في مِلك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي طريق[1] أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطُّوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يُساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دارُ العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضُر عنده أحد يشكو من أسد الدين. فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحداً يشكو من شِيركُوه. فعرَّفه الحال، فسجَدَ شكراً لله تعالى، وقال: الحمد لله الذي أصحابُنا ينصفونَ من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[2].

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المَعْدِلَة ما أحسنَها، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها، وإلى هذه السياسة ما أسَدَّها[3]، هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يُبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقُه في عدله وحسنُ نيته[4].

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبرُ

(١) في (ل) و(م) و«الباهر»: شيء.

(٢) «الباهر»: ١٦٨.

(٣) في «الباهر»: ما أشدها، وهي تصحيف.

(٤) «الباهر»: ١٦٨.

الناس في الحرب وأحسنُهم مكيدةً ورأياً، وأجودهم معرفةً بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يُضرب المثل في ذلك. سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أُحصيهم أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسنَ منه، كأنه خُلِقَ عليه لا يتحرَّك ولا يتزلزل. وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها؛ لم يُرَ جُوكانه* يعلو على رأسه. وكان ربما ضرب الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان. وكانت يده لا تُرَى والجُوكان فيها، بل تكون في كُمِّ قَبائه استهانةً باللعب. وكان إذا حضَرَ الحرب أخذ قوسين وتَرْكَشَيْن*، وباشر القتال بنفسه، وكان يقول: طالما تعرَّضت للشهادة فلم أدركها. سمعه يوماً الإمام قطب الدين النَّيْسَابوري[1] الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادُهم، ولئن أُصبتَ ــ والعياذ بالله ــ في معركة لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد. فقال: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقالَ له هذا؟! قبلي من حَفِظَ البلاد والإسلام؛ ذلك الله الذي لا إله إلا هو[2].

قال: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخِدَاع مع الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ وأكثر ما ملَكه من بلادهم به. ومن جيِّد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون* ملك الأَرْمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه [ويستميله][3]، حتى جعله في خدمته سَفَراً وحضراً، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعِسِرة[4] المسلك،

---

(١) قدم دمشق سنة (٥٤٠ هـ)، ووعظ بها، ثم عاد إلى دمشق سنة (٥٦٨ هـ). توفي سنة (٥٧٨ هـ)، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ٥/١٩٦ ــ ١٩٧، و «سير أعلام النبلاء» ٢١/١٠٦ ــ ١٠٩ وانظر ص ٢٦٣ من الجزء الثاني.

(٢) «الباهر»: ١٦٨ ــ ١٦٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (ل) و (م): وعرة.

وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلِبَ انحجَرَ فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيتُ الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألُّف حتى أجابَ إلى طاعتنا وخِدْمتنا وساعدَنا على الفرنـج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيرُه [غيـرَ][1] هذا الطريق مَلَكَ المتولي الأرمن بعد مليـح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرقٌ واسـع لا يُمكن رقعه[2].

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مـع أجناده؛ فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلَّف ولداً أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيراً رتَّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبَباً[3] عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. ١/٩ وكان أيضاً يثبت أسماءَ أجنادِ كلِّ أميرٍ في ديوانه وسلاحَهم؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحِّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العُدَد، ويقول: نحن كل وقت في النَّفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدَد والعُدد دخل الوَهْن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عِياناً[4].

قال: وأما ما فعله في بلاد الإسلام من المصالـح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثيرٌ عظيم؛ من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشَّام جميعها

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل)، وفي (م) «وسلك من بعده غير هذا الطريق».

(٢) «الباهر»: ١٦٩.

(٣) في الأصل: شيئاً، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) «الباهر»: ١٦٩.

وقلاعها، فمنها حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين*، وشَيْزَر*، ومَنْبِج*، وغيرها من القلاع والحصون، وحصَّنها وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمحُ به النفوس. وبنى أيضاً المدارس بحلب، وحماة، ودمشق، وغيرها للشَّافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعُه في المَوْصل إليه النهاية في الحُسْن والإتقان[1]، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوَّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر المَلَّاء[2] رحمه الله؛ وهو رجل من الصالحين، فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل. فقال: إذا ولَّيت العمل بعضَ أصحابي من الأجناد والكُتَّاب أعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامعُ بظُلْم رجل مسلم، وإذا ولَّيت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظَلَمَ كان الإثم عليه لا عليَّ. قال: وهذا هو الفِقْه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم؛ إما بزَلْزلة أو غيرها، وبنى البيمارَسْتانات في البلاد؛ ومن أعظمِها البيمارَسْتان* الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جداً. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غنيٍّ وفقير[3].

قلت: وقد وقفتُ على كتاب وَقْفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلامٌ شاع على ألسنة العامة، ليَقع ما قدَّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار

---

(١) يقع في محلة حمام المنقوشة، وتسمى أيضاً باسمه محلة الجامع الكبير. وقد هدم هذا الجامع سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦، وشيد من جديد على أسلوب هندسي رائع، وبقيت مئذنته القديمة، وهي مرتفعة ارتفاعاً يلفت الأنظار، لكنها غير مستقيمة. انظر «العراق قديماً وحديثاً» لعبد الرزاق الحسني، ص ٢٢٠. و «تاريخ الموصل» للديوه جي: ١/ ٣٣٥.

(٢) هو عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصلي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر المَلَّاء، لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها، له «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين»، توفي سنة (٥٧٠ هـ) وسيرد ذكره في ٢/ ١٦٥، ١٧١، ٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ من هذا الكتاب. انظر «الأعلام» للزركلي: ٥/ ٦٠ ـ ٦١.

(٣) «الباهر»: ١٧٠.

وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء. فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدَّى إلى غيره، لا سيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وَقْفٌ على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي. ورُوي[1] أن نور الدين رحمه الله، شرب من شراب البيمارَسْتَان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي[1]، والله أعلم.

وبلغني[2] في أصل بنائه نادرة، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعضُ أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نورُ الدين أمراءه، فكلٌّ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلَّم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين؛ حيث جمع لهم الحُسْنَيَيْن، وهما الفداء وموت ذلك اللعين. فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارَسْتان، ومنعَ المال الأمراء؛ لأنه لم يكن عن إرادتهم كان.

وقال ابن الأثير: وبنى أيضاً الخانات* في الطرق، فأَمِنَ الناس وحُفِظَتْ أموالُهم، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ[3] من البرد والمطر. وبنى أيضاً الأبراج على الطُّرُق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأَوْا من العدوِّ أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حِذْرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً؛ وكان هذا من ألطف الفِكَر وأكثرها نفعاً[4].

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (ل).

(٢) أي «أبو شامة».

(٣) أي في ستر. «اللسان» (كنن).

(٤) «الباهر»: ١٧١.

قال: وبنى الرُّبُط* والخانقاهات* في جميع البلاد للصُّوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأَدَرَّ عليهم الإِدْرارات الصالحة، وكان يُحْضِرُ مشايخَهُم عنده، ويقرِّبُهُمْ، ويدنيهم ويبسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذْ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سَجَّادته، ويُقبلُ عليه بحديثه. وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنَّظَر؛ فقصدوه من البلاد الشَّاسعة، من خُرَاسان وغيرها. وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسانٍ عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعدُّ ذنوبه[1].

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قُطْب الدين النَّيْسَابوري[2]؛ الفقيه الشافعي، وكان قد استقدَمه من خُرَاسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير، فنال منه يوماً عند نور الدين. فقال له: يا هذا، إن صَحَّ ما تقول فله حسنةٌ تغفر كل زَلَّةٍ تذكرها؛ وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عَقَلْتَ لشغلك عَيْبُك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئةَ هذا ـ إن صحَّتْ ـ مع وجود حسنته! على أنني والله لا أصدِّقك فيما تقول، وإن عدتَ ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبَنَّك، فكُفَّ عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب[3]. ١٠/١

وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث*، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ١٧١ ـ ١٧٢.

علمنا. وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتبَ للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلِّميهم الجرايات الوافرة. وبنى أيضاً مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن.

قال: وهذا فعلٌ لم يُسبق إليه. بلغني من عارفٍ بأعمال الشام أن وقوفَ نور الدين في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمانٍ وست مئة ـ كل شهر تسعة آلاف دينار صورية[1]، ليس فيها مِلْك غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزَنَ ثمنه[2]، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمَه[3].

قال: وأما هيبته[4] ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان، كما قيل: «شديد في غير عُنْفٍ، رقيق في غير ضَعْف». واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غايةٍ لا مزيدَ عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخِدْمة، الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه، كأسد الدين شِيركُوه، ومجد الدِّين بن الداية، وغيرهما، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصُّوفي أو الفقير يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقربُ الناس إليه. وكان إذا أعطى أحدَهم شيئاً يقول: إنَّ هؤلاء لهم في بيت المال حقٌّ، فإذا قَنِعُوا منا ببعضه فلهم المِنَّةُ علينا. وكان مجلسه كما رُوي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء لا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ[5]. وهكذا كان مجلسُه لا يذكر فيه إلا

---

(١) انظر حاشيتنا رقم (٥) ص ٣٢٨ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: وورث ثمنه، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) «الباهر»: ١٧٢.
(٤) في الأصل: هيئته، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) أي لا يُذْكَرْنَ بقبيح. «النهاية»: ١/١٧.

العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدَّى هذا. بلغني أن الحافظ ابنَ عساكر الدِّمَشْقي، رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللَّغَط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حَدَّ عليه، فشرع يحدِّث صلاحَ الدين كما كان يحدِّث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدِّثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مُدَّة لا يحضُر المجلس الصلاحيّ، وتكرَّر من صلاح الدين الطلب له، فحضَر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نزَّهتُ نفسي عن مجلسك، فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة؛ لا يُسْتَمع إلى قائل، ولا يُرَدُّ جواب متكلِّم، وقد كنا بالأمس نحضُر مجلسَ نور الدين، فكنا ــ كما قيل ــ كأنما على رؤوسنا الطَّير، تعلونا الهيبةُ والوقار، فإذا تكلَّم أنصتنا، وإذا تكلَّمْنا استمعَ لنا. فتقدَّم صلاحُ الدِّين إلى أصحابه أنه لا يكونُ منهم ما جَرَت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: فهكذا كانت أحوالُه جميعها رحمه الله مضبوطةً محفوظة[1].

وأما حِفْظ أُصول الدِّيانات، فإنه كان مراعياً لها لا يهملها، ولا يُمكِّن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحقّ، ومتى أقدم مُقدمٌ على ذلك أدَّبه بما يناسب بِدْعته. وكان يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطُّرق من لِصٍّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظُ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل[2]!

قال: وحُكي أن إنساناً بدمشق يُعرف بيوسف بن آدم، كان يُظهر

---

(١) «الباهر»: ١٧٢ ــ ١٧٣.

(٢) المصدر السابق.

الزُّهد والنُّسُك وقد كَثُرَ أتباعُه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأحضره وأركبه حماراً، وأمر بصفعه. فطيف به في البلاد جميعه ونودي عليه: هذا جزاء مَنْ أظهر في الدين البِدَع. ثم نفاه من دمشق، فقصدَ حَرَّان*، وأقام بها إلى أن مات.

قال: ويسوق الله القِصَار الأعمار إلى البلاد الوَخِمة[1].

قلت: وذكر العماد الكاتب في أول كتابه «البرق الشَّامي» أنه قَدِمَ دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمس مئة في دولة الملك نور الدين محمود بن زَنْكي، وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشَّام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين، أعفّ الملوك وأتقاهم، وأثقبهم رأياً وأنقاهم، وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم وأجهدهم، وأظهرهم وأطهرهم، وأقواهم وأقدرهم؛ وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً، وأصدقهم قولاً، وأقصدهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلاً، وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيباً، وإحسانه صيِّباً، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية، وأموره مقتبلة، وأوامره ممتثلة، وجدّه منزَّه عن الهَزْل، ونوَّابه في أمن من العَزْل، ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوبة[2] مصونة، والرياسة كاملة، والسياسة شاملة، والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة، والعيشة ناضرة، والشيعة ناصرة، والإنصاف صافٍ، والإسعاف عاف، وأزر الدين قويّ، وظمأ الإسلام رَوِيّ، وزَنْد النُّجْح وَرِيّ، والشرع مشروع، والحكم مسموع، والعدل مُولّى والظلم معزول، والتوحيد منصور والشِّرك مخذول، وللتُّقى شروق، وما للفسوق سوق، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام، وقد غلب

(١) المصدر السابق.
(٢) أي مُمْطَرَة، من الصوب: نزول المطر. انظر «اللسان» (صوب).

١١/١ الكفر، وبلغ الضُّر، فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها، وعفّى رسومها ومنعها، ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم، وبدَّدَ سلوكهم، وصان الثغور منهم، وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس، وبنى للأئمة المدارس، وأنشأ الخانقاهات* للصُّوفية، وكثَّرها في كل بلد وكَثَّر وقوفَها، وقرَّر معروفها، وأدنى للوافدين من جِنان جنابه قطوفها، وأجَدَّ الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق[١]، وأمر في الطرقات ببناء الرُّبُط* والخانات*، وضافت ضيوف الفضائل، وفاضت فيوض الأفاضل، وهو الذي فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها[٢].

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين ــ وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ــ قال: وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصَّدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخرَاج، وما تحصل من قسمة الغَلَّات على قويم المنهاج. قال: وأمرني بكِتْبَةِ مناشير لجميع أهل البلاد، فكتبتُ أكثر من ألف منشور، وحَسَبْنا ما تصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار. وكانت عادته في الصَّدَقة أن يُحضر جماعةً من أماثل البلد من كلِّ محلة، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم

---

(١) مفردها حقيقة، وهي ما يحق عليه أن يحميه، وكانت العرب تقول: فلان يسوق الوسيقة، وينسل الوديقة، ويحمي الحقيقة. الوسيقة: الطريدة من الإبل، ويَنْسُلُ: يُسرع، والوديقة: شدة الحر. يُقال هذا للرجل المُشَمِّر القوي، أي ينسِلُ نَسَلاناً في وقت الحر نصف النهار. انظر «اللسان» (حقق) و (ودق).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٥٥ ــ ٥٦، و«الباهر»: ١٧٤ ــ ١٧٥.

[من][1] أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم. وكان برسم نفقة الخاص * في كل شهرٍ من جزية أهل الذِّمة مبلغ ألفي قرطيس*، يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أُجرة خَيَّاطه، وجامكية* طباخه، ويستفضل منه ما يتصدَّق به في آخر الشهر. وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرَّف في شيء منه، لا قليلٌ ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي يحصِّل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة. وتقدَّم بإحصاء ما في محالّ دمشق[2]، فأناف على مئة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعَيَّن له وقوفاً.

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم يبلغ[3] إلى أمد. ومُشاهدة أبنيته الدالَّة على خلوص نيته تغني عن خبرها بالعِيان، ويكفي أسوار البُلْدان [فضلاً][4] عن الرُّبُط* والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طَوْلِه طُول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول. وواظب على عقد مجالس الوعَّاظ، ونصب الكرسي لهم في القلعة للإنذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النَّيْسَابوري[5]، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه. ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر[6]، وبسط له في كل أسبوع المنبر، وشاقه وعظُه، وراقه معناه ولفظه. وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) أي من المساجد المهجورة، انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٤٤.

(٣) في (ل) و(م)، أبلغ.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، و(ل) والمثبت من (م)، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٤٤.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٦) هو أبو الرضا عبد الرحيم بن عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، قدم دمشق قاصداً زيارة بيت المقدس، فتوفي بها سنة (٥٦٧هـ). انظر «التكملة» للمنذري: ٢/٢٧٧، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/٦٥.
=

شَوَرْوَه[1]، وما أيمنَ تلك الأيام، وأبركَ تلك الشَّتْوة[2].

قال[3]: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشِّحَن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس على الشريعة.

قال: ولم يكن لمال المواريث الحَشْرية[4] حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل نور الدين ثُلُث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفَّرَه نوابه

= أما أبوه أبو النجيب فهو عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، من أئمة الشافعية والصوفية في بغداد، قدم دمشق سنة (٥٥٨ هـ) قاصداً زيارة بيت المقدس، فلم تتفق له الزيارة لانفساخ الهدنة مع الصليبيين، فأقام في دمشق مدة يسيرة التقى خلالها بنور الدين، فأكرمه واحترمه، وسمع منه ابن عساكر، وترجم له في «تاريخه» (خ س: ١٠/ ٢٠٩ ب، توفي في بغداد سنة (٥٦٣ هـ). انظر «تاريخ إربل»: ق ١/ ١٠٧، و «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٠٤ ــ ٢٠٥، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٧٥، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ١٧٣.

وعبد القاهر هذا هو عم شهاب الدين عمر بن محمد صاحب كتاب «عوارف المعارف» المطبوع غير مرة، وقد نسب خطأ في طبعة بيروت ١٩٦٦ م إلى أبي النجيب عبد القاهر. انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٤٦ ــ ٤٤٨، وترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٢ هـ).

(١) في هامش الأصل: «حاشية»، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصبهاني الحنفي، ولقبه شوروه؛ بشين معجمة مفتوحة، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين، وآخرها هاء، والله أعلم».

قلت: قدم دمشق سنة (٥٦٩هـ)، ولعله صاحب كتاب «أطباق الذهب» وهو في الوعظ والنصيحة، طبع الكتاب غير مرة، إحداها في مصر سنة (١٣٢٤هـ). انظر «الجواهر المضية» ٢/ ٤٧٧ ــ ٤٧٨، و «كشف الظنون»: ١/ ١١٦، و «معجم المطبوعات» ١٣٠٠.

(٢) أحب نور الدين أن يقضي الشتاء في دمشق، وكان قد سار إلى شمالي حلب لقتال قلج أرسلان، وذلك سنة (٥٦٨هـ)، انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٩.

(٣) في هامش الأصل: «بلغ مقابلة بأصله».

(٤) أي المحشورة، وهي المجموعة، انظر «المصباح المنير»: (حشر). أي الأموال التي توفي عنها صاحبها وليس له وارث، تكون لبيت المال كما هو مقرر في كتب الفقه. وانظر «صبح الأعشى» ٣/ ٤٦٠.

وكثّروه، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قلدته على أن يتصرَّفَ بالمعروف. وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار وحفظ الثغور، وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور.

قلتُ: وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن [الحسن بن] هبة الله[1] أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرَّ في أثناء الحديث أن النبيَّ ﷺ خرج متقلِّداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هُم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم. قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والنَّاس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلدٌ السيف وجميع عسكره كذلك. فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم، اتباعاً لما بلغه عن نبيّه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن.

ولقد بلغني أنه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القَيْسَراني الشّاعر* في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه. ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحمِ العَشَّار المكَّاس. وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حِلٍّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوِّ الإسلام. يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

---

(١) هو زين الأمناء ابن عساكر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٧ هـ)، وما بين حاصرتين منه.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله تعالى فرداً في زمانه من بين سائر الملوك[1]، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها، وإن اشتملت على ألفاظ قد أُغلظ له فيها. قرأتُ في «تاريخ إرْبِل[2]» لشرف الدين بن المُسْتَوْفي رحمه الله: قال المنتجب الواعظ ــ هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي، ورد إربل، ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر إلى الشام بسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملةً من مال فلم يقبلها وردَّها عليه. أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدةً عملها في نور الدين، وحلف أنه سمعها من لفظه ــ: ١٢/١

مثِّلْ وقوفَك أيها المغرور يومَ القيامةِ والسماءُ تمورُ
إن قيلَ نور الدين رحت مسلَّماً فاحذر بأن[3] تبقى ومالَكَ نورُ
أَنَهَيْتَ عن شُرْبِ الخمور وأنت من كأسِ المظالم طافحٌ مخمورُ
عطَّلْتَ كاساتِ المُدَام تعفُّفاً وعليكَ كاساتُ الحرامِ تدورُ
ماذا تقولُ إذا نُقلت إلى البلى فَرْداً وجاءك مُنْكَرٌ ونكيرُ
وتَعَلَّقَتْ فيك الخصومُ وأنت في يومِ الحساب مُسَحَّبٌ مجرورُ
وتَفَرَّقَتْ عنك الجنودُ وأنت في ضيق اللُّحود مُوَسَّدٌ مقبورُ

---

(١) في (م) سقط يبدأ من هنا، وينتهي حتى «ونقلت من خط الصاحب..».

(٢) هو في أربع مجلدات كما ذكر ابن خلكان في ترجمته، طبع منه الجزء الثاني في بغداد سنة ١٩٨٠م بتحقيق سامي الصقار، والمجلد الرابع في شستربتي (٤٠٩٨) كما ذكر الزركلي في ترجمته، وابن المستوفي: هو المبارك بن أحمد بن المبارك، شرف الدين اللخمي الإربلي، كان عالماً بالحديث واللغة والأدب والتاريخ، تولى استيفاء الديوان بإربل ثم الوزارة، ثم تحول عنها حين استولى عليها التتار سنة (٦٣٤هـ) توفي في الموصل سنة (٦٣٧هـ)، وهو من شيوخ المنذري وابن خلكان وياقوت الحموي. انظر «التكملة» للمنذري: ٥٢٢/٣، و«معجم البلدان»: ١٣٨/١، و«وفيات الأعيان»: ١٤٧/٤ ــ ١٥٢، و«الأعلام» للزركلي: ٢٦٩/٥.

(٣) في الأصل: وإن، والمثبت من (ل).

وَوَدِدْتَ أنك ما وَلِيْتَ ولايةً ... يوماً ولا قال الأنامُ: أميرُ
وبقِيْتَ بعد العزِّ رَهْنَ حُفيرةٍ ... في عالم الموتى وأنتَ حقيرُ
وَحُشِرْتَ عُرياناً حزيناً باكياً ... قَلِقاً ومالَكَ في الأنام مُجيرُ
أَرَضِيْتَ أَنْ تحيا وقَلْبُك دارسٌ ... عافي الخراب وجسمُك المعمورُ
أرضيت أن يحظى سواكَ بقُرْبِهِ ... أبداً وأنت مُبَعَّدٌ مهجورُ
مهِّدْ لنفسك حُجَّةً تنجو بها ... يومَ المَعاد لعلَّكَ المَعْذُورُ

قلتُ: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحرِّكة إلى إبطال تلك المظالم، والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفَّق من رام الاقتداء به[1].

ونقلت من خَطِّ الصَّاحب* العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جَرَادة[2] في كتاب «تاريخ حلب[3]» الذي صنفه،

(١) إلى هنا ينتهي السقط في (م).

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٦٠ هـ). وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٢ من هذا الجزء.

(٣) هو «بغية الطلب في تاريخ حلب» في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها، ومن كان بها من العلماء، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب، رتبه على حروف المعجم، وبلغ حوالي أربعين مجلداً، لم يصلنا منه سوى عشرة مجلدات موجودة في مكتبات استانبول: واحد في مكتبة أيا صوفيا برقم (٣٠٣٦)، وثمانية في مكتبة أحمد الثالث برقم (٢٩٢٥)، ومجلد في مكتبة فيض الله برقم (١٤٠٤)، ومنه أجزاء مفردة في باريس أول برقم (٢١٣٨)، والمتحف البريطاني أول برقم (١٢٩٠)، ومنه انتزع ابن العديم كتابه «زبدة الحلب من تاريخ حلب» ورتبه على السنين، نشره المعهد الفرنسي في دمشق في ثلاثة أجزاء ما بين سنة ١٩٥١م ـ ١٩٦٨م بتحقيق الدكتور سامي الدهان. ثم نشر د. سهيل زكار هذه المجلدات العشرة في دمشق سنة (١٩٨٨)، وترجمة نور الدين فيه مما فقد من الكتاب.

انظر «مقدمة زبدة الحلب»: ١/٥٠ ـ ٥٧، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية): ٦/٧٥ ـ ٧٦.

وسمعتُ من لفظه، أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جَعْبر*، وقُتِلَ عليها، قصد حلب وصَعِدَ قلعتها، وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، وأحسن إلى الرَّعية، وبثَّ العدل، ورفع الجَوْر، وأبطل البدع، واشتغل بالغزو، وفتح قلاعاً كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج، وحدَّث بحلب ودمشق عن جماعةٍ من العلماء أجازوا له، منهم: أبو [محمد][1] عبد الله بن رفاعة بن غدير السَّعْدي المِصْري. روى عنه جماعةٌ من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد[2]، وأبي البركات الحسن[3]، وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشَّافعي[4].

قال: ووقفتُ على رُقعة بخطِّ الوزير خالد بن محمد بن نصر بن القَيْسَرَاني* كتبها إلى نور الدين، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور؛ فنقلتُ جميع ما فيها من خطيهما. قال: وكان رحمه الله كتب رقعةً يطلب من ابن القَيْسَرَاني أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحاله. ونسخة الورقة بخطِّ خالد: أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلَّغه آماله في نفسه وذُرِّيَّته، وختم له بخير في العاجلة والآجلة، بمنِّه وجوده، وفضله وحمده. وقف المملوك على الرُّقعة، وتضاعف دعاؤه

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل) والمثبت من (م)، وكان أبو محمد قاضياً بالجيزة فقيهاً، ماهراً بالفرائض، ثم ترك القضاء، واشتغل بالعبادة حتى وفاته سنة (٥٦١هـ). انظر ترجمته في «طبقات الشافعية» للسبكي: ١٢٤/٧.

(٢) هو تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن الحسن من بني عساكر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٠ هـ).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٤) هو فخر الدين ابن عساكر، كان شيخ الشافعية بالشام، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٠ هـ).

وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه، وأن يسهِّلَ له السلوك إلى رضاه، والقُرْب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير. وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف، زاده [الله][1] شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: اللهم أصلح عبدَك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المُعْتَصِم بقوَّتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر، ناصرَ أمير المؤمنين. فإن هذا جميعه لا يدخله كذبٌ ولا تزيُّد؛ والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى.

فكتب نور الدين على رأس الرُّقعة بخطه ما هذا صورته: مقصودي ألاَّ يُكذب على المنبر، أنا بخلافِ كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل، قلة عقل عظيم! الذي كتبتَ جيد هو، اكتب به نسخ حتى نسيِّرَه إلى جميع البلاد. وكتب في آخر الرقعة: ثم يبدؤوا بالدعاء: اللهم أره الحقَّ حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفِّقْه؛ من هذا الجنس. ١/١٣

قال: وحدثني والدي[2] قال: استدعانا نور الدين أنا وعمُّك أبو غانم[3] وشرف الدين بن أبي عَصْرُون[4] إلى الميدان الأخضر[5]* وأشهدَنا عليه بوقف حوانيت على سور حِمْص. فلما شهدنا عليه التفتَ إلينا وقال: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البِرِّ والخير، دلُّونا عليه، وأشركونا في الثواب. فقال

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) هو أحمد بن هبة الله بن أبي غانم ابن أبي جرادة، أبو الحسن، ابن العديم، ولد سنة (٥٤٢ هـ)، كان يخطب بالقلعة في حلب أيام نور الدين، تولى القضاء سنة (٥٧٥ هـ) حتى عزل سنة (٥٧٨ هـ) زمن صلاح الدين لأنه حنفي المذهب، والدولة شافعية، توفي سنة (٦١٣ هـ) انظر «معجم الأدباء»: ١٦/ ٣٥ ــ ٣٦.

(٣) هو محمد بن هبة الله بن أبي غانم، ولد سنة (٥٤٠هـ)، كان يخطب بجامع حلب، توفي سنة (٦٢٨هـ). انظر «معجم الأدباء»: ١٦/ ٣٤ ــ ٣٥، و«الجواهر المضية»: ٣/ ٣٨٧. وفيه ولادته سنة (٥٤٦هـ).

(٤) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد توفي سنة (٥٨٥ هـ) وسترد ترجمته في ٤/ ١٠٨ ــ ١٠٩.

(٥) في حلب.

شرف الدين بن أبـي عَصْرُون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحدٍ بعده فعل خير إلا وقد سبقَه إليه.

وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر، فمات بها، وخلَّف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً. فكتب بعضُ مَـنْ بحلب إلى نور الدين يذكر له أن قد مات ها هنا رجل تاجرٌ موسر، وخلَّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين. وحسَّن له أن يرفـع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصَّغير، ويُرضى منه بشيء، ويمسك الباقي للخزانة. فكتب على رُقْعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمَّره الله، وأما الساعي فلعنه الله. وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً.

وحدثني الحاج عمر بن سُنْقُر عتيق شاذبخت النُّوري قال: سمعت الطَّواشي* شاذبخت الخادم(١) يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسُنْقُرجا واقفَيْنِ على رأس نور الدين وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكّـر فكـراً عظيماً، وجعل ينكث بأصبعه في الأرض. فتعجَّبنا من فكره وقلنا: تُرى في أي شيء يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه؟ فكأنه فَطِنَ بنا، فرفـع رأسه فقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قلنا شيئاً. فقال: بحياتي قولا لي. فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكر في عائلته أو في نفسه. فقال: والله إنني أفكر في والٍ ولَّيتُهُ أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك. فبالله عليكم ــ وإلاّ فخبزي* عليكم حرام ــ لا تريان قِصَّة ترفـع إليَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها، وارفعاها إليّ.

وسمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافـع بن

---

(١) هو جمال الدين شاذبخت الهندي، كان نائباً عن نور الدين في قلعة حلب، سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٢ من الجزء الثاني.

تميم[1] قال: كان نور الدين ينفِّذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلَّاء[2] شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه. وكان إذا قَدِمَ المَوْصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر المَلَّاء. قال: وكان نور الدين لما صارتْ له المَوْصِل قد أمر كُمُشْتِكِين؛ شِحْنة* المَوْصِل ألا يعمل شيئاً إلا بالشَّرْع إذا أمره القاضي به، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر المَلَّاء. قال: فكان لا يُعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية*. فجاء أكابر الدَّوْلة وقالوا لكمشتكين: قد كَثُرَ الدُّعَّار وأربابُ الفساد، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصَّلْب، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلتَ له في ذلك. فقال لهم: أنا لا أكتبُ إليه في هذا المعنى، ولا أجسر على ذلك، فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه. فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتبَ إلى نور الدين وقال له: إن الدُّعَّار والمفسدين وقُطَّاع الطريق قد كثروا، ويُحتاج إلى نوع سياسة، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخذ مالُ إنسانٍ في البرية مَنْ يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه، وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخَلْقَ وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعةً، وهو أعلم بما يُصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شَرَعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجةٌ إلى زيادةٍ على ما شَرَعه الله تعالى[3]. قال: فجمع الشيخ عمر المَلَّاء أهلَ المَوْصِل، وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا في كتاب الزَّاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد!

---

(1) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٩ من هذا الجزء.

(2) انظر حاشيتنا رقم ٢، ص ٤٥، من هذا الجزء.

(3) في هامش (م) بخط مغاير «قلت: ويشبه هذا ما ذكره ابن الجوزي في «سيرة عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه، قال: عن يحيى بن يحيى الغساني قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، فوجدتها من أكثر البلاد سرقاً ونهباً، فكتبت إلى عمر بن عبد العزيز =

وسمعت صقر المُعَدِّل[1] يقول: سمعت مقلَّداً ـ يعني الدَّوْلعي ـ يقول: لما مات الحافظ المُرادي[2]، وكُنَّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون، وكان بالمَوْصِل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن نستدعي القُطْبَ النَّيْسَابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدَّس، ثم عاد إلى بلاد العَجَم، فوقع بيننا كلامٌ بسبب ذلك، ووقعت فتنةٌ بين الفقهاء. فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعةَ الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجدُ الدِّين ـ يعني ابنَ الدَّاية ـ عن لسانه وقال: نحن ما أردنا ببناءِ المدارس إلا نَشْرَ العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسنُ ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطَّائفتين، ونستدعي شرفَ الدين بن أبي عَصْرُون، وقطبَ الدين النَّيْسَابوري. فاستدعاهما جميعاً، وولَّى مدرسة ابن أبي عصرون لشرفِ الدين، ومدرسة النَّفَّري* لقُطْب الدين.

[قال][3]: وعلقتُ أيضاً من خَطِّ فقيهٍ كان معيداً* بالنِّظَامية* يقال

= أعلمه حال البلد، وأسأله: آخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إلي أن آخذ الناس بالبينة وما عليه السنة؛ فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. قال يحيى: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت أصلح البلاد، وأقلها سرقاً ونهباً».

قلت: انظر «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي: ٩٧.

(١) هو صقر بن يحيى، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، في وفيات سنة (٦٥٣ هـ).

(٢) هو علي بن سليمان بن أحمد المرادي، القرطبي الشافعي، فقيه محدث، كان رفيق ابن عساكر في رحلته، قدم دمشق في حدود سنة (٥٤٠هـ) فنزل على الحافظ ابن عساكر، فسر بقدومه لما كان معه من مسموعاته، ندب للتدريس في حماة، ثم في حلب، وتوفي فيها سنة (٥٤٤هـ)، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١٨٧ ـ ١٨٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) ما بين حاصِرتين من (ل) و (م).

لـــــه: أبـــو الفتـــح بَنْجيـــر بـــن أبـــي الحســـن [بـــن][1] بَنْجيــر الأَشْتَــرِي[2] ـ وكـــان ورَدَ دمشـــق، وجمـــع لنـــور الـــديـــن سيرة مختصرة ـ قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العَدْل* للنظر في أمور الرَّعية وكشف الظُّلامة، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجعُ إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلباً للثواب والزُّلْفَى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبَوَّاب حتى يصل إليه الضعيف والفقير، والقوي والغني، ويكلِّمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويَعْجزُ الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحقُّ عنده فَيُجْري الله على لسانه ما هو موافقٌ للشَّريعة، ويسأل العلماءَ والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محضُ الشَّريعة.

١٤/١

قال: وأما زمانه فهو مصروفٌ إلى مصالح النَّاس، [و][3] النظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم. وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء الرُّبُط* والمدارس والمساجد حتى إن بلاد الشَّام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصُّوفية، لصَرْف همته إلى بناء المدارس والرُّبُط وترتيب أمورهم، والنَّاس آمنون على أموالهم

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل و(ل): بنجه، في الموضعين، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وهو بنجير بن علي، أخذ عن الإمام أبي الفتح عبد الملك بن عبد الله الكَرُوخي الهروي المتوفى سنة (٥٤٨ هـ)، توفي بنجير سنة (٥٧٩ هـ)، انظر «توضيح المشتبه»: ١/ ٢٣٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٧٥.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أَوْعَدَ عفا، وإذا تحدَّث بشيء يقف عليه ولا يخالف قوله، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى. ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور، والشتم والغيبة، والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك؛ ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى بأن يأخذ أحدٌ من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعةٍ يُعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها، وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعةٍ من الصُّوفية الذين يُعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القُدْس للزيارة حكايةً عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسيم له مع الله سِرٌّ؛ فإنه ما يظفر علينا بكثرة جُنْده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدُّعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله ويدعو، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤْله، وما يردُّ يده خائبة، فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدّثنا الشَّيخ داود المَقْدِسي، خادم قبر شُعَيْب، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرتُ في دار العَدْل* في شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين، فقام رجلٌ وادَّعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالبٌ لك بذلك. فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أردُّ إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري. فمضى الرجل ليُحْضِر البيِّنَة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل. قال: وحضر رجل زاهد فيه سمةُ الخير معروف بالسَّداد والصَّلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو

الشيخ أبي البَيَان[1]. وكان قد أُودِعَ عند أخيه أبي البيان وديعة، وقد توفي، فادعى المودِع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالرَّدِّ عليه، فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حُكْمَ الشَّرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودِع يشنِّعُ عليه [و][2] يقول: إنه حلف كاذباً. ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمُّس[3] وغيره. فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومَنِ الذي يقدر أن يقول في حقي هذا. ويتعرَّض بالتماسه من الملك العادل التقدُّم بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول في حقه. فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جَعْبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الإنكار عليه. فقال الملك العادل: أليس أن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُم الجاهِلُونَ قالوا سَلَاماً﴾[4]؟ فإذا كان [هو][5] يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز، فيجب عليك ألا تعمل معه مثل معاملته فتكونَ مثله، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة، ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان. فقلت في نفسي: الحقُّ ما قال الملك العادل، إمّا قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار، وشكوا أن القراطيس* كان ستونَ منها بدينار، فصار سبعةٌ وستون بدينار، وتزيد وتنقص، فيخسرون. فسأل الملكُ العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدُّون القراطيس بالسعر، تارةً ستين بدينار، وتارةً

(١) أبو البيان هو نبا بن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الحوراني، صديق الشيخ رسلان الدمشقي، سترد ترجمته ص ٣٣٠ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) أي النميمة، الاحتيال، انظر «تاج العروس» (نمس).

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

سبعة وستين بدينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدَّنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكليَّة. فسكت ساعة وقال: إذا ضربتُ الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنّي خَرَّبت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السُّوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، أيش يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته. قال: فأي شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية!

قال: وحَضرَ صبيٌّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوسٌ على أجرة حُجْرة من حُجَر الوقف. فسأل عن حاله. فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصُّوفي؛ وهو رجلٌ زاهد قاعد في حجرة الوقف، وليس له قدرة على الأُجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة. قال الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مئة وخمسون قرطاساً*. وذكروا سيرته وطريقته وفقره. فَرَقَّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. وتقدَّم بذلك، وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه. ١/١٥

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي(١) قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكَرْدَري(٢) قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يُدعى سويداً يُحْضِر

---

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٦ هـ).

(٢) في الأصل: الكردي، وهو تصحيف. والمثبت من (ل) و(م). وهو من أئمة الحنفية، أصله من كردر ــ وزن جعفر ــ وهي ناحية من نواحي خوارزم أو ما يتاخمها من نواحي الترك، تولى قضاء حلب لنور الدين، ودرَّس بها في مدرسة الحدادين، وله عدة تصانيف في المذهب، توفي سنة (٥٦٢هـ).

انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٤٥٠، و«الجواهر المضية»: ٢/ ٤٤٣ ــ ٤٤٤، و«الفوائد البهية»: ٩٨ ــ ٩٩، و«كشف الظنون»: ١١٤، ٣٤٦، ٥٦٢، و«إيضاح المكنون»: ١/ ٤٢٥، وفي كليهما «عبد الغفار» وهو تحريف.

الخصوم إلى مجلس الحكم. فحضر بعضُ التجار، وادَّعى أن له على نور الدين دعوى. فقال الكَرْدَري[1] لسويد المذكور: امضِ إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرِّفْه أنه حضر شخصٌ يطلب حضورَه. وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان، فخرج إسماعيل الخِزَنْدار* فوجده، فتقدَّم سويد إليه وقال: قد سيرني تاج الدين القاضي ــ وذكر أنه حضر تاجر، وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين ــ وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا. فضحك إسماعيل الخِزَنْدار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى [فقال: إلى أين؟ فقال: قد حضر سويد غلام تاج الدين الكَرْدَري وقال: إن تاج الدين أرسله يطلب المولى][2] إلى مجلس الحكم! فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزاءه وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[3]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امضِ إلى القاضي تاج الدِّين، وسلِّم عليه وقل له: إني جئتُ إلى ها هنا امتثالاً لأمر الشَّرْع، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقَّة وفيها الأطيان؛ وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجَّهَتْ عليَّ يمين أحضر إن شاء الله. قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين، فقال الكَرْدَري[1]: قد توجهت اليمين فليحضر. فلما بلغ نور الدين ذلك، وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه.

---

(١) في الأصل: الكردي، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) سورة النور: الآية ٥١.

سمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك النَّاصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شِيركُوه ـ وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته ـ فقال: امضِ وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس. وَخُذْ رأيه في ذلك. قال: فجئت إليه وأنهيت إليه ما قال لي. فقال: امض وقل له: يا مولانا إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغَزَاة وخروج العساكر؟ فقال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمرٌ قد ألهمه الله إياه، فساعِدْه عليه. فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فعدت إلى نور الدين، فأنهيت إليه ما قال لي عمي، فقال: امض إليه [وقل له][1]: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج. قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ما قال. فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو. فراجعته في ألا يثبِّطَه عن[2] ذلك، فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مُدَّة، ثم أمضى ما كان عَزَمَ عليه.

قال لي صقر بن يحيى[3]: بلغني أن موفق الدين خالداً* رأى في النوم كأنَّ نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين، فتمعَّر[4] وجه نور الدين، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه يوماً نور الدين وقال: تعال، قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين: إنني قد رفعتُ

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في الأصل: «في» والمثبت من (ل) و(م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١، ص ٦١، من هذا الجزء.
(٤) أي تغير وعلته صفرة. «اللسان» (معر).

عنكم ما رفعه الله عنكم، وأثبتُّ عليكم ما أثبته الله تعالى عليكم. قال: فكتبَ موفق الدين توقيعاً[1].

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه[2] يقول: سمعت أبي يقول: لما كسر نور الدين؛ يعني كسرة البقيعة، تكلَّم البرهان البَلْخي[3] فقال: أتريدون أن تُنْصَروا وفي عسكركم الخمور والطُّبول والزمور! كلا. وكلاماً مع هذا[4]. فلما سمعه نور الدين قام، ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس، إلى أن خرج في نوبة حارم* وكسر الإفرنج.

وسمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النُّوري وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وعتيقه ـ يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يَلْبَس في الليل مِسْحاً*، ويقوم يصلِّي فيه قطعة من الليل. قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحمِ العَشَّار المكَّاس.

---

(١) في هامش الأصل: «حاشية، قال الكاتب: وقفت أنا على هذا التوقيع بخط موفق الدين ورأيته». قلت: سلف هذا الخبر ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٢) ولد بحلب سنة (٥٥٣هـ) على أحد الأقوال، وهو شيخ ابن العديم، وتلميذ أبي بكر بن مسعود الكاساني صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» (ط)، توفي خليفة في حلب سنة (٦٣٨هـ)، انظر «الجواهر المضية»: ٢/ ١٧٦ و «الفوائد البهية»: ٧١.

(٣) سترد ترجمته ص ٢٩٢، من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: مع هذا، مكررة، وفي هامشه: «حاشية، قال المؤلف: لم تكن هذه كسرة البقيعة، فإنها كانت سنة ثمان وخمسين على ما يأتي، ومات البلخي قبلها بعشر سنين، وإنما هذه كسرة أخرى متقدمة ستأتي في أخبار سنة ثلاث وأربعين، وكان البلخي تلك السنة بحلب ينشر السنة بها على ما ذكرناه في ترجمته في «التاريخ»، فتكلم بهذا الكلام، والله أعلم».

قلت: كُسر نور الدين في يغرا ثم انتصر بعد، وذلك سنة (٥٤٣هـ). انظر ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سيَّر نور الدين إلى بغداد كتاباً يُعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدَّم إلى الوعاظ بأن يستجعلوا[1] من التُّجَّار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه؛ يعني من أموالهم، فتقدَّم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

١٦/١ حدثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدِّين حين خرج لأخذ شَيْزَر* خرج أبو غانم بن المنذر صحبَته، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرَّان* وسِنْجار* والرَّحْبة* وعَزَاز* وتل باشر* وعِدَاد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تَقَرَّبَ به إلى الله سبحانه وتعالى[2] صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن عَلِمَ ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفَّار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفةً بالمسلمين المثاغرين[3]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنَهُمْ بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم، وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بغيرِ حِسَاب﴾[4] وأعاد عليهم ما اغتُصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العُمَرِيَّة، وأقرها في الدولة الإسلامية بعدما طرأ عليها من الظَّلَمة المتقدِّمين، واسترجعه بسيفه من الكَفَرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر،

---

(١) في الأصل: يستحلوا، والمثبت من (ل) و (م)، وقد وردت هذه اللفظة ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: تعالى سبحانه، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) أي سكان الثغور.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٠.

وهدم أركان التعدِّي، وأقر الحق مقرَّه. لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها﴾[1]، ﴿واللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2]. ثم لما أعانه الله بعونه وأَيَّدَه بنصره، وقمع به عادية الكُفْر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطَّاغية، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيلٍ غير مُقَاد، وهاربٍ ممنوع الرُّقاد، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِين فِي الأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[3]. عَلِمَ أَنَّ الدُّنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى مُلْكَه الزَّائل بأن قدَّمه أمامه، وجعله ذُخْراً للمَعَاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت الموادّ، وجادَّةٌ واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾[4]. فصفح لكافَّةِ المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه، وحَرَّمها على كل متطاولٍ إليها، ومتهافتٍ عليها، تجنباً لإثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه ــ اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيِّه [محمد][5] ﷺ ــ في كل سنة من العين مئة ألف وستةً وخمسين[6] ألف دينار، جهة ذلك: حلب خمسون ألفَ دينار، عَزَاز* ــ عن مكس جدَّدته الفرنج، خذلهم الله، على المسافرين ــ عشرة آلاف دينار، تل باشر* أحد وعشرون ألف دينار، المعرة* ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة ــ لمَّا استنجد به أهلها واستصرخ مَنْ فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدوِّ، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٢.
(٣) سورة ص: الآيات ٣٨ ــ ٤٠.
(٤) سورة الانفطار: الآية ١٩.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) في الأصل، و(ل) خمسون، والمثبت من (م).

سنة، وهو رسم يسمُّونه الفسة[1] ـ عشرون ألف دينار، حِمْص ستة وعشرون ألف دينار، حَرَّان* خمسة آلاف دينار، سِنْجار* ألف دينار، الرَّحبة* عشرة آلاف دينار، عِدَاد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدَّق به وأجراه في سُبُل الخيرات ووجوه البِرِّ والصَّدَقات تقدير ثمنه مئتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار؛ من ذلك ما وقَفَه على المدارس الحنفية والشَّافعية والمالكية والحنبلية وأئمَّتها ومدرِّسيها وفُقَهائها، وما وقفه على آدُر[2] الصُّوفية والرُّبُط* والجسور والبيمـارَسْتانات والجوامـع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبيل[3] في طريق الحجاز، وما وقفه على فَكَاك الأسرى، وتعليم الأيتام، ومقرِّ الغُرَباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعَبَّاسيين، وما ملَّكه لجماعةٍ من الأولياء والغُزَاة والمجاهدين. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثُّغور حَرَسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدَّم ذكرُها، فإنَّه يضاهي هذا المبلـغ وزيادةً عليه، جعل ذلك ذريعةً عند الله تعالى وتقرُّباً إليه، مضافاً إلى ما أنفقه في الغَزَاة والجهاد، واستئصال شَأْفة الكُفْر والعناد، من خزانتـه المعمورة، وأمـواله المـوروثة المذخورة، طلباً لما عند الله ﴿واللَّهُ عِنْدَه حُسْنُ الثَّوَاب﴾[4] فالواجب على كلِّ إمامٍ عادل وسلطان قادر أن يَمُدَّه ويَوَدَّه، ويشدَّ عَضُـدَه، ويقـوِّي عزمه، وينفِّذَ حكمه، وعلى كل مسلمٍ أن يواصلَه بالدُّعاء، آناء اللَّيل وأطرافَ النهار، وكتب خادم دولته وغَذِيُّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا

(١) كلمة عامية تعود إلى ذلك العصر، وسيرد خبر إبطالها في دمشق ص ٢٢٣ من هذا الجزء.
(٢) جمع دار، على القلب، انظر «اللسان» (دور).
(٣) في (م) السبل.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

المتعبِّدين، وكافَّةِ التجار والمسافرين، أحسن الله توفيقهم، وسدَّد إلى أغراض الخير تفويقَهُمْ، ليُشعروا بذلك من حضرهم من التُّجَّار، والمتردِّدين إليهم من السُّفَّار، ليعرفوا قَدْرَ ما أنعم الله به عليه وعليهم ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[١]، ويمدُّوه بأدعيتهم ويبرؤوا ذمته مما سبق من أَخْذِ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه بِرٍّ، وتجهيزِ جيشٍ، ومعونة مجاهد، وردع كافرٍ ومعاند، فهم شركاؤه في الثَّواب.

١٧/١ قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقَفَ نور الدين على قوله: ويبرؤوا ذمته مما سبق. استحسن ذلك كثيراً، ووعدَه بإقطاعٍ حسن، واتفق موته بعد ذلك[٢].

قلت: ونقلت من خَطِّ الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخَضِر بن الحسين بن عَبْدَان الأَزْدي الدِّمَشْقي[٣]: وقف المولى نور الدين بُستان الميدان سوى الغيضة التي من قبليِّه بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها، وهي: جامع دمشق المحروسة*، جامع قلعة دمشق*، مدرسة الحنفية التي جدَّدها نور الدين[٤]، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية*، مسجد ابن لبيد بالفسقار*، مسجد سوق الرَّمَّاحين*، المسجد المُعَلَّق بسوق الصَّاغة*، مسجد دار البطيخ[٥] المعلَّق*، مسجد العَبَّاسي بسوق الأحد*، مسجد جدَّده نور الدين جوار بيعة

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٢) في هامش الأصل: «حاشية: إلى هنا انتهى ما نقله المؤلف من خط ابن العديم، والله أعلم». قلت: انظر ص ٥٦ من هذا الجزء، وفيها بداية ما نقله.

(٣) ولد سنة (٥٢٠هـ)، وتوفي بدمشق سنة (٥٨٤هـ)، انظر «التكملة» للمنذري: ١/٩٣ ـ ٩٤، وفيه: «أبو الحسين»، و«تلخيص مجمع الآداب»: ج ٤/ ق ١/١٩٥ ـ ١٩٦، وفيه: «أبو عبد الرحمن»، ولم يسمه.

(٤) انظر في كشاف الأماكن ما كتب عن المدرسة النورية الصغرى.

(٥) في الأصل و(م): بطيخ، والمثبت من (ل).

اليهود*، جامع الصَّالحين بجبل قاسيون*. يبتاع بذلك طيب وعود ويُفَرَّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً، جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية، لكل مسجد جزءٌ واحد، تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضاً أن نور الدين رحمه الله تعالى حضر عنده بقلعة دمشق* يوم الخميس تاسع عشر صَفَر سنة أربع وخمسين وخمس مئة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القُرَشي[1]، والفقهاء: الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد[2]، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن

---

(١) ولد سنة (٥٠٧هـ)، تولى قضاء دمشق، ثم استعفى منه سنة (٥٥٥هـ) فأعفي، فخرج إلى مكة حاجاً، وعاد إلى بغداد في صفر سنة (٥٦٣هـ) فأقام بها يحدث، حتى توفي سنة (٥٦٤هـ)، ودفن في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل. وهو والد أبي المعالي محمد بن علي المعروف بابن الزكي، صاحب أول خطبة جمعة في بيت المقدس بعد فتحها. انظر «وفيات الأعيان»: ٢٣٦/٤، و«سير أعلام النبلاء»: ٥١٩/٢٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٣٥/٧، و«قضاة الشافعية» للنعيمي: ٤٦ المنشور في قضاة دمشق لابن طولون. وانظر ص ٣٨٨، من هذا الجزء.

(٢) هو الخضر بن شبل بن الحسين، المعروف بابن عبد، ولد سنة (٤٨٦هـ) ودرَّس الفقه وأفتى سنة (٥١٨هـ)، وكان سديد الفتوى، درس بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وتولى الخطبة فيه، ودرس بالمدرسة المجاهدية الجوانية (مسجد السادات جانب باب العمارة الجوانية الآن)، ووقف له نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج (سميت بعد بالعمادية وقد درست). سمع منه القاسم بن عساكر، ولزم درسه مرة، وعلق عنه من مسائل الخلاف، توفي سنة (٥٦٢هـ). انظر «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٣٢٥/٥ أ (وترجمته فيه من زيادات القاسم على تاريخ أبيه)، و«مرآة الزمان»: ١٦٨/٨ ـ ١٦٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٥٩٢/٢٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨٣/٧، وسيرد له ذكر في ١٧/٢ من هذا الكتاب، وانظر «تهذيب ابن بدران»: ١٦٢/٥.

الماسح[1] الشَّافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهَّاب بن عيسى المالكي[2]، وشرف الإسلام نجم بن عبد الوهَّاب الحنبلي[3]، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي؛ رئيس دمشق[4]، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء؛ متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصَّائن أبو الحسين، وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به، ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره،

---

(١) أحد أئمة المذهب، ولد سنة (٤٨٨هـ)، كان فرضياً نحوياً، وله حلقة كبيرة بالجامع الأموي للإقراء والفقه والنحو، توفي سنة (٥٦٢هـ). والماسح: هو الذي يتصدى لقياس أرض الزراعة، انظر: «إنباه الرواة»: ٢/٢٤١ ـ ٢٤٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٤٦٧ ـ ٤٦٨، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/٢١٤، وانظر «صبح الأعشى»: ٥/٤٦٦.

(٢) أصله من المغرب، قدم دمشق وهو شاب سنة (٥٣٥هـ) وكان يختلف إلى مدرسة الفقيه أبي البركات بن عبد، ثم اعتنى به الأمير معين الدين أنر، فدرس في الجامع الأموي تحت قبة النسر، سمع من الحافظ ابن عساكر، رمم له نور الدين داراً بحجر الذهب (محلة كانت قريبة من البيمارستان النوري، تسمى اليوم الحريقة) توفي سنة (٥٥٤هـ) انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٠/٣٠٦ ب. قلت: هي المدرسة النورية المالكية.

(٣) ولد سنة (٤٩٨هـ)، كان شيخ الحنابلة بالشام في وقته، أفتى ودرَّس وهو ابن نيف وعشرين سنة، ما حابى في دين الله أحداً، ولم يل ولاية من جهة السلطان، وكان الشيخ الموفق وأخوه أبو عمر ابني قدامة إذا أشكل عليهما شيء سألاه، توفي سنة (٥٨٦هـ)، ودفن بسفح قاسيون. وشرف الإسلام هو لقب والده عبد الوهاب بن عبد الواحد، المتوفى سنة (٥٣٦هـ). انظر «التكملة» للمنذري: ١/١٣٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١٠٣، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٤) رُدَّت إليه رياسة دمشق سنة (٥٤٨هـ) بعد قتل الوزير حيدرة، انظر ص ٢٩١ من هذا الجزء.

ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والسَّاكت منكم مُصَـدِّقٌ للناطق ومصوِّب لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدونَ به، وعلى هذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم، يجتمعون ويتشاورون في مصالـح المسلمين.

فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجـامـع والمساجـد والبيمارَسْتـان، وقُنِيّ السَّبيل وما يجري مـع ذلك أن يَقْرَأ عليه بمحضرٍ من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالـح دون الوَقْف. فافتتح بالسُّوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارَسْتَان[١]، فقال الصائن وابن تميم وابن هـلال: هذا السـوق بكمالـه لمصالـح المسلمين، وليس من وقفِ الجامـع؛ لأنه أُحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامـع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه. فصدَّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلـغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عَيَّنَ للمصالـح أيضاً ما في زيادة الجامـع القبلية، وزيادة باب البريد* في الصف القبلي والشَّـامي[٢] من العضائد والحوانيت والحُجَر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميـع بيوت الخضراء* من قبلة الجامـع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيـل* والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخَوَّاصين* في الصف الغربـي، واثنا عشر حانوتاً[٣] متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدَّة بحضرة دار الوكالة* إلى سوق علي* وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً، ومصطبة وثلاثة حوانيت في الصف

---

(١) النوري، انظره في كشاف الأماكن.

(٢) قال عبد القادر بن بدران في «تهذيب تاريـخ ابن عساكر»: ٢١٩/١ «اصطلح المتقدمون على تسمية الجهة الشمالية بالشامية هرباً من أن يطلقوا على أهلها أنهم من أهل الشمال».

(٣) الحانوت يذكر ويؤنث. انظر «اللسان» (حنت).

الشامي من سوق علي بلصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار* في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفُقّاعي[1]، وحوانيت اللّبادين*، والتي بحضرة الفَوّارة*، وتحت اللّبادين، وقيسارية* العقيقي بسوق الأحد* وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب دَرْب التّمّارين*، وحانوت بقنطرة الشّمّاعين* في الصف الشّامي بحضرة البياطرة*، وقطعة جوار المأمونية* من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمسة عشر عضادة، وستة أسهم من طاحونة السقيفة. وذلك كلُّه بعضه ميراثٌ عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشْتُري بمالِ الوقف والمصالح، وبعضه أُخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضه أُحدث في الطريق. قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح قال نور الدين: إن أهمَّ المصالح سَدُّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والقِل[2] والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم. فصوَّبوا ما أشار إليه، وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف، هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فأفتى شرف الدين عبد الوَهّاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون الشّافعي: لا يجوز أن يُصْرَفَ وقفُ مسجدٍ إلى غيره، ولا وقف مُعَيَّن إلى جهةٍ غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في

١٨/١

(١) نسبة إلى عمل الفقاع وبيعه؛ وهو شراب يتخذ من الشعير، سمي به لما يعلوه من الزبد. «اللسان» (فقع) و«اللباب»: ٢/٢١٩.

(٢) القِلِ: الحائط القصير، انظر «القاموس المحيط» (قلل). وفي (م): الفصيل: وهو أيضاً حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد. «القاموس المحيط» (فصل).

المصالـح ، ويكون القضاء واجباً من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابنُ أبـي عصرون نورَ الدين: هل أُنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكَلَّاسة* من شام ِ الجامـع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر[1] بالجامـع، وعلى الرَّصَاص المعمول على سطـح الرواق الشَّامي من الجامـع، وسائر العمارات المتعلِّقة بالجامـع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان[2] إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نورُ الدين: لم تُنْفِقْ ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتـح المشهدين[3]* من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكنتَ مبلغاً عني ومؤدياً أمري[4].

قلت: هذا مختصرُ المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس، وهو مشتملٌ على فوائد حسنة، وتأكيد لما نُقِلَ من سيرة هذا الملك في وقوفه مـع أوامر الشريعة. وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين. وصورة ما كتبه المالكي المفتي: حضرتُ المجلس المذكور ــ عمره الله وَزَيَّنه بالعدل أبداً ما عـاش صاحبـه ــ وشهـدت علـى مـا تضمَّنه من المشـورة المباركة، وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضـع المشهورة كما نسب إليهم، وقد أخلَّ بذكر دار الحجـارة، وقـد ذكروها في المصالـح، وما نسب إليَّ من الفتوى فقد كنتُ قَيَّدْته بالحاجة وفراغ ِ بيت المال، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية، كتبه عبد الوَهَّاب بن عيسى بن محمد المالكي.

---

(١) أي تحت قبة النسر. انظر كشاف الأماكن.

(٢) أي ابن أبي عصرون.

(٣) في الأصل: المشهد، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) كان ابن أبي عصرون متولياً نظر الأوقاف، وقد اتهم في أمانته، فهو هنا يدفع عن نفسه هذه التهمة، انظر «منامات الوهراني» ص ٦٧ ــ ٧١، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٥٨ من هذا الجزء.

فصـــل

وقد مُدح نور الدين رحمـه الله بأشعارٍ كثيرة، وأوصافه فوقَ ما مُدِحَ به. وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسين[1] أحمد بن منير[2]، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملةٌ منها في مواضعها. وقد رأيتُ أن أُقدِّم منها شيئاً هنا.

قرأتُ في «ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَراني»: كتب إلى نور الدين: سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانـه، على مَنْ عصم ثغر العواصم، وخصم بحجَّته الدَّهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل الله سيوفَ الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العُبَّاد والزُّهَّاد، واهتدى إلى طاعة اللَّه وليس غير الله من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال مَلَكته[3]، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النَّصْر، وممالك الإسلام متوَّجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأَزِمَّة القهر، ومن رأى الحِكَمَ دارسة فبنى مدارسها، والهممَ يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة[4] فأمكن من صَهَوَاتها فوارسَها؛ ومن عمر رَبْـعَ[5] السُّنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن مَنْ كان منها على شفى، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيَّام العَدْل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ النَّاسُ به من الزمان توقيـع الأمان.

---

(١) في الأصل و (ل) أبو الحسن، والمثبت من (م).

(٢) سترد ترجمتها في وفيات سنة (٥٤٨هـ)، ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

(٣) أي عبيده. «اللسان» (ملك).

(٤) أي جامحة. «اللسان» (شمس).

(٥) الربـع، المنزل والدار والوطن. «اللسان» (ربـع).

ذو الجِهَـادَيْنِ مِنْ عـدوٍّ ونَفْسٍ فهـو طـول الحيـاةِ في هَيْجـاءِ
أيهـا المـالـكُ الـذي ألـزم النَّا سَ سلوكَ المحجَّـة البيضـاءِ
قـد فَضَحْتَ الملوكَ بالعَـدْل لَمَّـا سِـرْتَ في الناس سيـرةَ الخُلَفاءِ
قاسماً ما مَلَكْتَ في النَّاس حتى لـقسـمت التُّقَـى على الأتـقيـاءِ
شيم الصَّـالحين في جُنَنٍ[1] التُّر ك وكم من سكينـةٍ في قَبـاءِ
أنتَ حيناً تقـاس بـالأسـد الـوَرْ دِ وحينـاً تُـعَـدُّ فـي الأولـيـاءِ
صـاغَكَ الله من صميم المعـالي حيث لا نسبـة سـوى الآلاءِ
وكـأَنَّ القَبـاء منـك لما ضمَّ (م) مِنَ الـطُّهْـرِ مَسْجـدُ بقُبـاءِ[2]
أنـت إلَّا تكـنْ نبيـاً فـمـا فـا تَـك إلَّا[3] خـلائقُ الأنـبـيـاء
رأفـةٌ فـي شـهـامـةٍ وعـفـافٌ في اقتـدارٍ وسَـطْوَةٌ فـي حيـاء
وجـمـالٌ ممـنطقٌ بـجـلالٍ وكـمـالٌ مُـتَـوَّجٌ بـبـهـاءِ
وإذا ما الملوكُ خافت سهام الذّ (م) مِّ زَرَّتْ عـليـك درع الثَّـنـاءِ
عَجِبَ النَّاس منك أنك في الحر بِ شهـابُ الكتيبـة الشَّـهْبَـاءِ
وَكـأَنَّ السيوفَ من عَـزْمِـكَ المـا ضي أفادتْ ما عندها من مَضَـاء ١٩/١
وَلَعَمْـرِي لـو استـطاع فَـدَاك الـ ـقـومُ بـالأمَّـهـات والآبـاءِ

وله فيه:

لـلَّهِ عَـزْمُـكَ أي سيـفٍ وَغَـى طُبِعَـتْ مضـارِبُـه عـلى القَـهْـرِ
مـا زُفَّتِ الحـربُ العَـوَانُ[4] بـه إلا انـجلتْ عـن مَعْـقِـلٍ بِكْـرِ

---

(١) مفردها جُنَّة، وهي الدرع. «اللسان» (جنن).

(٢) قباء: قرية على ميلين من المدينة المنورة على يسار القاصد إلى مكة، فيها مسجد التقوى بناه الصحابة المهاجرون ومن نزل إليهم من الأنصار قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، فلما قدم عليه السلام قباء صلى بهم فيه. انظر «معجم البلدان»: ٣٠٢/٤.

(٣) في هامش الأصل و(ل): «حاشية: إلا: أي قسماً».

(٤) الحرب العوان: التي كان قبلها حرب. انظر «اللسان» (عون).

هل وَجْهُ نور الدين غير سنىً ... صَدَعَ الدُّجى عن خَجْلَةِ البَدْرِ
ملكٌ مهابتُه طليعتُه ... أبداً أمامَ جيوشِهِ تَسْرِي
كم فَلَّ كيدَهم بصاعقةٍ ... شَغَلَتْ قلوبَهُمُ عن الفِكْرِ
تركتْ حصونَهُمُ سجونَهُمُ ... فالقومُ قبل الأسر في أَسْرِ
عَصَمَ العَواصِمَ فهي ضاحكةٌ ... تجلو الظُّبى ثَغْراً على الثَّغْرِ
وإذا سرايا خَيْلِهِ قَفَلَتْ ... نَهَضَتْ سرايا الخوفِ والذُّعْرِ
ورمى القِلاعَ بمثلِ جَنْدَلِها ... حتى استكانَ الصَّخْرُ بالصَّخْرِ
يا سائلي عن نَهْجِ سيرتِهِ ... هل غيرُ مَفْرِقِ هامةِ الفَجْرِ
عَدْلٌ حقيقٌ مَنْ تأمَّلَه ... أن يُحْيِيَ العُمَرَيْن بالذِّكْرِ
وشهامةٌ في الله خالصةٌ ... عَقَدَتْ عليه تمائمَ الأَجْرِ
وندَى يدٍ ما ضَرَّ واردَها ... ألَّا يبيتَ مجاورَ البَحْرِ
هذا المخيِّم في ذُرا حَلَبٍ ... وثناؤه أبداً على ظَهْرِ

وله [فيه][1] وقد وصف داره:

دار تَغارُ الشَّمْسُ في أفقها ... من حُسْنِها والشمسُ مِغْيارُ[2]
يزأرُ فيها ضَيْغَمٌ ما لَه ... غير سيوف الهندِ أَظْفارُ
تمسي وتُضْحي وهو جارٌ لها ... والله ذو العَرْشِ له جارُ
لسيفه الباترِ من دَهْره الـ ... ـجائرِ ما يَهْوَى ويختارُ
قد ملأ الأسفارَ من ذِكْره ... نَشْرٌ له في الرَّوْضِ إسفارُ
حَمْدٌ يَضُوعُ الجوُّ من طيبه ... كأنما راويهِ عَطَّارُ
إنْ خَطَرَتْ في قلبه خطرةٌ ... أجابها ماضٍ وخَطَّار[3]

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) أي شديدة الغيرة. «اللسان» (غير).
(٣) الرمح. «اللسان» (خطر).

وإن دعا داعيه يومَ الوغى سيوفه لبتّه أقدارُ
كأنما صارمه مُرْسَلٌ له من التأييد أنصارُ
يا مالك الدُّنيا ولكنَّها دنيا لها في الدين آثارُ
ويا جواداً ما لآلائه غيرَ فضاء الحمد مِضْمارُ

وله فيه:

تداركَ ملَّةَ العربيِّ ذَبًّا إلى أَنْ عَدَّه منه مَعَدُّ
وحَلَّ ذُرى العَوَاصِم وهي نُهْبَى فأجلى الشِّرْكَ حتى ليس ضِدُّ
ثنى يدَه عن الدُّنيا عفافاً ومال بها عن الأموال زُهْدُ
رأى حَطَّ المكوس عنِ الرَّعايا فأهدَرَ قَبْلُ ما أنشاه بَعْدُ
ومدَّ لها رِوَاقَ العَدْلِ شِرْعاً وقد طُوِيَ الرِّواقُ ومن يَمُدُّ
وبات وعند باب العَرْشِ منها لدولتِهِ دعاءٌ لا يُرَدُّ

وله فيه:

مَلِكٌ أشبه الملائكَ فَضْلاً وشبيه بمالكِ الأمرِ جُنْدُهْ ١/٢٠
عَمَّ إحسانُه فأصبحَ يُتْلى شكرُهُ في الورى ويُدْرَسُ حَمْدُهْ
فَسَقَى الله ذِكْرَه أينما حلَّ (م) ولا فاتَه مِنَ النَّصْرِ رِفْدُهْ

وله:

ضحكت تباشيرُ الصَّباح كأنَّها قَسَماتُ نور الدين خير النَّاسِ
المشترِي العُقْبى بأنْفَسِ قيمةٍ والبائع الدُّنيا بغير مِكاسِ
وسرى دعاءُ الخَلْقِ يحرس نَفْسَه إن الدُّعاء يُعَدُّ في الحُرَّاسِ
راض الخطوب الصُّمَّ بعد جماحها وألانَ من قلبِ الزَّمان القاسي
وأعاد نورَ الحقِّ في مِشْكاته وأقام وَزْنَ العَدْلِ بالقِسْطاسِ
واختار مجدَ الدِّين[1] سائسَ مُلْكه فحمى الرِّياسة منه طودٌ راسي

---

(١) على هامش الأصل: «يعني ابن الداية».

فهـو الخبيرُ بكـلِّ داء مُعْضِـلٍ[١] يـأسـو جـراحَ زمـانـنـا ويـواسي

وأذلَّ سُـلْطان الـنِّـفـاق بـعـزَّة خضعت لها الآساد في الأخياس[٢]

وَعَـرَتْه أقـرانُ الخُـطُوبِ فَصَدَّهـا ألـوى[٣] يمـارسُهـا أشـدَّ مِـرَاسِ

ولـو آنَّ فَيْضَ النِّيـل فـائض نَيْلِهِ لم تفتقـر مِصْـرٌ إلى مِـقْيـاسِ

سكَّنْتَ شَغْبَ الدَّهر بعد تخمُّطٍ[٤] وأَلَنْتَ مِنْ عِـطْفيه بعـد شِمـاسِ

وفتحتَ بـابَ الحظِّ بعـد رِتـاجـه وأَذِنْتَ لـلأطمـاع بعـد اليـاسِ

حتى منحتَ الخلقَ كـلَّ مَسَـرَّةٍ فالنَّاسُ في عُـرْسٍ من الأعراسِ

ولـه:

سـام الشَّـآم ويـا لهـا من صَفْقَـةٍ لولاه ما عنَّتْ[٥] على يـد سائمِ

وَلَشَمَّـرَتْ عنهـا الثُّغـور وأصبحتْ فيها العواصم وهي غيـرُ عواصمِ

تلـك التـي جَمَحَتْ على مَنْ راضَها ودعوْتَ فانقـادَتْ بغير شكـائمِ[٦]

وإذا سعـادتـك احتَبَتْ في دولـةٍ قـامَ الـزَّمـانُ لهـا مقـامَ الخـادمِ

حصِّنْ بـلادك هـيبـةً لا رهبـةً فالدِّرْع من عُدَدِ الشجاع الحازمِ

هيهاتَ يَطْمَـعُ في محلِّكَ طـامعٌ طـال البنـاءُ على يمين الهـادمِ

كلَّفْتَ هِمَّتَـكَ السُّمُـوَّ فـحلَّقَتْ فكـأنمـا هي دعـوةٌ في ظـالمِ

وأظن أَنَّ النَّـاس لمـا لم يَـرَوْا عَدْلاً كعدلـك أَرْجَفُوا بـالقائمِ[٧]

---

(١) في الأصل: معظل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) مفردها خيس: موضع الأسد، وتأتي أيضاً بمعنى المجتمع من كل شجر. «اللسان» (خيس).

(٣) أي الشديد الخصومة. «اللسان» (لوى).

(٤) أي بعد اضطراب. انظر «اللسان» (خمط).

(٥) في «خريدة القصر» ما أعيت.

(٦) مفردها شكيمة وهي في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس. انظر «اللسان» (شكم).

(٧) القائم هو المهدي المنتظر، والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١١٢ ـ ١١٤.

ولـه:

قلتَ بقولِ اللَّهِ لا خائفاً مَعْ حَكَمِ القرآن حُكْمَ القِرانْ[1]

لا رَاقِبَ النَّجْم ولا سائلاً ما فعل السَّعْدَانِ والنَّيرانْ

بل غِرْتَ للإسلام حتى لقد دانَ له من بالطَّواغيت دانْ

رُعْتَ[2] نواميس نواقيسها بجَلْبَةِ[3] الآذان وقتَ الأَذَانْ[3]

تمحو تصاوير الدُّمَى عن يدٍ تبني المحاريبَ خلالَ المَجَانْ[4]

هذا وكم أنشأْتَ من مِنْبَرٍ فارسُه فارسُ سِحْرِ البيانْ

مَنْ نال بالإخلاص ما نِلْتَه كان من الله مكينَ المكانْ

يا شائماً بالشَّام صَوْبَ الحيا[5] ودانياً من كلِّ قاصٍ ودانْ

هذي سُجُوف الملك مرفوعةً عن ملكٍ أخباره كالعِيَانْ

أوضح سُبْلَ[6] العَدْلِ مُفْتَنَّةً فللبرايا بالدُّعاء افتنانْ

أَلْغَى حقوقاً كلُّها باطلٌ إلى ضمانٍ حطّ مال الضَّمانْ ٢١/١

عطفاً ورِفْقاً بالرَّعايا وإن أصبح تأديبَ ملوكِ الزَّمانْ

كم بينَ مَنْ نامَ على نشوةٍ وساهدٍ في صهوةٍ من حِصانْ

في كلِّ يومٍ يبتني سيفُه ببلدةٍ بِكْرٍ وأُخرى عَوَانْ

وقرأتُ في ديوان أحمد بن منير الطَّرابُلُسي من قصائدَ يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى:

---

(١) القران هو كسوف الشمس بواسطة قرص القمر، وله معانٍ عند المنجمين.

(٢) في (ل): رغت.

(٣) سكنت اللام لضرورة الشعر.

(٤) مفردها مجن، وهو الترس، «اللسان» (جنن).

(٥) في الأصل: الجياد، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) سكنت الباء للضرورة.

يـا محيـي العَـدْل ويـا مُنْشِـرَهُ … من بين أطباقِ البِلَى وقـد هَمَـدْ
وركـنَ الأسـلام الـذي وَطَّـده … طـالَ وأرسى العِزَّ فيـه وَوَطَـدْ
وشـارِعَ المعـروفِ إذ لا شفـةٌ … تجنحُ للقَـوْل ولا تشمـخُ يَـدْ
محـوتَ مـا أثبتَـهُ الجَوْرُ مضى … عـليـه إخـلادُ اللَّيـالـي فَـخَلَدْ
مِنْ كُـلِّ مكَّـاسٍ يـظلُّ قـاعـداً … لِمَـا يسـوءُ المسلمينَ بـالـرَّصَـدْ
كـانتْ لأرجـاسِ اليهـودِ دولـةٌ … أزالهـا منـك الهَصُـور ذو اللِّبَـدْ
الملك العـادل لفظٌ طـابـقَ الـ … ـمعنى وفي الوَصْفِ مُعَارٌ[1] مُسْتَرَدْ
خَيْرُ النُّعوت ما جرى الوصفُ على … صفحته جَرْيَ النَّسيم في الوَمَدْ[2]
عَـدْلٌ جنيتَ اليـومَ حُلْوَ رَيْعِـهِ … وسوفَ يُجنى لك أحلى منه غَدْ
لا زالَ لـلإسـلامِ منك عُـدَّةٌ … تـقيـمُ مـنـه كـلَّ زَيْـغٍ[3] وَأَوَدْ
النَّاسُ [أنتَ][4] والملوك شَرَط[5] … تُـعَـدُّ ليثـاً ويُـعَـدُّونَ نَـقَـدْ[6]
مـثلكَ لا يـسـخـو بـه زمـانُـهُ … وَمِثْـلَ مـا أُوتيتَ لم يُؤْتَ أَحَدْ

ولـه:

أيـا نـورَ دِيْـنٍ خَـبـا نـورُه … وَمُـذْ شـاعَ عَـدْلُـكَ فيـه اتَّقَدْ
رآكَ الـصَّليبُ صليـبَ القنـاة … أمينَ الـعِـثَـار مـتيـنَ الـعَـمَـدْ
تـهـمُّ فـتـسـلُبـه مـا اقـتـنـى … وَتَـذْأى[7] فَتُثْكِلُه مـا احْـتَشَـدْ
زَبَنْتَهُمُ[8] أمسِ عـن صَـرْخَـدٍ* … فـفـضُّـوا كـأَنَّ نَـعَـامـاً شَـرَدْ

---

(١) في الأصل: معاد، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) ندى يجيء من البحر في شدة الحر وسكون الريح. انظر «اللسان» (ومد).
(٣) في (ل): زوغ.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) الشَّرَط: الدون من الناس. «اللسان» (شرط).
(٦) النقد: جنس من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه، يقال: هو أذل من النقد. انظر «اللسان» (نقد).
(٧) ذأى يذأى: مَرَّ مراً خفيفاً سريعاً. «اللسان» (ذأي).
(٨) أي دفعتهم: «اللسان» (زبن).

ويـومَ الـعُـرَيْـمَـةِ[١] أقـبـلـتـهـم ... عُـرامـاً تـثـعـلَـبَ مـنـه الأَسَـدْ
جَنْبتَ[٢] مليكَهُمُ في الصِّفَـاد[٣] ... وعـفـوكَ عنـه أَعَـمُّ الصَّـفَـدْ[٤]
وقَـبْـلُ أَزَرْتَـهُـمُ فـي الـرُّهـا* ... مـوازق مَـزَّقْـنَ جُـرْدَ الـجَـرَدْ
بـقـيـتَ تـرقِّـعُ خَـرْقَ الـزَّمـانِ ... قـيـامـاً لأبـنـائـه إن قَـعَـدْ
تـثـقِّـفُ مـن زيـغـه مـا الـتَـوَى ... وتـصِـلحُ من طبـعِـهِ مـا فَسَـدْ

وله:

أيا ملكَ الدُّنيا الحُلاحِلِ[٥] والذي ... لـه الأرضُ دارٌ والبـريَّـة أَعْبُـدُ
وليستْ بـدعـوى لا يقـوم دليلُها ... ولكنَّـه الحقُّ الـذي ليس يُجْحَـدُ
أخـو غَـزَوَاتٍ كـالعقُـودِ تناسَقَتْ ... تَحُـلُّ بـأجيـادِ الجيـاد وتُعْقَـدُ
لسـانٌ بِـذِكْـرِ الله يكْسُـو نهـارَه ... بهاءً وجَفْنٌ في الدُّجى ليس يَرْقُدُ
وَبــذْلٌ وعَـدْلٌ أغـرقـا وتـألَّقـا ... فلا الوِرْدُ مثمودٌ[٦] ولا البابُ مُوْصَدُ
مَـرَامٌ سـمـائيٌّ وحَـزْمٌ مُـسَـدَّدٌ ... ورأيٌ شِـهـابيٌّ وعَـزْمٌ مُـؤَيَّـدُ

وله:

أبـداً تَنَكَّبُ عن ضـلالٍ سـادراً ... بثقـوب زَنْدِكَ أو تـدلُّ على هُدَى
سُدْتَ الكُهولَ مِنَ الملوكِ مراهِقاً ... وشـأوت[٧] شِيبَهُمُ البـوازِلَ[٨] أَمْـرَدا

---

(١) انظر ص ١٩٥ وما بعدها من هذا الجزء.
(٢) جنب الأسير: قاده إلى جنبه. «اللسان» (جنب).
(٣) ما يوثق به الأسير من قد وقيد وغل. «اللسان» (صفد).
(٤) الصفد: العطاء. «اللسان» (صفد).
(٥) السيد في عشيرته، الشجاع الركين في مجلسه. «اللسان» (حلل).
(٦) قليل. «اللسان» (ثمد).
(٧) سبقتهم. «اللسان» (شأي).
(٨) البوازل: الطاعنون في السن. من بزل البعير: إذا استكمل الثامنة وطعن في التاسعة، وليس بعد البازل سن تسمى. انظر «اللسان» (بزل).

١/٢٢ إنْ شَيَّدوا صَرْحاً[1] أنافَ منارةً أو أَسْجَدُوا للكأس جَدَّد مَسْجِدا

وإذا استهزَّتْهُمْ قلائدُ مَعْبَدٍ[2] هَزَّتْهُ موعِظَةٌ فَعَرَّفَ[3] مَعْبَدا

قسماً لشَامَ الشَّامُ منك مُهَنَّداً أرضاه مشهوراً وراعَ مُقَلَّدا

وَتمسَّك الإسلامُ منكَ بعروةٍ اللهُ أَبْرَمَ حبلَها فاسْتَحْصَدا[4]

أشفى فكنتَ شفاءه من حادثٍ غاداه عارِضُه مُرَدًّى بالرَّدى

كنتَ الصَّباحَ لليلِهِ لمَّا دَجا والغَيْثَ[5] كفَّ لظاه حين توقَّدا

للهِ يومٌ أطلعتكَ به النَّوَى تجتابُ[6] من مُهَجِ الأصافر[7] مِجْسَدًا[8]

نشوانُ غنَّتْكَ الظُّبى مفلولةً وأمالَ عِطْفَيْكَ الوِشَاحُ[9] مُقَصَّدا[10]

في مَعْرَكٍ ما قام بأُسُكَ دُونَه إلا أقامَ المشركينَ وأَقْعَدَا

ولكَمْ مَكَرٍّ قُمْتَ فيه مُعلّماً أَرْضى إلهكَ والمسيحَ وأَحْمَدا

يوم العُرَيمة والخطيم وحارمٍ* وشِعاب باسوطا* وهاب* وصَرْخَدا*

لا يَعْدَمِ الأشراكُ حدَّك إنه ماسُلَّ فيهم حاكماً إلا اعتدى

---

(١) أي قصراً. «اللسان» (صرح).

(٢) هو معبد بن وهب، أبو عباد المدني، من أكبر المغنين في العصر الأموي، توفي سنة (١٢٦هـ). انظر أخباره في «الأغاني» طبعة دار الكتب: ١/٣٦ ـ ٥٩ و«تاريخ الإسلام» للذهبي: ٥/١٦٥.

(٣) في (ل) تعرف.

(٤) استحكم، ومنه: حبل محصد: أي محكم مفتول. «اللسان» (حصد) وقد صحفت الكلمة في الأصل و(ل) إلى «فاستصحدا»، والمثبت من (م).

(٥) في الأصل و(ل) الغوث، والمثبت من (م).

(٦) تقطع. «اللسان» (جوب).

(٧) يعني الصليبيين، وكان العرب يسمون الروم بني الأصفر. انظر «اللسان» (صفر).

(٨) القميص الذي يلي البدن. «اللسان» (جسد).

(٩) في الأصل و(م) الوشيح، وهو تصحيف، والمثبت من (ل). والوشاح: السيف، القوس. انظر «اللسان» (وشح).

(١٠) مستوٍ بين غير مشرف ولا ناقص. انظر «اللسان» (قصد).

أَهمَدْتَهُمْ مِنْ بعد ما ملؤوا الملا[١] زَجَلًا[٢] فهل كانتْ سيوفُكَ مُرْقِدا[٣]؟

طَلَعَتْ نجومُ الحقِّ مِنْ آفاقِها وأعادها كَرُّ العُصُورِ كما بَدَا

وهوى الصَّليبُ وحزبُه وتبختر الْـ إسلامُ مِنْ بعد التَّسافُفِ أغيدا

سَبْقَ المجلِّي للخَطيِّ فَرَفْعُهُ نَسَقٌ بثُمَّ وقد رُفِعَتْ بالابتدا

وله:

محمودُ المُرْبي على أسلافه إن زاد في حَسَبِ الحسيبِ نِجارُ

مَلِكٌ إذا تُلِيَتْ مآثرُ قومِهِ كَسَدَ اللَّطيم[٤] وهُجِّنَ[٥] النُّوَّارُ[٦]

ملأَ الفِرَنْجَةَ جَوْرُ سيفكِ فيهمُ فلهم[٧] على سِيْفِ[٨] المحيط جُؤارُ

يوماً يُزيرك جونَ عِرْقة* معلماً جونٌ له خَلْفَ الدُّروبِ أُوارُ

ويجرُّ في الأُرْدُنِّ فَضْلَةَ ذَيْلِهِ نَقْعٌ بأكناف الأرنط[٩] مُثارُ

إما يبيحُ حريمَ أنطاكيَّةٍ أو يَفْجَأُ الدَّارومَ* منكَ دمارُ

عفى جِهَادُكَ رَسْمَ كلِّ مَخُوفَةٍ وعَفَتْ بصفوةِ عَدْلِكَ الأَكْدَارُ

ومحا المظالمَ منكَ نظرةُ راحمٍ لله في خَطَراتِهِ[١٠] أسرارُ

غَضْبانُ للإسلامِ مالَ عمودُه فَلِنُورِهِ مِمَّا عَرَاه نِوَارُ

---

(١) الفلاة. «اللسان» (ملا).

(٢) أي صوتاً. انظر «اللسان» (زجل).

(٣) المُرْقِد: شيء يُشرب فينوم من شربه ويرقده. «اللسان» (رقد).

(٤) المسك. «اللسان» (لطم).

(٥) قُبِّحَ. «اللسان» (هجن).

(٦) كالنَّوْر، وهو الزهر. انظر «اللسان» (نور).

(٧) في (م) فله، وهو وهم.

(٨) الساحل. «اللسان» (سيف).

(٩) في هامش الأصل و(ل) «حاشية: الأرنط: النهر المسمى بالعاصي».

(١٠) في (م) خطواته.

وَجَذَمْتَ[1] كلَّ يدٍ تسورُ[2] على يدٍ فَأَحَلْتَ ذاك السُّور وهو سِوَارُ
لم يبقَ ماكسُ مُسْلمٍ سِلَعاً ولا ساعٍ لمظْلَمَةٍ ولا عشَّارُ
هَمَدُوا كما هَمَدَتْ ثمودُ وقادهم لخَسارهم ممَّا أتوه قُدَارُ[3]
العارُ في الدُّنيا شَقُوْا بلباسه ولباسُهُمْ يومَ الحِسَابِ النَّارُ
كم سيرةٍ أَحْيَيْتَهَا عُمَرِيةٍ رُفِعَتْ لها في الخافِقَيْنِ مَنَارُ
ونوافلٍ صَيَّرْتَهُنَّ لوازماً بأقلِّها تُسْتَعْبَدُ الأحرارُ
لا زلتَ تقفو الصَّالحين مُسَابقاً لهُمُ وتَطْلُعُ خَلْفَكَ الأبرارُ
نفس السِّيادَة زُهْدُ مثلكَ في الذي فيه تَفَانَتْ[4] يَعْرُبٌ ونزارُ
ومتَّى ادَّعى ما تدَّعيه محكَّمٌ[5] أوْهَى مَعَاقِدَ[6] دِينه دينارُ
للهِ ما ظَفِرَتْ[7] به منك المُنَى وتكنَّفَتْ من رُكْنكَ الأستارُ
وسقى الغَمامُ ثرى أبيك فإنَّه أزكى ثرًى قَطَرَتْ عليه قِطَارُ[8]
١/٢٣ شَهِدَتْ نَضَارةُ عُودكَ الغضِّ الجنى أَنَّ الذي اسْتُخْلِصْتَ منه نُضَارُ[9]
أما نهارُكَ فَهْوَ لَيْلُ مجاهدٍ واللَّيل مِنْ طولِ القيامِ نَهَارُ
فلذلكَ النَّصْرِ العزيزِ أَدِلَّةٌ أنَّى[10] اتَّجهْتَ وللفُتُوحِ أَمَارُ[11]

---

(١) قطعت. «اللسان» (جذم).
(٢) أي تثور. «اللسان» (سور).
(٣) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحمر ثمود، عاقر ناقة صالح عليه السلام. «اللسان» (قدر).
(٤) في (م) تفاتن.
(٥) المحكم: الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة. «اللسان» (حكم).
(٦) مفردها معقد، وهو موضع العقد من الحبل. انظر «اللسان» (عقد).
(٧) في (م) ظهرت، وهو تحريف.
(٨) القطار، جمع قطر، وهو المطر. «اللسان» (قطر).
(٩) النضار: الخالص من كل شيء. وهو أيضاً اسم الذهب. انظر «اللسان» (نضر).
(١٠) في الأصل: كيف، وعلى هامشه «أنى» في نسخة، وهي رواية (ل) و (م).
(١١) علامة. «اللسان» (أمر).

وله أيضاً فيه رحمه الله تعالى:

رأينا الملوكَ وقد ساجلوك ... تمنّوا منوناً وغَرُّوا غُرورا
أبى لكَ أنْ يُدْرِكُوها أبٌ ... يَزِيْرُ فَيُنْسِي الأُسُودَ الزَّئيرا
وَجَدٌّ إذا جَدَّ يوم الرِّها ... نِ أبقى لتاليه جَدّاً عَثُورا
تَصُبُّ عَصاك على مَنْ عصا ... ك يوماً عبوساً بها قَمْطَرِيرا[1]
لقد أَلْبَسَ الشَّامَ هذا الإباءُ ... لَبُوساً من الأَمْنِ لَيْناً وثيرا
تَدارَكْتَ أَرْماقَهُ[2] والقلوبُ ... نوافِرُ[3] أَنْ تستجنَّ الصُّدُورا
أَقَمْتَ جثاثاً وكانت جُثىً ... وشِدْتَ قُصُوراً وكانت قُبُورا
وكم لكَ من غَضْبَةٍ للهُدَى ... تميتُ الهوى وتَجُبُّ[4] الذُّكُورا
إذا قَطَّبَ البأْسُ كانت ردى ... وإن ضَحِكَ العفو عادَتْ نُشُورا
كَمُلْتَ فَوَفَّيْتَ عينَ الكمال ... تُبيد السِّنين وتُفْني العُصُورا
وجادَ لنا بكَ رَبٌّ برا ... كَ للكُفْر ناراً وللدِّين نُورا
إذا ما خُدِمْتَ فمولى كريماً[5] ... وإمَّا عَبَدْتَ فعبداً شَكُورا
أمامَ المحاريبِ بَرّاً حَصُوراً[6] ... وتحتَ الحروبِ هِزَبْراً هَصُورا
تباركَ من شادَ هذي الخلا ... ل في ظِلَّة الملك طَوْداً وقورا
وأَلَّف في مَعْقِد التَّاج منـ ... ـك سطواً سعيراً وعفواً نَمِيْرا[7]

---

(١) يوم قمطرير: مقبض ما بين العينين لشدته، وقيل: إذا كان شديداً غليظاً. «اللسان» (قمطر).
(٢) مفردها رمق: وهو بقية الحياة. «اللسان» (رمق).
(٣) في (م) توافر، وهو تصحيف.
(٤) تقطع. «اللسان» (جبب).
(٥) في (م) عظيماً، ومثلها على هامش (ل) رواية أخرى.
(٦) الحصور: الذي لا إربة له في النساء. انظر «اللسان» (حصر).
(٧) على هامش الأصل: «بلغ مقابلة بأصله».

وله:

عَقَلَ الحقُّ أَلْسُنَ المُدَّعِيْنا … أنتَ خَيْرُ الملوكِ دُنْيا ودينا

وأَسَدُّ الأنام قولاً وأفعا … لاً ونَفْساً ونيَّةً ويقينَا

أنتَ أَسْناهُمُ إباءً وأبا … وأمرأُ حياً وأمرعُ حينا

بَسَطَ الرِّزْقَ في البسيطةِ كَفًّا … ك فكلتا يديك تُلْفَى يمينا

فَيَدٌ تحسِمُ النَّوائبَ عَنَّا … وَيَدٌ تَقْسِمُ الرَّغائبَ فينا

أيُّها البحرُ لو تساجِلُكَ الأبـ … ـحُرُ عامت في ساحِلَيْك سفينا

ولكانَ المحيطُ منها[١] مُحاطاً … مِثْلَ نونِ الهجاءِ أو خِيلَ نونا

مَشْرَعاً مُتْرعاً ومنّاً مُهَنّاً … ورِبَاعاً فِيْحاً وكفًّا لَبُونا

ومُحَيًّا طَلْقاً ومالاً طليقاً … وانتهاجاً قَصْداً وحَبْلاً متينا

بين ذَبٍّ يميت عادِيَةَ الشِّر … ك وَهَبٍّ يحيا به المسلمونا

تتبدَّى[٢] منَ الفُتُوح ألوفاً … أنتَ أعلى من أَنْ تَعُدَّ[٣] المئينا

كلما اجْتَبْتَ[٤] ثوبَ نَصْرٍ عزيزٍ … من مَرامٍ أَقْبَلْتَ فتحاً مبينا

صَرَفَ الله عنك صَرْفَ زمانٍ … أنتَ عَلَّمْتَ صَرْفَه أَنْ يَهُونا

ياابنَ مَنْ طَبَّقَ البسيطةَ آثا … راً وعَلَّ المُنَابذيه الأُجونا[٥]

وغَدَتْ حُصْنُه[٦] على سَرْجِ هذا الدِّ (م) ين من شِكَّةٍ[٧] الأعادي حُصُونا[٨]

كم تعالى صهيلُها في رُبا الشّا … م فأعلى خَلْفَ الخليجِ الرَّنينا

---

(١) في (م) منا.

(٢) في (ل) و(م) تتسنا، لعلها من السناء: أي الرفعة. انظر «اللسان» (سنا).

(٣) في الأصل مهملة، وفي (ل) نعد، والمثبت من (م).

(٤) أي لبست. «اللسان» (جوب).

(٥) الماء المتغير الطعم واللون. «اللسان» (أجن).

(٦) بسكون الصاد لضرورة الشعر.

(٧) الشكة: السلاح. «اللسان» (شكك).

(٨) في الأصل: حصوراً، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

كـان صِنْوَ الـرَّشيـد أبقـاك للحِكْـ	ـمَةِ والبَأْسِ بعده[1] المأمونا
سَمِعَ الله فيـكَ دَعْـوَةَ سَكْنٍ[2]	أَوطنـوا من حِماك حِصْنـاً حصينا ١/ ٢٤
عَرَقْتَهُم[3] مُدَى[4] الخُطُوبِ فأحييـ	ـتَ رُفـاتـاً مِنَ التُّـرابِ دفينـا
لَبِسُـوا عَـدْلَـك المـدبَّجَ فـاختا	لـوا بنـاتٍ في وَشْيِـهِ وبنينـا
سَهِـرَتْ عينُـك الكَلُوءُ ونـامـوا	تـحتَ أكنـافِ رعيهـا آمنينـا

قلتُ: فهذا أُنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه، مع أنَّهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمس مئة، قبل أن يفتحَ نورُ الدين دمشق، وبقي نور الدين حياً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقَّى كل عام في ازدياد، من جهادٍ واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب [المدائح][5] مع أنه قد تولَّى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما.

ولأبي المجد المُسْلم بن الخَضِر بن [المسلم بن] قُسَيم الحَمَوي[6] من قصيدةٍ فيه:

تبـدو الشجاعـةُ من طلاقـة وجهِهِ	كـالرُّمـحِ دَلَّ على القَسـاوةِ لينُـهُ

---

(١) في (م) من بعده، وبه يختل الوزن.

(٢) جمع ساكن، يعني: رعاياه. «اللسان» (سكن).

(٣) من عرقت العظم وتعرقته إذا أخذتَ اللحم عنه بأسنانك نهشاً. وفي (ل) عزقتهم، بمعنى قتلتهم. انظر «اللسان» (عرق، عزق).

(٤) مفردها مدية وهي السكين والشفرة. «اللسان» (مدي).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) شاعر من طبقة القيسراني وابن منير، مدح عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين، مات شاباً سنة نيف وأربعين وخمس مئة، ولم تحدَّد سنة وفاته، وما ذكره الصفدي من أنه توفي سنة (٥٤١ هـ) وهم، إذ إنَّ العماد ساق له قصيدةً يمدح فيها معين الدين أنر، وذلك سنة (٥٤٢ هـ). انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/ ٢٣٢ أ ـ ٢٣٣ ب. وما بين حاصرتين منه. و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٣٣ ـ ٤٨٠.

[و][1] وراء يقظته أناةُ مجرِّبٍ ... لله سطوةُ بأسِهِ وسكونُهُ
هذا الذي في الله صَحَّ جهادُه ... هذا الذي بالله صَحَّ يقينُهُ
هذا الذي بَخِلَ الزَّمان بمثلِهِ ... والمُشْمَخِرُّ إلى العُلا عِرْنينُهُ
مَلَكَ الورى مَلِكٌ أغَرُّ متوَّجٌ ... لا غَدْرُه يُخشى ولا تلوينُهُ
إن حَلَّ فالشرفُ التليدُ أنيسُهُ ... أو سار فالظَّفَرُ الطَّريفُ قرينُه
فالدَّهْرُ خاذل مَنْ أرادَ عِنَادَه ... أبداً وجَبَّارُ السَّماءِ مُعِيْنُهُ
والدِّينُ يشهدُ إنه لَمُعِزُّهُ ... والشِّرْكُ يعلمُ إنَّه لمهينُهُ
ما زال يُقْسِمُ أن يبدِّدَ شملَه ... والله يكْرَهُ أَنْ تمينَ يمينُهُ
فَتَحَ الرُّها* بالأمسِ فانفتحتْ له ... أبوابُ ملكٍ لا يُذال مصونُه[2]

وممادحُ[3] نور الدين رحمه الله كثيرة[4].

وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليلَ الابتهاج بالشِّعْر[5]. ومات حادي عشر شوال سنةَ تسعٍ وستين وخمس مئة، ودُفِنَ بقلعة دمشق*، ثم نقل إلى قُبَّته بمدرستِهِ[6] جوار الخَوَّاصين*.

قلتُ: وقد جُرِّب استجابة الدُّعاء عند قبره. وهذا ذِكْرُ طرفٍ من مناقبه جُملة، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصَّلة مرتبة، وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار، إن شاء الله تعالى.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) القصيدة بتمامها في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/٢٣٣ أ ــ ٢٣٣ ب، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٤٧٤ ــ ٤٧٥.
(٣) في الأصل: ومداح، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) في الأصل: كثيرة رحمه الله تعالى، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/١٤٩ أ
(٦) هي المدرسة النورية الكبرى، انظرها في كشاف الأماكن.

فصل

أصلُ البيت الأتابكي هو قسيم الدَّولة آق سُنْقُر؛ جدُّ نور الدين، رحمه الله، فنذكره وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولده زَنْكي وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولدَه محمود بن زَنْكي، ثم نذكر ما بعدَه وهي الدَّوْلة الصَّلاحيَّة الأيوبيّة وما تمَّ في أيامها فنقول:

كان آق سُنْقُر تركياً من أصحاب السُّلْطان ركن الدين[1] مَلِكْشَاه بن أَلْب أَرْسلان ـ وهو عَمُّ دُقَاق بن تُتُش[2] بن ألب أرسلان الذي كان سُلْطانَ دمشق، وقبره بقُبَّة الطواويس* بها، بَنَتْها[3] والمشهدَ والدتُه[4] ـ وكان السُّلطان مَلِكْشاه من جُملة الملوك السَّلْجوقية المتغلِّبين على البلاد بعد بني بُوَيه بالعراق، فكانَ قسيمُ الدولة من أصحابه وأترابه، وممن رُبـي معه في صغره، واستمرَّ في صحبته إلى حين كبره. فلما أفضتِ السلطنة إليه بعد أبيه جعلَه من أعيان أمرائه و[من][5] أخصِّ أوليائه، واعتمد عليه في مهمَّاته، وزاد قدره علواً إلى أن صار يتقيه مثل نِظَام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان وتمكُّنه من المملكة. فأشار نظامُ الملك على السلطان أن يولي آق سُنْقُر مدينةَ حلب

---

(١) لم يشتهر بهذا اللقب كما ذكر ابن الأثير، والمعروف أنه جلال الدين، وسمي عهده بالعهد الجلالي. وقد تلقب أيضاً بركن الدين ابنه السلطان بركيارق.
انظر «الباهر»: ٤، و«وفيات الأعيان»: ٥/٢٨٣، و«سير أعلام النبلاء»: ١٩/٥٤. وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ التي تتحدث عن فترته. وانظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٣٣٣.

(٢) ولي دمشق بعد مقتل والده تتش سنة (٤٨٨ هـ)، وتوفي سنة (٤٩٧ هـ)، وهو أخو رضوان ملك حلب. انظر أخباره في «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي: ٢١٢ ـ ٢٣٣.

(٣) في الأصل و(ل): بنته، والمثبت من (م).

(٤) هي صفوة الملك، وكانت امرأة حازمة، توفيت سنة (٥١٣ هـ)، قال ابن القلانسي: ودفنت عند ولدها في القبة التي بنتها على القلعة المطلة على الميدان الأخضر. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).

وأعمالها؛ وأراد بذلك أن يبعدَه عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده بذلك يداً.

قال ابن الأثير: ومن الدّليل على علوِّ مرتبته تلقُّبُه[1] قسيم الدولة، وكانتِ الألقاب حينئذٍ مصونةً لا تعطى إلا لمستحقِّيها[2].

وفي سنة سبع وسبعين وأربع مئة سيَّر السُّلطان مَلِكْشَاه الوزيرَ فخر الدولة بن جَهِير؛ وزير الخليفة[3] إلى ديار بكر ليتملَّكها، وسيَّر عميدَ الدولة بن فخر الدولة بن جَهِير ــ وكان زوجَ ابنة نظام الملك ــ إلى المَوْصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدَّم على الجيش قسيمَ الدولة آق سُنْقُر. فساروا نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أُرْتُق التُّركماني[4] ــ جد ملوك الحصن* ومارِدِين* ــ فاستصحبوه معهم، فحصروا المَوْصل، وصالحوا من بها وتسلَّموها، وسار صاحبُها إلى السُّلْطان فردَّها عليه، وكانت يومئذٍ لأحد أمراء بني عُقَيْل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العُقَيْلي ــ وكان ملكه من السِّنْدية بالعراق على نهر عيسى إلى مَنْبِج وما بينهما من البلاد الفُرَاتية كهِيت والأَنبار وغيرها، وملك المَوْصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينةَ حلب، وكان عادلاً حسنَ السِّيرة عظيم السياسة ــ واتَّفق أن وَقَعَ بينه وبين صاحب أنطاكية*؛ وذلك أن أنطاكية كان الرُّوم قد استولوا عليها سنة ثمانٍ وخمسين وثلاث[5] مئة، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها

١/٢٥

(١) في (م) تلقيبه.

(٢) في الأصل و(ل): لمستحقها، والمثبت من (م) و«الباهر».

(٣) كان وزيراً للقائم ولابنه المقتدي بأمر الله، ثم عزل عنها، فخرج سنة (٤٧٦هـ) إلى السلطان ملكشاه باستدعائه إياه، فعقد له على ديار بكر. انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ٧٥ وما بعدها، و«الكامل» لابن الأثير: ١٠/١٢٩ وما بعدها و«وفيات الأعيان»: ٥/١٢٨.

(٤) توفي سنة (٤٨٤هـ) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ١/١٩١، وما كتبه عنه الدكتور عماد الدين خليل في «الإمارات الأرتقية»: ٥٧ ــ ٦٨.

(٥) في «الكامل» لابن الأثير: ٨/٦٠٣ ذكر استيلاء الروم عليها سنة (٣٥٩هـ) في المحرم، وهو المشهور، وما ذكره ياقوت في «معجم البلدان»: ١/٢٦٩ من أن الاستيلاء عليها سنة (٣٥٣هـ) هو وهم.

سليمان بن قُتُلْمِش؛ وهو جدُّ الملك غياث الدين كِيخُسْرو[1] صاحب قُونية* وغيرها. وكان لشرفِ الدولة صاحبِ حلب على صاحب أنطاكية الرُّومي جزية يأخذها كلَّ سنة، فانقطعت عنه بسبب أَخْذ سليمان البلد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الرُّوم ويهدِّده. فقال: أنا في طاعتك، وهذا الفتح بسعادتك، والخُطْبة والسِّكَّة لك[2]، ولستُ بكافرٍ حتى أُعطيك ما كنتَ تأخذه من الرُّوم. فلجَّ شرف الدولة في طلب المال، فالتقيا، فقُتِلَ شرفُ الدولة، وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصَرها، وسار إليها من دمشق تاجُ الدَّوْلة تُتُش بن ألب أرسلان أخو السلطان مَلِكْشَاه. فالتقى عسكر تُتُش وسليمان، فقُتِلَ سليمان وانهزم عسكره، وملك تُتُش مدينةَ حلب دون القلعة، فأرسل أهلُ القلعة إلى مَلِكْشَاه ليسلِّموها إليه، وهو يومئذٍ بالرُّها* ــ وكان سببُ مسيره إليها أن ابن عُطَيْر[3] النُّميري كان قد باعها من الرُّوم بعشرين ألف دينار وسلَّمها [إليهم][4]، فدخلوها، وأخربوا المساجد، وأجلوا المسلمين عنها. فسار مَلِكْشَاه إليها في هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها للأمير بُزَان ــ فلما أتاه رُسُل [أهل][5] قلعة حلب بالتَّسْليم سار إليهم، فلما بلغ

---

(١) ولي سنة (٥٨٨هـ)، ثم خلعه أخوه ركن الدين سليمان سنة (٥٩٢هـ) ثم عاد إلى الحكم سنة (٦٠١هـ) وبقي فيه حتى قتل سنة (٦٠٧هـ). انظر «الكامل» ١٢/٨٧ ــ ٩٠، و«صبح الأعشى»: ٥/٣٦٠، و«الدول الإسلامية»: ١/٣٢٣، و«معجم الأسرات الحاكمة»: ٢١٥ ــ ٢١٦.

(٢) يعني لملكشاه، وهو يخاطب بذلك شرف الدولة لأنه في طاعة السلطان. انظر «الكامل» لابن الأثير ١٠/١٣٩ ــ ١٤٠.

(٣) في الأصل: عطية، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م). وقد ذكر ابن الأثير تسلم ابن عطير الرُّها في حوادث سنة (٤١٦هـ) بعد قتل والده عطير، ثم سلمها للروم سنة (٤٢٩هـ)، وأورد ابن الأثير اسمه «ابن وثاب» ولعله تحريف. انظر «الكامل»: ٩/٣٤٧ ــ ٣٤٨، ٤٦٠.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلبَ إلى دمشق، ووصل السلطانُ إلى حلب، وبالقلعة سالم بن [مالك بن][1] بَدْران العُقَيْلي؛ وهو ابنُ عَمِّ شرف الدولة، فسلَّمها إلى السلطان بعد قتال، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جَعْبر*، وكان قد ملكها في هذه السَّفْرة من صاحبها جَعْبَر النُّميري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالمٍ وأولاده إلى أن أخذَها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي[2].

فلما ملك السُّلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بنُ علي بن المقلَّد بن مُنْقذ الكِنَاني؛ صاحب شَيْزَر*، ودخل في طاعته، وسلَّم إليه اللَّاذقية، وفامية*، وكفرطاب*.

ثم إن نظامَ المُلْك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها، وحماة ومنبج* واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سُنْقُر، فأقطعه الجميع، وبقيت في يده إلى أن قتل سنة سبعٍ وثمانين وأربع مئة كما سيأتي[3]. وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغي سغان[4].

ولما استقرَّ قسيمُ الدولة في الشام ظهرت كفايتُه وحمايته وهيبته في جميع بلاده. ثم إنَّ السلطان استدعاه إلى العراق، فقَدِمَ إليه[5] في تجمُّلٍ عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعَظُمَ محلُّه عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب، فعاد إليها.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وفي (م) سالم بن مالك بدران، والمثبت من (ل).
(٢) انظر ص ٤١ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٣) انظر ص ١٠٢، من هذا الجزء.
(٤) كذا في النسخ الخطية أينما مَرَّ، والمشهور في كتب التاريخ ياغي سيان، وانظر «زبدة الحلب»: ٢/٤٦٥ حاشية رقم (١).
(٥) وذلك سنة (٤٨٤هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/١٩٩.

فلما مات السلطان مَلِكْشَاه سَيَّر قسيم الدولة جيشاً إلى تَكْرِيت* فملكها.

وفي سنة إحدى وثمانين[1] قصد قسيم الدولة شَيْزَر* فنهبها وعاد إلى حلب.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين اجتمع قسيمُ الدولة وبُزان وحصروا مدينة حِمْص فملكوها، ومضى ابنُ ملاعب[2] إلى مصر.

وفي سنة أربعٍ وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية* من الشَّام، وملك الرَّحبة*.

فصل

وفي عاشر رمضان سنة خمسٍ وثمانين قُتِلَ الوزير نظام الملك أبو علي الحسن[3] بن علي بن إسحاق، قتله صبيٌّ دَيْلَمي بعد الإفطار وقد تفرَّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرُهم من أصناف الناس، وحمل في مِحَفَّةٍ* لِنِقْرِسٍ[4] كان به إلى خيمة الحَرَمِ، فلقيه صبيٌّ ديلمي مستغيثاً به، فقرَّبه منه ليسمع شكواه فقتله، وقُتِلَ الصبيُّ أيضاً. فَعَدِمَتْ الدنيا واحدَها الذي لم تر مثله. وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى

---

(١) يعني وأربع مئة.

(٢) على هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هو خلف بن ملاعب الأشهبي، قتل ليلاً في سنة تسع وتسعين وأربع مئة، وكان قبيح السيرة والاعتقاد، والله أعلم». قلت: انظر «الكامل»: ١٠/٤٠٨ ــ ٤١٠، و «بغية الطلب»: ٧/ ٣٣٥٤.

(٣) في (م) الحسين، وهو تصحيف.

(٤) مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم، وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى داء الملوك. «المعجم الوسيط»: ٢/٩٥٤.

النبيَّ ﷺ في المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه. فاستبشر نظام الملك بذلك، وأظهر السرور به وقال: هذا أبغي وإياه أطلب.

وبلـغ من الدنيا مبلغاً عظيماً لم ينله غيره. وكان عالماً فقيهاً ديِّناً خيِّراً متواضعاً عادلاً، يحبُّ أهلَ الدين ويكرمهم ويجزل صِلاتهم. وكان أقربَ الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مُدَّة.

وأما صدقاته ووقوفه فلا حدَّ عليها، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد [من شيء][1] منها، حتى جزيرة ابن عمر* ـ التي هي في زاوية من الأرض لا يُؤْبه لها ـ بني فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين. وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله، ولا أدركه من كان بعده.

وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضأ، ولا توضأ إلا صلَّى. وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظةً لا يتقدَّمُه فيها المتفرِّغون للعبادة، حتى إنه كان إذا غَفَلَ المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة.

وكان قد وزر للسُّلْطان عضد الدولة أَلْب أرسلان والد مَلِكْشَاه قبل أن يلي السَّلْطنة، في حياة عمه السُّلْطان طُغْرُلْبَك[2]؛ أول الملوك السلجوقية ببغداد. فلما توفي طُغْرُلْبَك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه أَلْب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرَّتْ السلطنة له، وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان مَلِكْشَاه إلى أن قتل. وكان قد تحكَّم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه؛ لكثرة مماليكه ٢٦/١

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في الأصل: طغر لبكين أينما مر، والمثبت من (ل) و(م) وهو المشهور.

ومحبَّة العساكر له والأمراء، وميل العامَّة والخاصَّة إليه لحُسْن سيرته وعَدْله.
هذا كلام أبي الحسن بن الأثير[1].

وقرأت في كتاب «المعارف المتأخرة» ـ ويسمَّى «عنوان السِّيَر» ـ لمحمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهَمَذاني[2] قال: وزر نظامُ الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطُّوسي للسُّلْطان أَلْب أرسلان ولولده السلطان مَلِكْشَاه أربعاً وثلاثين سنة[3]، وقُتِلَ بالقرب[4] من نهاوَنْد* وعمره ستٌّ وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً؛ اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره. قال: وقيل: إن السلطان مَلِكْشَاه ولَّف عليه مَنْ قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام. وقد تقدَّم نظام الملك في الدنيا التقدُّمَ العظيم، وأفضل على الخلق الإفضال الكثير، وعَمَّ الناسَ بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشَّافعي رضي الله عنه، ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدِّين على مَنْ تقدَّمه من الوزراء، ولم يبلغ أحدٌ منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون* فوقَّعَ على العامل بأنطاكية* بما يُصرف إلى الملاَّحين، وملك من الغِلْمان الأتراك ألوفاً، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتَّاكه من مماليكه.

---

(١) انظر «الباهر»: ٩ ـ ١٠.

(٢) من كبار المؤرخين، وهو من شيوخ الحافظ ابن عساكر، طبع له «الذيل على تاريخ الطبري» باسم «تكملة تاريخ الطبري» الجزء الأول منه بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، بلا تاريخ ضمن «ذيول تاريخ الطبري». توفي سنة (٥٢١هـ) انظر «المنتظم» ١٠/٨.

(٣) هذا، لأن نظام الملك وزر للسلطان ألب أرسلان قبل أن يتولى السلطنة، وأما وزارته منذ توليه السلطنة سنة (٤٥٥ هـ) وحتى مقتل نظام الملك، فهي نحو ثلاثين سنة وهو ما نقله ابن العديم عن الهمذاني من أنه وزر تسعاً وعشرين سنة، انظر «بغية الطلب» ٥/٢٤٩٩.

(٤) في قرية يقال لها سحنة، وهي إلى الشمال الغربي من نهاوند، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، انظر «وفيات الأعيان»: ٢/١٣٠ مع تعليق المحقق.

قلتُ: وأنشد أبو سعد السَّمْعاني في «ذيل تاريخ بغداد» قال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السَّمْعاني[1] غير مَرَّةٍ من لفظه للأمير شبل الدَّوْلة؛ يعني مقاتلَ بنَ عطية بن مقاتل البكري[2]:

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ثمينةً[3] صاغها الرحمنُ مِن شَرَفِ
عَزَّتْ ولم تعرفِ الأيامُ قيمتَها فردَّها غَيْرَةً منه إلى الصَّدَفِ

فصل

عاش السلطان مَلِكْشاه بعد نظام الملك خمسةً وثلاثين يوماً، ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين[4]، وعمره ثمانيةٌ وثلاثون عاماً ونصف عام. وكانت مملكته قد اتَّسعت [اتساعاً][5] عظيماً، وخُطب له من حدود الصِّين إلى الداروم* من أرض الشَّام، وأطاعه اليمن والحجاز. وكان يأخذ الخرَاج من ملك القُسْطنطينية، وأطاعه صاحب طِرَاز* وأسبيجاب* وكاشْغَر* وبلاسغون* وغيرها من الممالك البعيدة، ومَلَكَ سَمَرْقَنْد وجميعَ ما وراء النَّهر[6]. ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه، فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغَر هرب صاحبُها منه، فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر [به][7] وأحسن

---

(١) توفي سنة (٥٣٤هـ)، انظر ترجمته في «الأنساب»: ٧/١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) في الأصل: التكريتي، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م)، وهو من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان نظام الملك قد زوجه ابنته، توفي في حدود سنة (٥٠٥هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٢/١٣٠، ٥/٢٥٧ ـ ٢٦٠، و«النجوم الزاهرة»: ٥/٢٠٤.

(٣) في «الكامل» لابن الأثير: ١٠/٢٠٦ يتيمة، وهي الأشبه، وفي «وفيات الأعيان» و«النجوم الزاهرة»: نفيسة، وانظر ما كتبه السبكي في «طبقات الشافعية»: ٤/٣٠٩ ـ ٣٢٨ في ترجمة نظام الملك.

(٤) وأربع مئة.

(٥) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل.

(٦) كان ذلك في سنة (٤٨٢هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/١٧١ وما بعدها.

(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

إليه، واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السُّلْطان من الخيرات وأبواب البرِّ كثيراً؛ منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحَفَر من الآبار، وبنى مدرسةً عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يُعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسَمَرْقَنْد أيضاً. قيل: إنه خرج سنةً من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العُذَيْب[1] وبلغ السبعية بقرب الواقِصَة[2]، وبنى هناك منارةً نُزِّل في أثنائها قرون الظبي وحوافر الحُمُر الوحشية التي اصطادها في طريقه.

وبعد موته تنازع ابناه: بَكْيارُق[3] ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو ثنتي عشرة سنة إلى أن توفي بَكْيارُق، واستقرت السلطنة لمحمد. وفي مُدَّة تلك الحروب ظهرت الفرنجُ بالسَّاحل، وملكوا أنطاكية* أولاً، ثم غيرها من البلاد. وكان السُّلطان قد أقطع أخاه تُتُش تاج الدولة مدينةَ دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي مَلِكْشاه طَمِعَ تاجُ الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه[4]، وراسل بوزان[5]؛ صاحبَ حرَّان*، وياغي سغان صاحب أنطاكية*، فسارا معه نحو الرَّحبة* ونَصِيبين* فأخذهما، وراسل صاحب المَوْصل إبراهيم بن قُريش بن

(١) واد لبني تميم، من منازل حاجِّ الكوفة بين القادسية والمغيثية. انظر «معجم البلدان»: ٩٢/٤.

(٢) منزل بطريق مكة بعد الفرعاء نحو مكة. انظر «معجم البلدان»: ٣٥٤/٥.

(٣) كذا في النسخ الخطية أينما مَرَّ، وفي «وفيات الأعيان»: ٢٦٨/١ بَرْكْيارُوق: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء والكاف، وفتح الياء المثناة من تحتها، وبعد الألف راء مضمومة، وواو ساكنة وقاف.

(٤) أي أن قسيم الدولة صالح تتش لما علم أنه لا يطيق دفعه عن حلب. انظر «الكامل»: ٢٢٠/١٠.

(٥) يرد أحياناً دون واو، وكلاهما صحيح، وأثبتناه بالواو أينما مَرَّ.

بدران يأمره بالخطبة له، وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع، فالتقيا، فَهُزِمَ صاحبُ المَوْصل. وقُتِلَ وأخذت بلاده. وسار إلى مَيَّافارِقين*، فملكها وسائر ديار بكر. ثم سار إلى أَذْرَبِيجان*، فالتقى هو وابن أخيه بَكْيارُق بن مَلِكْشاه، فانتقل قسيمُ الدولة وبوزان إلى بَكْيارُق، فرجع تاجُ الدولة إلى الشَّام، ورجعا إلى بلادهما بأمرِ بَكْيارُق ليمنعا تاجَ الدولة عن البلاد إن قصدها. فجمع تاجُ الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيمُ الدولة وبوزان وأمدَّهما السلطان ركن الدين بَكْيارُق بالأمير كربوقا ــ وهو الذي صار فيما بعد صاحب المَوْصل ــ فالتقوا بالقرب من تَلِّ السُّلطان، وبينه وبين حلب نحوٌ من ستة فراسخ، فانهزم جيشُ قسيمِ الدولة وأُخذ أسيراً، فقتله تاجُ الدولة صبراً[1]. ودخل بوزان وكربوقا حلبَ، فحصرهما تاجُ الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين. وأرسل إلى حَرَّان* والرُّها* ــ وكانتا لبوزان ــ فامتنع مَنْ بهما من التسليم، فقَتَلَ بوزان وأنفذ رأسه وتسلَّم البلدين. وأما كربوقا فإنه سجنه بحِمْص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رِضْوان بعد قتلِ أبيه تاج الدولة.

قال ابن الأثير: وكان قسيمُ الدولة أحسنَ الناس سياسةً لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عَدْلٍ عام ورُخْص شامل وأمنٍ واسع، وكان قد شَرَطَ على أهل كلِّ قرية في بلاده متى أُخذ عند أحدهم قَفَلٌ أو أحدٌ من الناس غَرِمَ أهلُها جميعَ ما يؤخذ من الأموال من قليلٍ وكثير، فكانت السَّيَّارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا؛ فأَمِنَتْ الطرق وتحدَّث الرُّكْبان بحُسْن سيرته[2]. ١/ ٢٧

وفي المحرَّم من سنة سبع وثمانين وأربع مئة توفي الخليفة المقتدي

---

(١) وذلك سنة (٤٨٧ هـ)، انظر ما سلف ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٢) «الباهر»: ١٥.

بأمر الله فجأةً، وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسعٌ[1] وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة[2] سنة وخمسة أشهر[3]، وأُمُّه تركية[4]. وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد. ويلقب محمد بن القائم والد المقتدي بالله الذَّخيرة، مات في حياة أبيه فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زَنْكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على طريق الاختصار في فصول إلى حين وفاته. ثم نذكر أخبارَ نور الدين على ترتيب السنين.

لما قُتِلَ قسيمُ الدولة آق سُنْقُر لم يخلِّف من الأولاد غير واحدٍ وهو عماد الدين زَنْكي؛ والد نور الدين، وكان حينئذٍ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليكُ والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي[5]، وهو صبيٌّ أيضاً. ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة[6] سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وتوجَّه إلى حَرَّان* وقد اجتمع معه عسكرٌ صالح فملكها، ثم سار إلى نَصِيبين* فملكها، ثم إلى المَوْصل فملكها، وأزال[7] عنها عليَّ بن شرف الدولة العُقَيلي، وسار نحو مارِدِين* فملكها، وعَظُمَ شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بَكْيارُق.

فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيمِ الدولة آق سُنْقُر، وأمرهم بإحضار

---

(١) في «الكامل»: ١٠/ ٢٣٠، ثمان.

(٢) في الأصل و (م) تسعة عشر، وهو وهم، والمثبت من (ل).

(٣) ولي في (١٣) شعبان سنة (٤٦٧هـ). انظر «الكامل»: ١٠/ ٩٤.

(٤) في «الكامل»: ١٠/ ٢٣٠: وأمه أم ولد أرمنية تسمى أرجوان.

(٥) هو زين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبوري، توفي سنة (٥٦٣ هـ)، وأخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد بعضها في ٢/ ٣٨.

(٦) قتل تاج الدولة سنة (٤٨٨هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/ ٢٤٤، وما بعدها.

(٧) في الأصل و (ل): وزال، والمثبت من (م).

عماد الدين زَنْكي وقال: هو ابن أخي وأنا أَوْلى الناس بتربيته. فأحضروه عنده[1]، فأقطعهم الإقطاعات السَّنية، وجمعهم على عماد الدين زَنْكي، واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها. فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمِد*، وصاحبها من أُمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين سُقْمان بن أُرْتُق جَدِّ صاحب الحصن*، فكسرهم قِوَام الدولة كربوقا، وهو أول مصافٍّ حضره زَنْكي بعد قتل والده[2]. ولم يزل [مع][3] كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربع مئة[4]. وملك بعده موسى التركماني[5] فلم تطل مدته وقُتِلَ. وملك المَوْصل شمس الدولة جكرمش[6]؛ وهو أيضاً من مماليك السلطان مَلِكْشاه، فأخذ زَنْكي فقرَّبه وأحبه واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمس مئة ــ فلا جَرَمَ أن زَنْكي رعى هذا لجكرمش لَمَّا ملك المَوْصل وغيرَها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدَّمه وأقطعه إقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده، واتخذه صهراً ــ ثم ملك المَوْصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زَنْكي ــ وقد كَبُرَ وظهرت عليه أمارات السَّعادة والشهامة ــ ولم يزل معه حتى عصى على السُّلْطان محمد. وكان جاولي قد عبر إلى الشَّام ليملكه من الملك فخر الملك رِضْوان، فأرسل السلطان إلى

(١) في الأصل: عندهم، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) انظر «الكامل»: ١٠/٣٩٠ وما بعدها، و«الباهر»: ١٦.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٤) في «الكامل»: ١٠/٣٤١ ذكرت وفاته في حوادث سنة (٤٩٥ هـ).
(٥) كان نائباً عن كربوقا بحصن كيفا، فراسله أعيان الموصل ليسلموها إليه، فسار إليها فقتل سنقرجة ــ وكان كربوقا قد عهد إليه بالموصل ــ ثم قُتل موسى التركماني في السنة نفسها. انظر «الكامل»: ١٠/٣٤٢ ــ ٣٤٣.
(٦) كان صاحب جزيرة ابن عمر، تسلم الموصل صلحاً بعد قتل موسى التركماني بيد غلمان قوام الدين كربوقا. انظر «الكامل»: ١٠/٣٤٣.

المَوْصل الأمير مودوداً، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمس مئة. فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زَنْكي وغيرُه من الأمراء. فلما استقرَّ مودود بالمَوْصل، واتصل به زنكي أكرمه، وشَهِدَ معه حروبه، فسار مودود إلى الغَزَاة بالشام، ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان ـ كانت للفرنج ـ وقتل من كان بها منهم. ثم سار إلى الرُّها* فحصرها ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات، فحصر تل باشر* خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرَّة النُّعْمان* فحصَرَها، ثم حضر عنده أتابك* طُغْتِكِين[1]، صاحب دمشق، فسار إلى طبرية*، وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً، وظهر من أتابك زَنْكي شجاعةً لم يُسمع بمثلها؛ منها أنه كان في نفرٍ وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه، فتخلَّفوا عنه، وتقدَّم وحده وقد انهزم مَنْ بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثَّر فيه وقاتلهم عليه، وبقي ينتظر وصولَ من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً ومن سلامته آخراً.

ثم التقى الجمعان[2] فَهُزِمَ الفرنج، لعنهم الله، ووصلوا إلى مضيقٍ دون طبرية*، فاحتموا به، وجاءتهم نجدة، فأَذِنَ الأميرُ مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع. فلما تفرَّقوا دخل دمشق وأقام بها، فخرج يوماً يصلِّي الجمعة، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طُغْتِكِين وثب عليه إنسانٌ فضربه بسكينٍ معه، فجرحه أربع جراحات ـ وكان صائماً ـ فَحُمِلَ إلى دار طُغْتِكِين، واجتهَدَ به ليفطِرَ فلم يفعل، وقال:

---

(١) في الأصل: طغرلبكين أينما مَرَّ، وإخاله تصحيفاً، والمثبت من (ل) و(م)، وهو المشهور في كتب التاريخ، ويرسم أيضاً طغدكين ـ بالدال ـ وهو صحيح، والضبط من «وفيات الأعيان»: ٢/٥٢٥.

(٢) في سنة (٥٠٧هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/٤٩٥، وما بعدها، و«ذيل تاريخ دمشق»: ١٨٥ وما بعدها.

لا لقيتُ الله إلا صائماً، فإنني ميتٌ لا محالة سواء أفطرتُ أو صمتُ. وتوفي في بقيَّة يومه رحمه الله.

فقيل: إن الباطنية بالشَّام خافوه فقتلوه، وقيل: بل خافه طُغْتِكِين فوضع عليه من يقتله. وكان خَيِّراً عادلاً حَسَنَ السيرة.

١/٢٨ قال ابن الأثير: فحدَّثني والدي رحمه الله، قال: كتَبَ ملك الفرنج إلى طُغْتِكِين: إن أمةً قتلت عميدَها يومَ عيدها في بيت معبودها لحقيقٌ على الله أن يبيدَها[١].

فلما قُتِلَ الأمير مودود أقطع السُّلْطانُ البلاد؛ المَوْصل وغيرها، للأمير جيوش بك، وسيَّر معه ولده الملك مسعود إلى المَوْصل. ثم إنه جَهَّزَ آق سُنْقُر البُرْسُقي في العساكر، وسيَّره إلى قتال الفرنج، وكتب إلى عساكر المَوصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زَنْكي؛ وكان يعرف في عساكر العجم بزَنْكي[٢] الشَّامي. فسار البُرْسُقي إلى الرُّها* في خمسة عشر ألف فارس، فحصرها وقاتل مَنْ بها من الفرنج والأرمن، وضاقت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سُمَيْسَاط*؛ وهي أيضاً للفرنج، فأخرب بلدها وبلد سَرُوج*، وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج. وأبلى زَنْكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً، ثم عادت العساكر تتحدَّث بما فعله، وعاد البُرْسُقي إلى بغداد، وأقام زَنْكي بالمَوْصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمس مئة[٣]، وقد علا قدرُه وظهر اسمه.

---

(١) «الباهر»: ١٩، و«الكامل»: ١٠/٤٩٧، وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ١٨٧ ــ ١٨٨.
(٢) في الأصل: زنكي، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) في النسخ الخطية: إلى سنة أربع وعشرين وخمس مئة، وهو وهم والمثبت من «الباهر»: ٢٠، وانظر ص ١١١ من هذا الجزء.

فصـــل

وفي سنة إحدى عشـرة وخمس مئة ولـد الملك العادل نـور الدين محمود بن زَنْكي رحمـه الله تعالى.

وفيها غرقت سِنْجَار* من سَيْلِ المطر، وهلك منها خَلْق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل، فَعَلِقَ المهد في شجرة، ونقص الماء، فسَلِمَ ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسِّباحة.

وفيها أيضاً زلزلت إربِل* وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلةً عظيمة.

وفيها في الرابـع والعشرين من ذي الحِجَّة توفي السُّلطان غياث الدين محمد بن مَلِكْشاه وعمره سبعٌ وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وأول ما خُطب له ببغداد في ذي الحِجَّة سنة اثنتين وتسعين وأربـع مئة، وقُطعت خطبته عِدَّة مرار[1]، ولقـي مـن المشاقِّ والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بَكْيارُق[2]، فحينئذ استقرت له السَّلْطنة، وصفت[3] له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتماعُ الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة[4] سنة وستة أشهر.

وكان عادلاً حسنَ السيرةِ شجاعاً، وأطلق المكوس والضَّـرائب في جميـع البلاد. ومن عَدْله أنه اشترى عِدَّة مماليك من بعض التُّجَّار، وأمر أن يوفى الثمن من عامل خُوزِسْتان*، فأوصل إليه البعضَ ومطل بالباقي، فحضر

(١) في الأصل: عدة مراراً، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) توفي بكيارق سنة (٤٩٨هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/ ٣٨٠.

(٣) في الأصل: صفت له السلطنة، واستقرت له، والمثبت من (ل) و(م) و«الباهر»: ٢١.

(٤) في الأصل: اثنتي عشر سنة، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

التـاجر مجلس الحُكْم، وأخـذ غلامَ الحـاكم، ووقف بـطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حالَهَ، فعاد الحاجب وأعلم السُّلْطان حاله، فَعَظُمَ عليه، وضاق صدره، وأمر في الحال أن يُحْضَرَ عامل خُوزِسْتان ويُلْزَمَ بمال التَّاجر. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحُكْم، ولو فعلتُه لاقتدى بـي غيري، ولم يمتنـع أحدٌ عن أداء الحق.

قال ابن الأثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكي؛ فإن الملك العادل نورَ الدين محمود بن زَنْكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه[1] ـ وقد تقدَّمَ ذلك[2] ـ ولما علم الأمراء وغيرهم من خُلُق السلطان محبةَ العدل وأداء الحق وكراهية الظلم، ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأَمِنَ الناس وظهر العدل[3].

وولي بعد السلطان محمد ولدُه محمود[4]، وعمره يومئذٍ أربـع عشرة[5] سنة، فقام بالسَّلْطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجر[6] حربٌ انهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهدٍ[7] فأكرمه وأقطعه من البلاد من حَدِّ خُرَاسان* إلى الداروم* بأقصى الشَّام؛ وهي من الممالك: هَمَذَان وأصبهان وبلد الجبال

(١) في الأصل: فعل ما ندم عليه السلطان محمد على تركه، وهي عبارة مضطربة، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر «الباهر»: ٢١.

(٢) انظر ص ٣٩ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ٢١.

(٤) في (م): ابن ابنه، وهو وهم.

(٥) في (م): أربعة عشر، وهو وهم.

(٦) توفي سنة (٥٥٢هـ)، وأخباره مبثوثة في كتب التاريـخ لتلك الفترة، انظر «الكامل»: ٢٢٢/١٠، وسيرد ذكره ص ٣٥٩ من هذا الجزء.

(٧) في «الكامل»: ٥٥٣/١٠ أن محموداً سار إلى عمه سنجر بعد المصالحة بينهما، وجَعله ولي عهده.

جميعه[1]، وبلاد فارس وكرمان* وخُوزِسْتان* والعراق وأَذْرَبِيجان* وأرمينية* وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مُضَر وديار ربيعة والشَّام وبلد الرُّوم الذي بيد [أولاد][2] قليج أرسلان وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الأثير: ورأيتُ منشورَه بذلك[3].

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمس مئة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العَبَّاس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام. وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحدَ عشر يوماً.

ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خُطِبَ لهم ببغداد من السَّلْجوقية؛ وهم أخو مَلِكْشاه تاج الدولة تُتُش، وركن الدَّوْلة بَكْيارُق بن مَلِكْشاه، وأخوه غياث الدِّين محمد بن مَلِكْشاه.

وكان المستظهر رحمه الله كريمَ الأخلاق، ليِّنَ الجانب، مشكورَ المساعي، يحبُّ العلم والعلماء، وصنِّفت له التَّصَانيف الكثيرة في الفِقْه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسنَ الخَطِّ، جيدَ التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولدُه المسترشد بالله، ودُفن في حُجْرة كانت له يألفها.

---

(١) في هامش الأصل: وبلاد مضر، صح، ثم ضرب عليها.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م). والكلام مصروف إلى زمن ابن الأثير، وقليج أرسلان هو ابن مسعود عز الدين، توفي سنة (٥٨٨هـ)، وكان قبل وفاته قد فرق بلاده على أولاده، ثم ندم، انظر «الكامل»: ٨٧/١٢ وما بعدها. و «الدول الإسلامية»: ٣١٤. وسيرد ذكره ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ٢١.

وفي أيامه توفي جماعةٌ من العلماء؛ ففي شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المُظَفَّر الشَّامي[1]. وفي ذي القَعْدَة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القَزْويني المُعْتزلي[2]، مصنِّف «حدائق ذات بهجة»[3] في تفسير القرآن يزيد على ثلاث مئة مجلد. ٢٩/١

قال ابن الأثير: رأيتُ منه تفسير الفاتحة في مجلَّدٍ كبير[4]. وفي ذي الحِجَّة منها توفي الإمام أبو نَصْر الحُمَيْدِي[5] مصنِّف «الجمع بين الصحيحين»[6]. وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طِرَاد بن محمد الزَّيْنَبي، وله نحو تسعين سنة[7] وفي سنة اثنتين وخمس مئة توفي أبو زكريا

---

(١) ولد في حماة سنة (٤٠٠هـ)، ورحل إلى بغداد سنة (٤٢٠هـ)، وولي القضاء بها سنة (٤٧٨هـ)، وهو من أئمة الشافعية، لم يأخذ على القضاء رزقاً، وكان يسوي بين الوضيع والشريف في الحكم، ويقيم جاه الشرع، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه، وكان ورعاً زاهداً على حدة فيه. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨٥/١٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٠٢/٤.

(٢) ولد سنة (٣٩٣هـ)، وكان من أئمة المعتزلة في عصره، انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦٣/١٠ ب، و«سير أعلام النبلاء»: ٦١٦/١٨ ـ ٦٢٠، وفيه مصادر ترجمته، وفي «الكامل»: ٢٥٣/١٠ ولد سنة (٤١١هـ) وهو وهم، وفي «طبقات المفسرين» للسيوطي: ١٩ توفي (٤٨٣هـ) وهو وهم أيضاً تابعه عليه الداودي في «طبقات المفسرين»: ٣٠٢/١.

(٣) العنوان مقتبس من الآية الكريمة: ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ (سورة النمل: الآية ٦٠).

(٤) قول ابن الأثير ليس في (م).

(٥) هو محمد بن فتوح بن عبد الله، تلميذ ابن حزم الأندلسي، ولد قبل سنة (٤٢٠هـ)، واستوطن بغداد، وتوفي بها، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢٠/١٩ ـ ١٢٧، و«طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي ٤٠٨/٣ ـ ٤١٣ بتحقيقي.

(٦) لم يطبع بعد.

(٧) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٧/١٩ ـ ٣٩.

التِّبـريزي اللُّغَـوي[١]. وفي [ذي][٢] الحِجَّة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي الخازن؛ صاحب الخطِّ الحسن المشهور[٣]. وفي سنة خمس وخمس مئة توفي الإمام أبو حامد الغزالي. وفي سنة سبع وخمس مئة توفي الإمام أبو بكر محمد بـن أحمد الشَّاشي الفقيه[٤]، رحمهم الله أجمعين.

فصـــل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعوداً على المَوْصل مـع أتابكه جيـوش بـك، فبقي مطيعاً لأخيه إلى سنة أربـع عشرة وخمس مئة، فحسَّن له[٥] الخروج عن طاعته وطَلَبِ السلطنة، فأظهر العصيان وخَطَبَ للملك مسعود بالسَّلْطنة. وكان زَنْكي يشير بطاعة السلطان وتَرْك الخلاف عليه، ويحذِّرهم عاقبة العصيان، فلم ينفـع. فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزَمَ عسكرَ مسعود، وأسر جمـاعةً من الأمـراء والأعيان، منهم الأُستـاذ أبو إسماعيل الحسين بن إسماعيل الطُّغْرائي[٦]؛ وزير مسعود[٧] فقتله السُّلْطان

---

(١) هو يحيـى بن علي؛ شارح حماسة أبـي تمام، انظر ترجمته في «سير أعـلام النبلاء»: ١٩/٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) وقيل توفي سنة (٤٩٩هـ)، انظر ترجمته في «الكامل»: ١٠/٤١٥، ٤٧٤، و«وفيات الأعيان»: ٢/١٩١.

(٤) ولد سنة (٤٢٩هـ)، انتهت إليه رياسة المذهب الشافعي. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٥) أي جيوش بك بتحريض من دبيس بن صدقة. انظر «الكامل»: ١٠/٥٦٢.

(٦) هذه النسبة إلى من يكتب الطُّغْرى، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه، وهي لفظة أعجمية. «وفيات الأعيان»: ٢/١٩٠.

(٧) استوزره سنة (٥١٣هـ). انظر «الكامل»: ١٠/٥٦٣.

محمود وقال: قد صحَّ عندي فساد اعتقاده ودينه. وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسنَ الكتابة جيد الشعر[1].

قلت: وقيل: إنه قُتِلَ سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة وخمس مئة. وقيل: إنَّ الذي قتلَه هو السُّلْطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشاه. ذكر ذلك كلَّه أبو سعد السَّمْعاني في «تاريخه»[2] وسمَّاه الحسين بن علي بن عبد الصمد الدَّيْلَمي، وأنشد له أشعاراً حساناً، منها:

إذا ما[3] لم تكن مَلِكاً مطاعاً … فكن عبداً لمالِكِه مُطِيعا
وإنْ لم تَمْلُكِ الدُّنيا جميعاً … كما تَهْوَاه فاتركْها جميعا
هما سببان[4] مِنْ مُلْكٍ وَنُسْكٍ … ينيلانِ الفَتى الشَّرَفَ الرَّفيعا
وَمَنْ يقنعْ مِنَ الدُّنيا بشيءٍ … سِوَى هذين يَحْيَ بها وَضِيعا[5]

ثم استأْمَنَ مسعودٌ وأتابكه جيوش بك، فأَمَّنهما السُّلْطان، وأخذ المَوْصل منهما، فأقطعها آق سُنْقُر البُرْسُقي مع أعمالها، كالجزيرة وسِنْجار* ونَصِيبين* وغيرها في صفر سنة خمس عشرة، وسيره إليها، وأمره بحفظ عماد الدين زَنْكي وتقديمه والوقوف عند إشارته، ففعلَ البُرْسُقي ذلك وزاد

---

(1) «الباهر»: ٢٣، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٤٥٤، ومقدمة «الغيث المسجم» للصفدي، وهو صاحب لامية العجم المشهورة، شرحها الصفدي بكتاب «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» طبع غير مرة، آخرها في دار الكتب العلمية ببيروت سنة (١٩٧٥م)، وله «ديوان» مطبوع في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة (١٣٠٠هـ).

(2) هو «ذيل تاريخ بغداد»، وهو من الكتب التي لم تصلنا، منه مختصرات. انظر «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان: ٦/٦٣ ــ ٦٤.

(3) في (ل) و(م) إذا لم تكن، وهو وهم.

(4) في الأصل غير معجمة، وفي (م) والديوان: سيان، والمثبت من (ل).

(5) الأبيات في «ديوانه»: ٦٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

عليه؛ لمكان زَنْكي من العقل والشجاعة وتقدُّم والده في الأيام الرُّكْنية[1]. وكانت سيرة مَلِكْشاه عندهم كالشَّريعة المُتَّبعة، فأعظَمُ النَّاسِ عندهم أكثرُهم اتباعاً لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمس مئة أقطع أتابك* زَنْكي مدينةَ واسط وشحنكية* البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عِظَماً. وهاب الأميرُ دُبَيْس بن صَدَقة الأسدي صاحبُ الحِلَّة* ناحيتَه، وجَرَتْ بينَه وبين البُرْسُقي حروبٌ ومواقفات، وهمَّ دُبَيْس بقصد بغداد، فسار البُرْسُقي إليه[2]، وتبعه الخليفة[2] المسترشد بالله بنفسه، فانهزمَ عسكر دُبيس، وقتل منهم وأُسر خَلْق[3] كثير، وكان[3] لعماد الدين زَنْكي أثرٌ حسنٌ في هذه الوقعة أيضاً بين يدي الخليفة، وذلك[4] في أول المحرَّم سنة[4] سبع عشرة. وأما دُبَيْس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السُّلْطان محمد، وصار معه من خواصِّ أصحابه، وكان عاصياً على أخيه السُّلْطان محمود.

وأمر السلطان محمود[5] البُرْسُقيَّ أن يرجع إلى المَوْصل، فعاد واستدعى زَنْكي[6] من البصرة ليسيرَ معه إلى المَوْصل، فقال زَنْكي لأصحابه: قد ضَجِرْنا مما نحن فيه، كل يومٍ قد ملك البلاد أمير، ونؤمر بالتصرُّف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالمَوْصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشَّام. فسار مِنَ البصرة إلى السُّلْطان محمود فأقام عنده، وكان يقف

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٣ من هذا الجزء.
(٢ ـ ٢) ما بينهما خرم في (ل).
(٣ ـ ٣) ما بينهما خرم في (ل).
(٤ ـ ٤) ما بينهما خرم في (ل).
(٥) في الأصل: محمد، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) في (ل) و(م): بزنكي.

إلى جانب تخت* السُّلْطان عن يمينه لا يتقدَّم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده[1] من بعده.

ثم أتى السلطانَ الخبرُ أن العرب قد اجتمعت ونهبتِ البصرة، فأمر زَنْكي بالمسير إليها، وأقطعه إياها لِمَا بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكرِ والحروب، ففعل ذلك، فعظُمَ عند السُّلْطان وزاد محلُّه[2]. وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شِحْنة* بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نُفْرَة، فتهدَّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة[3] شاكياً من المسترشد[4]، وحذَّر السلطان جانبه، وأعلمه[4] أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق[5]. فسارَ السُّلْطان إلى بغداد، وجرى[5] بينه وبين المسترشد حروبٌ ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر، ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية* بغداد والعراق يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور. فولَّى ذلك زَنْكي مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السُّلْطان عن بغداد.

١/٣٠ وفي سنة عشرين وخمس مئة قُتِلَ آق سُنْقُر البُرْسُقي بالجامع العتيق بالمَوْصل بعد الصلاة يوم الجمعة؛ ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده منهم ثلاثة، وقُتِلَ رحمه الله. وكان عادلاً[6] ليِّنَ الأخلاق[6] حَسَنَ العشرة، وكان يصلِّي كل ليلة صلاةً كثيرة، ولا يستعين في وضوئه

---

(١) في (م): لعقبه.
(٢) في (م): وزاد محله عنده.
(٣) في «الكامل»: ١٠/٦٣٥ سنة عشرين.
(٤ ــ ٤) ما بينهما خرم في (ل).
(٥ ــ ٥) ما بينهما خرم في (ل).
(٦ ــ ٦) ما بينهما خرم في (ل).

بأحد[١]. فقرَّر السلطان[١] ولدَه عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال؛ وهي المَوْصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر* وغيرها. وكان شاباً عاقلاً، فضبط البلاد، ولم تطل أيامه، وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصَّغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي؛ وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نِظام.

فصل
في ولاية زَنْكي المَوْصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البُرْسُقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين؛ وسبب ذلك أن عِزَّ الدين بن البُرْسُقي لما توفي، وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود [يطلب][٢] أن يقرَّ البلاد عليه؛ وكان المُرْسَل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشَّهْرُزُوري[٣]، وصلاح الدين محمد الياغبساني[٤]. فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك، وكانا[٥] يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه. وكان بين

(١ ـ ١) ما بينهما خرم في (ل).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) هو علي بن القاسم بن المظفر، توفي سنة (٥٣٢هـ)، سيرد ذكر وفاته ص ١٢٦ من هذا الجزء.
(٤) في (م) الياغيساني، كان أمير حاجب البرسقي، ولي حماة ثم حمص، وأخباره مبثوثة في أثناء هذا الجزء، توفي سنة (٥٥٢هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/٦٤٣، وص (١٢٥، ١٦٨، ٣٠٢، ٣٦٠) من هذا الجزء.
(٥) في الأصل و(ل)، وكان، والمثبت من (م).

الصلاح وبين نصير الدين جَقَر[1] مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زَنْكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمتَ أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشَّام قد استولى الإفرنـج على أكثرِها، وتمكَّنوا منها، وقويت شوكتُهُمْ، وكان البُرْسُقي يكفُّ بعضَ عاديتهم، فمنذ قتل ازداد طمعُهم، وهذا ولده طفل صغير، ولا بدَّ للبلاد من شَهْمٍ شجاع يذبُّ عنها، ويحمي حوزَتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وَهْن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى[2]، واللوم من السلطان. فأنهى[2] الوزير ذلك إلى السلطان فأعجبه وقال: مَنْ تريان يصلُـح لهذه[3] البلاد؟ فذكرا جماعةً فيهم[3] عماد الدين زَنْكي، وعظَّما محلَّه أكثرَ من غيره. فأجاب السُّلْطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعها، وكتبَ منشوره بها، وسار من بغداد إلى البوازيـج* ليملكها ويتقوَّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد. فلما استولى عليها، سار عنها إلى الموصل، فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسَيَّره[4] إلى الرَّحبة* وأعمالها، وأقام [هو][5] بالمَوْصل يصلـحُ أمورَها ويقرر قواعدها. فولَّى نصيرَ الدين دُزْدَارية* قلعة المَوْصل، وفوَّض إليه أمرَ الولاية جميعها، وجعل الدُزْدارية في البلاد جميعها له، وجعل الصَّلاح محمد الباغبساني أمير حاجب* الدولة، وجعل بهاءَ الدين قاضـي قضـاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظمَ النَّاس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطاً معه وقرباً منه، ورتَّب الأمور على أحسن نظامٍ وأحكم قاعدة.

(١) جَقَر بن يعقوب، أعظم أصحاب زنكي منزلة، قتل سنة (٥٣٩هـ)، ويقال: جغر بالغين المعجمة. انظر «وفيات الأعيان»: ١/٣٦٤ ـ ٣٦٦، و«الباهر»: ٣٤، وص ١٤٩ من من هذا الجزء.

(٢ ـ ٢) ما بينهما خـرم في (ل).

(٣ ـ ٣) ما بينهما خـرم في (ل).

(٤) في الأصل: فسير، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وكان الفرنـج قد اتسعت بلادُهم، وكَثُرَتْ أجنادُهم، وعَظُمَتْ هيبتُهم، وزادت صولتهم، وامتدَّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُفَ أهلُها عن كفِّ عاديهم[1]، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوءَ العذاب، واستطار في البلاد شرر شرِّهم، وامتدَّت مملكتُهم من ناحية مارِدِين* وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحِمْص ودمشق. وكانت سراياهم تبلـغ من ديار بكر إلى آمِد* ومن ديار الجزيرة إلى نَصِيبين* ورأس عين*.

أما أهل الرَّقَّة* وحَرَّان* فقد كانوا معهم في ذُلٍّ وهوان، وانقطعت الطُّرق إلى دمشق إلا على الرَّحْبة* والبر. ثم زاد الأمر وعَظُمَ الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خَراجاً وإتاوةً، يأخذونها منهم ليكّفوا أذيَّتهم عنهم. ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق، واستعرضوا الرقيق ممن أُخذ من الرُّوم والأرمن وسائر بلاد النَّصْرانية، وخيَّروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنـج أخذوا منها[2] مناصفة أعمالها حتى في الرَّحا التي على باب الجِنَان*، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشَّام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها[3] عماد الدين زَنْكي، فغزا الفرنـج في عُقْر ديارهم، وأخذ للموحِّدين منهم بثارهم، واستنقذ منهم حصوناً[4]

(١) في (ل) عاديتهم.
(٢) في (م): منهم.
(٣) في الأصل، و(ل): وولاها، والمثبت من (م).
(٤) في (م): حصونهم.

ومعاقل. وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده إن شاء الله تعالى.

فصـــل

ثم شرع زَنْكي رحمه الله في أَخْذ البلاد؛ فافتتح جزيرة ابن عمر*، ثم مدينة إِرْبِل* في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى المَوْصل. وسار في جُمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سِنْجار*، فتسلمها، وسيَّر منها الشِّحَن* إلى الخابور، فملكه، ثم قصد الرَّحْبة* فملكت قسراً، ثم افتتح نَصِيبين* وسار إلى حَرَّان*. وكانت الرُّها* وسَرُوج* وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج ـ لعنهم الله ـ وأهل حَرَّان معهم في ضيقٍ عظيم؛ فراسلوا زَنْكي بالطاعة، واستحثوه على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مُدَّة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشَّامية والجزرية[1]. ١/٣١

وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، ومُلك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشَّامية. فلما عبر الفرات ملك مدينة مَنْبِج* وحصن بزاعة*، وحاصر حلب، ثم فتحت له فرتَّب أمورها، وسار عنها إلى حماة فملكها[2]، وقبض على صاحب حمص وحصرها، وذلك سنة ثلاثٍ وعشرين.

وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمِد* مع صاحب حصن كَيْفا* وغيرهما من الملوك، وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصدوا زَنْكي، فلقيهم، فهزمهم وملك سَرْجة* ودارا*. ثم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب*، وكان أضرَّ شيءٍ على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً،

---

(١) في الأصل: والجزيرة، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الكامل»: ١٠/٦٥٨ ـ ٦٥٩، وفي «ذيل تاريخ دمشق» سنة (٥٢٤هـ) وسيرد الخبر بعد أسطر.

فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة، بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مُدَّة طويلة. ثم رجع إلى الحصن فملكه عَنْوَةً، فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره. ثم رحل إلى حصن حارِم* فحصره، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك؛ لأن عسكره كان قد كثرت فيهم[1] الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا ويريحوا، فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشَّام بالأمن وحلول النصر، وسُيِّرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زَنْكي على مدينة حماة وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذه ورجالَه، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دُبَيْس بن صدقة بن مَزْيَد أمير العراق بدمشق منهزماً، فطلبه زَنْكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه[2]. ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى[3].

وفي سنة خمس وعشرين وخمس مئة توفي السلطان محمود بهَمذَان*، وكان عمره نحو ثماني وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال. وطلب السلطنة بعد وفاته ابنُه داود بن محمود، وأخواه[4]: مسعود وسَلْجُوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن مَلِكْشَاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد. فجرت بينهم حروبٌ واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان وأصفهان* والرَّي* وسائر بلاد الجبل.

---

(١) في (ل) و(م): فيه.
(٢) وذلك سنة (٥٢٥هـ) انظر «الكامل»: ١٠/٦٦٨ ــ ٦٦٩.
(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق» نشرة د. زكار: ٣٦١ ــ ٣٦٢، ٣٦٦ ــ ٣٦٧.
(٤) في الأصل: وأخوه، والمثبت من (ل) و(م).

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى المَوْصل في ثلاثين ألف فارس، فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضاً.

وفي سنة تسع وعشرين[1] استولى زَنْكي على سائر قلاع الحُميدية وولاياتهم؛ ومنها قلعة العَقْر* وقلعة شوش*، وحاصر مدينة آمِد* ثم مدينة دمشق.

وفيها توفيت[2] والدته بالمَوْصل.

وفي المحرَّم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشَاه، فخرج السُّلْطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكرَ الخليفة، وقبضَ عليه وعلى خواصِّه[3]، وأنفذ السلطان شِحْنة* إلى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعةٌ من الباطنية على المسترشد وهو في الخيمة فقتلوه. وكتب السُّلْطان إلى شِحْنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور بن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القَعْدة، ولقب بالرَّاشد.

وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر. وكان شهماً شجاعاً، مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدَّمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أنْ يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى مُلْك

---

(١) في «الكامل»: ١١/١٤: في سنة (٥٢٨هـ)، ومثله في «الباهر»: ٤٨.

(٢) في الأصل و (ل) توفت، والمثبت من (م).

(٣) في (م): وقبض عليه خواصه، وهو وهم.

الدَّيْلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الدَّيْلم[1].

فلما ملك السَّلْجقية جدَّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس، لا سيما في وزارة نظام المُلْك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلا أن الحكم والشِّحَن* بالعراق كان إلى السُّلْطان، وكذلك العمداء وضُمَّان البلاد، ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دَخْله.

وأما المسترشد فإنه استبدَّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان [محمود][2] معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر الحروب.

وفي سنة ثلاثين وخمس مئة سار الرَّاشد إلى المَوْصل صحبة زَنْكي ملتجئاً إليه؛ وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال وتلوُّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون، وتقدَّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها. فخرج الراشد ملتجئاً إلى زَنْكي، فسار به إلى المَوْصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الرَّاشد ومبايعة عمه أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك، ولقب المقتفي لأمر الله.

وأما الرَّاشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك* يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أَذْرَبيجان* ثم إلى هَمَذَان*، فاجتمع إليه مُلوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم[3]، فتصافوا، فانهزم الرَّاشد، وقصد أصبهان، ١/ ٣٢

(١) في (م): العراق، وهو تحريف.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) في (م): عليهم، وهو وهم.

فقتله الباطنية[1] بها في السَّابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة، ودُفِنَ بأصبهان*.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضاً تزوَّج زَنْكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل، وإخوته* بني تاج الملوك بوري بن [ظهير الدين][2] طُغْتِكِين أتابك؛ وهي أُخت الملك دُقاق لأمه[3] ــ وإليها يُنْسب مسجد خاتون* الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشَّرَف القبلي* بأرض دمشق بأرض صنعاء[4] ــ وتسلَّم قلعة حمص.

فصل
في جهاد زَنْكي للفرنج

لما كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الرُّوم[5] من القُسْطَنْطينية ومعه خَلْقٌ عظيم لا يحصون كثرةً من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشَّام، فخافه النَّاس خوفاً عظيماً.

وكان زَنْكي مشغولاً بما تقدَّم ذِكْرُه لا يمكنه مفارقة المَوْصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة* وحصرها ــ وهي على مرحلة من حلب ــ وفتحها عَنْوَةً، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شَيْزَر* ــ وهي

---

(١) في «المنتظم»: ١٠/٧٦ ثلاثة أقوال في سبب موته، أحدها أنه سقي السم، والثاني أنه قتله قوم من الفراشين، والثالث: قتله الباطنية كما ذكر.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م)..

(٣) توفيت زمرد خاتون سنة (٥٥٧هـ)، انظر «العبر» للذهبي: ٤/١٦٢.

(٤) صنعاء: قرية كانت بين المزة ودمشق، نزلها قوم من اليمانية في أول الفتح الإسلامي فسموها باسم عاصمتهم وهي اليوم تقع مكان الجامعة السورية ــ كلية الحقوق، وما حولها. انظر «معجم البلدان»: ٣/٤٢٩، و «غوطة دمشق»: ٢٣٧، ومنازل القبائل العربية حول دمشق. للدكتور صلاح الدين المنجد. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٣٠/٦٦.

(٥) هو يوحنا كومنين، تولى ما بين (٥١٢هـ ــ ٥٣٨هـ). انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان ٢/٣٣٢ وما بعدها.

حصن منيع على مرحلة من [مدينة][1] حماة ـ فحصرها منتصف شعبان، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً[2]. وأرسل صاحبها أبو العساكر سُلْطان بن [علي بن مقلَّد بن نصر بن][3] مُنْقذ إلى زَنْكي يستنجده، فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شَيْزَر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السَّرايا يتخطَّف من يخرج من عساكرهم للميرة[4] والنَّهْب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شَيْزَر، فأرسل إليهم زَنْكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شَيْزَر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شَرِّكم. ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم. فأشار الفرنج على ملك الرُّوم بلقائه وقتاله، وهوَّنوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحينئذٍ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زَنْكي مع هذا يُراسل فرنج الشَّام، ويحذِّرهم ملك الرُّوم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يراسل ملكَ الروم يتهدَّده ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كلُّ واحدٍ من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملكُ الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق* وآلات الحصار بحالها، فسار زَنْكي خلفهم فظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلَّفوه ورفعه إلى قلعة حلب ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[5].

وكان المسلمون بالشام قد اشتدَّ خوفُهم، وعلموا أن الرُّوم إن ملكوا

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الاعتبار» طبعة حتي: ١١٣، وطبعة السامرائي: ١٣٣ ــ ١٣٥.

(٣) ما بين حاصرتين مثبت من «الباهر»: ٥٥.

(٤) في (م) للمسير، وهو تصحيف.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

حصن شَيْزَر* لا يبقى لمسلم معهم مقام، لا سيما [مدينة][1] حماة لقربها.

ولما يسَّر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراءُ الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم [التَّنُوخي][2] الحَمَوي، له قصيدة، قد ذكرتُها في ترجمته في «التاريخ»[3]، أولها:

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ ... تَذِلُّ لك الصِّعاب وتستقيمُ
ألم تَرَ أَنَّ كلبَ الرُّومِ لمَّا ... تَبيَّنَ أنه[4] الملكُ الرَّحيمُ
فجاء يطبِّق الفلواتِ خيلاً ... كأَنَّ الجحْفَلَ اللَّيْلُ البهيمُ
وقد نَزَلَ الزَّمانُ على رضاه ... فكان لِخَطْبِهِ الخَطْبُ الجسيمُ
فحين رَمَيْتَه بك في خميسٍ ... تيقَّنَ أَنَّ ذلك لا يدُومُ
وأبصر في المفاضة منك جيشاً ... فأحْرَنَ[5] لا يسيرُ ولا يُقيمُ
كأَنَّك في العَجَاج شهابُ نورٍ ... توقَّدَ وهو شَيْطانٌ رجيمُ
أراد بقاءَ مهجته فولَّى ... وليس سوى الحِمَام له حميمُ
يؤمِّلُ أن تجودَ بها عليه ... وأنت بها وبالدُّنيا كريمُ
أَيَلْتَمِسُ الفرنجُ لديكَ عَفْواً ... وأنتَ بِقَطْعِ دابرها زَعيمُ
وكم جرَّعْتَها غُصَصَ المَنَايا ... بيومٍ فيه يَكْتَهِلُ الفَطِيمُ
ولمَّا أَنْ طلبْتَهُمُ تَمَنَّى الْـ ... منيَّةَ جُوسَلِينَهُمُ[6] اللَّئيمُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) يعني مختصره لابن عساكر، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩١ من هذا الجزء.
(٤) في أصل «الخريدة» يوافق ما في نسخنا، أبدلها المحقق من مطبوع الروضتين طبعة وادي النيل بـ«أنك» ١/ ٣٢. وهي تحريف، والرحيم لقب يوحنا، إذ أطلق عليه رعاياه Kaloioannes وتعني الصالح، وبهذا عرف عند ابن القلانسي «كياليانى» (ط. د. زكار). ص ٤٠٦ وانظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان ٢/ ٣٣٢.
(٥) في الأصل و(م): فأحزن، وهو تصحيف، والمثبت من (ل).
(٦) هو صاحب الرُّها Joscelin II، انظره في كشاف الأعلام.

أقـام يـطوِّف الآفـاقَ حـيـنـاً وأنـتَ عـلى مـعـاقله مـقيـمُ
فـسـار ومـا يُعـادلـه مليـكٌ وعـاد ومـا يُـعـادلـه سقـيـمُ
إذا خَـطَرَتْ سيوفُكَ في نفوسٍ فـأوّلُ مـا تفـارِقُها الجسـومُ[1]

وله أيضاً من قصيدةٍ يمدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي ١/ ٣٣ التوتان صاحبَ حماة[2]:

وما جاء كلبُ الرُّومِ إلا ليحتوي حماة وما يسطو على الأسدِ الكَلْبُ
أرادَ بهـا أَنْ يملكَ الشَّامَ عَنْـوَةً وقد غُلبت عنه الضَّراغمة الغُلْبُ
ومـا ذَمَّ فيها العيش حتى صَـدَمْتَه فمال جناحُ الجيشِ وانكسرَ القَلْبُ
فـولَّى وأطـرافُ الـرِّمـاح كـأنَّهـا نجـومٌ عليـه بـالمنيَّـة تَنْصَبُّ

ولابن منيرٍ من قصيدة في مـدح أتابـك زَنْكي رحمه الله، سيأتي [بعضها][3] عند ذكر فتحه لمدينة الرُّها* إن شاء الله تعالى:

وما يومُ كَلْبِ الرُّومِ إلا أخو الذي أَزَحْتَ به ما في الجَنَاجِنِ[4] من تَبْلِ[5]
أتاك بمثل الرَّمْلِ[6] حشداً وإنـه ليفضل[7] أضعافاً كثيراً عن الرَّمْلِ
فـقـاتَـلْتَـهُ بـاللهِ ثُـمَّ بِـعَـزْمَـةٍ تَعِـلُّ[8] قلوبَ العاشقينَ بما يسلي

---

(١) القصيدة بتمامها مع اختلاف في بعض الألفاظ، وفي ترتيب بعض الأبيات في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/ ٢٣٢ ب ـ ٢٣٣ أ، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١١٥ من هذا الجزء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وانظر ص ١٤٥ من هذا الجزء.

(٤) على هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: الجناجن، بجيمين ونونين: عظام الصدر والله أعلم». قلت: وقيل: رؤوس الأضلاع. انظر «اللسان» (جنن).

(٥) التبل: العداوة والحقد، والزحل. «اللسان» (تبل).

(٦) في الأصل و(ل) الروم، والمثبت من (م)، وهو الأشبه.

(٧) في (م) ليضعف.

(٨) في الأصل: تصل، وفي (م) تصك، والمثبت من (ل) وهو الأشبه.

توهَّمَ أَنَّ الشَّامَ مرعىً وما درى بأَنَّكَ أَمْضَى منه في الشَّزْر والسَّحل[1]
فطارَ وخير المغنمين دَمَاؤه إذا رُدَّ عنه مغنم المال والأهلِ

قال ابن الأثير: ومن عجيب ما يُحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الرُّوم شَيْزَر* قال الأمير مرشد بن علي؛ أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفاً، فرفعه بيده وقال: اللهم بحق مَنْ أنزلته عليه إن قضيتَ بمجيء الروم فاقبضني إليك. فتوفي بعد أيام، ونزل الروم بعد وفاته[2].

ولما عاد الرُّومُ إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عِرْقة*؛ وهو من أعمال طرابُلُس، فحصره وفتحه عَنوة، ونهب ما فيه وأسر مَن به من الفرنج وأخربه، وعاد سالماً غانماً.

وفيها ملك قلعة دارا* من حسام الدين تمرتاش.

وفيها توفي[3] / [ل /٣٣أ] بهاء الدين علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري؛ قاضي الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده[4].

وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بِتَكْرِيت*.

---

(١) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: الشزر: إحكام الفتل وإبرامه، والسحل دون ذلك، أي أمضى منه في الأمور الكبار والصغار. والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم».

(٢) «الباهر»: ٥٧.

(٣) من هنا يبدأ خرم في الأصل يقع في ثلاث ورقات ينتهي بنهاية صفحة [٣٢/ ب] كتب بخط متأخر، استدركناه من نسخة (ل) و(م)، وسنشير في المتن إلى رقم ورقة (ل) إضافة إلى رقم الأصل في الهامش.

(٥) دفن في صفين، وهو عم القاضي كمال الدين المتوفى سنة (٥٧٢هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ٣٢٩/٢، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٢٨/٧. وص ١١٦ من هذا الجزء.

فــصــل
في فتح شَهْرُزُور[1]* وبَعْلَبَك وحِصَار دمشق

قال ابن الأثير: كانت شَهْرُزُور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان مالكها[2] نافذَ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً؛ فتحامى الملوك قصدَ ولايته، ولم يتعرَّضوا لها لحصانتها، فَعَظُمَ شأنُه وازداد جَمْعُه.

فلما كان سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك* عنه ما اقتضى أن يقصد بلادَه؛ فهزم عسكره، وملك بلاد شَهْرُزور* وغيرها، فأضافها إلى بلاده، وأصلح أحوال أهلها، وخفَّفَ عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان. وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشَّام؛ فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ظاعناً؛ إمّا لردِّ عدوٍّ يقصده، وإمّا لقصد بلاد عدوّ، وإمّا لغزو الفرنج وسدّ الثغور. وكانت مياثر[3] السُّروج آثر عنده من وثير المهاد، والسّهر في حراسة المملكة أحبّ إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذّ في مسمعه من الغناء، لا يجد لذلك كلِّه عناء.

وفي هذه السنة ــ وهي سنة أربع وثلاثين ــ ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي[4].

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شَهْرُزور* إلى مدينة دمشق،

---

(١) في «معجم البلدان»: ٣/٣٧٥ بفتح الراء، وفي «وفيات الأعيان»: ٤/٧٠ بضمها، وعليه أغلب المصادر.

(٢) في (م): مالكاً لها.

(٣) مفردها مِيثَرة: وهي فراش صغير يحشىٰ بقطن أو صوف يجعل تحت السرج.

(٤) هو ابن أخ السلطان صلاح الدين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد ذكر وفاته في ٤/ ٢٩٠، كان والده شاهنشاه قد قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة (٥٤٣ هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٥٢. وص ١٩٧ ــ ١٩٨ من هذا الجزء.

فحصرها، وصاحبها حينئذٍ جمال الدين محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وكان محكوماً [عليه][1]، والغالب على أمره معين الدين أُنَر؛ مملوك جده طُغْتِكِين.

وكان أتابك قد أمر كمال الدّين أبا الفضل بن الشَّهْـرُزُوري بمكاتبةِ جماعةٍ من مقـدَّمي أحداثهـا[2] وزناطـرتهـا[3] واستمـالتهم وإطمـاعهم في الـرغـائب والصلات. ففعل ذلك، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرِّقين إلى كمال الدين، وجدَّد عليهم العُهود، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشَّهيد إلى البلد لِيفْتحوا له الباب ويسلِّموا البلد إليه. فأعلم [ل ٣٣/ب] كمال الدين الشهيد أتابك بذلك، فقال: لا أرى هذا رأياً؛ فإنَّ البلد ضيّق الطُّرُق والشَّوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكّنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثُر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم؛ لأنّهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرُّق لضيق المسالك، فيطمع فينا أهلُه. وعاد / عن ذلك العزم بحزمه وحذره. [٣٠/ب]

ومن العجب أن محمد بن بُوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أُنَر الأمور وساس البلد، فلم يتغيّر بالنّاس حال، وأرسل إلى بَعْلَبَكّ، فأحضر ولدَه مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، ورتَّبه في الملك مكان أبيه، فمشى الحال بتمكين[4] معين الدين أُنَر وحسن تدبيره. وهذا مجير الدين أبق هو الذي منه أخذ نور الدين بن زَنْكي دمشق كما سيأتي[5].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في (ل) والمثبت من (م) و«الباهر»: ٥٨.

(٢) الأحداث هم القوى الشعبية التي تعبر عن الإرادة الذاتية للمدينة تجاه الحكام. انظر عن أصلها كتاب «الحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق في العهد الفاطمي» للدكتور شاكر مصطفى.

(٣) هم السكان المولعون بتحريك الفتن والقلاقل. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٦٠٧/١.

(٤) في (م): بتمكن.

(٥) انظر ص ٣٠١ ــ ٣٠٧ من هذا الجزء.

ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بَعْلَبَكّ مُعين الدين أُنَر، فأرسل إليها نائبه وتسلمها. فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك، وحصرها عِدَّة شهور، فملكها عَنْوَةً، وترك بها نجمَ الدين أيوب، والد صلاح الدين دُزْداراً*، وعزم على العَوْد عنها إلى دمشق، فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خُطب له فيها، وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه[1].

١/ ٣٤

قال يحيى بن أبي طيّ الحلبي: واتّفق أن الأمراء لمّا نزلوا من بَعْلَبَك أفسدوا ذخائرها، فقبض عليهم أتابك زَنْكي، وقتل بعضَهم وصلبهم، وكان ولّى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني. فحكى أنه أُحضر إليه في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة، ومعه ولدٌ له أَمْرَد كأنه فلقة قمر، فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك إلا صلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت. وبكى، وكان نجم الدين أيّوب واقفاً، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاحَ الدين في إطلاقه فقال: ما أفعل خوفاً من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك، وسأله في الشَّيخ وولده، وقصَّ عليه ما قاله، فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بَعْلَبَك.

وقيل: إنَّ نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك، فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولّاه بعلبك، وكتب له ثُلُثها ملكاً، واستقرَّ فيها هو وأهلُه، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زَنْكي، فأخرجَه منها على ما سنذكره[2].

---

(١) انظر «الباهر»: ٥٧ ــ ٥٩، وليس ثمت ذكر للخطبة له في دمشق عند القلانسي في «ذيل تاريخ دمشق» طبعة زكار: ٤٢٤ ــ ٤٢٨، و«الكامل»: ١١/ ٧٣ ــ ٧٥، أما حصار دمشق فكان بعد فتح بعلبك كما في المصدرين السابقين. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٢٢ ــ ٤٢٣، و«الكامل»: ١١/ ٦٨.

(٢) انظر ص ٣١٨ من هذا الجزء.

ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق، فنزل البقاع، فوردت [ل ٣٤/ أ] هدية صاحب دمشق، وطلب العود، ويعطيه خمسين ألف / دينار، ويعطيه حمص. فأشار نجم الدين على زَنْكي بقبول ذلك، وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلدٌ عظيم، وقد أَلِفَ أهله هذا البيت وتمرَّنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببعلبك. [٣١/أ] / فامتنع زَنْكي من قبول ما أشار به، ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين[1]، إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارِين*، وهو للفرنج، فصبر الفريقان صبراً لم يُسمع بمثله إلا ما يُحكى عن ليلة الهرير[2]، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوكُ الفرنج وفُرسانهم، فدخلوا حصن بارِين، وفيهم ملك القُدْس؛ لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدَّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى حصن بارِين، فحصره حصراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان ليَسْلَموا ويُسَلِّموا الحصن، فأبى إلا أخذَهم قهراً. فبلغه أنّ مَنْ بالسَّاحل من الفرنج قد ساروا إلى الرُّوم والفرنج يستنجدونهم، ويُنْهُون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومَنْ بالحصن لا يعلمون شيئاً[3] من ذلك لقوّة الحصر عليهم. فأعادوا مراسلته في طلب الأمان،

---

(١) في «ذيل تاريخ دمشق» طبعة زكار: ٤٠٧ ـ ٤٠٨، و«الكامل»: ١١/ ٥١ ـ ٥٢ تسلم زنكي حصن بارين سنة (٥٣١هـ) وهو الأصح.

(٢) تطلق ليلة الهرير على إحدى ليالي صفين، وإحدى ليالي القادسية، وقد بلغ بهما القتال أشده. انظر «ثمار القلوب»: ٦٣٧، و«الكامل» لابن الأثير: ٢/ ٤٧٩ ـ ٤٨٥.

(٣) في (م): بشيء.

فأجابهم وتسلّم الحصن، وساروا، فلقيتهم أمداد النصارى[1]، فسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بتسليم الحصن، فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين! فحلفوا لهم إنّا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حُصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا، فَحَقَنّا دماءنا بتسليم الحصن[2].

قال ابن الأثير: وكان حصن بارِين* من أضرِّ بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطَّعت السُّبُل، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم. وفي مُدَّة مقامه على حصن بارِين سيّر جنده إلى المعرة* وكفرطاب* وتلك الولاية جميعها، فاستولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة[3].

قلت: وقد قال القَيْسراني يذكر هزيمةَ الفرنج ويمدح زَنْكي قصيدةً أولها:

حَـذار مِنّا، وأنّى ينفعُ الحـذر ... وَهْيَ الصَّـوارم لا تُبقي ولا تَـذَرُ

وأين تنجو ملوكُ الشِّرْك من ملكٍ ... مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ، لا بل جُنْدُه القَدَرُ

/ سلُّوا سيوفاً كأغماد السُّيوفِ بها ... صالوا فما غَمَدُوا نَصْلاً[4] ولا شَهَروا [ن ٣٤/ ب]

/ حتى إذا ما عمادُ الدِّين أرْهَقَهُمْ ... في مـأزق مِنْ سَناه يَبْـرُقُ البَصَرُ [٣١/ب]

وَلَّـوْا تضيقُ بهم ذَرْعـاً مسـالكُهم ... والمـوتُ لا ملجـأُ منـه ولا وَزَرُ

وفي المسافة من دون النَّجاة بهم ... طُولٌ وإنْ كان في أقطارها قِصَـرُ

وأصبحَ الـدِّين لا عينـاً ولا أثـراً ... يخـافُ والكُفْـرُ لا عينٌ ولا أَثَـرُ

---

(١) في (م) النصرانية.

(٢) انظر «الباهر»: ٥٩ ـ ٦١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في (ل) أيضاً، والمثبت من (م).

فلَا تَخَفْ بعدَها الإفرنج قاطبةً ... فالقومُ إن نفروا أَلْوَى بهم نَفَرُ
إن قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبوا ... أو طاردوا طُرِدوا أو حاصروا حُصِروا
وطالما استفحلَ الْخَطْبُ البهيمُ بهم ... حتّى أتى مَلِكٌ آراؤه غُرَرُ
والسَّيْفُ مُفْتَرِعٌ أبكارَ أنفسهم ... ومِنْ هنالك قيل[1] الصَّارِمُ الذَّكَرُ
لا فارَقَتْ ظِلَّ محيي العَدْل لامعةً ... كالصُّبْح تطوي من الأعداء ما نَشَرُوا
٣٥/١ ولَا انثنى النَّصْرُ عن أنصار دَوْلته ... بحيثُ كان وإن كانوا به نُصِرُوا
حتّى تعودَ ثُغورُ الشَّام ضاحكةً ... كأنما حَلَّ في أكنافها عُمَرُ

وقال ابنُ منير:

فَدَتْكَ الملوكُ وأيّامُها ... ودان[2] لنقضك إبرامُها
وزلَّت لِعَيْنِك أَقْدَامُها ... وزَالَ لبطشك إقْدَامُها
ولو لم تُسلِّم إليكَ القلوبُ ... هواها لما صحَّ إسلامُها
أيَا محيي العَدْل لَمَّا نعاهُ ... أيامَى البرايا وأيتامُها
ومُسْتَنْقِذَ الدِّين من أُمَّةٍ ... أذال المحاريب أصنامها
دَلَفْتَ لها تقْتفيك الأسُو ... دُ والبيض والسُّمر آجامُها
جَزَرْتَ[3] جزيرتَها بالسُّيو ... فِ حتى تشاءمها شامُها
وصارت عواريَّ أكنافِهِ ... متى شئت أَرْخَصَ مُسْتامُها

قال ابن الأثير: ولما وصل الرُّوم والفرنج إلى الشَّام، ورأوا الأمر قد فات، أرادوا جَبْرَ مُصيبتهم بمنازلة بعض بلادِ المسلمين، فنازلوا حلب وحَصَرُوها، فلم يَرَ الشّهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم، لأنهم كانوا في جمع عظيم. فانحاز عنهم، ونزل قريباً منهم، يمنع عنهم الميرة، ويحفظُ أطرافَ

(١) في (م) قتل، وفي (ل) قبل، وكلاهما تصحيف. والصواب ما أثبتناه.
(٢) في (م): وكان.
(٣) قطعت. «اللسان» (جزر).

البلاد من انتشار العدوّ/فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضيَ كمال الدين بن [٣٢/أ] الشهرزوري إلى السُّلطان مسعود ينهي إليه حال البلاد[١] وكثرة العدوّ، / [ل ٣٥/ أ] ويطلب منه النّجدة وإرسال العساكر. فقال له كمال الدين: أخاف [ل ٣٥/ أ] أن تخرجَ البلادُ من أيدينا، ويجعل السلطانُ هذا حُجَّة ويُنفّذ العساكر، فإذا توسّطوا البلادَ ملكوها. فقال الشّهيد: إن هذا العدوَّ قد طمع في البلاد، وإنْ أخَذَ حلب لم يبقَ بالشَّام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أَوْلى بها من الكُفَّار. قال: فلمَّا وصلتُ إلى بغداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرَّك فيه بشيء، وكُتُبُ الشَّهيد إليَّ متّصلةٌ يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطبُ فلا أُزادُ على الوعد[٢].

قال: فلما رأيت قِلَّة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرتُ فلاناً ــ وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء ــ فقلتُ: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة، وصَعِدَ الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوتٍ واحد: وَا إِسْلاماه! وَادِينَ مُحمَّدَاه! ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعِد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عِمامته عن رأسه، وصاح، وتبعه أولئك النَّفر بالصّياح والبكاء، فلم يبق بالجامع إلاّ مَن قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلُّهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهلُ بغداد وكلُّ من بالعسكر عند دار السلطان، يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضّبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقيل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل

---

(١) في (ل): ينهي إليه الحال، والمثبت من (م).

(٢) في (م): الوعيد، وهو تحريف..

[٣٣/أ] العساكر إلى الغَزَاة. فقال(١): / أحضروا ابن الشَّهْرُزُوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلَّا أنّني قد عزمت على صِدْقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلمُ كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم(٢) عن بغداد. وعظَّمْتُ الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: اردُدْ هؤلاء العامة عنا، وخُذْ من العساكر ما شئتَ، وسِرْ بهم والأمداد تلحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم(٣)، وعرَّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرَّقوا. وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس(٤)، وكتبت إلى الشَّهيد أُعرِّفُه الخبر، وأنّه لم يبق غيرُ المسير، وأُجدِّدُ استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحثِّ على ذلك، فعَبَرتِ العساكر الجانبَ الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وَإذَا قد وصل نجَّابٌ من الشّهيد يخبر أن الرُّومَ والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خوطب السلطان في ذلك أصرَّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصَّل مع الوزير وأكابر [١/٣٦] الدولة حتّى أَعَدْتُ العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشَّهيد(٥).

---

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في نسخة الأصل، ومن ثم نعود إلى أصلنا في التحقيق. انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٢٦ من هذا الجزء.

(٢) في (م): يمنعكم، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: معهم، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في «الباهر»: «عشرين ألف فارس».

(٥) انظر «الباهر»: ٦٢ ـ ٦٣، وفي «الكامل»: ٥٨/١١ ـ ٥٩، وذكر الخبر في حوادث سنة (٥٣١هـ). انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٣٠ من هذا الجزء.

قال ابن الأثير: فانظر[١] إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس ــ يعني كمالَ الدين ــ رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا هِمَّة عالية، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، يرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويُوفِّر لهم العطاء. حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إنَ هذا كمال الدِّين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمس مئة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرَّأي تدبِّرون دولتي! إن كمال الدين يقلُّ له هذا القدر، وغيره يكثُر له خمس مئة دينار! فإنّ شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مئة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى[٢].

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين [وخمس مئة][٣] سار الشهيد إلى بلد الهكَّارِية*، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جَقَر نائب السلطان الشهيد بالمَوْصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم. فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني؛ وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العِمَادية* عوضاً عنها[٤]. وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره. فلما

(١) في (ل) و(م): فانظروا.
(٢) «الباهر»: ٦٣.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٤) في إحدى نسخ «الكامل»: ٩١/١١، ١٥ أنه أقام قلعة العمادية على أنقاض قلعة آشب، وهو ما ذكره أيضاً ياقوت في «معجم البلدان»: ١٤٩/٤، ولم يذكر ياقوت قلعة الشعباني في كتابه. وفي ذكر ابن الأثير لهذا الخبر اضطراب سببه عدم معرفته كما صرح، فتارة يقول هي قلعة جلاب، ثم يقول هي قلعة آشب، ولم يعرف تماماً تاريخ فتحها، وقد ذكرها أيضاً في حوادث سنة (٥٢٨هـ). انظر «الكامل»: ١٤/١١ ــ ١٦.

ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه. فأمر ببنائه، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمرٍ، فَبُني وسماه القلعة العمادية، نسبةً[1] إلى لقبه [عماد الدين][2].

وفي هذه السنة خُطب لأتابك بآمِد*، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن، والانتماء إلى خدمته والخطبة له، فأجابه إلى ذلك[3].

وفيها [ملك الشَّهيد مدينة عانة*][4].

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد ولاية دمشق فشتى بها.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين عزم السلطان مسعود[5] على قصد المَوْصل بعساكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة[6]. فترددت الرسل بينهما حتى استقرتِ الحال على مئة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السُّلْطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته، فامتنع، واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشَرَطَ عليه فتح الرُّها*. وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن تلك[7] البلاد لا يقدر على حفظها من

---

(١) في (ل): ونسبَةُ.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في «الكامل»: ١١/٨٨ كان ذلك سنة (٥٣٦هـ).

(٤) في هامش الأصل «حصر مدينة عانة» صح: وما بين حاصرتين مثبت من (ل) و(م) وفي «الكامل»: ١١/٩٦ أورد ابن الأثير الخبر في حوادث سنة (٥٣٨هـ)، وانظر «الباهر»: ٦٤.

(٥) في الأصل: محمود، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في الأصل: وحشية، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٧) في (ل) ملك، وهو تصحيف.

الفرنـج غير أتابك عماد الدين؛ فإنها[1] قد وليها قبله مثل جاولي سقاوه، ومودود، وجيوش بك، والبُرْسُقي، وغيرهم من الأكابر[2]، وكان السلاطين يُمِدّونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها، ولا يزال الفرنـج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك. فلم يُمدّه أحد من السلاطين بفارسٍ واحد ولا بمال، ومـع هذا فقد فتـح من بلاد العدو عدة حصون وولايات، وهزمهم غير مرة، واستضعفهم، وعز الإسلام به.

ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لا يزال ولـده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه ويُقرِّبه، ويعتمد عليه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى المَوْصل، وأرسل إلى نائبه بالمَوْصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً. ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله. فأرسل إليه، فعاد الجواب: إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك. وألزمه بالعود إليه، فعاد ومعه رسولٌ إلى السلطان يقول له: إنني لمّا بلغني أن ولدي فارق الخدمـة بغير إذن لم أجتمـع بـه ورَدَدْتُه إلى بابك. فحلَّ هذا عند السلطان محلاً كبيراً، وأجاب إلى ما أراد الشهيد.

ولما استقر المال [حمل][3] منه نحو عشرين ألف دينار. ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة الشهيد، فأطلقَ[4] له الباقي استمالة له[5].

---

(١) في الأصل: فإنه، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (م) الأمراء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وفي (ل) وحمل، والمثبت من (م).

(٤) في (ل) و(م): وأطلق.

(٥) انظر «الباهر»: ٦٥ ـ ٦٦، و«الكامل»: ١١/٩٣ ـ ٩٤.

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عِدَّة بلاد منها طَنْزَة*، وإسْعِرد*، وملك مدينة المعدِن* الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حِيْزَان*، وأخذ من أعمال مارِدين* عدة مواضع، ورتَّب أمور الجميع، وملك مدينة حاني*، وحاصر آمِد*[1]، وأرسل عسكراً إلى مدينة عانة*، فملكها له، وقد تقدَّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرُّها* في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمس مئة. وكانت لجوسلين*، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم، والمقدَّم على رجالهم وفرسانهم. وكان مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام. وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى[2] الكراسيّ عندهم، فأشرفها[3] البيت المقدس، ثم أنطاكية*، ثم رومية وقُسْطنطينية والرُّها.

وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرُّها شرٌّ عظيم، وملكوا من نواحي مارِدين* إلى الفرات على طريق شبختان[4] عدة حصون كَسَرُوج*، والبِيْرَة*، وجُملين، والمُوَزَّر*. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمِد* من ديار بكر، ومارِدين*، ونَصِيبين*، ورأس عين*، والرَّقَّة*. وأما حَرَّان* فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبَّحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا أَنِفَ منهم، وعلم أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها. فأخذ في إعمال الحيل والخداع، لعل

٣٧/١

(١) انظر «الباهر»: ٦٦، و«الكامل»: ١١/ ٩٤.

(٢) في (ل) و(م) أحد.

(٣) في (ل) وأشرفها.

(٤) في الأصل: سنجار، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر «الباهر»: ٦٧.

جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني* وجبل جور وآمِد*؛ فكان يقاتل مَنْ بها قتالاً فيه إبقاء، وهو يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء[1]، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم. ووكَّل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظَنَّ أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرُّها إلى بلاده الشَّاميّة، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذِخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرُّها.

ثم وصف ابنُ الأثير الجيشَ وأنشد:

بجيشٍ جاش بالفُرْسان حتى	ظننتُ البرَّ بحراً من سلاحِ
وألسنةٍ من العَذبات حُمْرٍ	تخاطبنا بأفواه الرِّياحِ
وأروعَ جيشُه ليلٌ بهيم	وغُرَّتهُ عمود للصباحِ
صَفوحٌ عند قُدْرته ولكن	قليلُ الصفح ما بين الصِّفاحِ
فكان ثباتُه للقلب قلباً	وهيبته جناحاً للجناحِ

وألَحَّ الشهيد في حصارها، فملكها عَنْوَةً، فاستَباحها، ونكس صلبانها، وأباد قُسُوسها ورُهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النَّهْب والسَّبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأَنِفَ لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فَرُدُّوا عن آخرهم، لم يُفْقَد منهم إلا الشَّاذّ والنّادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً. ثم رتَّبَ البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كَسَرُوج* وغيرها، وأخْلَى

---

(١) أي يظهر أخذ الرغوة وهو يحسو اللبن، وهو مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره، انظر «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري: ٢/٤١٢ ــ ٤١٣، و«اللسان» (رغا).

ديار الجزيرة من معرَّة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره، وطاب بها نَشْره، وشهده خَلْقٌ كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنَّهم رَأَوْا يوم فتح الرُّها الشّيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي؛ وكان من العلماء العاملين، والزّاهدين في الدّنيا، المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة. ذكروا عنه أنّه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مُسْتَبْشِرٌ مسرور، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم[1] قال: حدثني بعض إخواننا أن أتابك زَنْكي فتح مدينة الرُّها، وأنّه شهد معه فتحها يومنا هذا. ثم قال: ما يضرُّك يا زَنْكي ما فعلتَ بعد اليوم. يُردّد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح. ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشَّيخ وقالوا [له][2]: منذُ رأيناك على السّور تكبّر أيقنّا بالفتح. وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً[3].

قال: وحكى لي بعضُ العلماء بالأخبار والأنساب؛ وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صِقِلِّية* من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصَّالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمه، ويرجع إلى قوله، ويقدِّمه على مَن عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقتُ الذي فُتحت فيه الرُّها سيّر هذا ملكُ الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالسٌ وعنده هذا العالم المغربي وقد نَعَس وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يا فقيه،

---

(١) في الأصل: عندهم، والمثبت من (ل) و(م) و«الباهر»: ٧٠.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) انظر «الباهر»: ٧٠.

قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم[1]؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرُّها. فتضاحك مَنْ عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم. واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيرُ قليلٍ حتّى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدةُ هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلوِّ منزلة الرُّها عند النَّصرانية[2].

قال: وحكى لي أيضاً غيرُ واحد ممن أثق إليهم[3]، أن رجلاً من الصالحين قال: رأيتُ الشَّهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت[4]: بماذا؟ قال: بفتح الرُّها[5].

قلتُ: وهنأه القَيْسَراني عند فتح الرُّها بقصيدةٍ أولها:

هو السَّيْفُ لا يُغْنيك إلا جِلادُهُ ... وهل طوَّق الأملاكَ إلا نِجادُهُ

وعن ثَغْر هذا النَّصْرِ فلتأخذِ الظُّبى ... سناها وإن فاتَ العيونَ اتقادُه

سمت قُبَّة[6] الإسلام فخراً بطَوْله ... ولم يكُ يسمو الدِّينُ لولا عِمادُهُ

وذاد قسيمُ الدَّولة ابنُ قسيمِها ... عنِ الله ما لا يُسْتَطَاعُ ذيادُهُ

لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ ... رواسيه عِزًّا واطمأنَّ مِهادُهُ

وفتحٌ حديثٌ في السماع حَدِيْثُه ... شهيٌّ إلى يوم المَعَادِ مُعادُه ٣٨/١

أراحَ قلوباً طِرْنَ من[7] وُكُناتِها[8] ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ

لقد كان في فتح الرُّهاء دلالةٌ ... على غير ما عند العُلُوج اعتقادُهُ

(١) في (ل): نصرتهم.

(٢) «الباهر»: ٧٠.

(٣) كذا في النسخ الخطية، والصواب «بهم».

(٤) في (م): فقلت.

(٥) «الباهر»: ٧٠.

(٦) في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٥٥ «قبلة».

(٧) في (ل) و(م): عن.

(٨) مفردها وَكْن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار. انظر «اللسان» (وكن).

يُرَجُّون ميلاد ابن مريمَ نُصرةً ... ولم يُغْنِ عند القوم عنهم[1] ولادُه
مدينةُ إفْكٍ منذ خمسين[2] حِجَّةً ... يفلُّ حديدَ الهند عنها حدادُه
تفوتُ مدى الأبصار حتى لوَ انَّها ... ترقَّتْ إليه خانَ طَرْفاً سوادُه[3]
وجامحةً عَزَّ الملوكَ قِيادُها ... إلى أَنْ ثناها مَنْ يعِزُّ قِيادُه
فأوسعَها حرَّ القِرَاعِ مُؤَيَّدٌ ... بصيرٌ بتمرين الألدِّ لِدَادُه
كأَنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حَوْلَه ... شَرَارٌ ولكنْ في يديه زِنادُه
فأَضْرَمها نارَيْن: حَرْباً وخَدْعةً ... فما راعَ إلاّ سورُها وانْهدادُه
فصدَّت صُدُودَ البِكْر عند افْتضاضها ... وهيهات كان السيفُ حتماً سِفاده[4]
فيا ظَفَراً عمَّ البلادَ صلاحُه ... بمن كان قد عمَّ البلادَ فسادُه
فلا مُطْلَقٌ إلا وَشُدَّ وثَاقُه ... ولا مُوثَقٌ إلاّ وحُلَّ صِفادُه
ولا مِنْبَرٌ إلا ترنَّح عُودُه ... ولا مُصْحَفٌ إلا أنار مِدَادُه
فإن يشكل الإبرنز فيها حياته ... وإلا فَقُلْ للنَّجْمِ كيف سُهادُه
وباتت سرايا القمص تقمص[5] دونَها ... كما يتنزَّى عن حريقٍ جرادُه
إلى أينَ يا أسرى الضَّلالةِ بعدها ... لقد ذَلَّ غاويكُم وعَزَّ رشادُه
رُوَيْدَكُمُ لا مانعٌ من مُظَفَّرٍ ... يعانِدُ أسبابَ القضاءِ عِنادُه
مُصيبُ سهام الرأي لو أنَّ عَزْمَهُ ... رمى سَدَّ ذي القَرْنين أصمى سَدادُه
وقل لملوك الكُفْرِ تُسلِمُ بعدها ... ممالكَها إن البلادَ بلادُه
كذا عن طريق الصُّبْحِ أيتُها الدُّجى ... فيا طالما غالَ الظلامَ امتدادُه

---

(١) في الأصل و (م) عنه، وهو تصحيف، والمثبت من (ل). وقد سقط سور المدينة عشية عيد الميلاد. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ٣٨٠ (الترجمة العربية).

(٢) في الأصل و (ل) خمسون، والمثبت من (م).

(٣) في (ل) سهاده.

(٤) في (ل) نفاده.

(٥) أي تثب. انظر «اللسان» (قمص).

ومن كـان أملاكُ السَّمـواتِ جندَه   فـأيةُ أرضٍ لم تـرضهـا[1] جيـادُهُ
ولله[2] عـزمٌ ماءُ سَيْحـان[3] وِرْدُهُ   وروضـة قُسْـطَنْـطِيْنَـةٍ مُستـراده[4]

وله من قصيدةٍ هنَّأ بها القاضي كمال الدين بن الشَّهْـرُزُوْري أَوَّلُها:

هـي جنـة المأوى فهل مِنْ خاطب.

يقول فيها:

إن الصَّفَائـح يومَ صافحت الرُّهـا   عطفت عليها كل أَشْوسَ[5] ناكبِ
فتـح الفُتـوح مبشِّـراً بتـمـامـه   كـالفَجْرِ في صَـدْرِ النَّهـار الآيبِ
لله أيَّـة وقـفـةٍ[6] بَـدْرِيَّـةٍ   نُصـرت صحابتهـا بأيمنِ صـاحبِ
ظفـرٌ كمـال الـدّين كنتَ لقـاحَـه   كم ناهضٍ بالحرب غيرِ مُحَاربِ
وأمـدَّكم جيشُ المـلائـك نُصـرةً   بكتـائـب محفـوفـةٍ[7] بكتـائب
جنبوا الدَّبورَ[8] وقُدْتُمُ ريحَ الصَّبا   جنـدُ النُّبوة هَـلْ لهـا من غـالبِ

---

(١) في «الخريدة»: تطأها.
(٢) في (ل): فلله.
(٣) سيحان: نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة، وهو نهر أذنة بين أنطاكية والروم، يمر بأذنة ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال، فيصب في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط). «معجم البلدان»: ٢٩٣/٣.
(٤) أي مكان ارتياده. «معجم متن اللغة»: ٦٧٦/٢. وبعض أبيات القصيدة في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ١٥٤/١ ــ ١٥٥.
(٥) الجريء على القتال، الشديد. انظر «اللسان» (شوس).
(٦) كذا في النسخ الخطية، ولعلها وقعة.
(٧) في (م) محثوثة.
(٨) هي ريح تهب من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية المشرق. انظر «اللسان» (دبر).

أترى الرُّها [الوَرْهاء][1] يوم تمنَّعَتْ ظَنَّتْ وجوبَ السورِ[2] سَوْرَةَ لاعبِ

لا أين يا أسرى[3] المهالك بعدَها ضـاقَ الفضاءُ على نجـاةِ الهارب

شدًّا إلى أرضِ الفرنجة بعدَها إن الدُّروبَ على الطّريق اللاَّحب

أفغـرَّكم والثّـارُ رهنُ دمـائكم مـا كان من إطـراق لحْظ الطَّالبِ

وإذا رأيت اللّيث يَجْـمَـعُ نفسَـه دونَ الفـريسـة فَهـو عينُ الـواثبِ

١/٣٩ وقال ابن منير:

صفـاتُ مجـدِكَ لفظٌ جـلَّ معناه فـلا استردَّ الـذي أعْطاكـهُ اللهُ[4]

يــا صـارمـاً بيمينِ الله قـائِمُـهُ وفي أعـالي أعـادي اللّهِ حَـدَّاه

أَصْبَحْتَ دُون ملوك الأرض مُنفرداً بـلا شبيـهٍ إذِ الأَمـلاكُ أشْبـاه

فـداك من حاولَتْ مسعـاك هِمَّتُهُ جهـلاً وقصَّرَ عن مسعـاكَ مسعـاه

قُلْ للأعادي ألاَ موتـوا به كمـداً فـالـلَّهُ خيَّـبكُـم والـلَّهُ أعـطاه

مَلْكٌ تنـامُ عن الفحشـاءِ هِمَّتُـهُ تُقًى وتَسهـرُ للمعـروفِ عَـيْنَـاه

ما زال يَسْمُكُ[5] والأيامُ[6] تخدُمه فيمـا ابتـلاه وتُـدْني مـا تـوخَّاه

حتى تعالتْ عن الشِّعْرَى[7] مشاعِرُهُ قَـدْراً وجـاوزتِ الجـوزاءَ نَعْلاه

وقد روى النَّاسُ أخْبارَ الكرام مَضَوْا وأيــن مِـمَّــا رَوَوْه مــا رأيـنــاه

أين الخلائف عن فتـحٍ أُتيـح له مــظلِّلٌ أُفُقَ الــدُّنيـا جنـاحـاه

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). والورهاء: الخرقاء. «اللسان» (وره).

(٢) أي سقوط السور. انظر «اللسان» (وجب).

(٣) في (م) ما أسرى.

(٤) هذا البيت ليس في (ل).

(٥) أي يرتفـع. «اللسان» (سمك).

(٦) في (م) الأقدار.

(٧) الشعرى: كوكب نير يطلـع بعد الجوزاء. انظر «اللسان» (شعر).

علىٰ[١] المنابر من أنبائه[٢] أَرَجٌ مقطوبةٌ بفتيق المِسْك ريَّاه

فتحٌ أعادَ على الإسلام بهجَتَهُ فافترَّ مبسمُه واهتزَّ عِطْفَاه

يُهْدَى بمعتصمٍ بالله فتكته حَدِيْثُها نَسَخَ الماضي وأنساه

إنَّ الرُّها غير عمُّوريةٍ[٣] وكذا مَنْ رامها ليس مَغْزَاهُ كمغزاه

أخت الكواكب عِزًّا ما بغَى أحدٌ من الملوكِ لها وَقْماً[٤] فواتاه

حتّى دَلَفْتَ لها بالعَزْم يشحذُه رأيٌ يبيتُ فُوَيْقَ النَّجْمِ مسراه

مشمِّراً وبنو الإسلام في شُغُلٍ عن بَدْءِ غَرْسٍ لهم أثْمارُ عقباه

يا مُحيي العَدْلِ إذ قامت نَوَادِبُه وعامرَ الجُودِ لمامحٍّ[٥] معناه

يا نعمةَ الله يستصْفي المزيد بها للشّاكرين ويستقني صفاياه

أبقاكَ للدِّين والدُّنيا تحوطُهما من لمْ يُتوِّجْكَ هذا التَّاجَ إلا هو

ولابن منير أيضاً من قصيدةٍ تقدَّم بعضُها، [وهي][٦]:

أيَا ملِكاً ألقى على الشِّرْك كلكلاً أناخَ على أُماته[٧] كَلْكَلُ الثُّكْلِ

جمعتَ إلى فَتْحِ الرُّها سَدَّ بابِه[٨] بِجَمْعِكَ بينَ النَّهْبِ والأَسْر والقَتْلِ

هو الفَتْحُ أنسى كلَّ فتحٍ حديثُه وتوَّجَ مَسْطُورَ الرِّواية والنَّقْلِ

---

(١) في (ل) و(م) علا، وكلاهما صحيح في المعنى.

(٢) في (ل) آرائه.

(٣) مدينة مشهورة فتحها المعتصم العباسي سنة (٢٢٣هـ). انظر «الكامل»: ٦/٤٨٠ ـ ٤٨٨.

(٤) أي ذلاً. انظر «اللسان» (وقم).

(٥) محٌّ: خَلَق، دَرَس. «اللسان» (محح).

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م)، وانظر ص (١٢٥ ـ ١٢٦) من هذا الجزء.

(٧) مفردها أم، والجمع أمات وأمهات. وقال بعضهم: الأمهات فيمن يعقل، والأمات بغير هاء فيمن لا يعقل. انظر «اللسان» (أمم).

(٨) أي سد باب الشرك.

فَضَضْتَ به نقشَ الخواتمِ[1] بعدَه جُزيتَ جزاءَ الصِّدْقِ عن خاتَم الرُّسْلِ
تجـردت لـلإسـلام دُون ملوكـه تُبَتِّكُ[2] أسبابَ المـذَلَّةِ والخَـذْلِ
أخو الحَرْبِ غَذَّتْهُ القراع مفطَّمـاً يشوبُ بإقدامِ الفتى حُنْكَةَ الكَهْلِ

وله من قصيدة أخرى:

بعمـاد الدِّينِ أضحت عُـروة الدِّ (م) ين معصوبـاً[3] بِهـا الفتْحُ المبينْ
واستـزادت بقسيم الـدَّوْلـة الـ ـقسم من إدْحاض كيدِ المارقينْ
مـلكٌ أسْهَـر عيـنـاً لم يـزل همُّهـا تَشْريـدَ هَمِّ الـرَّاقِـدينْ
لا خَلتْ من كَحَـل النَّصْـرِ فقـد فقـأت غيـظاً عيـونَ الحاسِـدينْ
كـلُّ يـومٍ مَـرَّ مِـنْ أيـامـه فهـو عيـدٌ عـائـدٌ للمسلميـنْ
لـو جرى الإنصـافُ في أوصـافـه كـان أولاهـا أميـرَ المـؤمنيـنْ
مـا روى الرَّاوُون بـل ما سطَّروا مثـل ما خَـطَّتْ له أيـدي السنينْ
إذْ أنـاخَ الشِّـرْكُ في أكنـافـه بـمئي ألـفٍ تـلاهـا[4] بـمئيـنْ
1/40 وقعـةٌ طـاحَتْ بكلبِ الـرُّوم من قـطعه التِّين إلى قَـطْـعِ الوَتينْ[5]
إن حمت مصـرٌ فقـد قـامَ لهـا واضـحُ البـرهان أن الصِّين صينْ
والرُّها لو لم تكن [إلَّا][6] الرُّهـا لَكَفتْ حَسْمـاً لشـكٍّ المُمْتـرين
دَرَجَ الـدَّهْـرُ عليهـا مُعْصِـراً[7] لم تـدنَّس[8] بمـرام الـلَّامسين[9]

(1) في (م) المخاتم.
(2) بتك: قطع الشيء من أصله. «اللسان» (بتك).
(3) في الأصل معصوماً، وهو تصحيف. والمثبت من (ل) و(م).
(4) في (م) ثناها، ومثلها على هامش الأصل في رواية أخرى للبيت.
(5) عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. «اللسان» (وتن).
(6) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(7) المعصر: التي بلغت عصر شبابها وأدركت، ويقال: هي التي قاربت الحيض. انظر «اللسان» (عصر).
(8) في الأصل: يدنس، والمثبت من (ل) و(م).
(9) في الأصل: اللائمين، والمثبت من (ل) و(م): واللامسين، مفردها لامس، من اللمس وهو كناية عن الجماع. انظر «اللسان» (لمس). وهذا البيت ورد في الأصل قبل بيت «والرها لو لم تكن...» وما أثبتناه من (ل) و(م).

هَمَّ قسطنطين أن يَفْرَعَهَا ... ومضى لم يَحـو منها قِسْطَ طِينْ

ولكم مِنْ مَلِكٍ حاولها ... فتحلَّى[1] الحَيْنَ[2] وسماً في الجبين

هي أختُ النجْمِ إلاّ أنّها ... منه كالنجْمِ لرأي المُبْصرين

مُنِيَتْ منه بليثٍ قائدٍ ... بعِرَانِ[3] الذُّلِّ آسادُ العَرِينْ

زارها يزأرُ في أُسْدٍ وغى ... تُبْدِلُ الأُسْد من الزأر الأنينْ

صولجوا البيضَ[4] بضَرْبٍ نَثَر الـ ... ـهامَ في ساحاتها نَثْرَ الكُرينْ[5]

يا لَها هِمَّةُ ثَغْرٍ أضحكَتْ ... من بني القُلْفِ[6] ثغورَ الشَّامتين

بَرْنَسَتْ رأسَ برنس[7] ذِلَّةً ... بعدما جاسَتْ حوايا جوسلينْ[8]

وَسَرُوج* مُذْ وعت أسراجه ... فَرَّقَتْ جُمَّاعها عنها عِضينْ[9]

تلك أقفال رماها الله من ... عزمه الماضي بخيرِ الفاتحينْ

شامَ منه الشَّامُ برْقاً ودْقُه[10] ... مؤمنُ الخوفِ مخيفُ الآمنينْ

كم كنيسٍ كُنِسَتْ آرامُها[11] ... منه بعد الرَّوْح[12] في ظل السَّفينْ

---

(١) في (م) فتجلى.

(٢) الهلاك. انظر «اللسان» (حين).

(٣) العران: خشبة تُجعل في وترة أنف البعير، وهو ما بين المنخرين. «اللسان» (عرن).

(٤) أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها: صولجان.

(٥) مفردها كُرَة: وهي التي يلعب بها بالصولجان. «معجم متن اللغة»: ٥/٥٩. وانظر «الجوكان» في كشاف المصطلحات.

(٦) أي الذين لم يختنوا، ويعني الصليبيين. انظر «اللسان» (قلف).

(٧) هو أمير أنطاكية في ذلك الوقت ريموند فوتو Raymond of poitou.

(٨) هو جوسلين الثاني Joscelin II.

(٩) أي مفرَّقين، من عضيت الشيء إذا فرقته. انظر «اللسان» (عضه).

(١٠) مطره. «اللسان» (ودق).

(١١) مفردها: رِئم وهو الخالص من الظباء، وقيل: هو ولد الظبي والجمع أرآم، وقلبوا فقالوا آرام، والأنثى رئمة. انظر «اللسان» (رأم).

(١٢) الرَّوْح: السرور والفرح. «اللسان» (روح).

دَنَـتِ الآجـالُ مـن آجـالـهـا — فـأحَلَّتْها القـطا بعـدَ القَـطِينْ
ومـنـارٍ يُـجْـتَـلى صُـلْبـانُـهُ — بين بِيْضٍ تتبـارى في الـبُـرين
قَـرَعَـتْـه البيضُ حتى بـدَّلَـتْ — قـرعـةَ النَّاقـوسِ تثـويبَ الأذينْ
بـالقَسيميَّات(١) مقسـوماً لهـا الـدَّ (م) — هر في عَلْكٍ لُجَيْنٍ(٢) أو لَجِيْن(٣)
سَلْ بها حَـرَّان* كم حَرَّى سَقَتْ — بَـرداً يـوم رَدَتْ من مـارِدِينْ*
سُمِـطَتْ(٤) أمسِ سُمَيْسَاطُ* بها — نَـظْمَ جيشٍ مُبْهِجٍ للنَّـاظـرينْ
وغـداً يُلْقى على القُـدْسِ لهـا — كَلْكَـلٌ يَدْرُسُهـا دَرْسَ الـدَّرِينْ(٥)
هِمَّـةٌ تُمْسي وتـضحي عَـزْمَـةً — ليس حِصْنٌ إنْ نَحَتْهُ(٦) بِحَصِينْ
قُـلْ لـقـومٍ غَـرَّهُـمْ إمـهـالُـه — ستـذوقـونَ شَـذَاه بعـدَ حيـنْ
إنَّـه المـوتُ الّـذي يُـدْرِكُ مَنْ — فَـرَّ منـه فشجـاً لـلغـافلينْ
وهـو يُحيي مُـمْسكي عُـرْوته — إنَّـهـا حَبْـلٌ لِمَنْ تـابَ متيـنْ
مَنْ يُطع ينجُ(٧) ومنْ يَعْصِ يَكُنْ — مِـنْ غَـدَاةٍ عِبْـرةً لـلآخَـريـنْ
بـكَ يا شمسَ المعالي رُدَّتِ الرُّ (م) — وحُ في الْمَيْتَيْنِ من دُنْيـا ودِيـنْ
أقـسم الـجَـدُّ بـأن تبقى لـكي — تملكَ الأرضَ يمينـاً لا يمينْ(٨)

---

(١) لعل مفردها قسامي، وهو الفرس الذي أقرح من جانب، وهو من جانب آخر رباع، يعني الذي استكمل أسنانه، وهو بعد في الرابعة. انظر «اللسان» (ربع)، «تاج العروس»: (قسم).
(٢) اللجين: الفضة. «اللسان» (لجن).
(٣) اللجين: ورق الشجر يخبط، ثم يخلط بدقيق أو شعير فيعلف. «اللسان» (لجن).
(٤) أي علقت على السمط: وهو خيط النظم. «اللسان» (سمط).
(٥) في هامش (ل): هو حطام المرعى. قلت: قال الجوهري: الدرين: حطام المرعى إذا قَدُمَ، وهو ما بلي من الحشيش. انظر «اللسان» و«الصحاح» (درن).
(٦) أي إن قصدته. «اللسان» (نحا).
(٧) في (ل) ينجح.
(٨) أي لا يكذب. «اللسان» (مين).

وتُفيض العَدْلَ في أقطارها مُنْسِياً مُؤْلِمَ عَسْفِ الجائرينْ
لا تَزَلْ دارُك كيف انتقلَت كعبةً محفوفةً بالطَّائفينْ
كل يومٍ يتحلّى جِيْدُها من نظيمِ المَدْحِ بالدُّرِّ الثَّمينْ
كلّما أُخلص فيها دَعْوَةً لكَ قالتْ أَلْسُنُ الخَلْقِ أَمِين[1]

فصل

لما فرغ الشَّهيد من أخذ الرّها* وإصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البِيرة*؛ وهي حصنٌ حصين مطلٌ على الفُرَات، وهو لجوسلين* أيضاً، فحَصَره، وضايقه، فأتاه الخبرُ بقتل نائبه بالمَوْصل والبلاد الشَّرْقية نصير الدِّين جَقَر[2] بن يعقوب، فرحل عنها خوفاً من أن يحدث بعده في البلاد فتقٌ يحتاج إلى المسير إليها. فلما رحل عنها سيَّر إليها حُسام الدين تمرتاش بن إيلغازي؛ صاحب مارِدِين* عسكراً، فسلَّمها الفرنج إليهم خوفاً من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النَّصير في ذي القَعْدة سنة تسع وثلاثين؛ وسببُه أن الملك ١/٤١ أَلْب أرسلان المعروف بالخَفَاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد، وهو أتابكه ومربيه، وكان هو يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أنّ البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان، وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجابَ عن رسالةٍ فإنما يقول: قال الملك كذا وكذا.

(١) يقال: آمين، وأمين. «اللسان» (أمن).

(٢) في هامش الأصل. «حاشية، قال المؤلف: رأيته بخط من فهم هذه الأسماء الأعجمية. جغر: بفتح الجيم وكسر الغين المعجمة في عدة مواضع، والله أعلم».
قلت: لعله يقصد العماد الكاتب، فهو يكتبه بالغين المعجمة، انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٨ ـ ١٨٩.

وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه، ويخرج الأموال ويطلب السَّلْطنة، فعاجلته المنيَّة قبل ذلك. وكان هذا الملك بالمَوْصل هذه السنة، وبها نصير الدِّين ـ وهو ينزلُ إليه كلَّ يوم يخدِمُه ويقف عنده ساعة ثم يعود ـ فحسَّن المفسدون للملك قتله، وقالوا له: إنك إن قتلتَه ملكت المَوْصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان[1] عليك. فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً، فلمّا دخل نصير الدين إليه على عادته وَثَبَ عليه جماعةٌ في خدمة الملك فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظنًّا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرَّقوا، ويملك الملك البلاد. وكان الأمرُ بخلاف ما ظَنُّوا؛ فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لمّا رأوا رأسه قاتلوا مَنْ بالدَّار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرِّجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة، فلم يتغيَّر عليه بهذا الفتق شيء. وكان في جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري[2]؛ أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدَعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يُحسِّن له الصُّعود إليها، وحينئذٍ يستقرُّ له ملك البلد. فلما صَعِدَ القلعة سجنوه بها، وقُتل الغِلْمان الذين قتلوا النَّصير، وأَرسلوا إلى أتابك يعرِّفونه الحال؛ فسكن جأشه، واطمأنَّ قلبه، وأرسل زين الدين علي بنَ بُكْتِكِين[3] والياً على قلعة المَوْصل ـ وكان كثيرَ الثقة به والاعتماد عليه ـ فسلك بالنَّاس غير الطَّريق التي سلكها النَّصير، وسهَّل الأمر؛ فاطمأن الناس وأمنوا، وازدادت البلاد معه عمارة. ولمّا رأى الشَّهيد

---

(١) في (م) فرسان، وهو تصحيف.

(٢) كان بارعاً في الفقه، ولد سنة (٤٩٥هـ) وتوفي على الصحيح سنة (٥٥٦هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٢٤٥/٤، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٣٣٣/٧، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣٤٠/٢ ـ ٣٤٢، وفيه توفي سنة (٥٦٦هـ) والتاريخ الأول نقله ابن خلكان عن «الخريدة».

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.

صلاحَ أمر المَوْصل سار إلى حلب فجهَّزَ منها جيشاً إلى قلعة شَيْزَر*، وبينها وبين حماة نحو أربعة فراسخ، فحصَرَها.

قلت[1]: كذا وقع في كتاب ابن الأثير[2]، وقد وَهِمَ في قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب في كتاب «السَّلْجوقية»[3]، فإنه قال: كان مع زَنْكي ملكان من أولاد السُّلْطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه، أحدهُما يسمَّى ألب أرسلان وهو في مَعْقلٍ من معاقل سِنْجار*، والآخر يسمّى فَرُّخشاه ويعرف بالخفاجي الملك[4]، وهو بالمَوْصل، وكان هذا الملك مُسَلَّماً إلى الأمير دُبَيْس بن صَدَقة، فانتزعه منه زَنْكي في حربٍ جرت، فكانت زوجة زنكي خاتُون السُّكْمانيَّة تربيه حتى بلغ، وكان النُّصير يقبضُ عنانه، ويبسط فيه لسانه، ويقول: إنْ عقَل وإلا عقَّلتُه، وإن نقل طبعه وإلا نقَّلْته. فدبَّر في قتله مع أصحابه، فقطعوه في دهليز داره لمّا دخل للسَّلام على الملك. ثم أصعد القاضي تاجُ الدين الملكَ إلى القلعة فلم يُرَ له أثر، والتقط مماليكه. ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجَه من معقِله، وعُني بتفاصيل أمره وجُمَله، وضَرَبَ له نوبتيَّة ونوباً، ورتَّبَ له في حالتي ركوبه وجلوسه رُتَباً، وأُغري بتولّي إكرامه وتوخّيه، وغرضُه خفاءُ ما جرى مِنْ هلاكِ أخيه. ثم ذكر قصة موت زنكي[5] على قلعة جَعْبر* كما سيأتي[1].

وفي سنة أربعين وخمس مئة أرسل أتابك[6] إلى زين الدين علي يأمره

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (م).

(٢) انظر «الباهر»: ٧١، و«الكامل»: ١٠٦/١١.

(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) في المصدر السابق: ويعرف بالملك الخفاجي.

(٥) انظر المصدر السابق: ١٨٩ ـ ١٩١، وص ١٥٤ من هذا الجزء.

(٦) في (م): أتابك زنكي.

بإرسال عسكر إلى حصن فَنَك يحصره، فسيَّر خلقاً كثيراً من الفرسان والرَّجَّالة، فأقاموا عليه يحصُرونه إلى أن أتاهم الخبرُ بقتل الشهيد أتابك. وهذا الحصن[1] هو مجاور جزيرة ابن عمر*، وهو للأكراد البَشْنَويّة، وله معهم مُدَّة طويلة، يقولون نحو ثلاث مئة سنة، وهو من أمنع الحصون، مُطلٌّ على دِجْلَة، وله سَرَبٌ إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت: وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرَّقَّة* عماد الدين زَنْكي، يهنّئه بالعافية من مرض عَرَض له في يده ورجله قصيدةً أوَّلها:

يا بَدْرُ لا أَفْلٌ ولا مُحَاقُ[2] ... ولا يَرِمْ[3] مشرقكَ الإشراقُ

بالدِّين والدُّنيا الذي تشكو وهل ... يهتزُّ فَرْعٌ لم يُقِمْه ساقُ

لن تُورِقَ القُضْبُ ويجري ماؤُها ... فيها إذا ما التاثتِ الأعراقُ

إن الرَّعايا ما سَلِمْتَ في حمىً ... لِلْخَطْبِ عن طُرُوقِهِ إطراقُ

غَرَسْتَ بالعَدْلِ لهم خمائلاً ... ترتع في حديقِها الحِذَاقُ

يا هضبةَ الدِّينِ التي عاذَ بها ... فعادَ لا بغتٌ ولا إرْهاقُ

لو لم تَحُطْهُ راجِلاً وقافلاً ... أصبح لا شامٌ ولا عِراقُ

عمادُ دينٍ مُذْ أقام زيغَهُ ... حيٌّ وماتَ الشِّرْكُ والنِّفاقُ

يا محيي العَدْلِ الذي في ظلِّه ... تسربَلَتْ زينتَها الآفاقُ

١/٤٢

يَفديك مَنْ لاَنَ مِهادُ جنبه ... لَمَّا نبا بجنبكَ الإقلاقُ

من بِشَبَا سيفك[4] أنْبَطْتَ[5] له الـ ... ـعذْبَ وماءُ عَيْشِه زُعاقُ[6]

---

(١) بينهما نحو فرسخين كما في «معجم البلدان»: ٢٧٨/٤.

(٢) في (م) لا أفق ولا محال، وهو وهم.

(٣) أي لا يبرح. «اللسان» (ريم).

(٤) أي بحدِّ سيفك. «اللسان» (شبا).

(٥) أي استخرجت. انظر «اللسان» (نبط).

(٦) ماء زعاق: مر غليظ لا يطاق شربه من أجوجته. «اللسان» (زعق).

تجـرَّع السَّمَّ ولـوْ لَم تحـمـه بـحـدِّه لَـعـزهُ الـدِّرْيـاقُ[1]
ملوك أطـرافٍ حمى أطـرافَهـا عـزمُك هـذا اللّاحقُ السَّبَّـاقُ
لوْ لَم ترق مـاءً كرى العين لَمَا سـاغَتْ بـأفـواههم الأرْيـاقُ[2]
شققتَ مِن دونهم مَـوْجَ الـرَّدى وَشَـقَّ أكـبـادَهُـمُ الـشِّـقـاقُ
أُقسم لـو كلَّفْتهم أن يسمعـوا حـديثَ أيَّـامك مـا أطـاقـوا
لمَّـا اشتكيت دبَّ في أهوائِهم تـوجّسٌ لـلـسَّـمـع واسْـتِـراقُ
تـطاولـوا لا عـدمـت آمـالُـهـم قـصـراً ولا جـانبـهـا الإخفـاقُ
تـوهَّـمُـوها غَسَقـاً ثـم انـجـلَتْ والصَّفـوُ مِن مشـربهم غَسَّـاقُ[3]
لئـن ألـمَّ ألَـمٌ بِـقـدمٍ خَـدُّ السُّهـا[4] لنعلـهـا طـراقُ
أوكـان مـدَّ يَـدَهُ إلـى يـدٍ تـجـري بهـا الآجـالُ والأَرْزاقُ
فـالنَّصْـل يُعْلَى صَـدَاً وتـحتـه حـدُّ حـسـام وسـنـاً رَقْـرَاقُ
رمَى الصَّليبَ بصليب الـرَّأي عن زوراءَ أوْفَى[5] نَـزْعَهـا الإغـراقُ
وَنَـوْمُ مَنْ خلف الخليج سَهَـرٌ والعيش في فـرنجـةٍ سيـاقُ[6]
مـاتـوا فـلا همسٌ ولا إشـارة خـوف هـمـوس زأره إزهـاقُ
لا سَلَبَتْ منك اللَّيـالي مـا كست ولا عَـرَا[7] جِـدَّتَـك الإخـلاقُ

---

(١) لغة في الترياق، فارسي معرب، وهو ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين. انظر «اللسان» (ترق، درق).

(٢) مفردها ريق، وهو اللعاب. انظر «اللسان» (ريق).

(٣) الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار وغُسالتهم. «اللسان» (غسق).

(٤) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. «اللسان» (سها).

(٥) في النسخ الخطية «أوهى»، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه.

(٦) نزع الروح عند الموت. «اللسان» (سوق).

(٧) في الأصل و(ل) عرت، والمثبت من (م).

فــصــل
في وفاة زَنْكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جَعْبَر* قد سلَّمها السلطان مَلِكْشَاه إلى الأمير سالم بن مالك العُقَيْلي لما ملك قسيم الدَّولة مدينة حلب(١)، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين. فسار الشّهيد إليها فحصرها، وكان الباعث له على حصرها وحَصْرِ فَنَك* ألا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره وإن قلَّ، لِلْحَزْم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع(٢) خمس ليالٍ. فبينا هو نائمٌ دخل عليه نَفَرٌ من مماليكه فقتلوه غيلةً ولم يجهزوا عليه، وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله. فلما صَعِدَ أولئك النفر إلى القلعة صاح مَنْ بها إلى العسكر يُعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه، فأدركه أوائلهم(٣) وبه رمق. ثم ختم الله بالشَّهادة أعماله:

لاقى الحِمام ولم أكن مُستيقناً ... أنَّ الحِمام سيُبْتَلَى بحِمامِ

فأضحى وقد خانه الأمل، وأدركه الأجل، وتخلَّى عنه العبيد والخول، فأيّ نجم للإسلام أفل، وأي ناصرٍ للإيمان رحل، وأيّ بحر ندىً نضب، وأيّ بدر مكارم غرب، وأي أسدٍ افتُرس، ولم يُنْجِه قُلَّة(٤) حصن ولا صهوة فرس. فكم أجهدَ نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدَّبها(٥) في حفظه وحراسته، فأتاه مبيدُ الأمم، ومُفْنيها في الحَدَث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق

(١) انظر ص ٩٦ من هذا الجزء.
(٢) الآخر.
(٣) في (ل) أوائله، وهو وهم.
(٤) القلة: أعلى الجبل، وقلة كل شيء أعلاه. «اللسان» (قلل).
(٥) في «الباهر»: أذابها.

مقهوراً، وبعد وثير المضاجع في التّراب مُعفَّراً مقبوراً، رهينَ جَدَثٍ لا ينفعه إلّا ما قدَّم، قد طويت صحيفة عمله فهو موثوقٌ في صورة مستسلم. ثم دُفن بصفَّين عند أصحاب عليٍّ أمير المؤمنين رضي الله عنه(١).

قلتُ(٢): وذكر العماد الكاتب في كتاب «السَّلْجوقية»، قال: قصد زَنْكي حصار قلعة جَعْبَر* فنازلها، وكان إذا نام ينام حوله عدَّة من خُدَّامه الصِّباح، وهو يحبهم ويَحْبُوهم ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم، وهم أبْناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والرُّوم. وكان من دأبه أنّه إذا نقم على كبيرٍ أرداه وأقصاه، واستبقى ولده عنده وخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران، فشرع الخُدَّام في اللّعب فزجرهم، وزبرهم وتوعَّدهم، فخافوا من سطوته. فلما نام ركبه كبيرهم، واسمه يرنقش، فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرسَ النَّوْبَةَ مُوهِماً أنّه يمضي في مُهمّ، وهو لا يُرتاب به لأنه خاصّ زَنْكي. فأتى الخادمُ أهل القلعة فأخبرهم(٣). وذكر الحديث(٢).

قلت: ثم نقل إلى الرَّقَّة فَدُفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الأثير: وكان حسنَ الصُّورة أسمر، مليحَ العينين، قد وَخَطه الشيب، طويلاً وليس بالطويل البائن، وخلَّف من الأولاد: سيف الدين غازياً، وهو الذي وَلِي بعده، ونور الدّين محموداً الملك العادل، وقُطْب الدّين ١/٤٣ مودوداً؛ وهو أبو الملوك بالمَوْصل، ونُصرة الدين أمير أميران، وبنتاً، فانقرض عقب سيف الدّين من الذكور والإناث، ونور الدّين من الذكور، ولم يبق الملكُ إلّا في عقب قطب الدّين. ولقد أنجب رحمه الله؛ فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم(٤).

---

(١) انظر «الباهر»: ٧٣ ــ ٧٦.
(٢ ــ ٢) ما بينهما ليس في (م).
(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٠.
(٤) «الباهر»: ٧٦.

قلت: ومن عجيب ما حُكي أنه لما اشتدَّ حصار قلعة جَعْبَر* جاء في الليل ابنُ حسَّان المنبجي، ووقف تحت القلعة، ونادى صاحبها، فأجابه، فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزرٍ ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيَّتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنْتَظر؟! فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي انتظر أبوك. وكان بَلك بن بَهْرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدَّ حصار[1]، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوماً لحسان، وقد أحرقه بحجارة المنجنيق: أي شيء تنتظر، ما تسلم الحصن؟! فقال له حسّان: أنتظر سهماً من سهام الله. فلما كان من الغد بَيْنا[2] بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سَهْمُ غَرْبٍ[3] وقع في لَبَّته فخرّ ميتاً، ولم يكن [من][4] جسده شيء ظاهر إلاّ ذلك المكان؛ لأنه كان قد لبس الدِّرع ولم يَزُرَّها على صدره. فلما سمع ابنُ حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جَعْبَر رجع عنه. وفي تلك الليلة قُتل أتابك، فكان هذا من الاتّفاقات العجيبة والعِبَر الغَريبة[5]. ذكر ذلك يحيى بنُ أبي طيّ في كتاب «السِّيرة الصلاحية»[6].

---

(١) كان ذلك سنة (٥١٨هـ). انظر «الكامل»: ١٠/٦١٩، وبلك من أشهر الأراتقة الذين حكموا حلب بعد عمه إيلغازي.

(٢) في الأصل: جاء، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) أي لا يعرف راميه. «اللسان» (غرب).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) أورد القصة أيضاً ابن الأثير في كتابيه: «الباهر» ٧٤، و«الكامل»: ١١/١٠٩ ـ ١١٠، وفيهما أن حسان هو صاحب الرسالة لا ابنه. وهو ما أورده أيضاً الفارقي في تاريخه. انظر ص (٢٨٥) الحاشية رقم (١) من «ذيل تاريخ دمشق» ط آمدروز.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من الجزء الثاني.

فصـــل
في ذكر بعض سيرة الشهيد أتابك زَنْكي

وكانت[١] من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور[٢]، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابنُ الأثير: حدَّثني والدي قال: قدم الشهيد[٣] أتابك زنكي[٣] إلينا بجزيرة ابن عمر* في بعض السنين، وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام. وكان في جُمْلة أمرائه الأمير عزّ الدين أبو بكر الدُّبيسي ـ وهو من أكابر أمرائه، ومن ذوي الرأي عنده ـ فدخل الدُّبيسي البلدَ ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشَّهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأُخبر به، وكان الشهيد واقفاً والدُّبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدُّبيسي نظر مُغْضَب ولم يكلِّمْه كلمة واحدة، فتأخَّر القهقَرى، ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطِّين. قال: فلقد رأيتُ الفَرَّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها، ونصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته[٤].

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأيّ حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الاقطاعات تُغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرَّعية وتعدُّوا عليهم وغصَبوهم أملاكهم[٥].

ثم ذكر ما تجدَّد في أيامه من عمارة البلاد، لا سيما بالمَوْصل؛ وذلك

---

(١) في الأصل و (ل) وكان، والمثبت من (م).

(٢) في الأصل و (ل) وضبط الأمور، والمثبت من (م).

(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في (ل) و (م).

(٤) «الباهر»: ٧٦ ـ ٧٧.

(٥) «الباهر»: ٧٧.

لحُسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة. وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدَّار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان. ثم رفـع سورَها وعمق خندقها. وهو الذي فتـح الباب العمادي وإليه ينسب[(١)].

قال: وكانت المَوْصل أقلَّ بلاد الله فاكهةً، وكان الذي يبيـع الفواكه يكون عنده مقراض يقصُّ به العنب لِقلَّته إذا أراد أن يزنه، فلما عُمرت البلاد عُملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها[(٢)].

قال: ومن حُسْن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، ولا سيَّما دَرْكاه* السُّلْطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالـع ويُكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره؛ من حرب وسلم، وهَزْل وجِدّ، وغير ذلك، فكان يصل إليه كلّ يوم من عيونه عدَّة قاصدين[(٣)]. وكان مـع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدَّوْلة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يُعرف الصغيرُ ليُمنـع صار كبيراً[(٤)].

وكان لا يُمكِّن رسولَ ملكٍ يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسولٌ في العبور في بلاده أذن له، وأرسل إليه من يُسيِّره، ولا يتركه يجتـمـع بـأحدٍ من الرَّعية ولا غيرهم؛ فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم[(٥)] من أحوالها شيئاً البتة[(٦)].

---

(١) انظر «الباهر»: ٧٧ ــ ٧٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في الأصل: عدة كتب، والمثبت من (ل) و (م)، والقاصد: هو الذي يحمل الرسائل في مهمات رسمية. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/ ٣٥٥.
(٤) «الباهر»: ٧٨.
(٥) في (ل) و(م): ولم يعلم.
(٦) «الباهر»: ٤٧.

وكـان يتعهَّـد أصحـابـه ويمتحنهـم، سلَّـم يـومـاً خُشْكنَـانكـة[1] إلـى طِشْت دارٍ* له، وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنةٍ لا تفارقه الخُشْكنَانكة خوفاً أن يطلبها منه. فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخُشْكنَانكة؟ فأخرجها من[2] منديلٍ وقدَّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً لحصن. وأمر له بدُزْدَارية* قلعة كَوَاشى*، فبقي فيها إلى أن قُتل أتابك[3].

وكان لا يُمكِّن أحداً مِنْ خَدَمِهِ من مفارقة بلاده و[كان][4] يقول: إن البلاد كبستانٍ عليه سياج، فمن هو خارج السِّياج يهابُ الدُّخول، فإذا خرج منها من يدلُّ على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرَّق الخصوم إليها[5].

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سيَّر طائفةً من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارُق[6] إلى الشَّام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنـج، ومَلَّكهم كلَّ ما استنقذوه من البلاد التي للفرنـج، وجعله ملكاً لهم، فكانوا يُغَادون الفرنـج بالقتال ويُرَاوحونهم، وأخذوا كثيراً من السَّواد وسدُّوا ذلك الثغر العظيم. ولم يزل جميـع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ست مئة[7]. ١/ ٤٤

قال: ومن آرائه أنـه لما اجتمـع لـه الأموال الكثيـرة أَوْدَعَ بعضَها بالمَوْصل، وبعضها بسِنْجار*، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض

---

(١) نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق، ويكون على هيئة الهلال. انظر «المعرب»: ١٣٤ ودوزي: ١/ ٣٧٣.
(٢) في (ل) و(م): في.
(٣) «الباهر»: ٧٩.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٥) «الباهر»: ٧٩.
(٦) الضبط من الأصل.
(٧) «الباهر»: ٨٠.

هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنتُ على سَدِّ الخرق بالمال في غيره[1].

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النِّهاية فيهما، وبه كان تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جُملةً؛ أن ولايته أحدَقَ بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها؛ بيت سُكْمان، وركن الدولة داود صاحب حصن كَيْفا*، وابن عمه صاحب مارِدِين*، ثم الفرنج، ثم [صاحب][2] دمشق. وكان ينتصفُ منهم ويغزو كُلًّا منهم في عُقْر داره، ويفتح من بلادهم، ما عدا السُّلْطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلٌّ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده[3].

قال: وأما غَيْرَتُه فكانت شديدةً ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرُّض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلَّما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرُّض إلى حُرَمهم هلكن وفَسَدْن[4].

قلتُ: وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخُدْري، وذكر حديثَ رجم النبي ﷺ ماعِزاً، قال: ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً قال:

---

(١) «الباهر»: ٨٠.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٣) انظر «الباهر»: ٨٠ ــ ٨١.
(٤) الباهر»: ٨٤.

«أَوَكُلَّما انْطَلَقْنا غُزاةً في سَبيل الله تَخَلَّفَ رَجُلٌ في عِيالنا له نَبيبٌ كَنَبيبِ التَّيْسِ (1)، عَلَيَّ أَنْ لا أُوتى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَكَّلْتُ بِه(2)».

قال ابنُ الأثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً* اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصِّه وأقربِ النَّاس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه [عنه](3) أنه يتعرَّض للحُرَم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغبساني أن يسير مُجِداً ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه، عقوبةً لنظره بهما إلى الحُرمِ، ثم يصلبه. فسار الصَّلاح مُجداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصَّلاح، ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسلِّم عليك ويريد أن يُعليَ قدرك، ويرفع منزلتك، ويسلِّمَ إليك قلعة حلب، ويولِّيك جميع البلاد الشَّامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى المَوْصل، وتسير إلى خدمته. ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السُّفن ليحدرها إلى المَوْصل في دِجْلة. فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصَّلاح، وأمضى فيه ما أُمر به، وأخذ جميع ماله. فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله(4).

قال: وأما صدقاته فقد كان يتصدَّق كل جُمُعة بمئة دينار أميري(5) ظاهراً، ويتصدَّق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به. وركب يوماً فعثرت به دابَّتُه فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم

---

(1) النبيب: صوت التيس عند السفاد. انظر «اللسان» (نبب).

(2) انظر «صحيح مسلم»: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى: 3/1320 ـ 1321، رقم الحديث (1694).

(3) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(4) «الباهر»: 84.

(5) في (ل): أميرية.

يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودَّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال، فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية، فاذكر له قصَّتك، وافعل ما يأمرك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلِك. فلم تزل زوجته تراجعه وتُقَوِّي عزمه، فعرَّف النصير حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه الصُّرَّة الدَّنانير واحملها إليه فهي التي أراد. فقال: اللهَ اللهَ في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصُّرَّة. فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم. فأمره أن يتصدَّق به. فلمّا فرغ من الصَّدَقة قصد النَّصير وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصُّرَّة؟ فقال له: إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر، [و][1] يرسِلُ إلي يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أنَّ دابَّته عثرت به حتى كاد يسْقُط على[2] الأرض، وأرسلك إلي، فعلمتُ أنه ذكر الصَّدقة[3].

قال: وحُكي لي من شدَّة هيبته ما هو أشدُّ من هذا. قال والدي: خرج يوماً الشَّهيد من قلعة الجزيرة من باب السِّرِّ خلوة وملاَّح له نائم، فأيقظه بعضُ الجاندارية* وقال له: اقعد. فحين رأى الشَّهيد سقط إلى الأرض [فحرَّكوه][4] فوجدوه ميتاً[5].

قال: وكان الشهيد قليل التلوُّن والتنقُّل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم[6]، لم يتغيّر على أحدٍ من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قُتل إلّا بذنب

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٢) في (ل) و(م): إلى.
(٣) انظر «الباهر»: ٨١ ــ ٨٢.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) «الباهر»: ٨٢.
(٦) في (ل): الحزم.

يُوجب التّغيُّر، والأُمراء والمقدَّمون الذين كانوا معه أولاً هُم الذين بقوا أخيراً، مَنْ سَلِمَ منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهْرُزُوري، فيُحسنون إليه ويؤنسون غُربته فيعود كأنه آهل. ١/٤٥ وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرّجال ذوي الهمم العليَّة، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسِّع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف[1].

قلت: وما أحسنَ ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذَرَا[2] مَلْك هو الدَّهْـ ـرُ عطاءً واسْتِلابا
مَن له كفٌّ تبذُّ الـ ـغيث سحًّا وانسكابا
فاتحٌ في كلِّ وجهٍ أَمَّهُ للنَّصْر بابا
تَرْجُف الدُّنيا إذا حَرَّ (م) كَ للسَّير الرِّكابا
وتخِرُّ المُشْمَخِرَّا تُ[3] اختلالاً واضطرابا
وترى الأعداءَ من هَيْـ ـبَتِهِ تأوي الشِّعابا
وإذا ما لَفَحَتْهم[4] نارُه صارُوا كبابا
يا عمادَ الدِّين لا زِلْـ ـتَ على الدِّين سحابا
جاعلاً مِن دونه سَيْـ ـفَكَ إنْ رِيع حِجابا

(١) انظر «الباهر»: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) في (م): دار، وهو تصحيف. والذَّرا: الكنف والستر، «معجم متن اللغة» ٢/٤٩٦.

(٣) أي الجبال العالية. انظر «اللسان» (شمخر).

(٤) في (م): لفحته، وهو تصحيف.

فـالبسِ النَّعـمـاء فـي الأمــ ـنِ الـذي طِـبْـتَ وطـابـا
واصـفُ عـيـشـاً إنَّ أعـدا ءك قـد صـارُوا تُـرابـا

وقال العماد الكاتب: استولى زَنْكي على الشَّام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين. وهو الذي فتح الرُّها* عَنْوَةً، واحتلَّ بها من السعادة ذروة، فتسنَّى بفتح الرُّها للمسلمين، جَوْسُ بلاد جوسلين، وعادَ جميعُها إلى الإسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقودُ الفرنج من ذلك الحين تنفسخ، وأمورُها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلُها تُفْتَرع[1].

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت، والمسالك قد اختلت، بعد الهيبة المشهورة، والأمنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحراميَّة في الإفساد في الأطراف[2]، والعيث في سائر النَّواحي والأكناف؛ ونظمتُ في صفة هذا الحال أبياتاً من قصيدة:

كـذاكَ عمـاد الدِّين زَنْكي تنافَرَتْ سعـادَتُـهُ عَنْـهُ وخَـرَّتْ دعـائِمُـهْ
وكم بيتِ مالٍ من نُضَارٍ[3] وجَوْهَرٍ وأنـواعِ دِيبـاجٍ حَـوَتْهـا مخـاتمُـهْ
وأضحت بأعلى كلِّ حِصْنٍ مصونةً يُحـامي[4] عليها جُنْـدُه وخـوادِمُـهْ
ومنْ صافناتِ الخيلِ كلُّ مُطَهَّمٍ يَـرُوعُ الأعـادي حَلْيُـه وبَـرَاجِمُـهْ
فلو رامتِ الكُتَّابُ وصفَ شِياتها بأقلامهـا مَا أدْرك الْـوصفَ ناظِمُـهْ

---

(١) «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٧.

(٢) في الأصل و(ل): في فساد الأطراف، والمثبت من (م)، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٦.

(٣) النضار: اسم الذهب والفضة، وقد غلب على الذهب. «اللسان» (نضر).

(٤) في (م): يحاوي، وهو تصحيف.

وكم معقلٍ قد رامَهُ بِسيُوفه ... وشامِخِ حِصْنٍ لم تَفُتْه غنائِمُهْ

ودانَتْ وُلاةُ الأرضِ فيها لأمره ... وقد أَمَّنَتْهُمْ(١) كُتْبُه وخواتمُهْ

وأَمَّن مَنْ في كُلِّ قُطْرٍ بِهَيْبَةٍ ... يُراعُ بها أعرابُه وأعاجِمُهْ

وظالم قومٍ حين يُذْكَرُ عَدْلُه ... فقد زالَ عنهم ظُلْمُه وخصائِمُهْ

وأصبحَ سُلْطانَ البلادِ بسيفه ... وليس له فيها نظيرٌ يُزاحِمُهْ

وزادَ على الأملاكِ بَأْساً وسطوةً ... ولم يبق في الأملاك مَلْكٌ يقاوِمُهْ

فلما تناهى مُلْكُهُ وجلالُه ... وراعتْ وُلاةَ الأرضِ منه لوائِمُهْ

أتاهُ قضاءٌ لا تُرَدُّ سهامُه ... فلم تُنْجِه أموالُه ومغَانِمُهْ

وأدركه للحين فيها حِمامُه ... وحامتْ عليه بالمَنُون حوائِمُهْ

وأضحى على ظَهْرِ الفراشِ مُجدَّلاً ... صريعاً تولَّى ذَبْحَهُ فيه خادِمُهْ

وقد كان في الجيش اللُّهام(٢) مَبِيْتُهُ ... ومِنْ حَوْله أبطالُه وصوارِمُهْ

وسُمْرُ العوالي حَوْلَهُ بأكُفِّهم ... تذُود الرَّدى عنه وقد نام نائمُهْ

ومِن دونِ هذا عُصْبةٌ قد ترتَّبَتْ ... بأَسْهُمِها يُرْدَى مِن الطَّير حائِمُهْ ٤٦/١

وكم رامَ في الأيام راحةَ سِرِّه ... وهِمَّتُه تعلو وتقوى شكائِمُهْ

وكم مَسْلكٍ للسَّفْر أمَّن سُبْلَه ... ومسرحِ حَيٍّ أن تُراعَ سوائمه

وكم ثَغْرِ إسلامٍ حماه(٣) بسيفه ... من الرُّوم لما أدْرَكَتْهُ مراجِمُهْ

فمن ذا الذي يأتي بهيْبة مثلِه ... وتنفُذُ في أقصى البلادِ مراسِمُهْ

فلو رُقيت في كلِّ مِصْرٍ بذكره ... أراقِمُهُ ذلَّتْ هناك أراقِمُهْ(٤)

فمن ذا الذي ينجو من الدَّهْرِ سالماً ... إذا ما أتاه الأمر والله حاتِمُهْ

---

(١) في الأصل: أمنته، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء. انظر «اللسان» (لهم).

(٣) في الأصل و(ل): حواه، والمثبت من (م).

(٤) الأرقم من الحيات الذي فيه سواد وبياض، وهو من أخبث الحيات وأطلبها للناس. انظر «اللسان» (رقم).

ومَن رام صَفْواً في الحياة فما يرى له صَفْوَ عَيْشٍ والحِمَامُ يُحاوِمُهْ
فإيَّاك لا[1] تغبِطْ مليكاً بمُلْكِه وَدَعْهُ فإنَّ الدَّهْرَ لا شكَّ قاصِمُهْ
وقل للذي يَبْني الحصونَ لِحفظه رُوَيْدَكَ ما تَبْني فَدَهْرُكَ هادِمُهْ
وفي مثلِ هذا عِبْرَةٌ ومواعظُ بِها يَتَناسى المرءُ ما هو عازِمُهْ[2]

قال: وفي ثامن عشر جُمادى الآخرة من السَّنة وصل الخادم يرنقش القاتل لعماد الدين زَنْكي، وانفصل من قلعة جَعْبَر* لخوف صاحبها من طلبه منه، فوصل دمشق متيقناً أنه قد أمن بها، ومدلاً بما فعله، وظنًّا منه أنَّ الحال على ما توهَّمه، فَقُبِضَ عليه، وأُنْفِذ إلى حلب صُحبةَ من حفظه وأوصله إليها، فأقام بها أياماً، ثم حُمل إلى المَوْصل وذُكر أنه قتل بها[3].

قلت: وللحكيم أبي الحَكَم المغربي[4] قصيدةً في مرثية الشَّهيد عماد الدين زَنْكي رحمه الله، منها:

---

(١) في الأصل: أن، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) انظر القصيدة بتمامها في «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٨.
(٤) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي الحكيم أندلسي الأصل، عالم بالطب والهندسة، يغلب عليه المجون، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه، وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، توفي في دمشق سنة (٥٤٩هـ) له ديوان سماه «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» لم يصلنا. انظر ترجمته في «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة: ٦١٤ـ٦٢٧، و«خريدة القصر»: ق٤/ج١/٣٦٩ـ٣٨٢، و«وفيات الأعيان»: ٣/١٢٣ ـ ١٢٥، و«نفح الطيب»: ٢/٦٣٧ ـ ٦٣٩، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية): ٥/١٢٩ وابنه محمد أفضل الدولة أبو المجد كان طبيب نور الدين، وتولى البيمارستان النوري، وشرح ديوان أبيه، توفي سنة (٥٧٠هـ) أو ما قبلها. انظر ترجمته في «طبقات الأطباء»: ٦٢٨، و«الوافي بالوفيات»: ٣/٣٣٠ ـ ٣٣١، و«نفح الطيب»: ٢/٦٣٨.

عينُ لا تذخري الدموعَ وبَكّي واستهلّي دماً[1] على فَقْدِ زَنْكي

لم يَهَب شخصَه الرَّدى بعد أنْ كا نتْ له هيبةٌ على كل تُرْكي

خيرُ مَلْكٍ ذي هيبةٍ وبهاءٍ وعظيمٍ بين الأنامِ بُزُرْكٍ[2]

يَهَبُ المالَ والجيادَ لمن يمّـ(م) مَـهُ مادحاً بغير تَلَكّي

إنَّ داراً تمدُّنا بالرَّزايا هي عندي أحقُّ دارٍ بِتَرْكِ

فاسْكُبوا فوقَ قبره ماءَ وَرْدٍ وانضَحُوهُ بِزَعْفرانٍ وَمِسْكِ

أيُّ[3] فتكٍ جرى له في الأعادي بعد ما استفتحَ الرُّها* أيُّ فَتْكِ

كلُّ خَطْبٍ أَتَتْ به نُوَبُ الدَّهْـ ـر يسيرٌ في جَنْبِ مَصْرع زَنْكي

بعد ما كاد أنْ تدينَ له الرُّو مُ ويَحْوي البلاد مِن غير شكٍّ[3]

فصل

فيما جرى بعد زَنْكي من تفرُّقِ أصحابه وتَملُّك ولَدَيْه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى: توجَّه الملك ولد السُّلْطان، المقيم كان معه، فيمن صحبه وانضمَّ إليه إلى ناحية المَوْصل، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل علي كوجك[4] أياماً إلى حين تقرَّرت الحال بينهم. ثم فتح الباب، ودخل ولدُه، واستقام له الأمر، وانتصب منصبه. وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين ـ يعني

---

(١) في (م) دمعاً، وهو تحريف.

(٢) كلمة فارسية تعني: الكبير، العظيم. «قاموس الفارسية»: ١٠٣.

(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في (ل)، وانظر الأبيات في «خريدة القصر»: ق ٤/ ج ١/٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء. وفي «وفيات الأعيان»: ٤/١١٤ «وكان قصيراً، ولهذا قيل له كجك وهو لفظ أعجمي معناه بالعربي صغير، أي صغير القدر».

محمدَ بنَ أيوب الياغبساني ــ في تلك الحال إلى ناحية حلب، ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زَنْكي، وحصل بها، وشرع في جمع العساكر وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدَّهماء. وفَصل عنه الأمير صلاح الدين، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمرٍ يُدَبَّر عليه[1].

وقال الحافظ أبو القاسم: لما راهقَ نور الدين لزم خدمةَ والده إلى أن انتهت مُدَّته على قلعة جَعْبر*، وسيَّر في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان بن السُّلطان محمود إلى المَوْصل مع جماعةٍ من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى المَوْصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرر أمورَ الشَّام وأتوجَّه إليكم. ثم قصد حلب، ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، ورتَّبَ النُّوَّاب في القلعة والمدينة[2].

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: لما اتَّصل قتل أتابك بأسد الدين شِيركُوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له: اعلم أن الوزير جمال الدين[3] قد أخذ عسكر الموصل وعزم[4] على تقديم أخيك سيف الدين وقصدُه [إلى][5] المَوْصِل، وقد انضوى إليه جُلُّ العسكر، وقد أَنفذ إليَّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أُعرِّج عليه[6]، وقد رأيتُ أن أصيِّرَك إلى حلب، وتجعلَها كرسي مُلكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشَّام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعُه إليك لأن ملك الشام يحصل

١/٤٧

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٥ ــ ٢٨٦.
(٢) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/١٤٧ ب.
(٣) توفي سنة (٥٥٩ هـ) سترد ترجمته مفصلة في ص ٤٢٠ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) في (م) وعوَّل.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) في (ل) إليه.

بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشَّرْق. فركب وأمر أن يُنادَى في الليل في عساكر الشَّام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، ودخلوها سابع ربيع الأول[1]. ولما دخلوا حلب جاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها، وقرر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمتُّ بأنه كان السَّبب في توليته.

[و] قال ابن الأثير: لما قُتل أتابك الشَّهيد ركب الملك ألب أرسلان بن السُّلْطان محمود ــ وكان مع الشهيد ــ واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصَّلاح يقول له: المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلكَ طريقاً نبقي به الملك في أولادِ صاحبنا، ونُعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله ونتداركْه في بدايته[3] ليَتَّسِعَنَّ الخرقُ ولا يمكن رقعُه. فأجابه الصلاح إلى ذلك، وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه. فركب الجمال إلى الملك فخدمه، وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها، ومعه الصلاح، وقالا له: إنَّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كُنَّا نُطيعُه. فقبل قولهما، وظنَّه حقاً، وقرَّبهما طمعاً أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه. وأرسلا إلى زين الدين بالمَوْصِل يُعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي ــ وهو ولد عماد الدين زَنْكي الأكبر ــ وإحضاره إلى المَوْصل، وكان بشَهْرُزُور*، وهي إقطاعُه من أبيه. ففعل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قُتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شِيركُوه عليه بذلك، وقال الجمال

---

(١) كذا ذكر ابن أبي طي، وقد مَرَّ في خبر ابن عساكر أنه دخلها سابع ربيع الآخر، وهو الصحيح.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م) بلاده، وهو تحريف.

للملك: إنَّ من الرأي أن تُسَيِّرَ الصلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدَبِّر أمره ــ وكانت حماة إقطاعَ الصلاح ــ فأمره فسار[1]، وبقي الجمال وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرَّقَّة*. فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنِّساء، وأراد أن يُعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجزيل[2] والنِّعَم الوافرةُ. وشرع الجمال يستميل العسكر ويُحلِّف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكلُّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرَّقَّة عِدَّة أيام، ثم سار به إلى ماكِسين* فتركه بها عدَّة أيام أيضاً، قد اشتغل بلذَّاته عن طلب الملك، ثم سار [به][3] نحو سِنْجار*. وكان سيفُ الدين غازي قد دخل المَوْصِل واستقرَّ بها، فقوِي حينئذٍ جَنانُ جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سِنْجار، فأرسل إلى دُزْدَارها* وقال له: لا تُسلِّم البلد ولا تُمكِّن أحداً من دخوله، ولكن أرسلْ إلى الملك وقل له: إنَّا تبع المَوْصِل، فمتى دخلتَ الموصل سلَّمتُ إليك [البلد][4]. ففعل الدُّزدار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحة أنَّا نسير إلى الموصل، فإنَّ مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبضُ عليه ونتسلَّم البلاد. فساروا عن سِنْجار، وكثُر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك، فبقي في قِلَّة من العسكر، فساروا إلى مدينة بَلَد*، وعبر الملك دِجْلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدُّبَيْسي في عسكرٍ إلى الملك[5]، وهو في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخرَ العهد به. واستقرَّ أمر سيف الدين،

(١) في الأصل: وسار، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في (ل) الإقطاعات الجزيلة.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٥) في الأصل و(ل) إلى الملك في عسكر، والمثبت من (م).

وأقرَّ زين الدِّين على ما كان عليه من ولاية المَوْصل، وجعل الجمال وزيرَه. وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين، فحلف له وأقرَّه على البلاد، وأرسل له الخِلَع. وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفراً وحضراً، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه. فلما خُوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقَّف[1].

قال ابن الأثير: فانظروا[2] إلى فعل جمال الدين وحُسْن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقامُ الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس، ولقد قلل من قال: [من][3] النَّاس ألفٌ منهم كواحد. وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين[4].

قال: ولما استقرَّ سيفُ الدين في الملك أطاعه جميعُ البلاد ما عدا ما كان بديار بكر: كالمعدِن* وحِيْزَان* وإسْعِرد* وغير ذلك، فإن المجاورين لها تغلَّبوا عليها[5].

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه[6] وتقرير أمر البلاد عَبَر إلى الشام لينظر في تلك النَّواحي، ويقرِّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخَّر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسلُه ويستميله، فكلَّما طلب نورُ الدين شيئاً أجابه إليه استمالةً لقلبه. واستقرَّت الحالُ بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السَّيفي، ومع كل

---

(١) انظر «الباهر»: ٨٤ ــ ٨٦.
(٢) في (م) فانظر.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٤) «الباهر»: ٨٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) أي تحليف السلطان مسعود.

واحدٍ [منهما][١] خمس مئة فارس، فلما[٢] كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمس مئة فارس[٢]، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحينَ رآه عرفه، فترجَّل له، وقبَّل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعَوْد عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لِمَ امتنعتَ من المجيء إليَّ، أكنت تخافني على نفسك؟ والله ما خطر ببالي ما تنكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحبِّ الناس إليَّ؟ فاطمأنَّ نور الدين وسكن رَوْعُه، وعاد إلى حلب فتجهَّز، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعَوْد وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوءَ بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده[٣].

١/٤٨

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيا خيرَ الملوكِ أباً وجَدًّا	وأنقعهم[٤] حياً لغليلِ صادِ
علَوْا وغلَوْا وقال الناسُ فيهم	شواردَ من ثُناءٍ أو أُحادِ
وما اقتسَموا وما عمدوا[٥] بناهم	بمنصبك القَسيميِّ العِمادي[٦]

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ل).
(٣) انظر «الباهر»: ٨٧ ـ ٨٨.
(٤) أي أرواهم. انظر «اللسان» (نقع).
(٥) في (ل) و(م): ولا عمدوا.
(٦) في (م) هذا البيت هو أول الأبيات.

وهل حلبٌ سوى نَفْس شَعَاعٍ تقَسَّمها[1] التَّمادي والتَّعادي
نفى ابنُ عماد دين الله عنها[2] الشـ (م) ـكاةَ فأصبحَتْ ذاتَ العمادِ
تَبَخْتَرُ في كُسَا عَدْلٍ وبَذْلٍ مُدَبَّجَةِ التَّهائم والنِّجادِ
وفي محرابها داودُ منه يهذِّبُ حكمه آيات صادِ
تجاوزتَ النجومَ فأينَ تبغي تَرَقَّ فلا خلوتَ من ازديادِ

فصل
فيما جرى بعد وفاة زَنْكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين

قال ابن أبي طي: في سابع يومٍ من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند[3]، فخرج ليومه في عساكر أنطاكية، وقسم عسكره قسمين: قسماً نفَّذه إلى جهة حماة، وقسماً أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها ــ وكان الناس آمنين ــ فقتل وسبى عالماً عظيماً، وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها. ووصل الخبرُ إلى حلب، فخرج أسد الدين شِيركُوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدَّ في السير، ففاتَهُ الفرنج، وأدرك جماعةً من الرَّجَّالة يسوقون الأسرى فقتلهم، وَاستنقذ كثيراً مما كانت الفرنجُ أخذته، وسار مُجنّباً عن طريق الفرنج إلى أن شنَّ الغارة على بلد أَرْتاح*، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفَّراً.

---

(١) في (م) تقاسمها.
(٢) في الأصل و(ل): «نفى ابن عماد الدين عنها»، والمثبت من (م)، وبه يستقيم الوزن.
(٣) وهم ابن أبي طي في تسمية صاحب أنطاكية يومئذ إذ هو ريموند فوتو Raymond of poitou لا بوهيمند Bohemond.
انظر «تاريخ الحروب الصليبية» ستيفن رنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٣٨٦ ــ ٣٨٧.

وقال ابن الأثير: لما قُتل الشَّهيد سار مجير الدِّين صاحب دمشق في عسكـر إلى بَعْلَبَـكَّ وحـاصـرهم، وبهـا نجـم الـدِّين أيـوب والـد السُّلْطـان صـلاح الدين، فسلَّمها إليه، وأخذ منه مالاً، وملَّكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها[1].

وقال ابنُ أبـي طَيّ: اشتدَّ صاحب دمشق في القتال، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبر، فاتفق أن الماء ــ لما شاء الله ــ من حصن بَعْلَبَك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدُّون من البلد، فلما ملك البلد منـع من يريد الماء من القلعة، فاشتدَّ الأمر، فطلبوا الأمان والمصالحة، فاستخلف صاحبُ دمشق نجمَ الدين، وأقرَّ له الثُّلُث الذي كان أتابك قد جعله له فيها، وأقرهً فيها. ولما بلـغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُدَ عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده، ومالِ نور الدين إلى مجد الدين أبـي بكر بـن الدَّايـة حتى ولّاهُ جميـعَ أموره وجميـع مملكته، فشقَّ ذلك على أسد الدين.

قال الرَّئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زَنْكي بمعين الدين أُنَر شرع في التأهُّب والاستعداد لقصد بَعْلَبَك، وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات. فنزل عليها وضايقها، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قِلَّةً دعتهم إلى النزول على حكمه. وكان الوالي بها ذا حزمٍ وعقل ومعرفةٍ بالأمور، فاشترط ما قام له به من إقطاعٍ وغيره، وسلَّم البلد والقلعة إليه، ووفى له بما قرَّر الأمر عليه، وتسلَّم ما فيه من غَلَّة وآلةٍ في أيامٍ من جُمادى الأولى من السنة. وراسل[2] معين الدين الوالي بحمص، وتقرَّرت بينه وبينه مُهادنة ومُوادعـةٌ يعودان بصـلاح الأحوال وعمـارة الأعمال. ووقعت

---

(١) انظر «الكامل»: ١١/ ١١٨. وص ٤٠٥ من هذا الجزء.
(٢) في (م)، وأرسل، وهو تصحيف.

المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدِّين بحماة، وتقرَّر بينهما مثل ذلك. ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بَعْلَبَك، وترتيب من رَتَّبه لحفظها والإقامة فيها[١].

قال: ووردت الأخبار في أيامٍ من جُمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين* جمع الإفرنج من كلٍّ ناحية، وقصد مدينة الرُّها*، على غفلةٍ، بموافقة من النصارى المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها، وقَتل مَنْ فيها مِنَ المسلمين. فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زُهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدَّوابُّ في الطرقات من شدَّة السَّير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم ووقع السَّيف فيهم. وقُتِل من أرمن الرُّها والنَّصارى من قُتل، وانهزم إلى بُرْجٍ يقال له برج الماء، فحصل فيه ابن جوسلين في تقدير عشرين فارساً من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون، وشرعوا في النَّقْب عليهم حتى تَعَرْقب البرج، فانهزم ابن جوسلين في الخفية من أصحابه، وأُخذ الباقون، ومحَقَ السَّيفُ كلَّ من ظُفر به من نصارى الرُّها، واستُخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين، ونُهب منها شيء كثير من المال والأثاث والسَّبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف[٢].

١/٤٩

قال ابن الأثير: لما قُتل زَنْكي كان جوسلين* الفرنجي الذي كان صاحب الرُّها في ولايته غرب الفرات في تل باشر* وما جاورها، فراسل أهلَ الرُّها ـ وكان عامَّتُهم من الأرمن ـ وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم وجَدَّ في قتالهم، فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذٍ

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٨.

بحلب، فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين، ودخل نور الدين مدينة الرُّها، ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نُهبت وخُرِّبت وخَلَت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلا القليل. ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهَّز العساكر إلى الرُّها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين[١].

قال: ومن عجيب ما جرى أنَّ نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري، فحُملن إلى داره ودخل لينظر إليهنَّ، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك، فسُئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرُّها مع الشهيد كان في جملة ما غنمتُ جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السَّبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها. فلما كان الآن أرسل إليَّ نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطئتها خوفاً من العود[٢].

قلت: وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير المَوْصِل، ذكر فيها فتح الرُّها؛ أولها:

أمَا آنَ أن يَزْهَقَ الباطِلُ ... وأن يُنْجِزَ العِدَةَ الماطِلُ
إلى كم يُغِبُّ ملوكَ الضَّلا ... لِ سيفٌ بأعناقِها كافِلُ
فلا تَحْفِلَنَّ بصَوْلِ الذئاب ... وقد زأَرَ الأَسدُ الباسِلُ
وهل يمنعُ الدِّين إلا فتى ... يَصُولُ انتقاماً فيستاصِل
أبا جعفرٍ أَشْرَقَتْ دولةٌ ... أضاءَ لها بَدْرُكَ الكامِلُ
فإمَّا نُصِبْتَ لرفعِ اسمِها ... فإنَّكما الفِعلُ والفاعِلُ

---

(١) انظر «الباهر»: ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) انظر «الباهر»: ٨٧.

ليَهْنِـكَ مـا أفـرج النَّصْر عنـه وما نـالـه الـملكُ الـعـادِلُ
فقل للحِقَاق[1] الطَّريقَ الطَّريقَ فقـد دَلَفَ المُقْـرَمُ[2] البـازِلُ
وجـاهَـد فـي الله حقَّ الجهـا دِ مُـحـتـسِـبٌ بـالـعُـلا قـافِـلُ
وهـل يَمْنعُ السُّورُ من طـالـعٍ يُـشـايِـعُـه الـقَـدَرُ الـنَّـازِلُ
فـإنْ يـكُ فتحُ الـرُّهـا لُجَّـةً فسـاحِلُها القُـدْسُ والسَّـاحِـلُ
فهـل عَلِمَتْ عِلْمَ تـلك الـدِّيـا رِ أن الـمُـقِـيمَ بـهـا راحِـلُ
أرى القُمْصَ*[3] يأمُل فَوْتَ الرِّماح ولا بُـدَّ أنْ تُضْـرَبَ الشَّـائِـلُ[4]
يُقـوِّي مـعـاقـلَه جـاهِـداً وهـلْ عـاقـلٌ بعدَهـا عـاقِـلُ
وكيف بِضَبْطِ بـواقي الجهـات لمن فـاتَ حِسْبَتَـهُ الحـاصِلُ[5]

ولابن منير من قصيدةٍ في نور الدين:

مَـلِكٌ مـا أذلَّ بـالـفـتـح أرضـاً قطُّ إلا أعـزَّهـا إغـلاقُـهْ
والوهَى[6] في الرُّهاءِ* أزجى إليها عـارضـاً شَيَّبَ الـدُّجى إبـراقُـهْ
جـأَرَتْ جـارةً إلـيـه فـحـلَّى عُـطَّلاً من أعنـاقهـا إعنـاقـه[7]
تلك بِكْـرُ الفُتـوحِ فـالشَّام منها شـامُـهُ والعِـراقُ بَعْـدُ عِـراقُـهْ
أين كان الملوكُ عن وَجْهها الطَّلْـ ـقِ يُـريـنـا إضـاءةً إطـلاقُـهْ

---

(١) مفردها حِقّ: وهو من أولاد الإبل الذي بلـغ أن يركب ويحمل عليه. انظر «اللسان» (حقق).
(٢) هو البعير المكرم الذي لا يحمل عليه ولا يذلل، ويسمى السيد الرئيس من الرجال المقرم لعظم شأنه وكرمه. انظر «اللسان» (قرم).
(٣) في «الخريدة»: القس.
(٤) في «خريدة القصر» السابل، وهو تصحيف.
(٥) القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٠٨ ــ ١١١.
(٦) في (م) الرها، وهو تصحيف.
(٧) ضرب من السير. «اللسان» (عنق).

سُنَّةٌ سنَّها أبوه بكلب الرُّ (م) وم لما أظلَّه إرْهَاقُهْ
خافقاً قلبُه إلى أملٍ عا جَلَه دون نَيْلِه إخْفاقُهْ
١/٥٠ قسمت راية المواضي القسيميـ (م) ـات وابتزَّ من لَهَاهُ عراقه
وكذا أنت يا بْنَه ما عدا من خُلْقه فيك خَصْلَةً خَلَّاقُهْ
وكفى البَحْرَ أنَّه ابنُ سحابٍ ما وَنى سَحُّه ولا إصْعَاقُهْ
لم يَمُتْ من سَدَدْتَ ثُلْمَتَه يا مَنْ على الدِّين كظُّه إشْفَاقُهْ
رهبة لم تدَعْ على الأرضِ قلباً خَلْفَ صَدْرٍ يَنْشَقُّ عنه شِقَاقُهْ
كلما طنَّ ذكْرُها منه في السَّمْـ ـعِ تَكَمَّى[1] في النَّافِقاء[2] نفاقُهْ
وجهادٍ عن حوزة الدين لم يأ لُ له ركضه ولا إنفاقُهْ

وله فيه من قصيدةٍ أخرى:

بنورِ الدين روَّضَ كلُّ مَحْلٍ من الدُّنيا وجُدِّدَ كلُّ بالِ
أقام على ثَنية كلِّ خوفٍ سُهاداً بات يكلأُ كُلَّ كالِ
وصوَّبَ عدلُه في كلِّ أَوْبٍ فعوَّضَ عاطلاً منه بحالِ
ينكِّسُ رايُهُ[3] رايَ المحامي ويَقْتُل خوفُه قبلَ القِتالِ
لقد أحصدتَ للإسلام عِزًّا يفوت سَنامُهُ يدَ كلِّ قالِ
وأصبحتِ العواصمُ مُلْحَفاتٍ عِصَاماً[4] غيرَ منتكثِ الحبالِ

---

(١) على هامش الأصل: «حاشية: أي تغطى».

(٢) النافقاء: جحر الضب واليربوع. «اللسان» (نفق).

(٣) الراي: مفردها راية، العلم. انظر «اللسان» (ريا).

(٤) العصام: الحبل يُعصم به الشيء. «معجم متن اللغة»: ٤/١٢٤.

فَصْـــل

وقفت على توقيـع كُتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصـر يومئـذٍ، وهو الملقب بـالحافظ[1]، وعليـه علامتـه: الحمد لله رب العالمين:

إلى القاضي الأشرف أبـي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد البَيْسَاني ـ وهو والد القاضي الفاضل[2]، وكان يومئذٍ متولِّي القضاء والحُكْم بمدينة عَسْقلان ـ يقول فيه: انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوماً من أهل ثَغْرِ عَسْقلان، حماه الله، قد صاروا يؤدُّون توقيعاتٍ بقبول أقوالهم من غير تزكيةٍ من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مـع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول. أنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لا يُسمـع قولُ شاهدٍ، وَلاَ مَنْ تقدّم لِخَطَابةٍ ولا لصلاة بالنـاس، ولا لتلاوةٍ في موضـع شريف، إلا من زكَّاه أعيانُ شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان؛ فَعَدَّ ثمانية أنفس: عبد السَّاتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بـن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت: وهذا من أحسن ما يؤرَّخ عن أيام تلك الدولة المباينة للشريعة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، ولد سنة (٤٦٧هـ)، وولي الخلافة سنة (٥٢٤هـ)، وتوفي سنة (٥٤٤هـ) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٢.

(٢) توفي سنة (٥٤٦هـ) بالقاهرة، ودفن بسفـح المقطم، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣١ من هذا الجزء.

وقال الرئيس أبو يعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين تردَّدت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أُنَر إلى أن استقرَّت الحال بينهما على أجمل صفةٍ وأحسن قضية، وانعقدت الوُصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكَّدت الأمور على ما اقترح كلٌّ منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شَوَّال، وشُرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجَّهت الرُّسل عائدةً إلى حلب، وفي صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواصِّ الأصحاب، في النصف من ذي القعدة[1].

قال: وتوجَّه معين الدين إلى ناحية صَرْخَد* وبُصْرى* بالخيل والرَّجْلِ وآلات الحرب، ونزل على صَرْخَد*، وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدَّوْلة كُمُشْتِكين الأتابكي الذي كان واليها أولاً[2].

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الأمينية* قبلي الجامع بدمشق.

قال: وكانت نفس ألتونتاش قد حدَّثته بجهله أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الإفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صَرْخَد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم، فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين. وراسل نورَ الدين في إنجاده على الكفرة فأجابه، وكان مبرِّزاً بظاهر حلب في عسكره، فثنى إليه الأعِنَّة وأغذَّ المسير، فوصل دمشق في السَّابع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياماً يسيرة[3].

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٩، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤ من هذا الجزء.

(٢) خوطب أمين الدولة بالأتابكية سنة (٥٣٠هـ)، وتوفي سنة (٥٤١هـ)، وكان أميراً جليلاً، انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٥٣، و«مختصر تنبيه الطالب»: ٣٣.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٩.

فتوجَّه نور الدين نحو صَرْخَد*، ولم يُشاهد أحسنُ من عسكره، وهيئته وعُدَّته، ووفور عِدَّته. واجتمع العسكران، وأرسل مَنْ بصَرْخَد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلُّم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمُّعِ الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم، مجدِّين السير إلى ناحية بُصرى*، وعليها فرقة وافرةٌ من العسكر محاصرةً لها. فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها. ووقعت العين على العين فانهزم الكُفَّار، وَوَلَّوْا الأدبار، وتسلَّم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صَرْخَد فتسلَّمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السَّابع والعشرين من المحرَّم. وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش ـ الذي خرج من صَرْخَد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله ـ إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهُّماً منه أنه يُكرم ويُصطنع بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام. فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خُطْلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعُقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القِصاص، فَسُمِل كما سَمَل أخاه، وأُطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها[1]. ١/٥١

قلت: وقد ذكر ابنُ منير وقعة بُصْرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدَّم بعضها[2] منها:

أيَّ شَأْوٍ أدركتَ يا نورَ دينِ الـ ... ـله أعيا على الملوكِ لحاقُهْ

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٢) انظر ص ١٧٧ من هذا الجزء.

نَطَقَ الحاسدونَ بالعَجْزِ عن مَلْـ ـكٍ محلىًّ بـالنَّيِّـرات نِـطَاقُـهْ

غَضَّ أبصـارَهُمْ لـحـاقُ جَـوَادٍ ليس إلا إلى المعـالي سِبَـاقُـهْ

سَلْ بصيراً كم أَعْتَقَتْ يومَ بُصْرى من إسارِ الموتِ الزُّؤامِ عِتَاقُـهْ[1]

كم عُـرَامٍ على العُـرَيمـة* شَبَّتْ ضـاقَ منـه على الصَّليبِ خِنَـاقُـهْ

ولـكـم هَـبْـوَةٍ بهـاب* وأُخْـتَـيْـ ـهـا لها صَكَّتِ الأسارى رِبَاقُهْ[2]

بَسَطَ الـذُّلَّ فـوقَ بسـطة بـاسـو طـا* ولكن طـواه عنـه ارتفـاقُـهْ

وفي هذه السنة ولد بِبَعْلَبَكَّ الملكُ العادل سيف الدين أبـو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتـح زَنْكي الرُّها*.

قـال أبو يعلى: وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيـع الأول توفي الفقيه شيـخ الإسـلام أبو الفتـح نصـرُ الله بن محمد بن عبـد القـوي المِصِّيصي بدمشق، وكان بقية الأئمة الفقهاء المفتين على مذهب الشَّافعي، ولـم يخلِّف بعده[3] مثله.

قـال: وفي جُمادى الآخـرة تقرَّرت ولايـة حِصْن صَرْخَـد* للأميـر مجاهد الدين بُزان بن مامين[4] على مبلـغ من المال والغَلَّة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهلُ تلك الناحية به لما هو عليه من حُبِّ الخير والصلاح، والتديُّنِ والعفاف[5].

---

(١) مفردها عتيق، وهو الفرس الكريم. انظر «اللسان (عتق). وفي (ل): أعتاقه.

(٢) الرباق: مفردها ربق، حبل فيه عدة عُرى تُشَدُّ به الغنم. انظر «اللسان» (ربق).

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٥ ــ ٢٩٦. وقد ولد باللاذقية سنة (٤٤٨هـ)، وكان متجنباً أبواب السلاطين، انظر تـرجمته في «تبيين كذب المفتـري»: ٣٣٠، و«المنتظم»: ١٠/١٢٩، و«سـير أعلام النبـلاء»: ٢٠/١١٨ ــ ١١٩، و«طبقـات الشـافعيـة» للسبكي: ٧/٣٢٠ ــ ٣٢١.

(٤) ستـرد ترجمته ص ٣٨٧ من هذا الجزء.

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٦.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال، وهو مستهل نيسان أظلم الجو، ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغَدِرة[1] بين العشاءين، وبقيت السماء في عين الناظر إليها كصفرة الوَرْس[2]، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة، وكل ما يُنظر إليه من حيوانٍ وجماد ونبات. ثم جاء في أثر ذلك من الرَّعد القاصف، والبرق الخاطف، والهدَّات المزعجة، والرَّجفات المُفْزِعة، ما ارتاع لها الشِّيْبُ والشُّبَّان، فكيف الولدان والنسوان؟! وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة الله تعالى، وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبارٌ في رقة الهواء، بين البياض والغُبْرة[3].

قال ابن الأثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أَرْتاح* بالسَّيف، وحصن باراة*، وبصرفوث[4]، وكَفْر لاثا*. وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردُّون ما أخذ منهم، فلما رأَوْا من نور الدين هذا الجِدَّ علموا أَنَّ ما أمَّلوه بعيد[5].

---

(١) ليلة غدرة: شديدة الظلمة تحبس الناس في منازلهم وكنهم فيغدَرون أي يتخلفون انظر «اللسان» (غدر).

(٢) نبات مثل نبات السمسم لونه أصفر. انظر «اللسان» (ورس).

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٦ ــ ٢٩٧.

(٤) كذا في النسخ الخطية، وقد مرَّت «بَسَرْفُوث» انظرها في كشاف الأماكن.

(٥) «الكامل»: ١١/١٢٢.

فصـــل
في نزول الفرنـج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله تعالى عنها

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية القُسْطنطينية وبلاد الفرنـج والرُّوم وما والاها بظهور ملوك الإفرنـج من بلادهم؛ منهم الألمان[1] والفُنش[2]، وجماعةٌ من كبارهم في العدد الذي لا يُحصر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النَّفيرَ النَّفيرَ إليها، والإسراع نحوها. وخلَّوْا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُماتها والحفظة لها. ثم استصحبوا من[3] ذخائرهم وأموالهم وعُددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى، بحيث يقال: إن عِدَّتهم ألف ألف من الرَّجَّالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك. وغلبوا على أعمال قُسْطنطينية، واحتاج ملكها إلى الدُّخول في مُدَاراتهم ومسالمتهم، والنُّزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم، والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهُّب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم، لكي يمنعوهم من العُبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شنَّ الغارات على أطرافهم، واستحرَّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العددُ الكثير، وحلَّ بهم من عدم القوت والعُلوفات والمِيَر وغلاء السعر ــ إذا وجدوه ــ ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ١/٥٢

---

(١) استعملت كلمة الألمان هنا علماً على الامبراطور كنراد الثالث، Conrad III انظره في كشاف الأعلام.

(٢) هو Bertrand, son of Alphonso Jourdain برتراند بن ألفنسو جوردان، كونت تولوز، وهو ابن غير شرعي له. وسيرد خبره ص ١٩٦ من هذا الجزء. وانظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان «الترجمة العربية»: ٢/٤٥٢.

(٣) ليست في (م).

ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم، وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين[1]، بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين

وتواترت[1] الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية: صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج. ويقال: إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير من مئة ألف، وقصدوا البيت المقدَّس، فقَضَوْا حجَّهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلقُ العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان[2] أكبر ملوكهم ومن هو دونه. واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرَّت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين، فاستعدَّ لحربهم، فجاؤوا في تقدير خمسين ألفاً، ودنَوْا من البلد، وقصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر[3] فيها، فصادفوا الماء مقطوعاً، فقصدوا ناحية المِزَّة* فخيَّموا عليها لقربها[4] من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورَجْلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوَّل، ونشبت الحربُ بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفُتَّاك وأحداث* البلد والمطوِّعة والغُزاة الجمّ

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (م). وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٧، وهذه الحملة هي ما يطلق عليه المؤرخون الغربيون الحملة الصليبية الثانية.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) ذكر وليم الصوري أنهم نزلوا على داريا، وهي المقصودة هنا، إذ أن الجيوش المهاجمة لدمشق غالباً ما كانت تأتي عن طريق داريا.
انظر «الحروب الصليبية» لوليم الصوري ٣/٣٠٨ ـ ٣٠٩ (ترجمة د. حسن حبشي.).

(٤) في الأصل و(ل): لقربهم، والمثبت من (م).

الغفير، واستظهر الكُفَّار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيَّموا فيها، وقَربوا من البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكَّن أحدٌ من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستُشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفِنْدَلاوي المالكي[1]، رحمه الله، قريبَ الرَّبوة* على الماء؛ لوقوفه في وجوههم، وترك الرجوع عنهم؛ اتَّبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم وقال: بعنا واشترى[2]، وكذلك عبد الرحمن الحَلْحُولي الزَّاهد[3]، رحمه الله، جرى أمره هذا المجرى[4].

قلت: وذكر الأمير أسامة بن مُنْقذ في «كتاب الاعتبار» أن ملك الألمان الفرنجي لما وصل إلى الشَّام اجتمع إليه كلُّ من بالشام من الإفرنج، وقصد

---

(١) أصله من المغرب، قدم دمشق حاجاً، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً بها، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها مذهب الإمام مالك، وحدث بالموطأ وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، علق عنه ابن عساكر أحاديث يسيرة.
انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» اختصار أبي شامة (خ) ق ٤١ ب ــ ٤٢ أ. (نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق) و«معجم البلدان»: ٤/٢٧٧ ــ ٢٧٨، و«وفيات الأعيان»: ٢/٤٥٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٠٩ ــ ٢١٠، وص١٩١ من هذا الجزء، له رسالة صغيرة نشرها الأستاذ جواد المرابط باسم «فتوى الفندلاوي» في بيروت سنة (١٩٦٦م).

(٢) يريد قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة...﴾، سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) في الأصل و(ل) الحلحول، والمثبت من (م)، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي، نسبة إلى قرية في الخليل، ولد بحلب، وسار في الآفاق، وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق حتى قتل شهيداً رحمه الله. انظر «معجم البلدان»: ٢/٢٩٠، و«توضيح المشتبه» ٢/٣٨٠ تحقيق أخي وصديقي الأستاذ محمد نعيم العرقسوسي. وانظر ص ١٩٢ من هذا الجزء.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٧ ــ ٢٩٨.

دمشق، فخرج عسكرها [وأهلها][1] لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفِنْدلاوي المالكي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحَلْحُولي ــ رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين ــ فلما قاربوهم قال الفقيه: [يا][2] عبد الرحمن، أما هؤلاء الرُّوم؟ قال: بلى. قال: فإلى[3] متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله. فتقدَّما فقاتلا حتى قُتلا في مكان واحد، رحمهما الله [تعالى][4].

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتَّحصُّن بها، وهدُّوا الفطائر[5]، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والرَّوْع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وحَرِجَتْ معه الصدور، وباكروا الظُّهور إليهم في غد ذلك اليوم؛ وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم،

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل، وإلى، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) ما بين حاصرتين من (م)، وانظر «الاعتبار»: ١١٧.
(٥) الفطائر هي جدران ترابية تفصل ما بين بساتين غوطة دمشق، ولعلها سميت كذلك لأن التراب كان يُدَكُّ بين دفين كبيرين من خشب مثبتين بعوارض خشبية، فكان إذا نشف الطين رفع منه دفا الخشب والعوارض، فيتخلف عن هذه العوارض فتحات، هذه الجدران كان يكمن خلفها الدمشقيون، ومن خلال فتحاتها كانوا يطعنون برماحهم كل من يحاول العبور من الصليبيين، ويطلق الآن على الجدار منها اسم الدَّكّ. وقد وردت في أصل «ذيل تاريخ دمشق» مثل أصلنا على الصحيح، لم يعرفها آمدروز، ووضع بدلاً منها كلمة من عنده هي «القناطر»، وحذا حذوه الدكتور سهيل زكار في نشرته للكتاب ووضع كلمة من عنده هي «الحظائر» وكلاهما جانب الصواب. انظر «وقفية الجامع الأموي» (خ) فقد وردت فيه غير مرة، منها حين يتحدث عن بستان بالشاغور يقول: ويحيط به فطائر، وانظر «الحروب الصليبية» لوليم الصوري ٣/ ٣١٠ ــ ٣١٢ (ترجمة د. حسن حبشي) ففيه أيضاً وصف لها. وص ١٩٢ من هذا الجزء.

ولا ينثني عن ذيادهم[1]. ولم تزل رحا الحرب دائرةً بينهم، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم، حتى تتهيأ الفرصة لهم، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كلٌّ منهم إلى مكانه، وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم. وكانت المكاتبات قد نفِّذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجَّالة الأطراف تتتابع. وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم، وزال عنهم رَوْعهم، وثبتوا بإزائهم، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ[2]، بحيث يقع في مخيَّمهم في راجل أو فارس، أو فرس أو جمل. ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجَّالة كثيرة من الرُّماة، فزادت بهم العِدَّة، وتضاعفت العُدَّة. وانفصل كل فريق إلى مستقرِّه في هذا اليوم، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصَّنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنُّشَّاب، وحذْفاً بالأحجار، وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا، ولم يظهر منهم أحد، وظُنَّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبِّرون حيلة، ولم يظهر منهم إلا النَّفر اليسير من الخيل والرَّجْل على سبيل المطاردة والمناوشة، خوفاً من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً. وليس يدنو منهم أحد إلا صُرع برِشْقة أو طعنة. وطمع فيهم نفر كثير من رَجَّالة الأحداث والضِّياع، وجعلوا يقصدونهم في المسالك وقد أمنوا، فيقتلون من ظفروا به ويُحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها. وحصل من رؤوسهم العدد الكثير. وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال

---

(١) في الأصل و(ل) ديارهم، والمثبت من (م).

(٢) آلة حربية تستعمل لرمي السهام والحجارة والنفط المشتعل. والقائم على تشغيلها يسمى جرخي. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ١٨٢/١.

شأفتهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحُلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها[1] غير الرَّحيل، فرحلوا سَحَر يوم الأربعاء التالي مفلولين. وحين عرف المسلمون ذلك برزوا ١/ ٥٣ إليهم في بكرة هذا اليوم، وسارعوا في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدَّوابِّ العدد الكثير. ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم ما لا عَدَدَ له ولا حَصْر يلحقه، بحيث لها أراييح من جيفتهم تكاد تَصْرع في الجو. وكانوا قد أحرقوا الرَّبوة* والقُبَّة الممدودية في تلك الليلة. واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشُّكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدَّة. فلله الحمد على ذلك والشكر. واتفق عقيب هذه الرَّحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قُرْبه[2] من دمشق للإنجاد لها[3].

وقال ابن الأثير: خرج ملك الألمان* من بلاد الفرنج في جيوش كبيرة[4] عظيمة لا تحصى كثرةً من الفرنج إلى بلاد الشَّام، فاتفق هو ومَنْ بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها، ولا يشكُّ ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره. قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثر عَدَداً وعُدَداً، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً. فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين آبَق بن محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طُغْتِكِين؛ وهو معين الدين أُنَـر، فهو كان الحاكم والمدبِّر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً ديناً خيِّراً حسنَ السيرة،

(١) في الأصل: بها، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (م) قرية.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٨ ــ ٣٠٠.

(٤) ليست في (ل) و(م).

فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن ذوناس[1] المَغْرِبي الفِنْدَلاوي شيخ المالكية بدمشق ـ وكان شيخاً كبيراً، زاهداً عابداً ـ خرج راجلاً، فرآه معينُ الدين، فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوَّة على القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نَسْتَقيله. يعني قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ الآية[2]. وتقدَّم فقاتل الفرنج حتى قُتِلَ، رحمه الله، عند النَّيْرَب* شهيداً. وقوي أمر الفرنج، وتقدَّموا فنزلوا بالميدان الأخضر*، وضعُفَ أهل البلد عن رَدِّهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين[3] يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويُعلمه شدَّة الأمر. فجمع سيف الدين عساكره، وسار مُجدّاً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يُطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوَّابي وأصحابي وكانت الهزيمة ـ والعياذ بالله ـ علينا، لا يسلم منا أحدٌ لبُعْد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلِّم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النُّصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوُّ عنها، وأعود إلى بلادي. فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج[4]. فأرسل سيف الدين إلى الفرنج

---

(١) كذا في الأصل و(ل) وفي (م) دوناس ـ بالدال المهملة، ومثله في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٠٩، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٨٦ من هذا الجزء.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) سيف الدين غازي أخو نور الدين، صاحب الموصل.

(٤) في الأصل: الفرج، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

الغرباء يتهدَّدهم ويعلمهم[1] أنه على قصدهم إن لم يرحلوا. وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلَّمت البلد إليه، وحينئذٍ لا تطمعون في السَّلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشام يخوِّفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين؛ إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلَّمتُ أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدَّس. وبذل لهم أن يسلِّم إليهم بانياس* إن رحَّلُوا ملك الألمان عن دمشق. فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان، وخوَّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالسَّاحل. فأجابهم إلى الرَّحيل عن دمشق، فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس* من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين [محمود][2]، رحمه الله، كما سنذكره[3].

قلتُ: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر، رحمه الله، في «تاريخه» أن الفقيه الفِنْدَلاوي رُؤي في المنام، فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عَدْن على سُرُرٍ متقابلين[4].

وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصَّغير* من ناحية حائط المُصَلَّى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله.

---

(١) في الأصل: ويعلمه، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) كان فتحه سنة (٥٦٠ هـ) انظر ص ٤٣٧ و ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٤) «تاريخ دمشق» لابن عساكر، اختصار أبي شامة (خ) ق ٤١ ب (نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق).

وأما[١] عبد الرحمن الحَلْحُولي فقبره في بستان الشَّعْباني في جهة شرقه[٢]، وهو البُسْتان المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت. وكان مُقامه في حياته في ذلك المكان، رحمه الله[١].

وقرأتُ قصيدةً في شعر أبي الحَكَم الأنْدَلُسي[٣] شَرَحَ فيها هذه القصَّة، منها:

بشطَّيْ نهر داريًّا*   أمورٌ ما تواتينا

وأقوام رأَوْا سَفْكَ الدِّ (م) ما في جِلِّقٍ دينا

أتانا مئتا ألفٍ   عديداً أو يزيدونا

فبعضهمُ مِنَ انْدَلُسٍ   وبعضٌ[٤] من فِلَسْطينا

ومن عكَّا ومن صُورٍ   ومن صَيْدا وتِبْنِينا*   ٥٤/١

إذا أبصرتَهُمْ أبْصَرْ   تَ أقواماً مجانينا

ولكنْ حرَّقوا في عا   جلِ الحال البساتينا

وجازوا المَرْجَ والتعديـ   ـلَ أيضاً والميادينا

تخالهمُ ـ وقد ركبوا   فطائرها[٥] ـ حراذينا

وبين خيامهم ضمُّوا الـ   ـخنازر والقرابينا

وراياتٍ وصُلْباناً   على مسجدِ خاتونا*

---

(١) ـ (١) ما بينهما ليس في (م).

(٢) ما زال قبر الحلحولي موجوداً، وهو بالقرب من جسر النحاس في حي الأكراد. انظر موقع القبر في خريطة الصالحية التي وضعها الأستاذ الشيخ أحمد محمد دهمان. وانظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٨٦/٢، وحاشية بدران في «تهذيب ابن عساكر»: ٢٢٧/١ و«ثمار المقاصد»: ١٣٠ حاشية المحقق رقم (٥).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٦ من هذا الجزء.

(٤) في (ل) وبعضهم.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٨٧ من هذا الجزء.

وقُلْنا إذْ رأيناهُمْ لعلَّ اللَّهَ يكفينا
سَمَا لهم مُعينٌ[1] قد أعانَ الخَلْقَ والدِّينا
وفتيانٌ تخالهمُ لدى الهيجا شَياطِينا
فولَّوْا يطلبونَ المرْجَ من شرقيِّ جِسْرِينا*
ولكنْ غادروا إليا سَ تحت التُّرْبِ مدفونا
وشيخاً فِنْدَلاوياً فقيهاً يعضُدُ الدِّينا
وفتياناً تفانَوْا من دمشقَ نحو سَبْعينا
ومنهم مئتا عِلْجٍ وخيلٍ نحو تسعينا
وباقيهم إلى الآنَ مِنَ القَتْلِ يفرُّونا

وللعرقلة حسَّان[2] في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذٍ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج، أوَّلها:

عَرِّجْ على نَجْدٍ لعلَّكَ مُنْجِدي بنسيمِها، وبذكرِ سُعْدى مُسْعِدي

[يقول فيها][3]:

مَنْ قاتلَ الإفرنجَ ديناً غيرهُ والخيلُ مِثْلُ السَّيْلِ عند المَشْهَدِ
ردَّ الأمانَ بكلِّ نَدْبٍ[4] باسلٍ وَمِنَ الجيادِ بكُلِّ نَهْدٍ أَجْرَدِ
ومِنَ السُّيوفِ بكلِّ عَضْبٍ أبيضٍ ومِنَ العَجاجِ بكلِّ نَقْعٍ أسودِ
حتى لوى الإسلامَ تحتَ لوائه وغدا بِحمْدٍ مِنْ شريعةِ أحمدِ[5]

---

(١) في (ل) معين الدين، وبه ينكسر الوزن.
(٢) هو أبو الندى حسان بن نمير الكلبي، شاعر خليع من سكان دمشق، ولد سنة (٤٨٦هـ) وتوفي سنة (٥٦٧هـ) ديوانه مطبوع بتحقيق أحمد الجندي ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٧٠م). انظر: «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٧٨ ـ ٢٢٩.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) رجل ندب: خفيف في الحاجة، نجيب. انظر «اللسان» (ندب).
(٥) انظر القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٢٥ ـ ٢٦.

وقرأت في ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَرَاني قصيدةً في مدح تاج الملوك بُوري جدِّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاثٍ وعشرين وخمس مئة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين.

أول القصيدة:

الحقُّ مبتهجٌ والسَّيْفُ مُبْتَسِمُ ... ومالُ أعداء فخر الدين[1] مُقْتَسَمُ

يقول فيها:

قُدْتَ الجيادَ وحصَّنْتَ البلادَ وأمَّـ (م) ... ـنْتَ العبادَ فأنت الحِلُّ والحَرَمُ

وجئت بالخيل من أقصى مرابِطِها ... معاقد الحزم في أوساطها الحُزُم

حتى إذا ما أحاط المشركونَ بنا ... كاللَّيْلِ يلتهم الدُّنيا له ظُلَم

وأقبلوا لا مِنَ الإقبالِ في عددٍ ... يؤود حاسبَهُ الإعياءُ والسَّأَمُ

أجريتَ بحراً من الماذِيِّ[2] معتكراً ... أمواجه بأواسي[3] البأس تَلْتَطِمُ

وسُسْتَ جُنْدَك والرَّحمن يكلؤه ... سياسةً ما يُعَفِّي إثرها نَدَمُ

وقفتَ في الجيش والأعلام خافقةً ... بالنَّصْرِ كلُّ قناةٍ فوقَها عَلَمُ

يحوطك اللّهُ صوناً عن عيونهم ... والله يَعْصِمُ مَنْ بالله[4] يَعْتَصِمُ

حتى إذا بَدَتِ الآراءُ ضاحكةً ... وأقبلَتْ أَوْجُهُ الإقبالِ تَبْتَسِمُ

أَتْبَعْتَ جِنَّ سراياهم مُضمَّرَةً ... فيها نجومٌ إذا جدَّ الوغى رَجَمُوا

---

(١) في (ل) مجير الدين، وهو تحريف، ويستفاد أنه لقب بوري.

(٢) الماذي: السلاح كله من الحديد، ويقال: الماذي خالص الحديد وجيده. انظر «اللسان» (مذي).

(٣) مفردها آسية، وهي الدعامة والسارية. انظر «اللسان» (أسا).

(٤) في (م) بالناس، وهو وهم.

والنَّصْـرُ دانٍ وخيــل الله مقبلةٌ ... تـرجو الشَّهـادةَ في الهيجا وتَغْتَنِمُ
صابَ الغمامُ عليهم والسِّهـامُ معاً ... فمـا دَرَوْا أيُّمـا الهَـطَّالـة الـدِّيَمُ
سَـرَوْا لينتهبُوا الأعمـار فـانْتُهِبـوا ... قتـلاً ويَغْتَنِمُـوا الأمـوالَ فـاغْتُنِمُـوا
وأقبلت خـيلُنـا تَـرْدِي بـخيـلهم ... مجنـوبَةً وعلى أرمـاحنـا القِمَمُ[1]
وأدْبـرَ المَلِكُ الـطَّاغي يُـزَعْـزِعُـه ... حَـرُّ الأسِنَّة وَهْـوَ البـارِدُ الشَّبِمُ[2]
وَافَـوْا[3] دمشقَ وظنُّوا أنَّهـا جِـدَةٌ ... ففـارقـوهـا وفي أيـديهم العَـدَمُ
وأيقنـوا مـع ضيـاءِ الصُّبْحِ أَنَّهُمُ ... إنْ لم يَزُولُوا سِـرَاعاً زالَتِ الخِيَمُ
فغـادروا أكثـر القُـربـانِ وانْجفَلُوا ... وخلَّفُوا أكبرَ[4] الصُّلْبـانِ وانهزَمُـوا
وحاولُوا المسجدَ الأدنى فما عَبَرَتْ ... عن مَسْجِدِ القَدَمِ * الأقصى لهم قَدَمُ[5]
مُسْتَسلِمين لأيْـدِي المُسْلمين وقد ... أغـرى القَنَا بتمـادي خَطْفِهِمْ نَهَمُ
لا يملكُ الجسمُ دَفْعاً عن مَقَاتله ... كـأنه حين يغشـاهُ[6] الرَّدى صَنَمُ ١/٥٥

فصــــل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنـجُ عن دمشق سار معين الدين أُنَر إلى بَعْلَبَكَّ، وأرسل إلى نور الدين، وهو مـع أخيه سيف الدين، يسأله أن يحضُرَ عنده، فاجتمعا، فوصل إليهما كتاب القُمْص* صاحب طرابُلُس يشير عليهما

---

(١) مفردها قمة: رأس الإنسان. انظر «اللسان» (قمم).
(٢) في (ل): الشيم.
(٣) في (م): راموا.
(٤) في (ل) أكثر.
(٥) في (ل) و (م) هذا البيت يرد آخر الأبيات المذكورة.
(٦) في (ل) يرداه.

بقصد حصن العُرَيْمة* وأَخْذه[1] ممن فيه من الفرنـج. وكان سبب ذلك أن ولد الفُنش[2] صاحب جزيرة صِقِلِّية* خرج مـع ملك الألمان إلى الشَّام، وتغلَّب على العُرَيمة وأخـذها مـن القُمْص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً ـ وجدُّ هذا الذي ملك العُريمة[1] هو الذي غزا إفريقية وفتـح مدينة طرابلس الغرب ـ فلما استولى هذا على العُرَيمة* كاتَبَ القَوْمص نورَ الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مُجِدَّيْن، فصبَّحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد، فأمدَّهما. فحصروا الحصن وبه ابن الفُنش، ونقَّبوا السُّور، فأذعن الفرنـجُ واستسلموا، وألقوا بأيديهم. فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كُلَّ مَنْ به من رجل وصبـي وامرأة، وفيهم ابن الفُنش، وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين[3].

وافتتـح نور الدين أيضاً باسوطا* وهاب*.

وقال الرئيس أبو يعلى: قُتل أكثر من كان فيه ـ يعني [في][4] حصن العُرَيمة ـ وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه، ونُهب ما فيه من العُدد والخيول والأثاث[5]. وعاد عسكر سيف الدين إلى مُخيمه بحمص، ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولدُ الملك وأمه ومن أُسر معهما[6]، وانكفأ معين الدين إلى دمشق[7].

(١ ـ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ٩٠، وفيه: حصن العزيمة ـ بالزاي ـ وهو تصحيف.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) الأثاث ليست في (ل).

(٦) بقي برتراند في الأسـر إحدى عشرة سنة، حتى أطلقه نور الدين سنة (٥٥٤هـ) لقاء معاهدته مـع الامبراطور البيزنطي مانويل. انظر ص ٣٨٥ مـن هذا الجزء. و«تاريـخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٤٦٢ ـ ٤٦٣، ٥٧٤.

(٧) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجَّه في عسكره إلى ناحية الأعمال الإفرنجية، وقصد فامية*، وظفر بعِدَّة من الحصون والمعاقل الإفرنجية، وبعُدَّة وافرةٍ من الإفـرنـج، وأن صاحب أنطاكية جمعَ الفرنـج وقصده على حين غفلة منه، فَنَال من عسكره وأثقاله وكُراعه[1] ما أوْجَبَتْه الأقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه إلا النفر اليسير، بعد قتل جماعةٍ وافرة من الإفرنـج. وأقام بحلب أياماً بحيث جَدَّد ما ذهب له من البَرَك[2]، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله، وقيل: لم يَعُد[3].

وذكر ابن أبـي طيّ أن أسدَ الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الدَّاية عليه لم ينصـح يومئذٍ، وهي وقعةَ يَغْرا*[4]، ومَرَّ به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا؟! فقـال: يا خُـوند*، أيش ننفـع نحن؟ إنمـا ينفـع مجد الـدين أبـو بكـر، فهو صاحب الأمر. فاستدرك نور الدين ذلك، وطيَّب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقَّه، وأصلـح بينهما[5].

قال: وقُتل في هذه الكسرة شاهِنْشَاه بن أيوب، أخو الملك النَّاصر، وقيل في كسرة البقيعة[6].

---

(١) الكراع: السلاح، وقيل: الخيل والسلاح. «اللسان» (كرع).

(٢) ويقال: البَرْك ــ بسكون الراء ــ وهو المتاع والثَّقَل والكراع والسلاح. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية): ١/٣٠٤، و«الخزانة الشرقية»: ٤/١٦٩ ــ ١٧٠، وفي «ذيل تاريـخ دمشق»: ٤٧٠ (ط. د. زكار) أصله يوافق أصلنا، ولكن المحقق عدَّه مصحفاً، وأثبت من عنده «اليزك» وتعني طلائـع الجيش، وهو وهم منه.

(٣) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٢ ــ ٣٠٣. (٤) انظر «الكامل»: ١١/١٣٤.

(٥) انظر سبب جفوة أسد الدين من نور الدين ص ١٧٤ من هذا الجزء.

(٦) ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: ٢/٤٥٢ أنه قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة (٥٤٣ هـ)، وانظر عن كسرة البقيعة ص ٣٩٧ من هذا الجزء.

قلت: وهو والد عز الدين فَرُّخْشاه، وتقي الدين عمر، والست عذرا المنسوب إليها المدرسة العذراوية* داخل باب النَّصْر* بدمشق، وقبره الآن بالتُّربة النَّجمية* جوار المدرسة الحُسَامية* بمقبرة العوينة* ظاهر دمشق، رحمهم الله تعالى.

قلت: ولابن منير من قصيدةٍ تقدَّمت[١] اعتذاراً عما جرى في هذه الغزاة قال:

لـم يَشِنْـهُ من ماء يغراء* أَن فرَّ[٢] (م) الأشاباتُ[٣] ذادَ عنها انـذلاقُـهْ
كان فيها ليثَ العرينِ حمى الأشْـ ـبَالَ منه غضبـانُ كالنَّـارِ ماقُـهْ[٤]
وشـبيـه الـنبـيّ يـوم حُـنَـيْـنٍ إذ تـلافـى أدواءَهُمْ دِرْيَـاقُـهُ[٥]
وهي الحَرْبُ فحلُها يُحْسِنُ الكرَّ (م) ة إنْ عَضَّ بـأسُـهـا لا نِيـاقُـهْ

وقال ابنُ الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضاً سار نور الدين إلى يَغْرى[٦]*، وقد اجتمع بها الفرنج في قَضِّهم وقضيضهم، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم أنزل [الله][٧]

---

(١) انظر ص (١٧٧، ١٨١ ـ ١٨٢) من هذا الجزء.
(٢) في (م): لم يشنه من ماء يغراس إذ فرَّ.
(٣) الأخلاط من الناس، يقال: أوباش من الناس، وأوشاب من الناس. انظر «اللسان» (أشب).
(٤) مخففة من مأق، وهي مؤخر العين. «اللسان» (مأق).
(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٣ من هذا الجزء.
(٦) في الأصل و (ل) بصرى، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وانظر «الباهر»: ٩١، فما في أصله يوافق ما في (م) أبدلها المحقق «بصرى»!، وهذا التحريف تظاهر عليه أيضاً طبعتا الروضتين، وهو من الأوهام التي توقع من يؤرخ لنور الدين بخطأ تاريخي جسيم. وانظر «الكامل»: ١١/ ١٣٤.
(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

نصرَه على المسلمين، وانهزَم الفرنـج، وكانوا بين قتيلٍ وأسير، وفي هذه الوقعة يقول القَيْسَراني من قصيدةٍ أولها:

يـا ليتَ أنَّ الـصَّـدَّ[1] مَصْـدُودُ — أوْ لَا فـلـيـتَ الـنَّـوْمَ مَـرْدُودُ
إلـى متـى تُعْـرِضُ عـن مُغْـرَمٍ — فـي خَـدِّه لـلدَّمْـعِ أُخْـدُودُ
قالوا عيـونُ البيضِ بيضُ الظُّبى — قـلتُ ولـكـنْ هـذه سُـودُ
يُخـافُ منهـا وهْي في جَفْنِهـا — والسَّيْفُ يُخْشى وَهْـوَ مَغْمُـودُ

ثم خرج إلى المدح فقال:

وكيف لا نُثْني على عَيْشِنـا الـ — ـمحمـودِ والسُّلْطانُ محمـودُ
فليشكـرِ النـاسُ ظـلالَ المنى — إنَّ رِواقَ الـعـدْلِ مـمـدودُ
ونَـيِّـرَاتُ الـمُـلْكِ وهَّـاجـةٌ — وطـالـعُ الـدَّولـةِ مَـسْـعُـودُ ١/٥٦
وصـارمُ الإسـلامِ لا يـنـثـنـي — إلا وشِـلْوُ الـكُـفْـرِ مَـقْـدُودُ
مـنـاقبُ لـم تـك[2] مـوجـودةً — إلا ونـورُ الـديـن مـوجـودُ
مُـظَفَّـرٌ فـي دِرْعِـهِ ضَـيْـغَـمٌ — عـليـه تـاجُ الـمُـلْكِ مَـعْـقُـودُ
نـالَ المعـالي حـاكماً مـالكـاً — فَـهْـوَ سـليـمـانُ وداودُ
تَـرْتَـشِـفُ الأفـواه أَسْـيَـافَـهُ — إنَّ رُضـاب الـعِـزِّ مَـوْرُودُ
وكـم لـه مِـنْ وَقْـعَـةٍ يـومُـهـا — عـنـد ملوكِ الـشِّـرْكِ مَشْـهُـودُ
والـقـوم إمـا مُـرْهَـقٌ صُـرْعَـةٌ — أو مُـوثَـقٌ بـالـقِـدِّ مَـشْـدُودُ
حـتـى إذا عـادوا إلـى مِثْلِهـا — قـالـتْ لـهـم هَـيْـبَـتُـهُ عُـودُوا
طـالِبُ بثـأرٍ ضَمِنَتْـه الـظُّبى — فـكـلُّ مـا تَـضْـمَـنُ مَـرْدُودُ
والكَـرُّ والفَـرُّ سِجـالُ الـوغى — فـطاردٌ طَـوْراً ومَـطْرُودُ

---

(١) في الأصل و(ل) الصدود، وهو مخل في وزن البيت، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل و(ل) تكن، وبها لا يستقيم الوزن، والمثبت من (م).

وإنَّمـا الإفـرنجُ مِنْ بَغْيِهـا عـادٌ[1] وقـد عـادَ لـهـا هُـودُ
قـد حَصْحَصَ الحقُّ فما جاحـدٌ في قلبـه بَـأْسُـكَ مجحـودُ
فكـلُّ مِصْـرٍ بـكَ مُسْتَفْتَحٌ وكُـلُّ ثَـغْـرٍ بـك مَـسْدُودُ

وقال أيضاً قصيدةً في نور الدين، وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الإفرنج على يَغْرا* وهزمهم إلى حِصْن حارِم*، وقد كانت الفرنجُ هزمت المسلمين أولاً بهذا الموضع، أولها:

تفـي بضمانِها البِيْضُ الحِدَادُ وتَقْضي دَيْنَها السُّمْرُ الصِّعَـادُ[2]
وَتُـدْرِكُ ثـارَهـا مِنْ كـلِّ بـاغٍ فـوارسُ من عَـزَائمها الجِـلادُ
ويَغْشى حَـوْمَـةَ الهَيْجَـا هُمـامٌ تَشُـدُّ بِضَبْعِهِ[3] السَّبْعُ الشِّـدادُ
أظَنُّـوا أنَّ نـارَ الحَـرْبِ تخبـو ونـورُ الـدين في يَـدِهِ الـزِّنـادُ!
وَجُنْـدٌ كـالصُّقُـورِ على صُقُـورٍ إذا انقضُّـوا على الأبطالِ صـادُوا
إذا أَخْفَـوا مَكِيْـدَتَهُمْ أخـافُـوا وإنْ أَبْـدَوْا عَـدَاوَتَـهُـمْ أبـادُوا
وَنُصْـرَةَ دولـةٍ حـاميتَ عنهـا وهَـلْ تَخْشىٰ وأنتَ لهـا عِمـادُ
وإنْ نُـتْـلِ القـوافي مـا تَلَتْـهُ بـإنْـب* مـا يُـؤَبِّنُهـا سِنَـادُ[4]
جَـرَتْ بـالنَّصْـرِ أقلامُ العـوالي وليس سوى النَّجِيعِ[5] لها مِدَادُ
وطـالتْ أرؤُسُ الأعـلاجِ خِضْبـاً فنادى السَّيْفُ: قد وَقَعَ الحَصَادُ
أحـطتَ بهم فكـانَ القَتْلُ صبـراً ولا طَـعْـنٌ هـنـاكَ ولا طِـرَادُ
ولـلإبـرنـز[6] فـوقَ الـرُّمْـحِ رأسٌ تَـوَسَّـدَ والـسِّـنـان لـه وِسَـادُ

---

(١) في الأصل و (ل): عادوا، وهو تحريف، والمثبت من (م).
(٢) أي القنا المستويات اللواتي لا يحتجن إلى تثقيف. انظر «اللسان» (صعد).
(٣) الضبع: وسط العضد. انظر «اللسان» (عضد).
(٤) أي ما يعيبها سناد، والسناد على أنواع وهو من عيوب القوافي. انظر «الوافي في العروض والقوافي» للتبريزي: ٢٤٤ ــ ٢٤٨.
(٥) الدم. «اللسان» (نجع).
(٦) هو ريموند، صاحب أنطاكية، انظر ص ٢٠٤، ٢٠٧ من هذا الجزء.

تـرجَّـل للسَّـلامِ[1] ففرَّسـوه[2] … وليس سـوى القَنَـاةِ لـه جَـوَادُ
غَـضِيضُ الـمُقْلَتيـن ولا نُـعَـاسٌ … وغـائِـرُهـا ولـيس بـه سُـهـادُ
فَسِـرْ وَاسْتَـوْعِبِ الـدُّنيا فتـوحـاً … فـلا هَـضْـبٌ هـنـاك ولا وِهـادُ
وزُرْ ببني الـوغى مثوى حبيب[3] … فمـا عن بـابِ مسلمـةٍ[4] ذيـادُ
ولا في بـاب فارس[5] غيـر ثكلى … بفـارسهـا يضيء بهـا الحِـدَادُ
أأنـطاكـيَّـة تـحـمـي ذَرَاهـا … وقـد دانتْ لِسَـطْوَتِـكَ الـبلادُ
وأذعنتِ الممـالـكُ واستجـابـتْ … مُـلَبِّيَـةً لِـدَعْـوَتِـكَ الـعِبَـادُ

قلت: ووقعة إنِّب* هذه كانت عظيمةً، وقد كَثُرَ ذكر الشعراء لها، وسيأتي ذكرها قريباً[6].

فـصـل

١/٥٧

قال أبو يعلى التَّميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأنَّ صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بإبطال «حيَّ على خير العمل» في أواخر تأذين الغَدَاة، والتظاهر بسبِّ الصَّحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً،

---

(١) في (ل) للإسلام، وهو وهم ولا يستقيم به الوزن.
(٢) كأنه أراد: جعلوه فارساً.
(٣) هو حبيب النجار، كان قبره يزار بأنطاكية، يقال إنه نزلت فيه الآية الكريمة ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى...﴾. انظر «معجم البلدان»: ١/٢٦٩.
(٤) في «معجم البلدان»: ١/٢٦٩، باب مسلم، وكان مسلم بن عبد الله قد قتل عليه.
(٥) أحد أبواب أنطاكية. انظر «المصدر السابق».
(٦) انظر ص ٢٠٦ من هذا الجزء.

وساعدَه على ذلك جماعةٌ من السُّنَّة بحلب، وعَظُمَ هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيُّع، وضاقت له صدورُهم، وهاجوا [له][1] وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا، للخوف من السطوة النوريَّة المشهورة، والهيبة المحذورة[2].

قلت: وأنشده ابن منير في شهر رمضان:

فِداكَ مَنْ صامَ ومن أفطرا ... وَمَنْ سعى سَعْيَك أو قَصَّرا

وما الورى أهلاً فَتُفْدَى بهم ... وهل يوازي عَرَضٌ جَوْهَرا

عَدْلٌ تساوَى تحتَ أكنافِهِ ... مَطَافِلُ العينِ[3] وأُسْدُ الشَّرى[4]

يا نورَ دينِ الله كم حادثٍ ... دَجَا وأَسْفَرْتَ له فانْسَرى[5]

وكم حِمىً لِلشِّرْكِ لا يهتدي الـ ... وَهْمُ له غادَرْتَه مَجْزَرَا

يا مَلِك العصر الذي صَدْرُه ... أفسحُ من أقطارِها مَصْدَرا

وابْنَ الذي طاول أفلاكَها ... فلم يجد مِنْ فوقه مَظْهَرا[6]

مناقبُ تكسِرُ كِسْرى كما ... تَقْصُرُ[7] عن إدراكها قَيْصرا

ما عامَ في أوصافِها شاعرٌ ... إلا رأى أوصافها أَشْعَرا

لله أصلٌ أنت فَرْعٌ له ... ما أطيبَ المجنى وما أَطْهَرا[8]

ما حلبُ البيضاء مُذْ صُنْتَها ... إلا حَرَامٌ مثل أُمِّ القُرَى

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠١.

(٣) أولاد بقر الوحش. انظر «اللسان» (طفل)، (عين). وفي الأصل و(ل) تطافل، والمثبت من (م).

(٤) الشرى: موضع تنسب إليه الأسد. انظر «اللسان» (شري).

(٥) أي انكشف. انظر «اللسان» (سرا).

(٦) أي مَصْعَداً. انظر «اللسان» (ظهر).

(٧) في الأصل: يقصر، وفي (ل) مهملة، والمثبت من (م).

(٨) في (م) ما أنضرا، وهي رواية أخرى في نسخة الأصل.

شيَّدْتَ في معمورِ أرجائها لكلِّ باغي عُمْرَةٍ مَشْعَرا
فأصبحَ الشَّادي إذا ثَوَّبَ الـ ـدَّاعي[1] له هلَّلَ أو كبَّرا
لا عَدِمَ الإسلامُ مَنْ كَفُّه كهفٌ لِمَنْ أُرهق أو أُحصِرا
كأنَّما ساحتُه جَنَّةٌ أجرت بها راحتُه كَوْثَرا
تَصَرَّمَ الشهرُ الذي كنتَ في أوقاتِهِ مِنْ قَدْره أَشْهَرا
جِهادُ ليلٍ في نهارٍ فَفُزْ إذْ كنتَ فيه الأصْبرَ الأشكرا
أصدقُ ما يرشفُه سامعٌ ما هزَّ من أوصافِكَ المِنْبَرا
أبقاكَ للدُّنيا وللدِّين مَنْ خَلَّاك في ليلهما نَيِّرا[2]
حتى ترى عيسى[3] من القُدْسِ قد لجا إلى سيفِك مُسْتَنْصِرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أُذِنَ لمن يتعاطى الوعظ بالتكلُّم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرَّسم، فبدا من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم، والخوض في قضايا لا حاجة إليها من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وإبطال الوعظ، لما يتوجَّه معه من الفساد، وطمع سفهاء الأوغاد، وذلك في آخر شعبان منها[4].

قال: وكَثُرَ فسادُ الفرنج المقيمين بصور وعكًّا والثغور السَّاحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم، وخَيَّم في ناحية حوران بالعسكر، وكاتبَ العرب، واستدعى جماعةً وافرةً من

---

(١) ثوَّب الداعي تثويباً: إذا أعاد مرة بعد أخرى، ومنه: تثويب المؤذن إذا نادى بالأذان للناس إلى الصلاة، ثم نادى بعد التأذين فقال: الصلاة رحمكم الله. يدعو إليها عوداً بعد بدء. انظر «اللسان» (ثوب).
(٢) في هامش (م): في نسخة «جلاك في ليلها نيرا».
(٣) في هامش الأصل و (ل): «حاشية، قال المؤلف: يعني أتباع عيسى، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، نحو قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ والله أعلم.
(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠١.

التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النِّكاية فيهم والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة[1].

ودخلت سنة أربع وأربعين [وخمس مئة][2]

فجدِّدت المهادنة في المحرَّم مُدَّة سنتين، وأنفذ نورُ الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية* قد جمع إفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد بَرَزَ في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه، والحاجة ماسَّة إلى معاضدته. فندب معينُ الدين مجاهدَ الدين بُزان بن مامين[3] في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير[4] إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته[4]، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حَوْرَان[5].

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، [من الظهور][6] على حشد الإفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من خبَّر ببوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنِّب*، وهم في نحو أربع مئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووُجد اللعين البرنس[7] مقدَّمهم صريعاً بين حُماته

١/٥٨

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٢ من هذا الجزء.
(٤ ـ ٤) ما بينهما ساقط من (م).
(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٧) انظر ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

وأبطاله، فعرف وقُطع رأسُه وحُمل إلى نور الدين. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدَّة البأس، وقوة الحِيَل وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، والتَّناهي في الشَّر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية*، وقد خلَت من حُماتها، والذَّابِّين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وتردَّدت المرسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاجُ منهم بأن هذا أمرٌ لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من النَّاصر لهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التُّحف والمال، واستمهلوا فأُمهلوا. ثم رتَّب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في باقية العسكر إلى ناحية أفامية*، وقد كان رتَّب الأمير صلاح الدين[1] في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان، فأُومِّنوا على أنفسهم، وسلَّموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية*، وقد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها، فاقتضت الحال مهادنة مَن في أنطاكية[2] وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قرُب من الأعمال الحلبيَّة له، وما قرُب من أنطاكية[2] لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمَّة. وفصَل عنه الأمير مجاهد الدين بُزان في العسكر الدمشقي، وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذِّكر المشكور، لما هو موصوفٌ به من الشَّهامة والبسالة، وإصابة الرأي، والمعرفة بمواقف الحروب[3].

---

(١) انظر ص ٣٦٠ من هذا الجزء. (٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤ ـ ٣٠٦، وط. د. زكار: ٤٧٣ ـ ٤٧٥.

وقال ابن أبـي طيّ: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنـج فقتله، وقَتَلَ[1] البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يُقتل من المسلمين من يؤبه له، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليدُ البيضاء، ومدحه بها بعضُ الشعراء الحلبيين [بقصيدةٍ][2] يقول فيها:

إنْ كانَ آلُ فرنـجٍ أدركوا فَلَحاً[3] ... في يوم يَغْرا* ونالوا مُنْيَـةَ الظَّفَـرِ
ففي الخَطيم خَطَمْتَ الكُفْرَ مُنْصَلِتاً ... أبـا المُظَفَّـرِ بالصَّمْصَـامـة الـذَّكَـرِ
نـالـوا بيغـرا نِهـابـاً وانْتَهبْتَ لنـا ... على الخطيمِ نفوسَ المعشر الأَشِرِ
واستقودوا الخيلَ عُرْياً[4] واستَقَدْتَ لنا ... قَوامِص[5] الكُفْرِ في ذُلٍّ وفي صَغَرَ

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاحٌ كثير، وعدة[6] أسارى وخيول كثيرة[6]، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً.

وفي هذه السنة عَظُمَ أمر أسد الدين.

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارِم*، وهو للفرنـج، فحَصَرَه وخرَّب رَبَضَه، ونهب سواده، ثم رحل عنه إلى حصن إنِّب* فحصره، فاجتمعت الفرنـج مـع البرنس صاحب أنطاكية*، وساروا إليه ليُرَحِّلُوه عن إنِّب فلم يرحل، بل لقيهم وتصافَّ الفريقان، واقتتلوا، وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصَّبر في الحرب على حداثـة سِنِّه مـا تعجَّب منه

---

(١) الضبط من (ل).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٣) أي فوزاً. انظر «اللسان» (فلـح).
(٤) أي لا سروج عليها، انظر «اللسان» (عرا).
(٥) مفردها قومص، قمص. انظرها في كشاف المصطلحات.
(٦ ـ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

الناس[1]، وأجلت الحربُ عن هزيمة الفرنـج، وقَتَلَ المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وفيمن قُتِلَ البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عُتاة الفرنـج، وذوي التقدم فيهم والملك. ولما قتل البرنس خلَّف ابنـاً صغيراً، وهـو بيمند[2]، فبقي مـع أُمّه[3] بأنطاكية، فتزوجت أمه بإبرنس آخر[4]، وأقام معها بأنطاكية يدبِّرُ الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند. ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنـج غزوة أخرى، وهزمهم، وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند. فلما أَسَره تملَّك بيمند أنطاكية بلد أبيه، وتمكَّن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم* سنة تسـعٍ وخمسين وخمس مئة، على ما نذكره[5] إن شاء الله تعالى. وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتـح وقتل البرنس. وممَّن قال فيه القَيْسَراني الشاعر من قصيدةٍ أنشده إياها بجسر الحديد*، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية، أولها[6]:

هـذي العزائـمُ لا ما تدَّعي القضبُ[7] ... وذي المكـارمُ لا ما قـالتِ الكُتُبُ
وهـذه الهِمَمُ اللاتي متى خَـطَبَتْ ... تعثَّـرَتْ خَلْفَها الأشعـارُ والخُـطَبُ
صافحتَ يا ابنَ عمادِ الدين ذُرْوَتَها ... بـراحـةٍ للمسـاعي دونهـا تَعَبُ
مـا زال جَـدُّكَ يبني كـلَّ شـاهقـةٍ ... حتى ابتنى قُبَّـةً أوتـادُهـا الشُّهُبُ

(١) كان عمر نور الدين وقتئذٍ ثلاثاً وثلاثين سنة، إذ ولد سنة (٥١١هـ) انظر ص ١٠٧ من هذا الجزء.
(٢) هو Bohemond III، انظره في كشاف الأعلام.
(٣) هي Constanca، انظرها في كشاف الأعلام.
(٤) هو .Rignald of chatillon المعروف عند المؤرخين أيضاً بأرناط. انظره في كشاف الأعلام.
(٥) انظر ص ٤١٥ من هذا الجزء.
(٦) انظر «الباهر»: ٩٩ ــ ١٠٠، وقد أورد ابن الأثير أبياتاً من القصيدة.
(٧) مفردها القضيب: السيف اللطيف الدقيق. «اللسان» (قضب).

لله عَـزْمُكَ مـا أمضى وهمُّـكَ مـا أقصى[1] اتِّساعاً بما ضاقتْ به الحِقَبُ

59/1 يا ساهدَ[2] الطَّرْفِ والأجفانُ هاجعةٌ وثـابتَ القَلْبِ والأحشاءُ تَضْـطَرِبُ

أَغْرَتْ سيوفَـك بالإفـرنـجِ راجفةٌ فؤادُ روميَّـةَ الكُبْـرى لهـا يَجِبُ

ضـربتَ كَبْشَهُمْ منهـا بقـاصمـةٍ أودى بها الصُّلْبُ وانحطَّتْ بها الصُّلُبُ

قُـلْ للطُّغاة وإنْ صَمَّتْ مسامِعُها قـولاً لِصُمِّ القَنـا في ذِكْـره أَرَبُ

مـا يـوم إنِّـب* والأيـامُ دائـلـةٌ من يـوم يغرا* بعيـدٌ لا ولا كَثَبُ

أَغَـرَّكُمْ خَـدْعـة الآمـالِ ظَنُّكُمُ كم أسلمَ الجَهْلُ ظناً غرَّهُ الكَذِبُ

غَضِبْتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضىً وكان دينُ الهُدَى مَرْضَاتُه الغضَبُ

طهَّرْتَ أرضَ الأعادي من دمائِهِمُ طهـارةً كـلُّ سَيْفٍ عنـدهـا جُنُبُ

حتَّى استـطارَ شرارَ الـزَّنْدِ قـادحهُ فالحَرْبُ تُضْـرَمُ والآجالُ تُحْتَـطَبُ

والخيلُ مِنْ تحت قَتْلاها تَقِرّ[3] لها قـوائمٌ خـانَهُنَّ الـرَّكْضُ والخَبَبُ

والنَّقْـعُ فوقَ صِقَال البيض مُنْعَقِدُ كمـا اسْتَقَلَّ[4] دُخَـانٌ تحتَه لَهَبُ

والسَّيْفُ هـامَ على هامٍ بمعـركةٍ لا البَيْضُ[5] ذو ذِمَّة فيها ولا اليَلَبُ[6]

والنَّبْلُ كالوَبْلِ[7] هطَّالٌ وليس له سـوى القِسِيِّ وأيدٍ فـوقَها سُحُبُ

ولـلظُّبـى ظـفـرٌ حُـلْوٌ مـذاقَـتُـهُ كأنَّما الضَّرْبُ فيما بينهم ضَرَبُ[8]

---

(1) في (ل) ما أقصى، وهو تصحيف.

(2) تقرأ أيضاً في (م): يا ساهر.

(3) أى تسكن، تستقر، انظر «اللسان» (قرر).

(4) أي ارتفع. انظر «اللسان» (قلل).

(5) مفردها بيضة، وهي الخوذة. «المعجم الوسيط»: ١/٧٨.

(6) اليبب: الدروع. انظر «اللسان» (يلب).

(7) الوبل: المطر الشديد، الضخم القطر. «اللسان» (وبل).

(8) الضرب ــ بالتحريك ــ العسل الأبيض الغليظ، وقيل: عسل البر. انظر «اللسان» (ضرب).

ولـلأسِنَّـةِ عمـا في صُـدُورِهُمُ مصـادرٌ أقلوبٌ تـلكَ أم قُلُبُ[1]

خانُوا فخانَتْ[2] رِماحُ الطَّعْنِ أيديَهُمْ فاستسلموا وهي لا نَبْعٌ[3] ولا غَرَبُ[4]

كـذاك مَنْ لم يـوقِّ الله مُهْجَتَـه لاقَى العِدَى والقَنَا في كفِّه قَصَبُ

كـانت سيـوفُهُمْ أوحى حتـوفِهُمُ يـا رُبَّ حائنةٍ[5] منجَـاتُهَـا العَـطَبُ

حتى الطوارقُ كانت من طوارقهم ثارتْ عليهم بها من تحتها النُّوَبُ

أجسـادُهُمْ في ثيابٍ من دمـائِهم مسلوبـةً وكـأنَّ القـومَ مـا سُلبـوا

أنبـاءُ ملحمـةٍ لـو أنهـا ذُكـرت فيمـا مضى نَسِيَتْ أيامَهـا العَرَبُ

من كان يغزو بلادَ الشِّرْكِ مُكْتَسِباً من الملوك فنـورُ الـدين مُحْتَسِبُ

ذو غُـرَّةٍ ما سَمَتْ واللَّيْـلُ مُعْتَكِـرٌ إلّا تَمزَّقَ عن شَمْسِ الضُّحى الحُجُبُ

أفعالُه كـاسْمِه[6] في كـلِّ حادثـةٍ وَوَجْهُـهُ نـائبٌ عن وَصْفِهِ اللَّقَبُ

في كلِّ يوم لفكـري من وقائعـه شُغْـلٌ فكلُّ مـديحي فيه مُقْتَضَبُ

مَنْ باتتِ الأُسْدُ أسرى في سلاسله هل يأسر الغُلْبَ[7] إلا من له الغَلَبُ

فملَّكُـوا سَلَبَ الإبـرنـز[8] قـاتلَه وَهَـلْ لـه غَيْـرَ أَنْطاكيَّـةٍ سَلَبُ

مَنْ للشَّقي بمـا لاقَتْ فـوارِسُـهُ وإن يسـايرهـا من تحتـه قَتَبُ

عَجِبْتُ للصَّعْـدة[9] السَّمراءِ مُثْمِرَةً بـرأسـه إن إثمـار القَنـا عَجَبُ

---

(١) مفردها قليب، وهو البئر. «اللسان» (قلب).

(٢) في (م) خافوا فخافت.

(٣) النبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القِسِي. «اللسان» (نبع).

(٤) ضرب من الشجر. «اللسان» (غرب).

(٥) الحائنة: النازلة ذات الحين. «اللسان» (حين).

(٦) في (م): في اسمه، وهو وهم.

(٧) مفردها أغلب، وغُلْب: وهو الأسد. انظر «اللسان» (غلب).

(٨) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

(٩) الصعدة: القناة. «اللسان» (صعد).

سما عليها سموَّ الماءِ أَرْهَقَهُ أُنبوبةٌ في صَعُودٍ أصلُها صَبَبُ

ما فَارَقَتْ عَذَباتُ التَّاجِ مَفْرِقَهُ إلا وهامتهُ تاجٌ ولا عَذَبُ

إذا القناةُ ابْتَغَتْ في رأسه نَفَقاً بدا لِثَعْلَبِها[1] مِنْ نحره سَرَبُ[2]

كنا نَعُدُّ حِمى أطرافِنا ظَفَراً فملَّكْتَكَ الظُّبى ما ليس يُحْتَسَبُ

عمت فُتوحُكَ بالعَدْوى مَعاقِلَها كأَنَّ تسليمَ هذا عند ذا جَرَبُ

لم يبقَ منهم سوى نَبْضٍ بلا رَمَقٍ كما التَوَى بعدَ رأس الحَيَّةِ الذَّنَبُ

فانْهَضْ إلى المسجدِ الأقصى بذي لَجَبٍ يوليك أقصى المُنَى فالقُدْسُ مُرْتَقِبُ

وائذَنْ لموجِكَ في تطهيرِ ساحِلِه فإنَّما أنتَ بحرٌ لُجُّه لَجَبُ

١/٦٠ يا مَنْ أعادَ ثُغورَ الشَّام ضاحكةً من الظُّبى عن ثُغورٍ زانها[3] الشَّنَبُ[4]

ما زِلْتَ تُلْحِقُ عاصيها بطائعها حتَّى أقمت وأنطاكيَّة حَلَبُ

حَلَلْتَ مِنْ عَقْلها أيدي معاقِلها فاسْتَجْفَلَتْ وإلى ميثاقِكَ الهَرَبُ

وأَيْقَنَتْ أَنَّها تتلو[5] مراكِزَها وكيفَ يثبتُ بيتٌ ما لَهُ طُنُبُ[6]

أجْرَيْتَ من ثُغَر[7] الأعْنَاق أَنْفُسَها جريَ الجفونِ امتراها[8] بارحٌ[9] حَصِبُ[10]

---

(١) الثعلب: طرف الرمح الداخل في جُبَّة السنان، «اللسان» (ثعلب).

(٢) في (ل) شرب، وهو وهم. والسرب: بيت تحت الأرض، وجحر الثعلب. «اللسان» (سرب).

(٣) في (م): زارها، وهو تحريف.

(٤) الشنب: هو ـ على أحد الأقوال ـ صفاء الأسنان ونقاؤها. انظر «اللسان» (شنب).

(٥) تخذل، تترك. انظر «اللسان» (تلا).

(٦) حبل طويل يشد به البيت، وقيل: هو الوتر. «اللسان» (طنب).

(٧) مفردها ثُغْرة، وهي نقرة النحر فوق الصدر. انظر «اللسان» (ثغر).

(٨) استخرجها واستدرها. «اللسان» (مرا).

(٩) الريح الحارة في الصيف. «اللسان» (برح).

(١٠) ذو حصباء. انظر «اللسان» (حصب).

وما رَكَزْتَ القَنَا إلا ومنك على ... جسرِ الحديد* هِزَبْرٌ غِيلُه[1] أَشِبُ[2]
فاسعدْ بما نِلْتَهُ من كلِّ صالحةٍ ... يأوي إلى جنَّة المأوى لها حَسَبُ
إلا تكن أحدَ الأَبدال في فلك الـ ... ـتَّقْوى فلا يُتمارى[3] أَنَّك القُطُبُ
فلو تُنَاسِبُ أملاكَ السَّماءِ بها ... لكانَ بينَكُما من عِفَّةٍ نَسَبُ
هذا وهل كان في الإسلامِ مكرمةٌ ... إلّا شَهِدْتَ وعُبَّادُ الهوى غَيَبُ[4]

وله فيه من قصيدةٍ أُخرى:

ألَا لله دَرُّكَ أيُّ دُرٍّ[5] ... صريحٍ جاءَ بالكَرَمِ الصَّريحِ
وَعَسْكَرُكَ الذي استولى مُشِيْحاً[6] ... على ما بين فامية* وشِيْحِ[7]
ووقعتك التي نَبَتِ العوالي ... صوادِرَ عن قتيلٍ أوجريحِ
بإنِّب* يومَ أَبْرزَتِ المَذاكي[8] ... من النَّقْعِ الغَزالةَ[9] في مُسوحِ
غداة كأنما العاصي* احمراراً ... من الدَّمِ عبرة الجَفْنِ القريحِ
وقد وافاك بالإبرنز[10] حَتْفٌ ... أُتيح له من القَدَرِ المُتيحِ
قتلتَ أشحَّهم بالنفس إذْ لا ... يجودُ بنفسه غيرُ الشحيحِ

(١) الغيل ــ بالكسر ــ الأجمة، وموضع الأسد غيل، والجمع غيول، انظر «اللسان» (غيل).
(٢) ملتف. انظر «اللسان» (أشب).
(٣) لا يشك. انظر «اللسان» (مرا).
(٤) مفردها غائب. «اللسان» (غيب).
(٥) الضبط من (م).
(٦) مجدًّا. انظر «اللسان» (شيح).
(٧) شيح: قرية كانت تعد قديماً في أعمال أنطاكية، يقال لها شيح الحديد. انظر «الأعلاق الخطيرة»: ج ١/ق ١٢٦/١.
(٨) الخيل. انظر «اللسان» (ذكا).
(٩) الشمس. «اللسان» (غزل).
(١٠) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

مـلأتَ بهم ضـرائِحَهُمْ فـأمْسَـوا ... وليسَ سوى القَشَاعمِ من ضَريحِ

وَعُـدْتَ إلى ذَرَا حلب حـمـيـداً ... سُمـوَّ البَدْرِ من بعـد الجُنُوحِ

فـإنْ حَلِيَتْ بغُـرَّتـك الليـالـي ... فـكم لِسَنَـاكَ مـن زمن مـليحِ

رُوَيْـدَكَ تسكن الهيجا فـوَاقـاً[1] ... بحيث تـريـح من تَعَبِ المريحِ

فـأنتَ وإنْ أَرَحْتَ الخيـلَ وقتـاً ... فهمُّـكَ غيـرُ هَمِّ الـمُسْتـريـحِ

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمـل رأسه إلى حلب، وأنشده إياها أيضاً بجسر الحديد*:

أقوى[2] الضَّلالُ وأَقْفَرتْ عَرَصَـاتُهُ ... وعـلا الهُـدَى وتبلَّجت قسمـاتُـهُ

وانـتـاشَ[3] دينَ محمـدٍ محمـودُه ... من بعـد مـا عُلَّتْ دمـاً عَبَـراتُـهُ

رَدَّتْ على الإسـلامِ عَصْرَ شَبـابِهِ ... وَثَبـاتُـه مِنْ دونـه وثـبـاتُـه

أرسـى قـواعِـدَه ومَـدَّ عِـمـادَه ... صُعُـداً وشيَّـدَ سُـورَهُ سـوراتُـه

وأعـادَ وجه الحقِّ أبيضَ نـاصعـاً ... إصْـلاَتُـه[4] وصِـلاَتُـه وصَـلاَتُـه

لمَّـا تـواكـل حِزْبُـهُ وتخـاذلَتْ ... أنصـارُه وتقـاصَـرَتْ خُـطُواتُـهُ

رُفِعَتْ لنور الـدِّين نـارُ عـزيمـةٍ ... رَجَعَتْ لهـا عن طَبْعِهـا ظُلمـاتُـه

مَلِكٌ مجـالسُ لهـوه شَـدَّاتـه[5] ... ومُشُـوقُهُ بين الصفوف شَذَاتـه[6]

يُغْـرَى بحثحثة اليـراعِ بَنَـانُـهُ ... إنْ لـذ حَثْحَثَةَ الكؤوس لِـذَاتُـهُ

ويـروقُـه ثَغْـرُ العِـدَى قـان دمـاً ... لا الثَّغْـر يَعْبَـقُ في لَمـاه لثـاتُـه

---

(1) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت، جعلوه ظرفاً على السعة. انظر «اللسان» (فوق).

(2) افتقر، ومنه: أقوت الدار، إذا خلت من أهلها. انظر «اللسان» (قوا).

(3) استدركه واستنقذه، وتناوله، وأخذه من مهواته. انظر «اللسان» (نوش).

(4) تجريده للسيف من غمده، وهو هنا كناية عن الحرب. انظر «اللسان» (صلت).

(5) حملاته في الحرب. انظر «اللسان» (شدد).

(6) أي شدته وجرأته. «اللسان» (شذا).

فَصَبُوحُه خَمْرُ الطُّلى[1] وغَبُوقُه نُطَفُ النُّفوسِ تُديرُها نشواتُهُ

فَتْحٌ تعمَّمَتِ السماءُ بفخرِه وَهَفَتْ على أغصانِها عَذَباتُهُ

سَبَغَتْ على الإسلامِ بيض حُجُوله واختالَ في أوضاحها جبهاتُهُ

وانهلَّ فوقَ الأبطحين غمامُهُ وَسَرَتْ إلى سَكْنيهما[2] نَفَحاتُهُ ٦١/١

لله بُلْجَةُ[3] ليلةٍ مَخِضَتْ به واليوم دَبَّجَ وَشْيَه ساعاتُهُ

حَطَّ القوامِصَ* فيه بعد قِماصِها[4] ضربٌ يُصَلْصِلُ في الطُّلى صعقاتُهُ

نَبذُوا السِّلاحَ لِضَيْغَمٍ عاداتُه فَرْسُ الفوارِسِ[5] والقَنَا غاباتُهُ

لمجرِّبٍ عُمريَّةٍ غضباتُه لله، مُعْتَصِميَّةٍ غَزَواتُهُ

تجنا لضيقِ صِفَادِه[6] أُسراؤه وتُفيضُ ماءَ شُؤُونها[7] نغماتُهُ

بين الجبالِ خواضعاً أعناقُها كالذَّوْدِ[8] نابت عن بُراه[9] حُدَاتُهُ

نَشَرَتْ على حلب عقودُ بُنودِهم حُلَلَ الرَّبيع تناسَقَتْ زهراتُهُ

رَوْضٌ جناه لها مَكَرُّ جيادِهِ واسْتَوْأَرَتْ حَمَّالَةً حَمَلاتُهُ

---

(١) مفردها طُلاة: وهي العنق. «اللسان» (طلي).

(٢) أي سكانها، انظر «اللسان» (سكن).

(٣) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر. «اللسان» (بلج).

(٤) وثبها. «اللسان» (قمص).

(٥) أي قتل الفوارس. والأصل في الفرس دق العنق، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً. انظر «اللسان» (فرس).

(٦) الصفاد: ما يوثق به الأسير من قد وقيد وغل. «اللسان» (صفد).

(٧) مفردها شأن: مجرى الدمع إلى العين، والدموع تخرج من الشؤون. «اللسان» (شأن).

(٨) القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع. «اللسان» (ذود).

(٩) الحلقة في أنف البعير. «اللسان» (بري).

متساندينَ على الرِّجال كما انتشى   شَرْبٌ[1] أَمالَتْ هامَه قهواتُهُ[2]
لم تُنْبتِ الآجامُ قبل رِماحِهِ[3]   شَجَراً أُصولُ فُروعِهِ ثَمَراتُهُ
فَلْيَحْمَدِ الإسلامُ ما جُدِحَتْ له   شَرَباتُ غَرْسٍ هذه مجناتُهُ
وسقى صدَى ذاك الحيا صَوْبُ[4] الحيا   خَيْرُ الثَّرى ما كنتَ أنت نباتُهُ
نَصَبَ السَّريرَ ومالَ عنه ومُهِّدَتْ   لِمَقَرٍّ مَنْصبك السَّرِيِّ سَرَاتُهُ
ما ضَرَّ هذا البدر وهو محلِّقٌ   أن الكواكبَ في الذُّرا ضَرَّاتُهُ
في كلِّ يومٍ تستطيل قناتُهُ   فوق السَّماء وتعتلي دَرَجَاتُهُ
وتظل تَرْقُمُ[5] في الضُّحى آثارَه   مَجْداً وألسنةُ الزَّمانِ رُوَاتُهُ
أين الأُلى ملؤوا الطُّروسَ زخارفاً   عن نَزْفِ بحرٍ هذه قَطَرَاتُهُ
عَذَقُوا بأعناق العواطِلِ ما له   من جَوْهَرٍ فَأَتَتْهُمُ فَذَّاتُهُ
لو فَصَّلُوا سِمْطاً ببعضٍ فتوحه   سَخِرَتْ بما افتعلوا له[6] فعلاتُه
يمسي قَنانيه[7] بناتُ قُيونه[8]   فوقَ القوانسِ[9] والقَنا قَيْنَاتُهُ[10]

---

(1) اسم لجمع شارب. «اللسان» (شرب).

(2) القهوة: الخمر. «اللسان» (قها).

(3) في (م) رماحهم، وهو تصحيف.

(4) الصوب: نزول المطر. «اللسان» (صوب).

(5) رقم الكتاب يرقمه رقماً أعجمه وبينه. «اللسان» (رقم).

(6) في (ل) لهم، وهو تصحيف.

(7) مفردها قنينة، من الزجاج الذي يجعل الشراب فيه. «اللسان» (قنن).

(8) مفردها: القين، وهو الحداد. «اللسان» (قين).

(9) مفردها قونس: أعلى البيضة من الحديد. «اللسان» (قنس).

(10) مفردها قينة، وهي الأمة غنت أم لم تغن، وكثيراً ما يطلق على المغنية في الإماء. «اللسان» (قين).

صَلَتَانُ من دون الملوك تقرُّها … حركاتُهُ وتُنِيمُها يقظاتُهُ
قَعَدَتْ بهم عن خطوه هِمَّاتهم … وَسَمَتْ به[1] عن قَطْوهم[2] هِمَّاتُه
سَكَنُوا مسجَّفةَ الحِجَال[3] وأَسْكَنَتْ … زجل الرِّجال مع السها[4] عَزَماتُهُ
لو لاح للطائي غُرَّة فتحِهِ … باءتْ بحملِ تأوّهٍ باءاتُهُ[5]
أو هَبَّ للطَّبريِّ طِيْبُ نسيمه … لاحْتَشَّ من تاريخِه حشواتُه
صَدَمَ الصَّليبَ على صلابةِ عُوده … فتفرَّقَتْ أيدي سبا خَشَباتُهُ
وسقى البرنس وقد تبرْنَسَ ذِلَّةً … بالرُّوج[6] مُمْقِرَ[7] ما جَنَتْ غَدَراتُهُ
فانقاد في خَطْمِ المنيَّة أَنْفُهُ … يومَ الخَطِيمِ وأَقْصَرتْ نَزَواتُهُ
ومضى يُؤَنِّبُ تحت إنِّب* هِمَّةً … أَمْسَتْ زوافِرَ غَيِّها زَفَراتُهُ
أسدٌ تبوَّأ كالغريف[8] فجأَتَهُ … فتبوَّأَتْ طَرَفَ السِّنانِ شَوَاتُهُ[9]
دونَ النُّجومِ مغمِّضاً ولطالما … أَغْضَتْ وقد كرَّت لها لحظاتُهُ
فجلوته تبكي الأصادق[10] تحته … بدمٍ إذا ضَحِكَتْ له شُمَّاتُهُ

---

(١) في الأصل: بهم، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) القطو: المشي بثقل. انظر «اللسان» (قطا).
(٣) السجف: الستر، والحجال: مفردها حجلة، وهو بيت كالقبة يستر بالثياب، وكانت الحجلة تتخذ للعروس أيضاً. انظر «اللسان» (سجف) (حجل).
(٤) كويكب صغير، خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. «اللسان» (سها).
(٥) إشارة إلى قصيدة أبي تمام البائية المشهورة:
السيف أصدق أنباء من الكتب … في حده الحد بين الجد واللعب
(٦) كورة من كور حلب المشهورة، في غربيها. «معجم البلدان»: ٧٦/٣.
(٧) الشديد المرارة. «اللسان» (مقر).
(٨) الغريف: الشجر الملتف. «اللسان» (غرف).
(٩) الشواة: جلدة الرأس. «اللسان» (شوا).
(١٠) جمع صديق. انظر «اللسان» (صدق).

تمشي القناةُ برأسه وهو الذي | نَظَمَتْ مَدارَ النَّيِّرينِ قَناتُهُ
لو عانقَ العَيُّوقَ[1] يومَ رَفَعْتَه | لأراك[2] شاهدَ خَفْضِه إخْباتُهُ[3]
ما انقادَ قبلَك أنفُه بِخزامةٍ[4] | كلا ولا همَّت لها هَدراتُهُ
طَيَّان[5] خلف السَّرْحِ[6] طال زئيرُه | نَطَقَتْ سطاك له فطال صُماتُه[7]

١/٦٢ لما بدا مسودُّ رأيك فوقه | مبيضُّ نَصْرِك، نُكسَتْ راياتُه
ورأى سيوفَكَ كالصَّوالج طاوَحَتْ | مِثْلَ الكُرِين[8] فقلَّصت كرَّاتُهُ
ولَّى وقد شَرِبَتْ ظُباكَ كُماتَه | تحت العَجاجِ وأَسْلَمَتْه حُماتُه
ترك الكنائسَ والكِناسَ لناهبٍ | بالبِيضِ ينهبُ ما حواه عُفَاتُه
لغلاب أروع لا يُميتُ عِداتِه | داءُ المِطال ولا تعيش عُدَاتُه
للوحشِ ملقىً بالعرا يقتاتُه | ما كانَ قَبْلُ بصيده يقتاتُه
اليومَ ملَّكك القِراعُ قلاعَه | متسنِّماً ما استَشْرَفَتْ شرفاتُه
وغداً تُحِلُّ لك الحلائلَ أسهمٌ | متوزِّعاتٌ بينهن بناتُهُ
أَوْطَأْتَ أطرافَ السَّنابك هامَه | فتقاذَفَتْ بعنيقها قذفاته

---

(١) العيوق: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال، ويطلع قبل الجوزاء، سمي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا. «اللسان» (عوق).

(٢) في الأصل و (ل) لأزال، والمثبت من (م).

(٣) الإخبات: الخشوع والتواضع . انظر «اللسان» (خبت).

(٤) الخزامة: حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير، يشد بها الزمام. انظر «اللسان» (خزم).

(٥) الطيان: الجائع. «اللسان» (طوي).

(٦) السرح: الماشية. انظر «اللسان» (سرح).

(٧) سكوته، «اللسان» (صمت).

(٨) جمع كرة، وهي التي تضرب بالصولجان. انظر «اللسان» (كرا)، وانظر كشاف المصطلحات «الجوكان».

لا زال هـذا الملك يشمخُ شأنُـه	أبداً وتُكْفَتُ في الحضيضِ شناتُهُ
ما أخطأتـكَ يـدُ الـزَّمـان فـدونَـه	من شـاء فلتسـرعْ إليـه هَنَاتُـه
أنت الـذي تحلي الحيـاةَ حياتُـه	وتُهِبُّ أرواحَ القصيـدِ هِبَاتُـهُ

فصـــل

قال ابن الأثير: وفيها[1] سار نور الدين إلى حصن أفامية* ـ وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حِصْنٌ منيع على تلٍّ مرتفع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها ـ وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشَيْزَر* وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذلِّ والصَّغار. فسار نور الدين إليه، وحصره وضيَّق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها، وساروا نحوه ليزحزحُوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعامٍ ومال، وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأَوْا جدَّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ. ومدَحَه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن مُنير، قال[2]:

أسنى الممـالك مـا أَطَلْتَ منارَهـا	وجعلتَ مُـرْهَفَةَ الشِّفـارِ دِثارها[3]
وأحقُّ مَنْ ملك البـلادَ وأهـلَهـا	رَؤُفٌ[4] تكنَّفَ عَـدْلُـه أقـطـارَهـا
من عمٍّ[5] سام الخافقين وحـامها	مننـاً وزاد هـوىً فخصَّ نِـزارَهـا

(١) أي سنة أربع وأربعين وخمس مئة.
(٢) انظر «الباهر»: ١٠٠ ـ ١٠١، وأورد ابن الأثير خمسة أبيات من القصيدة.
(٣) في (ل) و (م) دسارها.
(٤) على وزن فَعُل، وهي لغة. انظر «اللسان» (رأف).
(٥) في الأصل و (ل) عام، والمثبت من (م).

مُضَـرِيَّـة طُبعت مضـارِبُـه وإن عَـدَّتْـهُ ذروة فـارسٍ أُسْـوارَهـا[1]
آل[2] الـرعيَّـة وهي تجهـلُ آلهـا وتعـافُ نُـطْفَتَهـا[3] وتكـرَهُ دارَهـا
فـأقـرَّ ضجعتَهـا وأنبت نَيَّهـا[4] وأسـاغ جُـرْعتهـا وأثبت زارهـا[5]
مَلِكٌ أبـوه سمـا لهـا فسمـا بهـا وأجـارهـا فَعَلَتْ سُهيْلاً جـارَهـا
نَهَجَ السَّبيلَ له فأوضعَ[6] خلفه[7] وشـدا لـه يُمْنُ العُـلا فـأنـارَهـا
أَنَشَـرْتَ يـا محمـودُ مِلَّةَ أحمـدٍ مِنْ بعـدِ ما شَمَـلَ البِلَى أبشارَهـا
إن جَانَأَتْ[8] عَدَلَ السِّنانُ قَـوامَها أو نأنأتْ[9] كـان الحُسامُ جِبـارَها
عُقِلَتْ مع العُصْمِ العواصمِ مُذْ غَدَتْ هـذي العزائمُ أسـرَهـا وإسـارَهـا
وتكفَّلَتْ لـك ضُمَّـرٌ أنـضَيـتَهـا في صـونهـا أن تستـردَّ ضِمـارَهـا
كـلأتْ هوامِلُهـا[10] ورَدَّ مطارهـا مـا أريشَتْـهُ وثـقَّفَـتْ آطـارهـا
كم حـاولتْ من كَفَّتيـهـا غِـرَّةً غُلُبُ الأسـودِ فقلَّمتْ أظفـارَهـا
أنَّى وحامي سَرْحِها مَنْ لو سمت للفُلْكِ بَسْـطَتُـه أحـال مـدارَهـا
في كلِّ يومٍ من فتـوحك سـورةٌ للدِّين يحمـلُ سِفْـرُه أسفـارَهـا
ومطيلة قِصْرِ المنابرِ إنْ غـدا الـ ـخطباءُ تنثرُ فوقَهـا تِقْصارَهـا[11]

---

(١) الأسوار: قائد الفُرْس، انظر «اللسان» (سور).
(٢) أي ساسها وأحسن سياستها. انظر «اللسان» (أول).
(٣) الماء الصافي. انظر «اللسان» (نطف).
(٤) على هامش الأصل، و (ل): النيّ: الشحم.
(٥) أي جماعتها. انظر «اللسان» (زور).
(٦) أي عدا خلفه. انظر «اللسان» (وضع).
(٧) في (ل) خلقه، وهو تصحيف.
(٨) أي مالت. «المعجم الوسيط»: ١/١٣٨.
(٩) أي ضعفت وعجزت. «اللسان» (نأنأ).
(١٠) أي المهملة، ومنه إبل هوامل: أي مسيبة لا راعي لها. انظر «اللسان» (همل).
(١١) القلادة للزومها قصرة العنق. انظر «اللسان» (قصر).

هِمَمٌ تـحجَّـلَتِ المـلوكُ وراءهـا ... بـدمِ العِثَـارِ ومـا اقتفَتْ آثـارَهـا

وعــزائمٌ تستـوئِـرُ[1] الآسـادَ عن ... نَهْشِ الفـرائسِ إن أحسَّ أُوارَها ١/٦٣

أبـداً تقصّر طـول مشـرفـة الـذُّرا ... بـالمشرفيَّـة، أو تـطيـل قِصـارَهـا

فغـرَت أفـاميـةُ* فمـاً فهتَمْتَـهُ ... كوبار[2] أجناها الإران[3] بـوارَها

أرهفتَ رأيك فوق رايك[4] تحتها ... فحططتَ من شَعَفَاتِها[5] أعفَارَها[6]

أدركتَ ثأركَ في البُغاة وكنتَ يا ... مختـارَ أمـةِ أحمـدٍ مختـارَهـا

عـاريَّةُ الـزَّمن المعيرِ سمـا لهـا ... منكَ المغير فـاستردَّ معـارَهـا

زأَر الهِـزَبْـرُ فقيَّـدَتْ عـانـاتِهـا[7] ... عصب[8] الضَّلال وأسلمت أعيارَها

ضـاءت نجومُـك فـوقَهـا ولـربَّمـا ... بـاتتْ تنـافثهـا النجـومُ سِـرارَهـا

أمست مـع الشِّعْرى العبورِ وأصبحت ... شعـراء تستفلي الفحولُ شِـوَارَهـا

ولكم فَرَعْت[9] بمقرباتك[10] مثلها ... تلعــاً، وقلَّدْتَ الكُمـاةَ عِـذَارَهـا

حتى إذا اشتملَتْكَ أشرَقَ سـورُها ... عِـزًّا، وحـلَّاهـا سنـاكَ سـوارَهـا

خَـرَّ الصَّليبُ وقد عَلَتْ نغماتُها ... واستَـوْبَلَتْ صلواتُـهُ تكـرارَهـا

لمـا وعـاهَـا سمعُ أنـطاكيَّـةٍ ... سَـرَتِ الـوقـار وكشَّفَتْ أستـارَهـا

---

(١) في الأصل و(ل): تستوئز: تفزع، والمثبت من (م). ومنه: وأر الرجلَ فزَّعه، وذعره. «اللسان» (وأر).

(٢) وبار: أرض كانت لعاد. انظر «اللسان» (وبر) وفي (م) كبوار.

(٣) البطر. «اللسان» (أرن).

(٤) مفردها: راية: العلم. «معجم متن اللغة»: ٢/٦٨٩.

(٥) مفردها شعفة، وهي رأس الجبل. «اللسان» (شعف).

(٦) مفردها عفر: ظاهر التراب. «اللسان» (عفر).

(٧) مفردها: عانة: القطيع من حمر الوحش. «اللسان» (عون).

(٨) في الأصل و(ل) عصر، والمثبت من (م).

(٩) في الأصل مهملة، وفي (ل) قرعت، و(م) فزعت، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(١٠) الخيل التي تكون قريبة مُعَدَّة، مفردها: المقربة. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/٥٢٢.

فاليومَ أَضْحَتْ تستذمُّ مجيرَها ... من جَوْره وغداً تذمُّ جوارَها
عَلِمَتْ بأنْ ستذوق جُرْعةَ أختِها ... إن زَرَّ أطواق القباء وزارَها
ماضٍ إذا قَرَعَ الرِّكابَ لبلدةٍ ... أَلْقَتْ له قبلَ القِرَاعِ إزارَها
وإذا مجانقُه ركَعْنَ لصعبةِ الـ ... ـملقاةِ أسجد كالجدير جِدارَها
ملأ البلادَ مواهباً ومَهَابَةً ... حتَّى استرقَّتْ آيُهُ أحرارَها
يذكي العيونَ إذا أقامَ لعونها ... أبداً، ويفضي(١) بالظُّبى أبكارَها
أومىٰ إلى رِمَمِ النَّدَى فأعاشها ... وهمَى(٢) لسابقةِ المُنى فأزارها
نبويٌّ تشبيه الفتوح كأنَّما ... أنصارُه رجعت له أنصارَها
أحيا لِصَرْحِ سلامها سَلْمانَها ... وأماس تحت عمارها عَمَّارَها
إن سار سار وقد تقدَّم جيشَه ... رَجْفٌ يقصِّع في اللّها ذُعَّارَها
أو حَلَّ حَلَّ حُبا القُرومِ بهيبةٍ ... سَلَبَ البُدُورَ بِدارِها أبدارَها
وإذا الملوكُ تنافسوا درج العُلا ... أَرْبَى بنفسٍ أفْرَعَتْهُ خِيارَها
ونُهًى إذا هِيْضَتْ تدلُّ بخيرِها ... وسُطًى تُذلُّ إذا عَنَتْ جَبَّارَها
تُهدَى لمحمودِ السَّجايا كاسمه ... لو لَزَّ فاعله بها لأبارَها
الفاعلُ الفعلات يَنْظِمُ في الدُّجى ... بين النُّجوم حسودُها أسمارَها
ساعٍ سعى والسَّابقات وراءه ... عَنَقاً فعصفر منتماه عثارها
كالمَضْرَحيِّ إذا يُصَرْصِرُ رابئاً ... خَرِسَ البُغاث وهاجَرَتْ أوكارَها
عُرِفَتْ لنورِ الدين نورُ وقائعٍ ... تغشى إذا اكتحلَتْ به أبصارَها
مشهورة سعطت وقد حاولتها الـ ... ـأقدار عجزاً أن تَشُقَّ غُبارَها
لله وجهك والوجوه كأنَّما ... حَطَّت بها أوقار هِيت* قارَها

---

(١) في الأصل مهملة، وفي (ل) يقضي، والمثبت من (م).

(٢) في (م) وسما.

والبيض تخنِس في الصُّدور صدورها   هَبْراً وتكتحل الشفور شفارَها
والخيل تدلجُ تحت أرشيةِ القنا   جَذْبَ المواتحِ عاورت[1] آبارَها
فبقيتَ تستجلي الفتوحَ عرائساً   متملِّياً صدرَ العُلا وصدارَها
في دولةٍ للنَّصْرِ فوقَ لوائِها   زُبُرٌ تنمِّقُ في الطُّلَى[2] أسطارَها
فالدِّين مَوْمَاةٌ[3] رَفَعْتَ بها الصُّوى   وحديقةٌ ضَمِنَتْ يداكَ إبارَها   ١/ ٦٤

وله فيه من قصيدة أخرى:

خَنَسَ الثَّعالبُ حين زمجرَ مصحر   ملأ البلادَ هماهماً وزئيرا
تركُوا مشاجرةَ الرِّماحِ لحاذقٍ   جَعَلَتْ مخافَتُه القُصورَ قُبورا
لربيبِ حَرْبٍ لم تزل فَعَلاتُهُ   كالرَّاءِ يلزمُ لَفْظُهَا التَّكْريرا
أسدٌ إذا ما عاد من ظفرٍ بمفْـ   ـترسٍ أحدَّ لمثلِهِ أُظْفُورا
يتناذر[4] الأعداءُ منه سطوةً   ملء الزَّمان تغيُّظاً وزَفيرا
عرفوا لنورِ الدين وقعَ وقائعٍ   وفَّى بها الإسلامَ أمسِ نُذُورا
أبداً يظافرك القضاءُ على الذي   تبغي فترجعُ ظافراً منصورا
قوَّضْتَ بالنَّقْع[5] الظهائر[6] ظلمة   وقفلتَ فاشتعلَ الدياجِرُ نورا
وعلى العواصمِ من دفاعكِ عاصِمٌ   يُنْسي الرَّشيدَ وينشرُ المنصورا

---

(١) في (ل) و(م) غاورت.
(٢) مفردها طلاة: العنق. انظر «اللسان» (طلي).
(٣) الموماة: المفازة الواسعة الملساء، وقيل: هي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس بها. «اللسان» (موم).
(٤) أي يخوف بعضهم بعضاً. انظر «اللسان» (نذر).
(٥) في الأصل و(ل) فالنقع، والمثبت من (م).
(٦) مفردها ظهيرة، وهي الهاجرة. انظر «اللسان» (ظهر).

فصــــل
في وفاة معين الدين أُنَر بدمشق
وما كان من الرئيس ابن الصُّوفي(1) في هذه السَّنة

قال أبو يعلى التَّميمي: فصل معين الدين من عسكره بحَوْرَان ووصل إلى دمشق في أواخر ربيـع الأول(2)، لأمر أوجب ذلك ودعا إليه، وأمعن في الأكل، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبِّره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوَّته، وتولَّد معه مرضٌ في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق في مِحَفَّة* لمداواته، فوصل وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيـع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نُقل بعد ذلك إلى المدرسة(3) التي عمرها(4).

قلت: قبره في قُبَّةٍ بمقابر العوينة* شمالي دار بطيـخ* الآن، واسمه مكتوبٌ على بابها، فلعلهُ نُقل من ثَمَّ إليها. وفيه يقول الأمير مؤيَّد الدولة أسامة بن منقذ، وكتب إليه من مصر لما لقي الفرنـج في أرض [بُصرى*](5) وصَرْخَد* مـع نور الدين ــ وقد تقدَّم ذلك(6) ــ كتب إليه قصيدةً يقول فيها:

كـلَّ يـومٍ فَتْحٌ مبينٌ ونَصْـرُ   واعتـلاءٌ على الأعـادي وَقَـهْـرُ
صَدَقَ النَّعْتُ فيكَ، أنت معين الد (م) يـن إن الـنُّعـوت فَـأْلٌ وَزَجْـرُ

---

(1) هو مؤيد الدولة المسيب، سترد أخباره ص ٢٨٩، ٣٠١ من هذا الجزء. وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣.

(2) في النسخ الخطية: الآخر، وهو سبق قلم، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٦.

(3) هي المدرسة المعينية، انظرها في كشاف الأماكن.

(4) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٦.

(5) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(6) انظر ص ١٨٠ ــ ١٨١ من هذا الجزء.

أنتَ سيفُ الإسلامِ حقّاً، فلا فَلَّ[1] (م) غِـرَارَيْكَ[2] أيهـا السَّيْفُ دَهْـرُ
لم تَـزَلْ تُضْمِرُ الجِهـادَ مُسِـرًّا ثـم أعلنـتَ حيـن أَمْكَـنَ جَـهْـرُ
كـلُّ ذخـرِ الملوكِ يَفْنَى وذخـرا كَ همـا الباقيـانِ: أجرٌ وشُكْـرُ[3]

قـال: وفي يوم الجمعـة تاسـع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصَّلاة على المنبر بإبطال الفسة[4] المستخرجة من الرَّعية، وإزالة حكمها وتعفية رسمها، وإبطال دار الضَّرْب؛ فكثر دعاء الناس له وشُكْرُهم[5].

قال: واستوحش الرئيس مؤيَّد الدولة من مجير الدين استيحاشاً أوجب جَمْعَ من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء، وحَمَلة السلاح من الجهلة العوام، وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حَيْدَرة[6]، للاحتماء بهم من مكروهٍ يَتمُّ عليهما، وذلك في ثالث عشر[7] رجب. ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يُسَكِّنهما ويطيِّب أنفسهما، فما وثقا بذلك، وجدًّا في الجمـع والاحتشاد من العوام وبعض الأجناد، وأثـارا الفتنـة، فقصدوا باب السجن وكسروا أغلاقه وأطلقوا من فيه، واستنفرُوا جماعةً من أهـل الشَّاغـور[8]

---

(١) في الأصل و(ل): فلا كَلَّ، والمثبت من (م) و«الديوان».
(٢) الغراران: شفرتا السيف. «اللسان» (غرر).
(٣) انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٧٠.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧١ من هذا الجزء.
(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧.
(٦) قتل سنة (٥٤٨هـ) انظر ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ من هـذا الجزء، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٤٢.
(٧) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧ «وذلك في يوم الأربعاء الثالث وعشرين من رجب».
(٨) الشاغور، محلة بالباب الصغير جنوبي دمشق، خارج السور، ولأهلها حتى الآن صيت ذائـع في أعمال الفتوة. انظر «معجم البلدان»: ٣/٣١٠.

وغيرهم، وقصدوا الباب الشرقي* وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جَمْعٍ كثير، وامتلأت بهم الأزقَّة والدُّروب. فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشَّاك[1]، وأخرج ما في خزائنه من السلاح والعُدد، وفُرِّقت على العسكرية، وعزموا على الزَّحف على جمع الأوباش، والإيقاع بهم، والنكاية فيهم، فسأل جماعةٌ من المقدَّمين التمهُّل في هذا الأمر وترك العجلة، بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحُّوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم.

ووقعت المراسلة والتلطُّف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطاً أُجيبا إلى بعضها وأُعرض عن بعضٍ، بحيث يكون ملازماً لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مُستدعًى إليها، وتقرَّرت الحال على ذلك، وسكنت الدَّهْماء. ثم حدث بعد هذا التقرير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد، وجَمَعَ الجمع الكثير من الأجناد والمقدَّمين والرَّعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحَصْرِ من بها، وطلَبَ من عيَّن [عليه][2] من الأعداء الأعيان[3] في أواخر رجب، ونشبت الحربُ بين الفريقين، وجُرح وقُتل بينهم نَفَرٌ يسير، وعاد كلُّ فريقٍ منهم إلى مكانه. ووافق ذلك هروب السَّلَّار* زين الدين إسماعيل الشِّحْنة* وأخيه إلى ناحية بَعْلَبَك، ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصُّورة إبعاد من التمس إبعاده من خواصٍ مجير الدين، وسكنت الفتنة وأُطلقت أيدي النَّهَّابة في دار السَّلَّارَيْن[4]

١/ ٦٥

(١) أي بالسلاح التام. انظر «اللسان» (شكك).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧. من الأعداء والأعيان.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨ «وأطلقت أيدي النهابة في دور السلار زين الدين وأخيه».

وأصحابهما، وعمهما النهب والخراب[1]. ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما، وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرِّياسة، بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا مشارك[2].

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقلة[3]:

ذَرِ الأتراكَ والعَرَبا وكُنْ في حزب مَنْ غَلَبا
بجِلِّقَ أصبحتْ فتنٌ تجرُّ الوَيْلَ والحَرَبا[4]
لئن تمَّت فوا أسفا ولم تَخْرَبْ فوا عَجَبا[5]

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زِدْ عُلُوًّا في المجدِ يابن عليٍّ هكذا مَنْ أرادَ أنْ يَتَعالى
قد حَوَى الدين يا مؤيِّدَهُ منـ ـكَ هِزَبْراً وديمةً وهلالا
وغدت جِلِّقٌ تناديك[6] عُجباً هكذا هكذا وإلا فلا لا[7]
جُبْتَها[8] في الظلام خيلاً ورَجْلاً وحميتَ النُّفوس والأموالا
لن[9] تبالي [من][10] بعدها بعدوٍّ إنما ذاك كان قَطْعاً فزالا[11]

(١) في (ل) و(م): والإخراب.
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧ ــ ٣٠٨.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من هذا الجزء.
(٤) في (ل) و(م): والخربا.
(٥) الأبيات في «ديوانه»: ١٣.
(٦) في الأصل و(ل) لناديك، والمثبت من (م) و«الديوان».
(٧) هذا عجز بيت للمتنبي مضمن في القصيدة، وصدره: «ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ من تعالى». انظر «ديوانه» بشرح العكبري: ٣/١٣٤.
(٨) في «الديوان»: ٨٣ «جئتها».
(٩) في (م): لم، وفي «الديوان»: ما تبالي.
(١٠) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(١١) في (م) وزالا، ومثله في «الديوان». والقطع: تأثير الكواكب أو النجوم على الأشخاص، انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/٣٧٥.

قـد بلغتَ المُـرَاد من كـلِّ ضـدٍّ   وَكَفَى اللَّهُ المُـؤْمِنِيـنَ القِتَـالَا[1]

قـال أبو يعلى التَّميمي: وفيهـا ورد الخبر من نـاحية مصـر بوفـاة المستخلف[2] بهـا الملقَّب بالحـافظ، واسمـه عبـد المجيـد بن الأميـر[3] [أبـي القاسم] بن المستنصر في خامس جُمادى الآخرة، وولي الأمر بعده ولدُه الأصغر أبو منصور إسماعيل، ولقِّب بالظَّافر[4]، وولي الوزارة أمير الجيوش أبو الفتـح بن مصال[5] المغربـي[6].

---

(١) عجز البيت فيه تضمين من سورة الأحزاب: الآية ٢٥، وانظر الأبيات في «ديوانه»: ٨٣.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق» ٣٠٨ «بوفاة صاحبها الإمام الحافظ...» استبدل أبو شامة بصاحبها لفظة المستخلف، وذلك لموقفه المخالف للدولة العبيدية وقد ألف عنها كتاباً سماه «كشف ما كان عليه بنو عبيد» وهو من كتبه المفقودة. انظر ص ١٧٩ من هذا الجزء. وسيرد الحديث عن العبيديين في حوادث سنة (٥٦٧ هـ) ص ١٨٩ وما بعدها من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) في الأصل و (م): الآمر، وهو تحريف والمثبت من (ل)، إذ أن الحافظ ابن عم الآمر، وليس ابنه، وما بين حاصرتين من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨، وانظر ترجمة الحافظ في «وفيات الأعيان»: ٣/٢٣٥ ـ ٢٣٧، و «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٩٩ ـ ٢٠٢.

(٤) قتـل سنة (٥٤٩هـ) انـظر ص ٣٠٩ مـن هـذا الجـزء، و «سير أعـلام النبلاء»: ١٥/٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(٥) ولي ابن مصال الوزارة نحو خمسين يوماً، ثم قتله ابن السلار. انظر «الكـامل»: ١١/١٤٢، و «وفيـات الأعيـان»: ٣/٤١٦ ـ ٤١٧، و «سـير أعـلام النبـلاء»: ١٥/٢٠٣ وص ٢٥٨ من هذا الجزء.

(٦) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٨.

فصـــل
في وفاة سيف الدين غازي بن زَنْكي صاحب المَوْصِل
وهو أخو نور الدين الأكبر

قال ابن الأثير: كان أتابك الشهيد ـ يعني زَنْكي ـ ملَك دارا*، وبقيت بيده إلى أن قُتل، فأخذها صاحب مارِدِين*، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة أربع وأربعين(1)، فحاصرها وملكها، واستولى على كثيرٍ من بلد مارِدِين بسببها، ثم حصر مارِدِين عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أُخِذَ من البلاد بعد قتل والده، فتفرَّق العسكر في بلدها ينهبون [ويخربون](2). فقال صاحب مارِدِين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه؟ فلقد كانت أعياداً! قد حَصَرَنا غير مرة فلم يتعدَّ هو وعسكره حاصل السُّلْطان، ولا أخذوا كفّاً من التبن بغير ثمن:

رُبَّ دهـرٍ بكيت منـه فلمَّـا   صِـرْت في غيـره بكيتُ عليـه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوَّجه ابنته الخاتون، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى المَوْصل، وجُهِّزت خاتون وسُيِّرت إليه، فوصلت إلى الموصل وهو مريضٌ، فتوفِّي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنةً.

وكان من أحسن الناس صورةً، ودُفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصِل، وخلَّف ولداً ذكراً، أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته، وزوَّجه ابنة عمه قُطْب الدين مودود، فلم تطل أيامه، وأدركه أجله في عنفوان شبابه، فتوفي، وانقرض عقب سيف الدين.

---

(1) في «الكامل»: ١١/١٢٣ ذكر ابن الأثير هذه الحوادث سنة (٥٤٢هـ).

(2) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

وكان كريماً شجاعاً ذا عزم وحَزم.

وهو أوَّل من حُمِل على رأسه سَنْجَق[1] من أصحاب الأطراف، فإنه لم يكن فيهم من يفعلُه لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أوَّل من أمر عسكره ألا يركب أحدُهم إلا والسيف في وسطه[2]، فلمَّا أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف.

وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة؛ وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشَّافعية والحنفية نصفين. وبنى رباط الصُّوفية بالموصل [أيضاً][3]، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليهما الوقوفَ الكثيرة.

وكان كريماً؛ قصدَه شهاب الدين حَيْصَ بَيْصَ[4]، وامتدحه بقصيدته المشهورة وهي من جيد شعره، فأجازه عنها ألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهُّد مدَّة مُقَامه، وسوى الخلع والثياب[5].

---

(١) السنجق: لفظ تركي معناه: الرمح، والمراد هنا العلم الذي هو الراية، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل في أعلى الرمح عُبِّر بالرمح نفسه عنها، وحامله يسمى السنجقدار. انظر «صبح الأعشى»: ٥/٤٥٨.

(٢) ثم عاد نور الدين رحمه الله إلى تقلد السيف، اتباعاً للسنة. انظر ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص. فبقي عليه هذا اللقب. ومعنى هاتين الكلمتين: الشدة والاختلاط.
وهو شاعر مشهور من أهل بغداد، نشأ فقيهاً، وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي عرب البادية، ولا ينطق إلا بالعربية الفصحى، توفي ببغداد سنة (٥٧٤هـ) له «ديوان شعر» طبع في ثلاثة أجزاء بتحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، نشرته وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية ١٩٧٤م، وله ترجمة ضافية مع مقتطفات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/٢٠٢ ــ ٣٦٦، وانظر «وفيات الأعيان»: ٢/٣٦٢ ــ ٣٦٥.

(٥) انظر «الباهر»: ٩٠ ــ ٩٤.

قلت: أول تلك القصيدة:

إلَامَ يراك المَجْدُ في زِيِّ شاعر[1]

يقول في آخرها:

أتابكُ إن سُمِّيتَ في المَهْدِ غازياً   فسابقةٌ معدودةٌ في البشائرِ
وَفيتَ بها والدِّين قد مال رَوْقُه   وصدَّقتها والكُفْرُ بادي الشَّعائرِ[2]

وعزَّى أبو الحسين أحمدُ بن منير نورَ الدِّين بأخيه بقصيدة تقدَّم بعضُها[3]، أولُها:

* هو الجدُّ بَزَّ التمام البدورا *

يقول فيها:

شَوًى[4] كل ما جَنَتِ الحادثا   تُ ما كنتَ ظلًّا علينا قريرا ٦٦/١
أسأن وأحسن عكن الهلال   وملأننا منك بدراً منيرا
إذا ثَبَجَ البحر أخطأنه   فلا غَرْوَ أنْ ينتشفن الغديرا
وأَصْغِر بفقداننا الذاهبيـ   ـن ما عشت تأتال ملكاً كبيرا
وما أغمد الدَّهرُ ذاك الحُسا   مَ ما سلَّ حدَّاك عَضْباً بَتُورا
قسيمُ عُلاك ونِعْمَ القسِيمُ   أخٌ ساف نَزْراً وأعطى كثيرا
وكان نظيرك غارَ الزَّما   نُ من أنْ يرى لك فيه نظيرا
فَدَتْك نفوسٌ بك اسْتَوْطَنَتْ   من الأمْن نوراً وقد كُنَّ بُورا
بقيت مُعزًّا من الهالكين   تُوقَّى الرَّدى وتوفَّى الأجُورا
وغيرك يمهد بسط العزاء   ويولي المُسَلِّين[5] سمعاً وَقورا

---

(١) وعجزه: وقد نَحَلَتْ شوقاً فروعُ المنابر.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨. و«ديوانه»: ٢/ ٣١٦ ـ ٣٢٢.

(٣) انظر ص ٢٢١ من هذا الجزء.

(٤) في هامش الأصل: «أي هين». قلت: انظر «اللسان» (شوا).

(٥) في (م) المسلمين، وهو وهم.

ومــا نـقص الـدَّهـرُ أعـدادكم إذا شفَّ قـطراً وأبقـى بُـحُـورا
ولـو أنصفَ المجـدُ مـوتـاكـم لَخَطَّ لهم في السَّمـاء الـقُبُـورا
حيـاتُـك أحيت رَميمَ الـرَّجـاء وأمْـطَتْ من الجود ظهـراً ظهيـرا

وللقَيْسَراني قصيدةٌ منها:

ما أَطْرَقَ الجوُّ حتى أشرقَ الأُفُقُ إن أُغْمِدَ السَّيْفُ فالصَّمصام يأتلقُ
دون الأسى منك نورَ الدِّين في حلبٍ مُملَّكٌ ينجلي عن وجهــه الغَسَقُ
كنتَ الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى أراق ماءَ الكَرَى من جفنك الأرَقُ
تلقى الأسى من لباس الصَّبر في جُنَنٍ[1] حصينـةٍ تحتهـا الأحشـاءُ تحتـرقُ
ومدَّةُ الأجلِ المحتومِ إن خَفِيَتْ فـإنَّ أيـامنـا من دونهـا طُـرُقُ
وإنمـا نحن في مضمـارِ حَلْبتهـا خيـلٌ إلى غـايــة الأعمـار تَسْتبِقُ
شــأْوٌ إذا ابتـدرَ الأقــوامُ غـايتَـه كـان المؤخَّر فيهـا من لـه السَّبقُ
إن كان صِنْوك هذا قد ثوى فذوى ففي مغـارسـك الأثمـارُ والـوَرَقُ
أو[2] أصبحت بعدَه الأهواءُ نـافرةً أيــدي سبــا فعلى عليــاك تتَّفِقُ
مــا غابَ مَنْ غابَ عن آفاقِ مطلعه إلاَّ لِـيفْـتــرَّ عَـنْ أنــوارِكَ الأفُـقُ
مـا دام شمسُـكَ فينـا غيـر آفلةٍ فــالــدِّين منتــظِمٌ والمُلْكُ مُتَّسِقُ

---

(١) مفردها جُنَّة، وهي الدرع. «اللسان» (جنن).
(٢) في الأصل: إن، والمثبت من (ل) و (م).

فصـــل

قال ابن الأثير: ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودودٍ بالمَوْصِل، فاتَّفقت كلمة جمال الدين[1] وزين الدين[2] على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه، فإنه كان لَيِّنَ الجانب، حسنَ الأخلاق، كثير الحلم، كريمَ الطباع[3]. فأحضروه من داره وحلَّفوه لهم وحلَفوا له، ونزل بدار المملكة، وحلف له الأمراء والأجناد، واستقرَّ في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين. ولما ملك واستقرَّ في الملك تزوَّج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب مارِدين* فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده، على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قُطْب الدين أحدٌ غير أولادها[4].

قال: وكانت هذه الخاتون يحلُّ لها أن تضَعَ خِمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها، وأجدادها، وإخوتها، وبني إخوتها، وأزواجها، وأولادها، وأولاد أولادها.

ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسمَّاهم[5]، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، زوج عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه؛ كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة، وهم: مِنْ معاوية رضي الله

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٦٨ من هذا الجزء.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل و(ل): لين، والمثبت من (م).
(٤) «الباهر»: ٩٤.
(٥) انظر «الباهر»: ٩٤ ـ ٩٥.

عنه إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم؛ وهو مروان بن محمد، فإنه ابن عم لها ليس بمحرم، والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية؛ فمعاوية جدُّ أمها، ويزيد جدُّها لأمها، ومعاوية بن يزيد خالها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد إخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد أولاد أخوَيْها، وهؤلاء كلُّهم خلفاء وعدَّتهم ثلاثة عشر. ٦٧/١

قلت: وهذا كله مبنيٌّ على أصلٍ فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمُّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزوميّة[١]، على ما بيَّناه في ترجمتها في «تاريخ دمشق»[٢]. ولكن الصَّواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارمُ لها: معاوية جدُّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها. ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالإخوة والأعمام والأخوال وبني الإخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك هما أخوا فاطمة وربيبا عاتكة، وعمر بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم. وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية.

---

(١) هي أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة. انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (تراجم النساء): ٢٩١.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩ من هذا الجزء.

وما ذكره(١) ابن الأثير من أمر بنت حُسام الدين، فسِتُّ الشَّام بنت أيّوب أكثر منها محارم من الملوك، يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكاً من إخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل، وسيف الإسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم، وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين، وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بَعْلَبَك(١).

فصـــل

قال ابن الأثير: ولما ملك قُطْب الدين المَوْصِل والبلاد الجزريَّة كان أخوه نور الدين بحلب ــ وهو أكبر من قطب الدين ــ فكاتبه بعضُ الأمراء وطلبوه إليهم، منهم [الأمير](٢) المقدَّم والد شمس الدين بن المقدَّم(٣)، وهو حينئذٍ دُزْدار* سِنْجار*. فسار نور الدين جريدةً(٤) في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسد الدين شِيركُوه، ومجد الدين أبو بكر بن الدَّاية، وغيرهما. فوصلوا إلى ماكِسِين* في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللَّبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلوا إلى الشِّحنة* وأخبروه بوصول نفرٍ من الأجناد وكأنهم تُركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين، فحين رآه الشِّحنة قبَّل يده، وخرج عن الدَّار، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه. وسار مجدًّا إلى سِنْجار فوصلها وليس معه إلا نفرٌ يسير، فنزل بظاهر

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٣) أصبح ابن المقدم شمس الدين محمد بن عبد الملك، من كبار أمراء الدولتين النورية والصلاحية، وسترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وانظر خبر مقتله ص ٤٢٣ وما بعدها من الجزء الثالث.
(٤) أي لم يكن معه رجَّالة. انظر «اللسان» (جرد).

البلد وألقى نفسه على محفورةٍ صغيرة من شدَّة تَعبه، وأرسل إلى المقدَّم بالقلعة يُعرِّفه وصوله، وكان المقدَّم قد استُدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها، فأرسلوا إليه، فتوقَّف عدة أيام، فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسِنْجار، وقال له: أنا أتأخَّر في الطريق، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سِنْجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين، فخاف فوات الأمر. ووصل القاصد الذي سيَّره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتلِّ يعفر*، فعاد إلى سِنْجار وسَلَّمها إلى نور الدين، وكاتَبَ فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن[1] يستنجده، وبَذَلَ له قلعة الهيثم، فسار إليه بجنده. فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن المَوْصِل نحو سِنْجار، ومعه الجمَال والزَّين، ونزلوا بتلِّ يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، ويهدِّدوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً. فأعاد الجواب: إنني أنا الأكبر، وأنا أحقُّ أن أدبِّر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت إليَّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتَهم لولايتكم عليهم ـ يعني [ولاية] [2] الجمال والزَّين ـ فخِفت أن يحملهم الغيظ والأنَفَة على أن يُخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدُّدكم إيّاي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم. وكان قد هرب إليه جماعةٌ من أجنادهم، فخافوا أن يلقَوْه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصُّلح، وأشار به جمال الدين الوزير وقال: نحن نُظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويتهدَّدهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن

---

(١) أي حصن كيفا. انظره في كشاف الأماكن.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

ظفرنا به طمع فيه[1] الفرنجُ، ولنا بالشَّام حمص وقد صار له عندنا سِنْجار، فهذه أنفعُ لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه، والرأي أن نسلِّم إليه حمص ونأخذ سِنْجار، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعيَّن مساعدته. فاتفق الجماعةُ على هذا الرأي، وسار جمال الدين إلى نور الدين، وأبرم معه الأمر، وتسلَّم حمص وسَلّم سِنْجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسِنْجار من المال. ولما تسلَّم قُطْب الدين سِنْجار أقطعها لزين الدِّين، لأن حمص كانت لأخيه يَنَال وهو مقيمٌ بها. واتفقت كلمتهم واتحدَتْ آراؤهم، وكلُّ واحدٍ منهما لا يصدُر إلا عن أمر أخيه. وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما تستغني به عن وزيرٍ ومُشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك، لأنَّ عدوَّك كافرٌ فالنَّاس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنتُ عند أخيك فالنَّفع إليك عائد، وأريد من بلادك مثل ما لي من بلاد أخيك معونةً على كثرة خرجي. فأجابه إلى ذلك، فقال له جمال الدين: أنت عليك خرجٌ كثير لأجل الكُفَّار فيجب مساعدتك، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة. فأمر له بها. فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم[2]. ١/٦٨

قلت: وقرأت في «ديوان القَيْسراني»: وقال في نور الدين عند قدومه، وقد استولى على سِنْجار* وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمس مئة:

هذا الذي وَلَدتْ له الأفكارُ ... وتمخَّضَتْ فألاً به الأشعارُ
وجَرَتْ له خيل النُّهى في حَلْبَةٍ ... وردت وصفو ضميرها المِضْمارُ

(١) في الأصل و(ل) «فينا»، والمثبت من (م).
(٢) انظر «الباهر»: ٩٥ ـ ٩٧.

وأتت به نُذرُ القوافي بُرهةً | إنّ القوافي وحيها إنذارُ
حكَمَتْ لسيفكِ بالممالكِ عَنْوةً | حكماً لَعمري ما عليه غُبارُ
يأيها الملك المقلُّ نِجادهُ | بَرٌّ يَدِينُ بِهَدْيِه الأبرارُ
يا ابن السيوفِ وهل فَخَرْتَ بنسبةٍ | إلا سما بك قائمٌ[1] وغِرارُ[2]
فارَقْتَ دارَ المُلْكِ غير مُفارِقٍ | لكَ من عُلاك بكلِّ أرضٍ دارُ
في عسكرٍ تخفي كواكبُ ليله | نَقْعاً فيطلِعُها القَنا الخطَّارُ
جرَّارُ أذيالِ العَجاجِ وراءه | وأمامَهُ بل جَحْفَلٌ جَرَّارُ
تُدْني لكَ الغاياتِ أكبرُ هِمَّةٍ | نوريَّةٍ هِمَمُ الملوكِ كِبارُ
حتى ملأْتَ الخافقينِ مهابةً | دانت لعُظْمِ[3] نِظامِها الأقطارُ
وَمَلَكْتَ سِنْجاراً* وما من بلدةٍ | إلا تَمَنَّى أنَّها سِنْجارُ
وَبَسَطْتَ بالأموالِ كفًّا طالما | طالَتْ بها الآمالُ وَهْيَ قِصارُ
وَجَرتْ بأمدادِ الجيادِ شِعابُها | جَريَ السُّيولِ وما عداك قَرارُ[4]
وَثَنى الفُراتُ إلى يديكَ عِنانه | والبَحْرُ ما اتَّصَلَتْ به الأنهارُ
وَمَلَكْتَ رَحبة مالك* فتبرَّجَتْ | منها لِعَيْنِك كاعِبٌ مِعْطارُ
جاءتْكَ في حُللِ الرَّبيعِ وحَلْيها | قَبْلَ الربيع شقائقٌ وَبَهارُ[5]
نَثَرتْ عليكَ هوى القلوبِ محبةً | وتَوَدُّ لو أنَّ النُّجُومَ نِثارُ
فأقمت كالشَّمسِ المُنيرةِ إنْ نأتْ | عن أُفْقِها فَلَها به أقْمارُ
مَنْ كان نورَ الدين ثُمَّ أجَنَّه | ليلُ السُّرى حَفَّتْ به الأنوارُ
تَدْعو البلادَ إليكَ ألسنةُ الظُّبى | فَتُجِيبكَ الأنجادُ والأغوارُ

---

(١) القائم: مقبض السيف. «معجم متن اللغة»: ٤/٦٨٥.
(٢) الغرار: حد السيف. «معجم متن اللغة»: ٤/٢٨١.
(٣) في (م): لعقد.
(٤) في (ل) و(م): وما سواك قرار.
(٥) البهار: نبت طيب الريح. ينبت أيام الربيع. انظر «اللسان» (بهر).

حتى عَمَدْتَ الدِّينَ يا ابنَ عمادِهِ بقَناً أسِنَّتُها عليه مَنَارُ
وقَفَلْتَ من أسفارِ جدِّك قادماً كالصُّبحِ نَمَّ بثغرِه الإسْفَارُ
يغشى البصائرَ نورُ وجهكَ بعدما اغْـ ـتركَتْ على قَسَماتِه الأبصارُ
حتَّى عَمَرْتَ بكلِّ قلبٍ صدرَهُ حين الصُّدور مِن القلوب قِفارُ
إن تُمسِ في حَلَبٍ رياحك غضَّة فلَها بأنطاكيَّةٍ إعصارُ
وَغدَتْ جيادُك بالشَّآم مقيمةً ولها بأطرافِ الدُّروبِ مُغارُ
هِمَمٌ سَبقْتَ بها إلى مُهَجِ العِدَى صَرْفَ الرَّدى ومسيرُه إحْضَارُ[1]
وأرى صباحَ القمص* كان خديعةً فطغى وجَارَ وليس ثَمَّ وِجَارُ[2]
سأل الصنيعة غير محقوقٍ بها والخَتْرُ[3] يهدِمُ ما بنى الخَتَّارُ[4]
حتى إذا ما غبتَ أقدَمَ عائثاً إقدامَ من لم يَدْنُ منه قَرارُ
أمضى السَّلاح على عدوِّك بغيهُ بالغدرِ يُطْعَنُ في الوغى الغَدَّارُ
فاحْسِمْ عنادَ ذوي العنادِ بجحفلٍ كالليلِ فيه من الصَّفيح نَهارُ ٦٩/١
جُنْدٌ على جُرْدٍ أمامَ صدورِها صَدْرٌ عليه من اليقين صِدَارُ
قد بايعَ الإخلاص بيعة نُصْرَةٍ ولكلِّ هادي أمةٍ أنصارُ
مَلِكٌ لهُ مِنْ عدلِه ووفائه جيشٌ به تُسْتَفْتَحُ الأمصارُ
وإذا الملوكُ تثاقلَتْ عن غايةٍ وأرادَها حَفَّت به الأقدارُ
وإذا انتضَتْهُ إلى الثغورِ عزيمةٌ قامت مقامَ جنودِه الأخبارُ

ولابن منير من قصيدةٍ فيه:

ترنَّح مِعْطَفُ الزَّوْرَاءِ[5] لما دعاك لِزَوْرِ سِنْجَارٍ* لمامُ

---

(١) الإحضار: العَدْو. انظر «اللسان» (حضر).
(٢) الوجار: سَرَب الضبع والأسد ونحوه، أي بيته. انظر «اللسان» (وجر).
(٣) في الأصل، و (ل) الخير، والمثبت من (م) والختر: الفساد.
(٤) الختار: الغدار، «اللسان» (ختر).
(٥) هي بغداد. انظر «معجم البلدان» ١٥٦/٣، و «القاموس المحيط»: (زور).

وزلـزلتَ الصَّـعيـدَ وراءَ مِـصْـرٍ غـداةَ عَلَتْكَ في قَـطَنا[1] الخيـامُ
رجـاءُ هَـزٍّ تِيـك وتلك خـوفٌ ولـو قـد شئتَ ضمَّهمـا قِـرامُ[2]
بعيشـك يـا مبيـدَ الخيـلِ ركضـاً حَمـامٌ هنّ تـحتـك أم حِـمَـامُ

وقال ابن منير أيضاً يهنئه بتسلُّمِ قلعة حمص من يَنَال[3]، وأنشده في القلعة القصيدة، أولها:

أَرِحْـهـا فهـي أزلامُ الـمـعـالـي لهنَّ إلى الـوغى توقٌ[4] المغـالي
أمـا ومقيلهـن[5] بـكـل نَـقْـعٍ يقـوِّض بـالهُدَى عُمْـرَ الضَّـلالِ
وأيُّ سيـوفـك الحمـر الحـواشي مـنـزَّلـة مـتـى دُعِـيَـتْ نَـزَالِ
مَـواضٍ إن سُللن سلكن جزمـاً نفـاه من الـطُّلى[6] لفظ اعتـلالِ
لقد غلتْ[7] الصَّليب بِحَرِّ حَرْبٍ يُـشيـب أُوارُهـا لِمـمَ اللَّيـالـي
وشمتَ لنصـرِ هذا الـدين بـأسـاً تحـرّم منه كـل حمىً حـلالِ

ومنها[8]:

وقـائـع أتـرعـت في كـلِّ فـجٍّ وقـائعَ[9] جوُّهـا دامي العَزَالي[10]
تسـائـل حمص عن منسيٍّ دين تقـاضـاه لـك الحِجج الخَوَالي
فـواتَتْ وهي أُختُ النَّجْمِ بُعـداً ووعـداً صِيغَ من مَطْلٍ مِـطَالِ

---

(1) قرية تقع جنوبي غرب دمشق، وهي تبعد عنها (٢٧) كيلومتراً. انظر «التقسيمات الإدارية»: ٣٤.

(2) القرام: الستر الرقيق. انظر «اللسان» (قرم).

(3) هو أخو زين الدين علي كما مَرَّ. انظر ص ٢٣٥ من هذا الجزء.

(4) في النسخ الخطية «ترق»، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ٦٩ والمغالي: مفردها المغلاة، وهو سهم يغلى به أي ترفع به اليد حتى يتجاوز المقدار أو يقارب ذلك. انظر «اللسان» (غلا)، و«معجم متن اللغة» ٤/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(5) في (ل) ومغيلهنّ. (6) الأعناق. «اللسان» (طلي). (7) في (م) غلبت.

(8) ليس في (ل)، وهي في (م) بعد بيت «وقائع أترعت...».

(9) مفردها وقيعة: وهي نقرة في متن حجر في الجبل أو في السهل يستنقع فيها الماء، يقال: أعذب من ماء الوقيعة. انظر «اللسان» و«أساس البلاغة» (وقع).

(10) مفردها العزلاء: مصب الماء من الراوية والقربة. انظر «اللسان» (عزل).

تشامَخَ أنفُها عِزًّا وشدَّت | على أن لا تنال يدا يَنالِ[1]
فما زالَتْ رُقاك تجدُّ نقضاً | لما تثنيه من مِرَرِ الحِبَالِ
إلى أن أطلقَ الحسناءَ كَرْهاً | وآل إلى ملاوحة المآلي[2]
يصدُّ الوجه عن شمّاء ألْقَتْ | يداً لأشمَّ ذي باعٍ طوالِ
شغلت بها يمينك والمواضي | تكفَّلُ أنَّ مِصْراً للشِّمالِ
إذا فَتَحَ القتالُ عليك أرضاً | أباحك أختها لاَ عَنْ قتالِ

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحَوْرَانيَّة بالنَّهب والسَّبي، فعَزَمَ على التأهُّب لقصدهم، وكتب إلى مَنْ بدمشق يعلمهم ما عَزَمَ عليه من الجهاد، ويستدعي [منهم][3] المعونة على ذلك بألف فارس تَصِلُ إليه مع مُقدَّم يُعوَّل عليه ـ وقد كانوا[4] عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدةً على من يقصدهم من عساكر المسلمين ـ فاحتُجَّ عليه وغولِطَ. فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يَبُوس*، وبعض العسكرية بيعفور*. فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبرَه ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا[5] الإفرنج بخبره، وقرَّروا معهم الإنجادَ عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عَسْقلان لعمارة غزَّة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس*. وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم، وقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافٌّ أيدي أصحابه عن العيث والإفساد في الضِّياع، وأمر بإحسان الرَّأي في

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٣٨ من هذا الجزء.
(٢) مفردها مئلاة: خرقة تمسكها المرأة عند النوح. «اللسان» (ألا).
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٤) أي حكام دمشق.
(٥) في الأصل: أرسلوا، والمثبت من (ل) و (م).

الفلاحين والتخفيف عنهم، والدُّعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها. وكان الغيثُ قد انحبس عن حَوْرَان والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمَحْل واشتداد الأمر. فلما وصل نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحِجَّة، وأقام إلى مثله، فروَّى الآكام والوهاد، وجرت الأودية، وزادت الأنهار، وامتلأت بِرَكُ حَوْران، ودارت أَرْحِيَتُها[1]، وعاد ما صَوَّح[2] من النَّبات والزَّرْع غضًّا طرياً، وجدَّ الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحُسْن مَعْدلته وسيرته. ثم رحل من منزله بالأعوج*، ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر[3] في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرَّئيس، وقال: إنني ما قصدتُ بنزولي هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران والعربان بأن الفلاحين أُخذت أموالهم وسُبيت[4] نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج، وعَدِمَ النَّاصر لهم، ولا يسعني ـ مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرِّجال ـ أن أقعُدَ عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبِّ عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبَذْلِكُم لهم أموال الضُّعفاء والمساكين من الرعية ظُلْماً لهم وتعدِّياً عليهم، وهذا ما لا يُرْضي الله تعالى، ولا أحداً من المسلمين، ولا بدَّ من المعونة بألف فارس مُزاحِي العلَّة، تُجرَّدُ مع من يوثَقُ بشجاعته من المقدَّمين،

(١) مفردها رحى، وهي التي يطحن بها. انظر «اللسان» (رحا).

(٢) أي ما يبس. انظر «اللسان» (صوح).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٨٥ من هذا الجزء.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٩ وشتت، وهو تصحيف.

لتخليص ثَغْر عَسْقلان وغَزَّة[1]. قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة: ليس بيننا وبينك إلا السَّيْف، وسيُوافينا من الإفرنج ما يُعينُنا على دفعك إن قصدتنا ونزلتَ علينا. فلما عاد الرَّسولُ بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجُّبَ منه والإنكار له، وعزم على الزَّحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتدارُكها ودوامها ما منعه من ذلك[2].

ودخلت سنة خمس وأربعين [وخمس مئة][3]

ففي مستهلِّ المحرَّم تقرَّر الصُّلْح بين نور الدين وأرباب دمشق، والسببُ في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها، بعدما اتَّصل به [من][4] أخبارٍ دعته إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطَّاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسُّلْطان، وكذا السِّكَّة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلع نورُ الدين على مجير الدين خِلْعة كاملةً بالطَّوق، وأعاده مكرَّماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرَّم. ثم استدعى الرئيس إلى المخيَّم، وخلع عليه خلعةً كاملة أيضاً وأعاده إلى البلد، وخرج إليه جماعةٌ من الأجناد والخواصِّ إلى المخيم، واختلطوا به، ووصل مَن استماحه من الطُّلاب والقَرَأة[5] والضعفاء، بحيث ما خاب قاصدُه، ولا أكدى سائلُه، ورحل عن مخيَّمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرَّر، وتكميل ما دبَّر.

---

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٩، وغيره، وهو تصحيف.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للتوضيح.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) مفردها قارىء. انظر «معجم متن اللغة»: ٥١٩/٤، وفي «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠ «الفقراء» وهو تحريف.

قلت: وفي ذلك يقول القَيْسَراني:

لك اللهُ إن حاربتَ فالنَّصْرُ والفَتْحُ | وإن شئتَ صُلْحاً عُدَّ من حَزْمك الصُّلْحُ
وهل أنتَ إلا السَّيْفُ في كلِّ حالةٍ | فطَوْراً له حدٌّ وطوراً له صَفْحُ
سقيت الرُّدَينيَّات[1] حتى رَدَدْتَها | تَرَنَّحُ من سُكْرٍ فخلِّ القَنا تصحو[2]
وما كان كفُّ العَزْمِ إلا إشارةً | إلى الحَزْمِ لولم يغضبِ السيفُ والرُّمْحُ
وقد عَلِمَ الأعداءُ مُذْ بِتَّ جانحاً | إلى السِّلْمِ ما تنوي بذاك وما تنحوا
إذا ما دمشقُ ملَّكتك عِنانَها | تيقَّنَ مَن في إيليا[3] أنَّه الذِّبحُ
متى التف نَقْعُ الجحْفلين على الهدى | فلا مَهْمَهٌ يحوي الضَّلالَ ولا سَفْحُ
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً | فقولا لليل الإفك قد طَلَعَ الصُّبْحُ
تَرَكْتَ قلوبَ الشِّرْكِ تشكو جراحَها | فلا زالت الشكوى ولا اندمَلَ الجُرْحُ
صَبَرْتَ فكان الصَّبْرُ خيرَ مغبَّةٍ | فسيقَ إليك المُلْكُ يسعى به النُّجْحُ
كأن القَنَا تجلو له وَجْه أمره | ولو أُمهلتْ بلقيس ما غرَّها الصَّرْحُ
بدولتك الغَرَّاء أصبحَ ضدُّها | بهيماً ولولا الحُسْنُ ما عُرِفَ القُبْحُ
وكم مِنْ قريحِ القَلْبِ لو باتَ وارداً | مواردَ هذا العَدْلِ ما مَسَّه قَرْحُ
سخا بك هذا الدَّهْرُ جُوداً على الورى | على أنه ما زال في طبعه شُحُّ
وقد كان يمحو رَسْمَ كلِّ فضيلةٍ | ونحن نَراه اليومَ يُثْبتُ ما يَمْحُو
بك ابتهج الألباب وابتهج الحِجَا | وأثمرتِ الآدابُ واطَّرَدَ المَدْحُ
ولاذت بك التَّقوى وعاذت بك العُلا | ودانت لك الدُّنيا وعَزَّ بك السَّرْحُ
فلا قَلْبَ إلا قد تَمَلَّكْتَهُ هوىً | ولا صَدْرَ إلا قد جَلاه لك النُّصْحُ
وما الجودُ في الأملاكِ إلا تجارةٌ | فمن فاته حَمْدُ الورى فاته الرِّبْحُ
ولم أختصرْ ما قلتُ إلّا لأنني | أعبِّرُ عما لا يقومُ به الشَّرْحُ

71/1

(1) هي الرماح، منسوبة إلى ردينة، امرأة في الجاهلية كانت تسويها. انظر «تاج العروس» (ردن).
(2) في (م): تصحُ.
(3) اسم مدينة بيت المقدس. انظر «معجم البلدان»: 1/293.

فـصـل
في فَتـح عَزَاز*

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرَّم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جُوسلين* صاحب عَزَاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الأسر في قلعة حلب، فَسَرَّ هذا الفتحُ كافَّة الناس، وتوجَّه نور الدين في عسكره إلى عَزَاز، ونزل عليها، وضايقها وواظب قتالها، إلى أن سَهَّل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غايةٍ من المَنَعة والحصانة والرِّفْعة. فلما تسلَّمها رتَّب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول[1].

قلت: وذكر ابن منير فتح عَزَاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدةٍ أولها:

فَـدَتْـكَ القُـلُوبُ بـألبـابهـا ... وَسـاحُ الـملوك بـأربـابـهـا
كتـائبُ تَـرْمي جنـودَ الصَّليـ ... ـبِ منهـا بتقـطيـعِ أصـلابـهـا
إذا مـا انثنَتْ من قِـرَاع الكُمـاة ... كَسَتْ وفـدَهـا وَشْيَ أسـلابِهـا
تَبَـرْنَسَ منهـا البـرنس الثِّيـاب ... وحَـلَّبـه وَقْـعُ أحـلابِـهـا
عَشِيَّـةَ غـصَّت عـلى إنَّـب* ... نـفـوس النصـارى بغصَّـابهـا
وقـام لأحـمـد مـحـمـودُهـا ... بـجـدع مـوارن[2] أحـزابـهـا
تـجلَّى لـهـا حَيْـدَرِيّ المـصـا ... ع أغـلب مُـودٍ بـغـلَّابـهـا
مـورِّث أركـاسـهـا مـن أبٍ ... أكـولِ الـفـوارس شَـرَّابـهـا
هـمـامٌ إذا اعْصَـوْصَبَتْ نَـبْـوة ... دهـاهـا بهـاشـمِ أعصـابِهـا

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠.

(٢) مفردها المارن: وهو الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه منحدراً. «معجم متن اللغة»: ٥/٢٨٦.

مضى وجَنى لـك حُـلْوَ الشهـا ... دِ ممَّـا تمـطَّقَ من صـابهـا
وأوصى بهـا لـك من بعـد مـا ... تـجـرَّعَ ممـقـرَ[1] أوصـابِهـا
وأقـسـمَ جَـدُّك ألا يـليـق[2] ... بِـغـيـرك مـلبس أثـوابِـهـا
صَبَحْـتَ دمشق بمشقِ الجيـاد ... زبـورَ الـوغى بين أحـدابهـا
وأَصْـلَتَّ رأيـك قبـل الحسـام ... فـخمَّـدَ جـمـرةَ أجـلابـهـا
فـأعـطتـك مـا لم تَـنَلْهُ يـدٌ ... وفـازَتْ رُقـاك بـأصـحـابهـا
وأنـت تصـرّف فـضـل الـزِّمـا ... م مِن حمص ياخيرَ[3] رُكَّابها
تخـونهـا الجَـوْرُ فـاسْتَـدْرَكَتْ ... بِـعـدلـك أغـبـار ظـبـظابـهـا
وفـاجأت قُـورُسَ* بالشـائلات[4] ... تَـمُـجُّ الـقَـنـا سُمَّ أذنـابـهـا
فمـا رِمت حتى رَمَت بِيْضُهـا ... إلـيـك أزمـة ضـرابـهـا
وعَـزَّت عَـزَازٌ* فـأذلَـلْتَـهـا ... بـمجـرٍ[5] مضيقٍ لأسـهـابهـا
بـأشـمخ من أنـفـهـا منـكبـاً ... وأكـثـر من عَـدٍّ تـورابـهـا[6]
دلـفـت لـعـيـطاء أم الـنّـجـو ... م في الأمـر إيـطاءَ أتـرابهـا
وعـذراءُ مُـذْ عَمـرت ما اهتـدت ... ظـنـون اللّـيـالـي لإخْـرَابهـا
تـفـرّعـتهـا بـفـروع الـوشـيـ ... ـج[7] مثـمرةً هـام أوشـابهـا
وعـوجٍ إذا أنبضـت أغـمـضـت ... ذُكـاءُ لإرسـال نُـشَّـابـهـا
ومحـدودبـات تـطيـر[8] الخطوب ... مـلاقط الـسُنِ خُـطَّابـهـا

(١) أي مُرّ، «معجم متن اللغة»: ٥/٣٢٧.
(٢) في الأصل، و (ل) أن يليق، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل و (ل): تأخير وفي (م) بأخير، والصواب ما أثبتناه.
(٤) العقارب، وشولة العقرب شوكتها التي تضرب بها. انظر «اللسان» (شول).
(٥) الجيش العظيم. انظر «اللسان» (مجر).
(٦) أي ترابها. «معجم متن اللغة»: ١/٣٨٩.
(٧) الوشيج: شجر الرماح. «معجم متن اللغة»: ٥/٧٥٨.
(٨) في (ل): كطير.

تصوّب عُقْبان رَيْبِ المَنُون | متى زَبَنَتها[1] بأعقابها
وما ركَعَتْ حَوْلَ شمٍّ الهِضا | بِ إلا سَجَدْنَ لأنصابها
فلاذَتْ بمعْتَصِمٍ بالكتابِ | وَهوبِ الممالك سلَّابها
بمعتصميِّ النَّدى والهُدَى | هموس[2] السُّرى غير هَيَّابها
محلَّى المحلِّ بوصفِ الفُتُوحِ | ووصف التَّهاني وأربابها
وتعجز مُدَّاحه أن تحيطَ | بآدابه فُلْكُ آدابها
بدائعُ لو رُدَّ دهرٌ رمين | بنات حبيب بأحبابها
وأين ابنُ أوسٍ[3] وأبياته[4] | من اللَّأْءِ أَوْدَتْ بحسَّابها
من اللاء عاد عتيقٌ[5] لها | وَرَدَّ عليها ابنُ خطَّابها
فأيَّامه من حبورٍ تكادُ | يطيرُ بها فَرْطُ إعجابها
لك الفَضْلُ إنْ راسلَتْكَ الجياد | وقامت أدلَّة أنجابها
إذا اعتسفَتْ هِمَمُ الجائرين | أتيتَ السِّيادةَ من بابها
أبوك أبوها وأنت ابنها الـ | ـعريقُ ودمية محرابها
أقول لمؤجره بالغرور | تَمَطَّتْ هواها فأَهْوى بها
حَذَارِ فعندَ ابتسامِ الغيو | ثِ يُخْشَى صواعق[6] ألهابها
ولا تُخْدَعُوا بافترار اللُّيو | ثِ فالنار في بَرْدِ أنيابها

٧٢/١

(١) أي دفعتها. «معجم متن اللغة»: ١٤/٣.
(٢) الهموس: السيار بالليل. «معجم متن اللغة»: ٦٦٣/٥.
(٣) إشارة إلى أبي تمام حبيب بن أوس، الشاعر المشهور.
(٤) في الأصل و(ل) آياته، والمثبت من (م).
(٥) هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه. انظر «الإصابة» ت (٤٨٠٨).
(٦) في (ل) صواقع، وهي رواية أخرى في الأصل.

فصل
في صفة أسر جُوسلين*

قال ابن الأثير: سار نور الدين(١) إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها تل باشر*، وعين تاب*، وعَزَاز*، وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم حربٌ شديدة أجلت عن انهزام المسلمين، وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار(٢) كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذَه إلى السُّلْطان مسعود بن قليج أرسلان السَّلْجُوقي(٣) صاحب قُونية وأقصرا وغيرهما من تلك الأعمال ــ وكان نور الدين قد تزوَّج ابنته ــ وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره. فَعَظُمت هذه الحادثة على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع. فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرَّغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين، إما قتلاً وإما أسراً. فاتَّفق أن جوسلين خرج في عسكره، وأغار(٤) على طائفةٍ من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأةً منهم، فخلا معها تحت شجرةٍ، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم

---

(١) أورد ابن الأثير هذه الحوادث في «كامله» سنة (٥٤٦هـ)، وفي «الباهر» بياض، أتمه محققه من «الكامل».

(٢) هو لقب على الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، ويتولى أمر السلاح خاناه، وهو لقب مركب من لفظين، أحدهما عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك، ويكون المعنى «ممسك السلاح»، انظر «صبح الأعشى»: ٤٦٢/٥.

(٣) ركن الدين، تولى السلطنة ما بين سنة (٥١٠ ــ ٥٥١هـ) انظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٢١٥.

(٤) في «الباهر» و«الكامل» المطبوعين أنه خرج متصيداً متنزهاً في نفر يسير، فظفرت به طائفة من التركمان.

فأخذوه أسيراً، فصانعهم على مالٍ بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك، وأخفوا أمره عن نور الدين[(١)]. فأرسل جوسلين في إحضار المال، فأتى بعضُ التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسيَّر معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً، وكان نور الدين[(١)] حينئذٍ بحمص. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنـج، شديدَ العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدَّم على الفرنـج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدَّة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها. وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره، وعظمت المصيبـة[(٢)] عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم[(٢)] من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد. طالما صالحه نورُ الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غَدْرُه، وحاق به مكره، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[(٣)]. فلما أُسر تيسَّر فتـح كثيرٍ من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب*، وعَزَاز*، وقُورُس*، والرَّاوَنْدَان*، وحصن البارة*، وتل خالد*، وكَفْر لاثا*، وكفر سود[(٤)]، وحصن بَسَرْفُوث* بجبل بني عُليم، ودُلُوك*، ومَرْعَش*، ونهـر الجوز، وبرج الرَّصاص*.

قال: وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتـح حصنـاً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصْرةٍ تتجدَّدُ للفرنـج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدَّة غير محتاجة إلى شيء. وقال الشعراء في

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٤) في «معجم البلدان»: ٤٦٩/٤ كفرسوت ــ بالتاء المثناة ــ انظرها في كشاف الأماكن.

هذه الحادثة فأكثروا؛ منهم القَيْسَراني. قال يمدَح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده[1]:

دعــا ما ادَّعى مَن غرَّه النَّهْي والأَمْرُ ... فما الملك إلَّا ما حباكَ به القَهْـرُ
وَمَنْ ثَنَتِ الـدُّنيا إليـه عِنـانهـا ... تصرَّف فيما شاء عن إذنه الـدَّهْرُ
وَمَنْ راهنَ الأقدار في صَهْوَة العُلا ... فلن تُدْركَ الشِّعْرى[2] مَداه ولا الشِّعْرُ
إذا الجدُّ أمسى دونَ غايته المُنَى ... فماذا عسى أن يَبْلُـغَ النَّظْمُ والنَّثْرُ
وَلِمْ لا يلي أسنى الممالكِ مـالكٌ ... زعيمٌ بجيشٍ من طـلائعه النَّصْـرُ
لِيَهْنِ دمشقــاً أن كُـرسيَّ مُلْكِهـا ... حُبي[3] منك صَدْراً ضاق عن هَمِّه الصَّدْرُ
وأنك نورَ الدين مُذ زُرْتَ أَرْضَها ... سَمَتْ بك حتى انحطَّ عن نَسْرِها النَّسْرُ
خَـطَبْتَ فلم يَحْجُبْكَ عنهـا وَلِيُّها ... وَخَطْبُ العُلا بالسِّيفِ ما دونَه سِتْرُ
جلاها لك الإقبال حُـوريَّة السَّنـا ... عليها من الفِرْدَوْسِ أَرْدِيَـةٌ خُضْرُ
خَلُوبٌ أكَنَّتْ من هــواكَ مَحبَّــةً ... نَمَتْ فانتمَتْ جَهْراً وسِرُّ الهوى جَهْرُ
فَسُقْتَ إليهـا الأمنَ والعَـدْل نِحْلَةً ... فأَمْسَتْ ولا أسرٌ تخافُ ولا إصْرُ[4]
فإنْ صافَحَتْ يُمْناك من بَعْدِ هَجْرِها ... فـأحلى التَّلاقي مـا تَقَـدَّمـه هَجْـرُ
وهـل هي إلّا كـالحَصَـانِ تَمَنَّعَتْ ... دلالاً وإن عَـزَّ الحيا وغـلا المَهْرُ
ولكنْ إذا مـا قستَهـا بصَـدَاقِهـا ... فليسَ لـه قَـدْرٌ وليسَ لهـا قَـدْرُ
هي الثَّغْر أمسى بالكراديسِ عابساً ... وأصبـح عن باب الفَراديس* يَفْتَرُّ
على أَنَّهـا لـو لم تُجبْـكَ إنـابــةً ... لَأَرْهَقها من بأسِكَ الخَوْفُ والذُّعْرُ
فإما وَقَفْت الخيـل ناقعـة الصَّدى ... على بَرَدى من فوقها الوَرَقُ النُّضْرُ

(١/٧٣)

---

(١) انظر «الباهر»: ١٠١ ــ ١٠٣، و«الكامل»: ١١/١٥٤ ــ ١٥٦، واكتفى ابن الأثير بذكر أبيات من القصيدة.

(٢) كوكب نير «اللسان» (شعر).

(٣) الضبط من (ل).

(٤) العهد الثقيل. انظر «اللسان» (أصر).

فمنْ بَعْدِ ما أَوْردتَها حَوْمَـةَ الوغى ... وأَصْدَرْتَها والبيضُ من عَلَقٍ حُمْـرُ
وجلَّلْتَهـا نَقْعـاً أضـاعَ شِيَـاتهـا ... فلا شُهْبُها شُهْبٌ ولا شُقْرُها شُقْرُ
علا[1] النَّهْرُ لما كاثَرَ القَصَبُ القَنَا ... مكـاثرةً في كـلِّ نَحْـرٍ لهـا نَحْـرُ
وقـد شَرِقَتْ أجـرافه بـدم العِدَى ... إلى أن جرى العاصي وضَحْضَاحُه غَمْرُ
صَـدَعْتَهُمْ صَدْعَ الـزُّجاجـة لا يَـدُ ... لجـابرِهـا مـا كـلُّ كَسْـرٍ لـه جَبْـرُ
فلا ينتحل من بعدها الفَخْرَ دائلٌ ... فَمَنْ بارَزَ الإبرنـز كانَ لـه الفَخْرُ
ومن بَـزَّ أنـطاكيـة من مليكهـا ... أطـاعَتْـهُ ألحـاظُ المُؤَلَّلةِ الخُـزْرُ
أخو اللَّيث لولا غَـدْرُه نزعت بـه ... إلى الذِّئبِ إنَّ الذئبَ شِيْمَتُه الغَدْرُ
أتى رأسُـه ركضـاً وغُـودر شِلْوُه ... وليس سوى عافي النُّسورِ له قَبْـرُ
وقـد كان في استبقـائه لـك مِنَّـةٌ ... هي الفَتْكُ لولم تَغْضَبِ البيضُ والسُّمْرُ
كما أَهْدَتِ الأقدارُ للقمصِ[2] أَسْرَهُ ... وأَسْعَدُ قِرْنٍ مَن حواه لك الأَسْـرُ
طغَى وبغَى عـدواً على غُلوائـه ... فـأوبقـه الكُفْـرانِ عَـدواه والكُفْـرُ
وأَلْقَتْ بـأيـديهـا إليـكَ حُصُـونُـه ... ولو لم تُجِبْ طَوْعاً لجاء بها القَسْرُ
وَأَمْسَتْ عَزَازٌ* كاسمهـا بك عِـزَّةً ... تَشُقُّ على النَّسْرَيْن لو أَنَّها الوَكْـرُ
فَسِـرْ وَامْلأِ الـدُّنيا ضيـاءً وَبَهْجَـةً ... فبالأُفُقِ الدَّاجي إلى ذا السَّنا فَقْرُ
كـأني بهـذا العَـزْمِ لا فُـلَّ حَـدُّه ... وأقصاه بالأقصى وقـد قُضِيَ الأَمْرُ
وقد أصبـحَ البيتُ المُقَدَّسُ طاهراً ... وليسَ سوى جاري الدِّماءِ له طُهْرُ

---

(١) في النسخ الخطية: على.

(٢) هو ابن جوسلين كما في تقديم القصيدة، وقد وهم الدكتور شكري فيصل في تعليقه على البيت حين قال: «لعله يريد القمص صاحب طرابلس، وكان ممن أسره نور الدين». والمعروف أن أسر القمص صاحب طرابلس كان سنة (٥٥٩هـ) كما يحيلنا هو نفسه على مصدر تلك السنة، ونعلم أن القيسراني توفي سنة (٥٤٨هـ)، فهل يتكلم القيسراني عن حادثة وقعت بعد وفاته بنحـو إحـدى عشرة سنـة! انظر «خـريدة القصـر» قسم شعراء الشام: ١/١٥٨.

وقد أدَّتِ البيضُ الحِدَادُ فروضَها فلا عُهْدَةٌ في عُنْقِ سَيْفٍ ولا نَذْرُ
وصَلَّتْ بمعراج النبيِّ صَوَارِمٌ مساجدها شَفْعٌ وساجِدُها وِتْرُ
وإن تتيمَّمْ ساحل البَحْرِ مالكاً فلا عجبٌ أن يملكَ السَّاحِلَ البَحْرُ
سَلَلْتَ سُيُوفاً أثْكَلَتْ كُلَّ بَلْدَةٍ بصاحِبها حتى تَخوَّفَك البَدْرُ
إذا سارَ نورُ الدين في عَزَماته فقولا لِلَيلِ الإفك قد طَلَعَ الفَجْرُ
ولو لم يَسِرْ في عسكرٍ من جنوده لكانَ له مِنْ نَفْسِه عَسْكَرٌ مَجْرُ[1]
مَليكٌ سَمَتْ شُمُّ المنابر باسمه كما زُهيت تِيهاً به الأنْجُمُ الزُّهْرُ
فيا كعبةً ما زال في عَرَصَاتها مواسمُ حجٍّ لا يروِّعها النَّفْرُ
خَلَعْتَ على الأيامِ من حُلل العُلى ملابسَ من أعلامها الحَمْدُ والشُّكْرُ
١/ ٧٤ وَتَوَّجْتَ ثَغْرَ الشَّامِ منك جلالةً تمنَّتْ لها بغدادُ لو أنَّها ثَغْرُ
فلا تَفْتَخِرْ مِصْرٌ علينا بنيلِها فيُمناكَ نيلُ كلِّ مِصْرٍ بها مِصْرُ
رَدَدْتَ الجهادَ الصعبَ سهلاً سبيلُه ويا طالما أمسى وَمَسْلَكُه وَعْرُ
وَأَطْمَعْتَ في الإفرنجِ مَنْ كان بَأْسُه تخوَّف أن يعتادَه منهم فِكْرُ
وأقحمت جُرْدَ الخيلِ أعلى حصونها ولولاكَ لم تهجم على كافرٍ كَفْرُ
ومن يَدَّعي في قتلِكَ[2] الشِّرْكَ شركةً إذا لم يكن عند القوافي له ذِكْرُ
هي القانتاتُ الحافِظاتُ فروجَها فشاهِدُها عَدْلٌ ورائقها[3] سِحْرُ
ولو لم يكن في فَضْلِها وكمالها سِوَى أنها من بعد عُمْرِ الفتى عمرُ[4]

وله من قصيدةٍ يصف فيها وقائعه، أولها:

أما وخيالٍ زار ممن أحبُّه لقد هاج من ذكراه ما لا أغبُّه

---

(١) الجيش العظيم. انظر «اللسان» (مجر).

(٢) في (م) مثلك، وهو تصحيف.

(٣) في (م) ورايتها، وهو تحريف.

(٤) انظر أبياتاً من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٥٧ ـ ١٥٩.

إذا ما صبا قَلْبُ المحبِّ إلى الصبا ذكـرتُ نسيماً بـالثُّغـور مَهَبُّـهُ
فيـا نَفَحاتِ الشَّـام رِفْقاً بمهجـةٍ يُحامي عليها مُـدْنَفُ القَلْبِ صَبُّه
فـلا تسأَلَـنَّ الصَّـبَّ أيـن فـؤادُه فـإنَّ فؤادَ المرءِ مَعْ مَنْ يحبُّـه
وفي شُعب الأكوار مَن هو عـالمٌ غداةَ اسْتَطَارَ البـرق مَن طار لُبُّـه
يشيم ثغـور المُـزْن تهمي كـأنَّهـا سَنَا بِشْرِ نـورِ الدين تنهـلُّ سُحْبُه
إذا ما سما في مُبْهَمِ الخَطْبِ وجهُه تمـزَّق عن بَـدْرِ الـدُّجُنَّـة حُجْبُـه
تـولَّـد بين الغَيْثِ واللَّيْثِ والتُّقى منـافســةٌ أي الـثـلاثـة تِـرْبُـهُ
يعدُّ مضاءً في الظُّبـى، لا، وضربُه بها قلل الأعداء ما السَّيف ضَرْبُهُ
مكين الحِجا راضَ[1] الزمانَ بنفسه إلى الآن حتى لانَ وانقـاد صَعْبُهُ
حمى قُبَّة الإسلام بالخيل فاغْتَدَتْ وأوتــادهـا جُـرد الـطعــان وقُبُّـه
فكم هبـوةٍ أوقعن بالكُفْـرِ تحتهـا فمـا انقشعتْ إلا وللذُّلِّ جَـنْبُـه
كيوم الرُّها* الورهاء والهَامُ يـانـعٌ مليٌّ بـرعي الهنـدُوَاني خصبُـه
وشهبـاء هاجتهـا وغى صَرْخَـدِيَّـةٌ ثناها وليـلُ الحَرْبِ تنقضُّ شُهْبُهُ
وعـارِمَ يومـاً بالعُـريمة* فـاغتـدَتْ كـوادي ثمودٍ إذْ رغـا فيـه سَقْبُـهُ
وعاصَى على العاصي بأرْعَنَ خاطبٍ دم الإفك حتى أنكـحَ النَّصْلَ خطبُه
بـانِّب* لمـا أكسب المـال وانثنى بصـاحِبِ أنـطاكيـةٍ* وهـو كَسْبُـهُ
غداة هوى شـطرين للسَّيفِ رأسُه وللرُّمْـحِ حتى تـوَّجَ الرأسَ قَلْبُـهُ
على حين للخـطيِّ فيه عـواملٌ يعــاقبـه خَفْضُ الحُسَـام ونَصْبُهُ
وقـائـعُ محموديَّـةُ النَّصْرِ لم يـزل غريباً بها عن مَوْطِنِ السَّيْفِ غربُه
يقـومُ مقـامَ الجيشِ فيهـا وعيـدُه وتفعـلُ أفعــالَ الكتـائبِ كُتْبُـهُ
وحين انتضَتْـهُ عـزمـةٌ مِن قـرابـةٍ مضى وهو نَصْلٌ والممالكُ قـربه
إلى أن دَعَتْـهُ ربَّـهـا كـلُّ بَلْدَةٍ فليس من الأمصـارِ مـا لا يـربُّـهُ

---

(١) في الأصل و (ل) أرضى، والمثبت من (م)، وهي رواية نسخة في هامش الأصل.

ولما نزا بالقُمص* عُجْبٌ هَوَى به		على أُمِّ رأس البغي[1] والغَدْرِ عُجْبُهُ
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه		بعيد على الرجلين في السَّعي قربُه
تُعاقبه البُشْرى بأَخْذِ حُصُونِهِ		فيا عانياً ضرب البشائر ضَربُه
تناجي عزاز* باسمه تلَّ باشرٍ*		فيلعنُهُ[2] لَعْنُ الصَّريحِ وسبُّهُ
فإن يكن المقهورُ من ثُلَّ عَرْشُه		فهذا عمودُ الكُفْرِ قد طاحَ طُنْبُه
فَقُلْ لملوكِ الخافقين نصيحةً		كذا عن طريقِ اللَّيث تزار غُلْبُهُ
وخَلُّوا عن الآفاقِ فالشَّرقُ شَرْقُهُ		بحكم الرُّدَيْنيَّات[3] والغَرْبُ غَرْبُهُ
ولا يعتصم بالدَّرْبِ طاغٍ على القَنَا		فإنَّ القَنَا في ثُغْرَةِ النَّحْرِ دَرْبُهُ
رحيبُ فضاءِ الحِلْمِ عن ذات قُدْرَةٍ		إذا ضاقَ من صَدْرِ المملك رَحْبُهُ
عفوٌّ عن الجاني يكادُ الذي جنى		يكرُّ به شوقاً إلى العفو ذنبُهُ
أمُتَّخِذَ الإخلاص لله جُنَّةً		ومن يَعْتَصِمْ باللهِ فاللهُ حَسْبُهُ
أبوكَ استردَّ الشَّامَ بالسَّيْفِ عَنْوَةً		وللرُّوم بَأْسٌ طالما غالَ خَطْبُهُ
إذا ذبَّ عن أضغاثِ دنياه مالكٌ		فأنتَ الذي عن حَوزةِ الدين ذَبُّهُ
رأيتَ اتِّباعَ الحقِّ خيراً مَغَبَّةً		فأفرجتَ عن رأي يسرُّك غبُّهُ
وأوضحتَ ما بين الفريقين سُنَّةً[4]		بها عَرَفَ المربوبُ مَنْ هو رَبُّهُ
وَبَيَّنْتَ ما قد كانَ من كان يبتغي		دليلاً بأن الله مَن أنتَ حِزْبُهُ

١/ ٧٥

وقال ابنُ منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هيهاتَ يعصمُ من أردتَ حِذارُ		أنَّى ومن أوهاقك[5] الأقدارُ

---

(١) في (ل) على رأس أم البغي، وهووهم من الناسخ.

(٢) في (م) فلعنه.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٤٢ من هذا الجزء.

(٤) في (ل) مُنَّة.

(٥) مفردها وهق: حبل تشد به الإبل لئلا تند. انظر «اللسان» (وهق).

ومنهـا:

طَلَعَتْ عليك بجوسلين* ذريعة لا سَحْلَ أنشاها ولا إمرارُ
وسعادةٍ ما زلتَ تمري خلفها فيشفُّ وَهْوَ الناتقُ المِدْرَارُ
فأرتك ما يُجني الوفيُّ وفاؤه وأرته كيف يُحيَّن الغَدَّارُ
عودٌ أمرّ على أبارك طَلْعُهُ فأُحيل ذاك البر وهو بَوَارُ
ما زلتَ تُنْعِمُ وهو[1] يكفُرُ عاتياً والله يَهْدِمُ ما بنى الكُفَّارُ
حتى أتاحَ لقومهِ ما جَرَّه لثمود من عَقْرِ الفصيلِ قُدَارُ[2]
أسرى فأصبح في براثن آسرٍ ما زال يُدْمي ظفرَه الأظفارُ
سامٍ كَقَرْنِ الشمسِ يَقْبِسُ نورَه وتُغَضُّ دون محلِّه الأبصارُ
يَهَبُ التلاد من البلاد وما حَوَتْ إنَّ السَّماحة للبحارِ بحارُ
يقظانُ يخشى الله في خلواته لا مُترفٌ لاهٍ ولا جَبَّارُ
نَصَبَ المَرَاقِبَ[3] للعواقِب ناظراً فيها كذلك تربأ الأبرارُ
لا كالَّذين تعجَّلوا حَسَواتِها وتقلَّسوها بعد وهي خُسَارُ
دَرَجُوا وأدرج في ملفِّ رُفاتهم سوأى تُساءُ لِذِكْرِها الآثارُ
والمَرْءُ من يُطوى فَيَنْشُرُ طَيَّه ما أَوْدَعَتْهُ صُدُورَها الأخيارُ
قُلْ للأُلى ناموا على نأماته ما كلُّ هَبَّةِ بارحٍ إعْصَارُ
لا تأمنوا في الله بطشةَ ثائرٍ لله مِلْءُ سَرِيره أسرارُ
صافٍ إذا كَدِرَ المعادنُ عادلٌ إن حافَ حُكَّامُ الملوكِ وجارُوا
أعلى أبوه له النِّجاد وشِيد في صهواتها ممَّا ابتناه مَنَارُ
محمودُ المحمودُ آثاراً إذا نُظِمَتْ على جِيْدِ الدُّجى الأسمارُ

---

(١) في هامش الأصل: في نسخة ثم.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٨ من هذا الجزء.

(٣) مفردها المرقب والمرقبة: مكان الرقيب المشرف يرتفع عليه. «معجم متن اللغة»: ٦٢٨/٢.

دانَتْ لـه الأيامُ صاغِرةً كما دانت لـه في ظِلِّه الأمصارُ[1]

وله من أخرى، أولها:

* ما الملك إلا ما حواهُ نجادُه *

يقول فيها:

وتـدين حُسَّدُه لمحكم آيـه والفَضْلُ ما شَهِدَتْ به حُسَّادُه
شمسٌ إذا ما الحربُ زُرَّ جيوبها حَلَّ المعاقِدَ كَرُّه وطِرَادُه
ألوى ألدُّ حمى الشريعة جُهده وأذلَّ ناصيةَ الضَّلالِ جِهادُهُ
صَعَقَ البِرِنْسَ* وقد تلألأَ بَرْقُهُ وأطارَ ساكنَ جَأْشِهِ إرْعادُهُ
ولّى وقد سُلَّت فَسَلَّتْ ضغنه زبر تلقى فودهن فؤادُه
مستلئماً مستسلماً لا عدَّةٌ رَدَّ المُنَى عنه ولا اسْتِعْدَادُه
ولجوسلين* احتثَّهنَّ فأصبحت نُهْبَى لهنَّ بلادُه وتِلادُه
جاءت به بعد الشماسِ عوابسٌ قودٌ يلين لعُنقهنَّ قيادُه
وتصيَّدَتْهُ لك السُّعود وقلَّما ينجو[2] بخيرٍ من أردتَ[3] مصاده
دانى له[4] قيناه أدهم كلَّما غنَّاه طار شماتةً عُوَّادُه
سَلَبَتْ عَزَاز* عزاءه وبِقُورُس* محجوبةً فُرِشَتْ له أقتادُه
وبتلِّ خالد* يوم تَلَّ جبينَها خَلَطَ الثَّرى بجبينِهِ إخلادُه
وغداً بباشرُ تلَّ باشرَ* قَلْبُه بأحرِّ ما حَمَلَ القلوبَ عدادهُ
منَّتْ[5] أمانيَهُ بشائرُك التي عادَتْ لهنَّ مآتماً أعيادُهُ
وحبوتَ[6] مُلْكَك من نظيمِ ثُغُوره حَلْياً تَتَايَه تحتَه أجيادُه

(1) انظر «الباهر»: ١٠٤ فقد أورد ابن الأثير بعض أبياتها، ونسبها إلى بعض الشاميين.
(2) في النسخ الخطية «ينجي».
(3) في (م) أرعت.
(4) في (ل) وأناله.
(5) أي قطعت. «القاموس المحيط» (منَّ).
(6) في الأصل: حبون، والمثبت من (ل) و(م).

لا يَخْدَعَنْك فإنَّما إصلاحُ مَنْ يُخشى انتشاطُ خِناقِه إفسادُه
أنزِلْهُ حيثُ قَضَتْ له غَدَراتُه وأحلَّه طُغيانُه وعِنادُه
في حيثُ لا يأوي له[1] سَجَّانه حَنَقاً[2] ويَكْشِطُ جِلْدَه جلَّادُه
وَثَنٌ هَدَمْتَ بني الضَّلال بهَدْمِه وغَدَتْ عبادَك عَنْوَةً عُبَّادُه
فَتَكَتْ به آياتُ مَنْ لِمُحمَّدٍ ولِدِينه إبداؤه وعِوَادُه[3]
لو[4] أنشطَ البلدُ الحرام تواءمت تُثْني عليه تلاعُه ووِهادُه
وَلَوَ آنَّ مِنْبَرَه أطاق تكلُّماً نَطَقَتْ بباهرِ فَضْله أعوادُه
نامَ الخليفةُ واستطار لذَبِّه عن سُدَّتيه واسْتُطير رُقادُه
رَجَعَتْ لك العِزَّ القديمَ سيوفُه ما زانَ رونقَ مائها أغمادُه
من بعد ما نَعَقَ الصَّليبُ لحزبه ورأيت زَرْعَ الملكِ حانَ حَصادُه
أنَّى تُميلُ الحادثاتُ رِواقَهُ بهبوبها وابنُ العمادِ عِمادُه

فصل

قال ابنُ الأثير: ولما سار نور الدين إلى قلاع جُوسلين* ملك بعضاً وبقي بعض[5]، فاجتمعت الفرنجُ، فالتقوا مع نور الدين بدُلُوك*، فهزمهم، واستولى على دُلُوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن مُنير قصيدةً، منها[6]:

هي الخَيْلُ خَيْرُ عَتادِ الكريـ ـم يحضر للهمِّ إحضارَها

---

(١) أي لا يرحم له. انظر «اللسان» (أوا).
(٢) في (ل) حتفاً.
(٣) الضبط من (ل).
(٤) في الأصل أو، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) في النسخ الخطية: بعضاً.
(٦) انظر «الباهر»: ١٠٤ ــ ١٠٥، وقد أورد ابن الأثير بعض أبيات القصيدة، ونسبها إلى بعض الشعراء الشاميين.

ضَغَمْتَ فأدْرَدْتَ[1] أفواهَهَا وسِرْتَ فقلَّمْتَ أظْفَارَها
إلامَ ولم تُبْقِ مما غَزَوْتَ قُلُوباً تكابِدُ إذعارها
أما في مُفَصَّل آي الْقِرا عِ أن تَضَعَ الحربُ أوزارَها
عسى أنْ يُحمَّ لهذا الحما مِ أنْ يتوكَّرَ أوكارَها
وما يومُ من غلته واحدُ فتودعَه اللُّسْنُ أشعارَها
وأينَ المَقاولُ مما فَعَلْتَ ولو شَفَعَ[2] القَطْرُ إكثارَها
فكم أجْلَبَتْ[3] خَلْفَك الجافخاتُ[4] فَصَلْصَل فخرُكَ فخَّارَها
أعَدْتَ بِعَصْرِكَ هذا الأنيقِ فتوحَ النبيِّ وأعصارَها
وكان مُهَاجِرُها تابعيك وأنصارُ رأيك أنصارَها
فجدَّدت إسلام سَلْمانها وعمَّرَ جدُّك عمَّارَها
وما يوم إنِّب* إلا كتيـ ـكَ بل طالَ بالبَوْعِ أشبارَها
وأيامك الغرُّ من بعده تُعيد إلى الطي أغرارَها
ولما هببت ببُصْرى* سمكتَ بأهباء خَيْلِكَ أبصارَها
ويومٌ على الجون جون السرا ة عَزَّ فَسَعَّطَها عارها
صدمت عُرَيْمَتَها* صدمةً أذابتْ مع الماء أحجارَها
وفي تلِّ باشر* باشرتَهُمْ بزحفٍ تسوَّرَ أسوارَها
وإنْ دالكتهم دُلُوك* فقد شددت فصَدَّقْتَ أخبارَها
وشبَّ التَّدامرُ حتى طلعتَ عليها فولَّتْكَ أدبارَها
مشاهِدُ مشهورَةٌ نَمْنَمَتْ على صفحةِ الدَّهْرِ أسطارَها
يلذُّ الأغاني ترجيعُها ويستسفر السَّفْرُ أسفارَها

---

(١) في الأصل: فأدررت، وفي (م): فارددت، والمثبت من (ل).
(٢) في (ل) أشفع.
(٣) في الأصل: أجفلت، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) المفاخرات بكبر. انظر «اللسان» (جفخ).

بنيتَ لوفدِ المنى كعبةً تجيِّرُ المعلِّقَ أستارَها
ومُلِّكْتَ والأرض مغبرَّة تكادُ تُحَدِّثُ أخبارَهَا
فما زِلتَ تَدْجُنُ حتى محوتَ دُجاها وشَعْشَعْتَ أنوارَها
وَصَلْتَ فأَعْزَزْتَ مسكينَها وَصُلْتَ فأذْلَلْتَ جَبَّارها
وصغتَ حُلًى من عُلاً أَحْكَمَتْ على عُنقِ الدَّهْرِ أَزْرارَها

قال أبو يعلى [التميمي](١): وفي رجب وردت الأخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الإفرنج النازلين بإزائه قريباً من تلِّ باشر*، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد* الذي كان مُضايقَه ومنازلَه(٢).

قال: وفي أيام من المحرَّم وصل جماعةٌ من حُجَّاج العراق وخُراسان المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعةٍ(٣) من كفَّار العُربان، وحكوا مصيبةً ما نزل مثلها بأحدٍ في السنين الخالية، ولا يكونُ أبشع منها. وذُكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خُراسان وتُنَّائها(٤)، وفقهائها وعلمائها، وقضاتها، وخواتين أمراء العساكر السُّلْطانية والحُرَم العدد الكثير، والأموال الجمَّة، والأمتعة الوافرة، فأُخذ جميع ذلك وقُتل الأكثر، وسَلِمَ الأقل، وهتكت النساء وسُلبن، وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصُّدور لهذه النازلة، فَكُسيَ العاري منهم وأُطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق(٥). ﴿ذَلِكَ تقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١ ـ ٣١٢.
(٣) في «ذيل تاريخ دمشق» لجماعة، وهو تصحيف.
(٤) أي من أهلها المقيمين فيها، انظر «اللسان» و«أساس البلاغة» (تنأ).
(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠.

قال: وكان مجاهد الدين بُزَان قد توجَّه إلى حصنه صَرْخَد* لتفقّدِ أحواله، فعرضت [بعده][1] نُفْرَةٌ بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الأغراض والفساد، واقتضت الحالُ استدعاء مجاهد الدين لإصلاح الحال، فوصل وتَمَّ ذلك بوساطته على شرط إبعاد الحاجب يوسف؛ صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، وتوجَّهوا ولم يعرض لشيء من أموالهم، وقصد بَعْلَبَكَّ فأكرمه واليها[2].

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخُلْف المستمرِّ بين وزيرها ابن مَصَال وبين الأمير المُظَفَّر ابن السَّلَّار[3]، ووقوع الحرب وسفك الدِّماء إلى أن أسفرتِ الحالُ عن قتل ابن مصال الوزير، وانتصاب ابن السَّلَّار موضعه في الوزارة[4].

قال: وفي سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك بن الفقيه عبد الوهَّاب الحنبلي[5]، وكان إماماً فاضلاً، مناظراً مستقلاً، مفتياً على مذهب الإمامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدُّم، وكان يعرف اللِّسان الفارسي مع العربي، وهو حَسَنُ الحديث في الجدِّ والهزل، وكان له يومٌ مشهود، ودُفن في جوار أبيه وجدِّه في مقابر الشُّهداء[6].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٢٦ وص ٢٩٢ من هذا الجزء.
(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.
(٥) سلفت ترجمة أخيه نجم في حاشيتنا رقم ٣ ص ٧٤ من هذا الجزء. وذكرنا ثمة مصادر ترجمة أبيه عبد الوهاب.
(٦) من مقابر الباب الصغير، جنوبي دمشق، انظر «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/٢١٩.

قال: وتوفي عقيب وفاته الشريف القاضي النقيب أبو الحسين[1] فخر الدولة ابن أبي الجن، وتفجَّع الناس عليه لخيريته وشرف بيته[2].

ودخلت سنة ست وأربعين [وخمس مئة][3]

ففيها حاصر نور الدين رحمه الله دمشق لمعاضدةِ أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدَحه ابنُ منير بقصيدةٍ يحرِّضُه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماة وهو محاصر دمشق، وقد تخلَّف عن الخدمة لمرضٍ عَرَضَ له، منها:

أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ له ... تصديقَ واصفِه سَراةُ المِنْبَرِ
لا المستطيل بمصر ظلَّ قُصُوره ... والمستطال إليه شُقَّة صَرْصَرِ
يا نورَ دين الله وابنَ عمادِه ... والكوثَرَ بن الكوثر بن الكَوْثَرِ
صفِّر بحدِّ السَّيْفِ دار أشائبٍ ... عَقَلُوا جيادَكَ عن بناتِ الأَصْفَرِ
هُم شَيَّدُوا صَرْحَ النِّفاقِ وأوقَدُوا ... ناراً تُحَشُّ[4] بهم غداً في المَحْشَرِ
أذكوا بجِلَّق حَرَّها واستشعرت ... لفحاتُها بين الصَّفا والمَشْعَرِ
شَرِّدْ بهم مَنْ[5] خَلْفهم مُسْتَنْجداً ... ما ظَاهَرَ الكُفَّارَ مَنْ لم يَكْفُرِ
لا تَعْفُ بل شَقَّ الهُدَى نَفْسَ الذي ادَّ (م) رَعَ الضَّلالَ على أغرَّ مُشَهَّرِ
قَلِّدْه ما أهدَى عليٌّ لِمَرْحَبٍ[6] ... فلقد تهكَّمَ في الخِداعِ الخَيْبَرِي

١/٧٨

(١) في الأصل: أبو الحسن، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) أي توقد. «اللسان» (حشش).
(٥) في (ل) شردتهم، وهو تصحيف، وفيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بهم مَنْ خلفهم لعلهم يذكَّرون﴾ سورة الأنفال: الآية ٥٧.
(٦) مِرْحَب هو اليهودي الذي قتله الإمام علي بن أبي طالب في خيبر سنة (٧هـ)، وقيل: إن الذي قتله محمد بن مسلمة، وهو لا يصح. انظر «سيرة ابن هشام»: ٣٤٧/٣، و«الكامل»: ٢١٩/٢، و«تاج العروس»: (رحب).

مـا الغِشُّ ممن أُمُّـه نصرانـةٌ ... لم تختتن كـالغِشِّ من مُتَنَصِّـرِ
أَذْكَتْ لنا هذي العـزائمُ لا خَبَتْ ... مـا غـارَ من سُنَنِ الملوكِ الغُبَّـرِ
إثقـابُ آراء المُعِـزِّ(١)، وخَفْقُ را ... ياتِ العزيز(٢) ويَقْظَةُ المُسْتَنْصِرِ(٣)
شَمِّـرْ فقـد مَـدَّت إليـك رِقـابَهـا ... لا يُـدْرِكُ الغـايـاتِ غَيْـرُ مُشَمِّـرِ
أَوَلَسْتَ من مـلأ البَسِيْـطَةَ عَـدْلُـه ... واجْتَثَّ(٤) بالمَعْرُوفِ أَنْفَ المُنْكَرِ
حَدَبُ الأَبِ البَرِّ الكبيرِ، ورأفةُ الْـ ... أُمِّ الحَفِيَّـةِ بـاليتيـمِ الأَصْغَـرِ
يا هضبةَ الإسلامِ من يُعْصِمْ بها ... يُـؤمن وَمَنْ يتـولَّ عنهـا يَكْفُـرِ
كانوا على صَلْبِ الصَّليب سرادقاً ... أنْـبَتْ بـنيَّـتـه بـكـلِّ مُـذَكَّـرِ
آثـارُهم نَجَسٌ أذالَ المسجِدَ الْـ ... أقصى فَصُنْ مـا دنَّسُـوه وَطَهِّـرِ
حارَ(٥) الخليل ومَنْ بغَـزَّة هاشمٍ ... بلُهـامـك(٦) المُتَـدَمشِقِ المُتَمَصِّـرِ
بعَرَمْرَمٍ صَلَمَتْ وعـاوِعُه(٧) عُـرَى ... أسمـاعِ جَيْحُونٍ* وسيْفِ البَـرْبَـرِ
يفترُّ عن ملكِ الملوك مُنَحِّلِ الْـ ... أَنْـواء بـل سَعْـدِ السُّعـود الأَكْبَـرِ
عن طاعِنِ الفرسـانِ غيرَ مكـذِّبٍ ... وَمُتَمِّمِ الإحسـانِ غَيْـرَ مُكَـدِّرِ
بَدْرُ الجَحَافِلِ والمحافلِ فارسُ الـ ... آسادِ في غابِ الوشيـجِ(٨) الأَسْمَرِ
مَلِكٌ تسـاوى النَّاسُ في أوصـافه ... عُـذِرَ المُقِلُّ وبـانَ عَجْـزُ المُكْثِرِ
يـا أيهـا المَلِكُ المُنَـادِي جُـودُه ... في سـائر الآفـاقِ هل مِنْ مُعْسِـرِ
إنَّ القصـائِـدَ أَصبحَتْ أبكـارُهـا ... في ظـلِّ مُلْكِكَ غـاليـاتِ الأَمْهُرِ

---

(١) هو المعز لدين الله الفاطمي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٥٩ ـ ١٦٧.
(٢) هو العزيز بالله نزار بن مَعَد. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٦٧ ـ ١٧٣.
(٣) هو المستنصر بالله معد بن علي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٨٦ ـ ١٩٦.
(٤) في الأصل واجتب، والمثبت من (ل) و(م)، ولكل وجه.
(٥) في (ل) و(م) جار.
(٦) اللُّهام: الجيش الكثير؛ كأنه يلتهم كل شيء. «اللسان» (لهم).
(٧) أي جلبته. انظر «اللسان» (وعع).
(٨) الوشيج: شجر الرماح. «معجم متن اللغة»: ٥/٧٥٨.

إنْ كنتَ أحييتَ ابنَ حمدانٍ[1] لها[2] ... فأنا الذي غَبَّرْتُ في وجه السَّرِي[3]
ولأَنْتَ أَكْـرَمُ من أُنـاسٍ نـوَّهـوا ... باسمِابن أوسٍ[4] واسْتَخَصُّوا البحتري
ذلَّتْ لـدولتِـكَ الـرِّقـابُ ولا تَـزلْ ... إنْ تَغْـزُ تَغْنَمْ أو تُقَاتِـلْ تَـظْفَـرِ

وكتب إليه من حماةَ أيضاً، وهو محاصر دمشق، قصيدةً ينال فيها من صاحبها، منها:

أبـوكَ أَبٌ لـو كـان للناس كُلِّهم ... أبـاً ورضوا وَطْءَ النُّجومِ لَفُنِّدُوا
وما ماتَ حتى [سَدَّ][5] ثُلْمةَ مُلْكِه ... بـك اللَّهُ تَرْمي مـا رماه فَتُصْرِدُ
صَدَمْتَ ابن ذي اللُّغْدَين فانحلَّ عَقْدُه ... وكـالسِّلْكِ قد أمسى يُحَـلُّ ويُعْقَدُ
يُقَلِّبُ خَلْفَ السَّجْفِ عيناً سَخِيْنَةً ... ويبكي بـأُخرى ذات شَتْرٍ وَيَسْهَدُ
ولا غَـزْوَ قـد أبقى أبـوه وجَـدُّه ... لـه كلَّ يـومٍ ثَـوْبَ عَجْز يجدَّدُ
فيـا راكبـاً إمَّـا عَـرَضْتَ فَبَـلِّغَنْ ... بيـوتاً على جَيْرُون* بالـذُّل تُعْمَدُ
وَقُـلْ لمبيرِ الـدِّينِ وَهْـوَ مُجِيْـرُه ... بـزعمٍ لـه وَجْـهُ الحقيقـةِ أَرْبَـدُ
حَمَـلْتَ الصَّليبَ بـاغيـاً وَنَبـذْتَـهُ ... وثغْـراكَ مـوطـوسٌ ببـابٍ وأَدْرَدُ
وحـارَبْتَ حزبَ الله واللَّهُ نـاصِـرٌ ... لنـاصـره ودينُ أحـمـدَ أَحْمَـدُ
تَنَصَّـرْتَ حينـاً والبـلاءُ مـوكَّـلٌ ... ولا بُـدَّ من يـومٍ بـه تتهـوَّدُ
وأُقْسِمُ مـا ذاقَ اليهـودُ بـإيـليـا ... ومَـوْضِعُهـا من بختنَصَّـرَ أسـوَدُ
كبعضِ الذي جُرِّعْتَـهُ فَسَرَطْتَـهُ[6] ... وأُيِّـدَ فيـه من عمـاك المُؤَيَّـدُ ٧٩/١

---

(١) هو سيف الدولة الحمداني علي بن عبد الله بن حمدان. انظر أخباره في «يتيمة الدهر»: ١/١١ ــ ٢٦.
(٢) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «بها».
(٣) هو الشاعر السري الرفاء المتوفى سنة (٣٦٢هـ)، وكان من شعراء سيف الدولة. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٢/٣٥٩ ــ ٣٦٢.
(٤) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الشاعر المشهور.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) أي بلعته. «اللسان» (سرط).

ولايتُـهُ عَـزْلٌ إليـكَ مُـوَجَّـهُ ... وتصحيفُـه قَتْـلُ عليـكَ مُـؤَبَّـدُ
رمـاكَ ببـاقِـلاّ دمشق فلم تكن ... سوى بَقْلَةٍ حمقاءَ بالحُمْقِ تُحْصَدُ
وجـالَـدْتَ جَـلّاداً وأنتَ مُؤَنَّـثٌ ... تَـذَكَّـرْتَ والجـلّادُ أَدْهى وأَجْلَدُ
تـطاوَلْتَ لا نفسٌ تسمَّى ولا أَبٌ ... وراءك زحفـاً إنمـا أنتَ مُقْعَـدُ
أمسعاةَ نورِ الدين تبغي ودونها الْـ ... أسنَّـة تبـر والعـوامِـلُ[1] تَعْضُـدُ
بمحمـودٍ المحمود سيفـاً وساعـداً ... حملت[2] لقد ناجتك صماءُ مُـؤْيِدُ[3]
وهل يستوي سارٍ تأسَّدَ طاويـاً[4] ... ونشـوان يُعْلى معصمـاً ويـؤيـدُ
تَنَصَّـرْتَ أمَّا بـل تمجَّسْت والـداً ... وعمَّـا فَعِـرْقُ الكُفْـرِ فيـك مـردَّدُ
تخذتَ بني الصُّوفي أسـراً وأُسرةً ... لكي يُصْلحوا ما في يديك فَأَفْسَدُوا
لَعَمْري لَنِعْمَ العبدُ أنتَ تجيعه الـ ... ـموالي وتُـوليـه هَـوَانـاً فَيَحْمَـدُ
إليكم بني العلّات عن مُتَشاوسٍ ... له الشَّام مرقا[5] والعراقُ مُرَقَّدُ[6]
وما مِصْرُ إلا بعضُ أمصارِه التي ... إلى أمـره تسعى قِمـاءً وتَحْفِـدُ
أنيبـوا إليـه فَهْـوَ أَرْحَـمُ قـادرٍ ... له الصَّفْحُ دينٌ واقبلوا النُّصْحَ تَرْشُدوا
ولا تَـرْشِفُـوا نَفْثَ المُؤَيَّـدِ إنـه ... عن الخيرِ يزوي أو إلى المَيْنِ يَسْنُدُ
وفـرُّوا إلى مـولاكُمُ والـذي لـه ... عليكم أيـادٍ وَسْمُهـا ليس يُجْحَـدُ
ولا تَـكْـفُـروه إنَّـمـا أنـتُـمُ لـه ... ومنـه ويـوم عنـد حـورانَ يَشْهَـدُ
غداةَ على الجَوْلان* جَوْلٌ وللظُّبى ... رُعودٌ فريصُ المـوتِ منهنَّ تُرْعَـدُ
ولمـا اكفَهَـرَّ اليـوم واربَـدَّ وجهُـهُ ... وعـوَّذ مـرهـون وفَـرَّ مـزبّـدُ

---

(١) مفردها عامل وهو صدر الرمح. «اللسان» (عمل).
(٢) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «جهلت».
(٣) الصماء: الداهية الشديدة، والمؤيد: كمؤمن: الأمر العظيم، والداهية. «القاموس المحيط» (صمم، آد).
(٤) في (م) طوياً.
(٥) في الأصل و(ل) مرفا، والمثبت من (م).
(٦) في الأصل و(ل) مرفد، والمثبت من (م).

وأيقنَ مَنْ بين السَّدير وجاسِمٍ[1] بـأنَّ الحرارَ السُّـودَ بالجُـرْد تجردُ
رَدَتهم على بُصْرى* وصَرْخَدَ* خَيْلُه وقد أبصرتْ بصرى رَداها وصَرْخَدُ
وطاروا تهزُّ المُـرْهِفَات طُـلاهم[2] كما انصاعَ من أُسْدٍ نَعَام مُشَـرَّدُ
وليلةَ ألقى الشرك بالمَـرْجِ بَرْكَـهُ ومـارِجُ نيـرانِ الـوغى يتـوقَّـدُ
رمى وأخوه مَغْرِبَ الشَّمْسِ دُونكم بمشـرقها غضبـان يَعْدُو وَيُسْئِـدُ[3]
فَمُـذْ وَرَدَتْ مـاءَ الأرنط[4] مُغِـذَّةً أثـارَتْ بثَـوْرَا[5] غُلَّة لـيسَ تَبْـرُدُ
أيا سيفُ شامَتْهُ يد الملك صارماً فيهمـد[6] إذ يسري ويسـري[7] فَيُمْهِدُ
دمشقَ دمشقَ إنما القُدْسُ سَـرْحَةٌ ومـركَـزُهـا صَـرْحٌ عليهـا ممـرَّدُ
حَمُوها لكي يحموا وقد بلـغَ المدَى بهم أجـلُ حَتْمٌ وعُـمْـرُ محـدَّدُ
متى أنا راءٍ طائرَ الفَتْحِ صادِحاً يُـرَفْـرِفُ في أرجـائهـا ويُغَـرِّدُ

وله من قصيدة أخرى:

نَـذْرُكَ بـالغُـوطتين قـد ضَمِنَتْ رَبْـوَتُـهـا* ريعـه وَمُـقْـرَاهـا*
أطلِعْ لها الشَّمْسَ من جبينكَ لم يَـرْجُ سِوَاهـا في النَّـوْمِ جَفْنـاهـا
فـالخَيْلُ صـور إلى تسـاهم سَهْـ ـمَيْها* وملهًى في بيت لهياهـا*
دولـة مَـنْ دانَـتْ الـبِـلادُ لـه وعَـمَّـهـا ظِـلُّه فـأَغْـنـاهـا
لَا بِسِـواهـا تليـقُ بـهجـتـهـا ولا سـواه تـبـغـي رعـايـاهـا

---

(١) قرية في حوران بينها وبين دمشق (٥٠) كيلومتراً، منها أبو تمام الشاعر المشهور، انظر «معجم البلدان»: ٢/٩٤، و«التقسيمات الإدارية»: ٩٨٩.
(٢) الأعناق «القاموس المحيط» (طلي).
(٣) أي يمشي. انظر «اللسان» (سأد).
(٤) هو نهر العاصي.
(٥) ثورا: أحد فروع نهر بردى.
(٦) في (ل): فيمهد.
(٧) في الأصل: فيهمد، والمثبت من (ل) و(م).

قال أبو يعلى: وفي عاشر المحرَّم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذراء* من عمل دمشق وما والاها، وفي الغد قصد فريقٌ وافر منهم ناحية السَّهْم* والنَّيْرَب*؛ وكَمَنُوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج[1] منها إليهم أسرع النَّذير إليهم فحذَّرهم وقد ظهر الكمين، فانهزموا إلى البلد. وفي الغد نزل نور الدين بعسكره على عيون فاسريا* بين عذراء ودُومة*، وامتدُّوا إلى تلك الجهات، ونزلوا من الغد في أراضي حجِّيرا* وراوية* في الخلق الكثير والجم الغفير، وانبثَّت أيدي المفسدين من العسكر الدمشقي والأوباش، من أهل العيث والفساد في زروع النَّاس فحصدوها، وفي الثمار فأفنوها، بلا مانع ولا دافع، وتحرَّك السعر وانقطعت السَّابلة، ووقع التأهُّب للحصار، ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلَّا صلاحُ أمر المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد، فذلك المراد. فلم يَعُدِ الجوابُ إليه بما يرضاه، فنزل في أرض مسجد القدم* وما والاه من الشَّرق والغرب. وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبليِّ البلد.

١/ ٨٠

قلتُ: هو الذي يُسمَّى في زماننا بمقبرة المعتمد؛ بين مسجد القدم ومسجد[2] فلوس*.

قال: وهذا منزلٌ ما نزله أحدٌ من مقدَّمي العساكر فيما سلَف من السِّنين، وأهمل الزَّحف إلى البلد إشفاقاً من قتل النُّفوس. ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدورُ أهل الصَّلاح، وزادَ إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، والمناوشات في كلِّ يوم

(١) في الأصل: خرجوا، ثم رسم فوقها حرف الجيم كأنه تصحيح لها، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (م) مسجد طوس، وهو تحريف.

مُتَّصلة من غير مزاحفةٍ ولا محاربة. فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر، فرحل العسكر النُّوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا* وحلقبلتين[1] والخامسين[2] المصاقبة للبلد، وما عُرف في قديم الزمان من أقدَمَ على الدنوِّ منها. ثم رحل في العشرين من صَفَر إلى ناحية دَاريًّا* لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الإفرنج من البلد لقوَّة عزمه على لقائهم. وصار العسكرُ النُّوري في عددٍ لا يُحصى، وفي كلِّ يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائفِ التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لأحدٍ من عسكره في التسرُّع إلى قتال أحدٍ من المسلمين، وكانوا ـ يعني أهلَ البلد ـ يحملهم الجهلُ والغرور، على التسرُّع والظهور، ولا يعودون إلا خاسرين مفلولين[3]. وأقام على هذه الصُّورة، ثم رحل إلى ناحية الأَعْوَج* لقُرب عسكر الإفرنج وعَزْمهم على قصده، واقتضى رأيه الرَّحيلَ إلى [ناحية][4] الزَّبَداني* استجراراً لهم، وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعة آلافِ فارس مع جماعةٍ من المقدَّمين ليكونوا في أعمال حَوْرَان مع العرب لقصد الإفرنج ولقائهم، وترقباً لوصولهم، وخروج العسكر الدمشقي إليهم، واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم. واتفق أن عسكر الإفرنج رحل[5] عقيب رحيله إلى الأعوج*، ونزل به في ثالث ربيع الأوَّل، ودخل منهم خَلْقٌ كثير إلى البلد لقضاء حوائجهم،

---

(١) هكذا رسمت في النسخ الخطية، وقرأها كرد علي في «غوطة دمشق»: ٢٣٩ حلفبلتا نقلاً عن ابن القلانسي في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٣. وحلفبلتا: قرية داثرة كانت قرب قبر الست زينب جنوبي دمشق. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٩٠، و «غوطة دمشق»: ٢٢٨، ولم أجد في المراجع التي بين يدي قرية برسم حلقبلتين، فلعلها هي.

(٢) قرأها كرد علي في «غوطة دمشق»: ٢٣٩ «الخامس»، وقرأها الخامسين في «مجلة المجمع العلمي»: ١٦/ ١٦١.

(٣) في النسخ الخطية «مغلولين»، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٤.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٥) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٤ وصل.

وخرج مجير الدين ومؤيِّدُه في خواصِّهما، وجماعةٌ وافرة من الرَّعية، واجتمعا[1] بملكهم وخواصِّه، وما صادفا عنده شيئاً مما هجس في النُّفوس من كثرة ولا قوة، وتقرَّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بُصْرى* لتملُّكه واستغلال أعماله. ثم رحل عسكر الإفرنج إلى رأس الماء، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم؛ لعجزهم واختلافهم، وقصَدَ من كان بحَوْران من العسكر النُّوري، ومن انضاف إليهم من العرب في خَلْقٍ كثير ناحية الإفرنج للإيقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الإفرنج إلى لَجَاة حوران[2] للاعتصام بها، ونُمِيَ الخبرُ إلى نور الدين، فرحل ونزل على عين الجرِّ من البقاع، عائداً إلى دمشق، وطالباً قصد الفرنج والعسكر الدمشقي. وكان الإفرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بُصْرى* لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم، وظهر إليهم سُرخاك[3] واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الفرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيِّدَه يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن نَدفعه ما رحل عنكم[4].

قال أبو يعلى: وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المِصْري إلى ثغور السَّاحل في غايةٍ من القُوَّة، وكثرة من العِدَّة والعُدَّة، وذُكِرَ أن عدَّة مراكبه سبعون مركباً حربية مشحنة بالرِّجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد أُنفق عليه فيما حُكي وقرَّب ثلاث مئة ألف دينار. وقَرُبَ من يافا من ثغور الفرنج، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به، واستولوا على عدَّةٍ وافرة من

---

(١) في الأصل: واجتمعوا، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) اللجاة: اسم للحرة السوداء التي بها. انظر «معجم البلدان»: ١٣/٥.

(٣) قتل سنة (٥٥٢هـ) انظر ص ٣٦٠ من هذا الجزء.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٢ ـ ٣١٤.

مراكب الرُّوم والإفرنـج، ثم قصدوا ثغر عكًّا، ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدَّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا مـن حُجَّـاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكُلِّ مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويـخ الفرنجيَّة، فاتَّفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده إليها لمضايقتها، وحدَّث نفسه بملكها لعلمه بضعفها، وميل الأجناد والرَّعية إليه، وإشارتهم لولايته وعدله[١].

قال: وذُكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلـغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلةً، ثم رحل ونزل بالدلهميَّة من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كَوْكَبا غربـي دارَيَّا*، ثم نزل بأرض داريـا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الأجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلا اليسير ممن كان يخرج أولاً، ثم تقدَّم ونزل القطيعة[٢] وما والاها، ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحفٍ ولا شدٍّ في محاربة، تحرُّجاً من قتل المسلمين، وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أُرفِّهُهُم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين[٣]. ١/ ٨١

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلُّم نائبه الأمير حَسَّان[٤] المَنْبِجي مدينة تل باشر* بالأمان في الخامس والعشرين من ربيـع الأول، وورد مـع

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٥.

(٢) قرية دائرة، كانت قرب ميدان الحصا، جنوبـي دمشق. انظر «غوطة دمشق»: ٢٣٥، ٢٤٢.

(٣) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣١٥.

(٤) في النسـخ الخطية: حسن، وهو تحريف، وسيرد الاسم على الصـواب ص ٣٠٨ من هذا الجزء، وفيه أن حسان تسلم تل باشر بعد فتـح نور الدين لدمشق، وهو أيضاً ما ذكره ابن العديم في «زبدة الحلب»: ٢/ ٣٠٣.

المبشرٌ جماعةٌ من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال. وتردَّدت المراسلات في عقد الصُّلْح مع أهل دمشق على شروطٍ واقتراحات، وتردَّد فيها الفقيه بُرْهان الدين علي البَلْخي[1] والأمير أسد الدين شِيركُوه، وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرت الحال على قَبول الشروط المقترحة، ووقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرِّضا به في عاشر ربيع الآخر. ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بُصْرى* للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب؛ لأنَّ سُرْخاك[2] كان شاع خلافه وعصيانُه، ومال إلى الفرنج فاعتضدَ بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه، وأنهض إليه فريقاً وافراً من عسكره[3].

قلتُ: ولابن منير في نور الدين يذكر وقعة الجَوْلان وغيرها قصيدة، أوَّلها:

ما بَرَقَتْ بيضُكَ في غمامها ... إلا وغِيْثَ الدين لابتسامها

يقول فيها:

محمود المحمود جِدًّا وَجَداً ... أرخص جلد الأرض حكم عامها
مَلْكٌ أزالَ الرُّومَ عن صُلْبانها ... دفاعُهُ وكَبَّ من أصنامها
جَال على الجَوْلان أمس جَوْلةً ... صفَّرت الأُدْحيَّ[4] من نعامها[5]
والجون قد جرَّعها أُجونه ... وَفَلَّ مشحوذاً من اعتزامِها
وشدَّ في القِد له مليكها ... قودَ عَتُودِ القَوْط[6] في شِبَامها

---

(١) انظر ص ٢٩٢ من هذا الجزء.
(٢) الضبط من (ل).
(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٥ ـ ٣١٦.
(٤) الموضع الذي تبيض فيه النعامة. «اللسان» (دحا).
(٥) في (ل) ثعامها، وهو تصحيف.
(٦) في (ل) عنود القنوط، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل و(م) والعتود: من أولاد المَعز، والقوط: القطيع اليسير من الغنم. انظر اللسان» (عتد، قوط).

وفي الرُّها* صابَتْ له سحابةٌ صاروا جفاءً خَفٌ في التطامها
وهَبَّ في هاب* له عواصِفٌ تجهَّمتها الهِفُّ[1] من جَهامها
وكَفرلاثا* لاث في جبينها لَثْمُ ظُبًى أتت على لثامها
وقائِعُ يرفضُّ تحت وَقْعها نَظْمُ الثُّريا في فضا مصامها
فساعةُ البيضِ إذا عدَّدها سوطُ عذابٍ صُبَّ في أيامها
وَاعجباً لعُصب الشِّرْك التي لم يَعْصِبِ الرُّشْدُ على أحلامها
حكمةٌ استواؤها في غيِّها في نَقْضِ ما أُحْصِدَ[2] من إبرامها
مُظَفَّرُ الرَّاياتِ والرَّأي إذا الـ ـحَرْبُ مَشَتْ تَعْثُر في خِطَامها
عَدَتْ به حَدَّ العَلاءِ هِمَمٌ هنَّ النُّجومُ أو نواصي هامها
جلَّت له الدُنيا حُلى[3] زِبْرِجها عَفْواً فلم يلو[4] على حُطامها
رأتْهُ وهو اللَّيثُ يَدْمي ظُفُرُهُ أنْفَذَ في المُشْكِلِ من حُكّامها
فتوَّجَتْه العِزَّ في مرتبةٍ تمنطقَ الجوزاءَ في نِظَامها
غضبانُ للإسلامِ لا يغيظه اسْـ تسلامُها للقَسْرِ[5] من إسلامها
خطٌّ على مِثْلِ أبٍ طاعَتْ له الـ آفاقُ واسْتَشْرَفَ لاغتنامها
تصرُّفُ[6] الدُّنيا على إيثاره[7] عِراقَها مُسْتَرْدِفاً بشامِها
لو لم تكن دون مِنًى فاتَ المُنَى وأُقْعِدَ الفائزَ من قُوّامها
وامتكَّ ماءَ مكَّةٍ رواضعٌ يقصُر باعُ الدَّهْرِ عن فِطَامها
وصارَ كالجمرِ الجِمَارُ وخلا من أهلِهِ الأشرف من مقامها
حَمَيْتَها لا زِلت تَرْقَى في حمًى من مُؤْلمِ الأرداء أو لِمَامها

---

(١) الهِفُّ: السحاب الرقيق لا ماء فيه. «اللسان» (هفف).
(٢) في (ل) ما أحسد، وهو تحريف، وأحصد: أي فُتل بإحكام. انظر «اللسان» (حصد).
(٣) في الأصل، و(ل) على، والمثبت من (م).
(٤) في الأصل: تلو، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) في (م) للنفس.
(٦) في (م) فصرف.
(٧) كذا في النسخ الخطية، ولعلها آثاره.

تُـلبس بيـتَ الله وَشْيَ يَـمَـنٍ يـقـرأ آيـاتِـك من أعـلامـهـا
فـإنّمـا الـدِّين رحىً قُـطْبَتُهـا وبـازلُ مُكِّـنْـتَ مـن زِمـامـهـا
أَمَّتْ بنـا الآمـالُ منـكَ كعبـةً سلم اللّيـالي آيـة استسـلامها
١/٨٢ وأرشـفتنـا بـك ثَـغْـرَ نِـعْـمَـةٍ لا نـسـألُ اللَّهَ سِـوَى دَوَامِـهـا

وقال أيضاً يمدحه:

بجـدِّك أصحب الجدُّ الحَـزُونُ وأطْـلَـعَ فَجْـره الـفَتْحُ المبيـنُ
وفي كَنَفَيْـكَ سُـولمت اللّيـالي وفـارقَ طَبْعَـهُ الـزَّمَنُ الخَـؤُونُ
ومنـكَ تعلَّم القَـطْعَ المـواضي وقـد زَبَنَتْ بها الحَرْبُ الزَّبـونُ
وأنتَ السَّيْفُ لم تَمْسَسْـهُ نـارٌ ولا شَحَـذَتْ مضـارِبَه القُيُونُ[1]
تـرَقْـرقُ فـوقَ صَفْحَتِـهِ الأمـاني وتقـطُرُ من غِـرَارِيـه[2] المَنُـونُ
وقبلَكَ مـا سَمِعْتُ بـذي فَقَـارٍ يُبيـرُ الـفَقْـرَ كـانَ ولا يكـونُ
ولا غيـثٍ سـمـاوتـه سـريـرٌ ولا لـيـث وسـادتـه عَـرِيـنُ
ولا قَـمَـر لـه الهَـيْجَـاءُ هـالٌ ولا تـاج لـه الـدُّنيا جبيـنُ
جُبِلْتَ نـدًى وَعَفْـواً وانتقـامـاً ومـاءُ كـلُّ مـجبـولٍ وطـيـنُ
ومـلكـك عمَّمَ الأقـطار قَـطْراً فَـأَمْـرَعَتِ الأواعـثُ والحُـزُونُ
تَـلأْلأْ تـحتَـهُ غُـرَرُ اللّيـالي إذ[3] الأيـامُ عـنـد سِـوَاك جُـونُ
وأنـتَ أقمتَ للجَـدْوى منـاراً يـبـيـنُ لـشـائـمـيـه ولا يـبيـنُ
وعـنـدكَ مَشْـرَبُ النُّعْمَى زُلالٌ إذا عنفت[4] مشـارِبَهـا الأُجـونُ
تحكِّمُ في عَـطَائـك كُـلَّ عـاطٍ وقد شِيْدَتْ مِن المَنْـعِ الحُصُونُ
لـقـد أشعَـرْتَ ديـنَ الله عِـزًّا تتيـه لـه المَشَـاعـر والحجـون

---

(١) مفردها القين: الحداد. «اللسان» (قين).

(٢) شفرتا السيف. «اللسان» (غرر).

(٣) في الأصل إذا، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (م) عيفت.

وقـامَ بِنَصْرِهِ والنَّاسُ فوضى قـويٌّ مـنـك في الـجُلّى أَمِـينُ
رجعت ملوكهم وهم خيـوفٌ[1] أسـيـرٌ فـي صـفـادِكَ أو كـنـيـن
فَبـرْنَسْتَ البِرنسَ لقـاعٍ خَسْفٍ وجُـرِّعَ مُـرَّ جـوسـك جـوسلينُ
إذا مـا الفِعْلُ عُـلَّ تـلاه حَـذْفٌ يـتـاحُ لـمـنـتـهـاهُ أو سكُـونُ
غنـوا حتى غـزوتهم فغنى الـ ـصَّدَى في أرضهم خفَّ القطينُ
وَكَمْ عَبـرَ الصَّليبُ بهم صليبـاً فـردَّتـه قَـنـاكَ وفـيـه لـيـنُ
ومـا خَـطَرْتَ بدار الـشِّـرْكِ إلا هـوى النَّـاقـوسُ وارْتَفَـعَ الأَذِينُ
مـلأْتَ عِـظَامَ سـاحِهُم عـظامـاً فكـلُّ مـلاً لقـوكَ بـه جـرين
بـإِنِّبَ* والقَنَـا تجـري نجيعـاً كـأنَّ عـيـونَ أكعُـبِهـا عُـيـونُ
وبين جِرار صَـرْخَـد* ذُبْنَ حَـرًّا لـه في كـلِّ خَبْخَبَـةٍ[2] كمينُ
وفئن من العُـرَيْمـة* في عُـرَام لـه في جُـونهـا الأقصى وجـونُ
وكـم حَـرَمٍ بحـارِمَ* غـادَرْتَـهُ ودارتـه لـمـنـسـفـهـا دَرِيـنُ
وفي شعراء قُورُس* صُغْنَ شِعْـراً تُـدارُ عـلى غِـرَارَيـه اللُّحـون
وقـائعُ صِرْنَ في صنعاء* طيـراً يـوقـعـهـا عـلى عَـدنٍ عـدونُ
نـمـاكَ أبٌ إذا عُـدَّ انتسـابـاً تـراقـى مُصْـعِـداً والنَّـاسُ دونُ
شِـمـالاً كـان أمـلاكُ البَـرايـا وقـد قِيْسُـوا بـه وهـو اليمينُ
قضى وقضاؤه في الأرض حَتْمٌ[3] وطـاعـةُ أهـلـهـا لـبـنـيـه دِيْـنُ
لهـذا اليـوم تُنتخب القـوافي ويـذخـر نفسـه الـدُّرُّ المَصُـونُ
ونـحنُ أحـقُّ منك بـأن نُـهنَّـا إذا قَـرَّتْ بـرؤيَـتِـك الـعُـيـونُ
سَلِمْتَ لنـا فـإنَّـا كُـلُّ صَعْبٍ نـوازنـه بـأن تـبـقـى يَـهُـونُ ١/ ٨٣
تـرابـطنـا بِعَقْـوَتِـك التَّهـاني وتـغبِـطُـنـا بـدولـتـك القُـرونُ

(١) كذا في (ل) و (م)، وفي الأصل مهملة، ولعلها خنوف، من خنف البعير: إذا لوى أنفه من الزمام. انظر «القاموس المحيط»: (خنف).
(٢) الخبخبة: شجر، ومنه: بقيع الخبخبة بالمدينة، لأنه كان منبتها. «القاموس المحيط» (خبخب).
(٣) في (ل) فصار قضاؤه في الأرض حتم (كذا).

فصـــل
في باقي حوادث هذه السَّنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مِصْر بأنَّ أهل دِمْياط حَدَثَ فيهم فَنَاءٌ ما عُهِدَ مثلُه في حديث ولا قديم، بحيث أُحصي المفقودُ منهم في سنة خمس وأربعين سبعة آلاف شخص، وفي سنة ستٍّ وأربعين مثلهم، فصار الجميع أربعةَ عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقةً لا ساكن فيها ولا طالب لها[1].

قال: وفي ثاني جُمادى الآخرة توفي القاضي السَّديد الخطيب أبو الحسين بن أبي الحديد[2] خطيب دمشق، وكان خطيباً بليغاً صيِّتاً[3] عفيفاً، ولم يكن له من يقوم مقامَه في منصبه سوى أبي الحسن الفَضْل؛ ولد ولده، وهو حدَث[4] السِّن، فَنُصِبَ مكانَه وخَطَب وصلَّى بالناس، واستمرَّ الأمر له ومضى فيه[5].

قال: ووردت الحكاياتُ بحدوثِ زلزلةٍ وافت الليلة الثالثة عشرة من جُمادى الآخرة اهتزَّت الأرضُ لها ثلاث رجفات في أعمال بُصرى* وحَوْران وما والاها من سائر الجهات، وهدَّمت عدةً وافرة من حيطان المنازل بِبُصْرى وغيرها، ثم سكنت بقُدْرة مَنْ حرَّكها سبحانه وتعالى[6].

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٦.

(٢) في «مرآة الزمان» ٨/١٢٨ ـ ١٢٩ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن بن الحسين. وقال سبط ابن الجوزي في ترجمته: «وكانوا ـ بيت أبي حديد ـ يتوارثون نعل النبي ﷺ، وقد انقرضوا فلم يبق منهم أحد».

(٣) أي شديد الصوت. انظر «الصحاح» (صوت). وفي (م) صيناً.

(٤) كذا في الأصول الخطية، وفي «مرآة الزمان» ٨/ ١٢٩ نقلاً عن ابن القلانسي «حديث السن»، وهو الصحيح. قال الجوهري: ورجل حدث، أي شاب، فإن ذكرت السن قلت حديث السن. «الصحاح» (حدث).

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٦. (٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجَّه مجيرُ الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصِّه، ووصل إليها، ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمَهُ، وبالغ في الفعل الجميل في حقِّه وقرَّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعةَ وحُسْنَ النِّيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان[1].

قلتُ: وفي ذلك يقول القَيْسَراني:

وَفَتْ لك الدُّنيا بميعادِها ... باذِلَةً أفلاذَ أكبادِها
وَأوْفَدَتْ غرَّ سلاطينها ... عليك في بُهْمة[2] أنجادِها
تبغي سناءً أقْصَدَتْ قَصْدَه ... طائعةً طاعة[3] أجنادِها
خاضعةً تعتدُّ أعمارَها ... يوم التَّلاقي يوم ميلادِها
شامَتْ دمشقُ بك بَرْقَ العُلا ... فأرْسَلَتْ أصْدَقَ رُوَّادِها
رأتْكَ نورَ الدين نارَ[4] الهُدَى ... قد أشْرَقَ الأُفقُ بإيقادِها
فيمَّمَتْ منكَ حيا مُزْنَةٍ ... بيض الأيادي ورد ورَّادِها
فاسأَلْ مجيرَ الدين عن خُبْرِه ... أورَدَها محمودَ إيرادِها
تبوَّأتْ من عِزِّها قُبَّةً ... سُمْرُ القَنَا أطنابُ أوتادِها
تنافسَ النَّاسُ على دَوْلَةٍ ... فُتَّ بها أعينَ حُسَّادِها
يغدُو المُعادِي كالمُوَالي لها ... فَوالِها إنْ شِئْتَ أو عادِها
يا ملكاً تُزهى بأسمائِهِ ... منابرُ تسمو بأَعْوَادِها
وتأخذُ الأسماعُ أوصافَهُ ... عن جُمَعِ الدُّنيا وأعيادِها

---

(1) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧.
(2) في (ل) نهم.
(3) في (م) طائع.
(4) في (م) نور.

كَمْ للمعالي فيك مِن رَغْبَةٍ　　تَفْنَى الأماني دُونَ تَعْدَادِها
لك المساعي الغُرُّ يا جامعاً　　مِنْ طَرَفَيْها بين أَضْدَادِها
تَغْشَى الوغى أفرسَ فُرْسانِها　　وفي التُّقى أزْهَدُ زُهَّادِها
فأنتَ نُسْكاً غيثُ أَبْدَالها　　وأنتَ فَتْكاً ليثُ آسادِها
في أُمَّةٍ أنتَ حِمَى دِينها　　حيناً وحيناً شَمْسُ عُبَّادِها
يطوي بك العُمْرُ إلى غايةٍ　　حَسْبُك تقوى الله مِن زادِها
هذا وَكم مِنْ سُنَّةٍ بِدْعةٍ　　أعْدَمْتَها من بَعْدِ إيجادِها
مآثرُ لو عَدِمَتْ راوياً　　تكفَّل النَّظْمُ بإسنادِها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعضُ التُّركمان على ظاهر بانياس*، فخرج إليهم واليها من الإفرنج في أصحابه، وظهر التُّركمان عليهم فقتلوا وأسروا. وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحيةً من البِقاع وأغاروا، فأنهضَ إليهم والي بَعْلَبَكَّ رجَّالة[1]. فلحِقُوهم وقد أرسل الله عليهم من الثُّلوج المتداركة ما ثبَّطهم؛ فاستخْلَصوا منهم الغنيمة[2].

قلتُ: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب؛ والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ستٍّ وأربعين أغار التركمانُ على بانياس*، فخرج أهل بانياس من الفرنج، ليستنقذوا[3] ما أخذوه، فعاد التُّركمان عليهم فكسروهم ونهبوهم، واتَّصل ذلك بصاحب دمشق، فأغضَبَهُ فعل التركمان لِمَكان الهُدْنة المنعقدة بينه وبين الفرنج[4]، فأنفذ عسكراً إلى التركمان　١/٨٤

(١) الضبط من (ل).
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧ ـ ٣١٨.
(٣) في الأصل و(ل): استنقذوا، والمثبت من (م).
(٤) أبرمت الهدنة بين الصليبيين والأمير معين الدين أنر بعد فشل حصار دمشق في الحملة الصليبية الثانية. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤.

استعاد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنـج فجيَّشوا وخرجوا في جيشٍ عظيم، وشَنُّوا الغارة على البقاع والنَّاس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغَنائم والأسارى، واتَّصل خبر غارة الفرنـج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبكَّ وعنده جماعةٌ من عسكر دمشق وأصحابه، فقدَّم عليهم ولده شمس الدولة[1]، فخرج وأوقـع بالفرنـج، واتَّفـق أنـه كان قد أصاب الفرنـج ثَلْجٌ عظيم هلك به أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورِّطون، فَقَتَل فيهم مقْتَلَةً عظيمة، وخلَّص من كان مـع الفرنـج من الأسارى.

قال: وفي هذه السَّنة فارق صلاحُ الدين والده، وصار إلى خدمة عَمِّه أسد الدين بحلب، فقدَّمه بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً.

قال أبو يَعْلى: وفي ثاني شوال، وهو الثَّاني[2] من شباط، وافت قُبيل الظُّهْر زلزلةٌ اهتزَّت لها الأرض ثلاث هَزَّات هائلة، وتحرَّكت الدُّورُ والجُدران، ثم سكنت[3].

قلتُ: وفي هذه السنة، في غُرَّة جُمادى الأولى، كتب أحمد بنُ منير من حماة إلى نور الدين قصيدةً يهنِّئه بوصول الخِلَع إليه من بغداد من عند الخليفة، على يد الشَّيخ شرف الدين بـن أبـي عَصْـرون، ويـصف الفرس الأصفر، الأسود القوائم والمعارف، والسَّيْف العربـي، أوَّلها:

لِعَـلائـك التَّـأييـدُ والتـأميـلُ ... ولمُلكـك التـأبيـد والتَّكْميـلُ

أبـداً تَهُمُّ وتـقتـفي فـتنـالُ مـا ... عَـزَّ الـوَرَى إدراكُـه وتُـنـيـلُ

إمـا كتـابٌ يستقـلُّ بـه الكتـا ... ئبُ أو رسـولٌ للنَّجـاحِ رَسِيْـلُ

---

(1) هو تورانشاه، وهو أسن من أخيه صلاح الدين، وسترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، توفي في الإسكندرية سنة (٥٧٦ هـ) ثم نقل إلى دمشق، ودفن في المدرسة الشامية. انظر ٣/ ٦٤ ــ ٦٥ من هذا الكتاب.

(2) في (م) الثالث، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.

(3) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.

لـك من أبي سعد[1] زعيم سعادة فَمَنْ تفـاءلَ فيـكَ ليس يفيـلُ
نِعْمَ الـحُسَـامُ جَـلَوْتَـه وبلوتَـهُ يُـرْضيـك حين يصـلُّ ثم يصـولُ
سَهْمٌ تعـوَّد في الكِنـانـة عـوده ويقصِّـرُ المطلوب وهـو طـويـلُ
سددته[2] فمضى وقـرطسَ صادراً كـالنَّجْمِ لا وَهْـلٌ وَلاَ تهـليـلُ
فثنى القلوبَ إلى ولائـك حُـوَّلٌ منـه بما يجني رضـاك كفيـلُ
وأقـامَ يَنْشُـرُ في العِراقِ ودِجْلَةٍ آيـاً تـأوَّلـهـا لمصـر النِّـيـلُ
وكسـاك مِنْ رأي الخليفـة جنَّـة لا النقص[3] يُوهيها[4] ولا التَّقليلُ
كنتَ الشَّريفَ أفضتُ في تشريفه مـاءً عـليـه من سَنـاكَ دليـلُ
أليُـوسف لمـا طلعت مُقـرطقـاً طَمَثَتْ حَصَـانٌ واستخَفَّ أبيـلُ
أم عن سليمـان يفـرِّج ضـاحكـاً سُجف الـرِّواقِ وضعضع الكيُّولُ
ومملَّكٍ في السَّرج أمْ ملكٍ سطت لـبهـائـه عـقـلٌ وتـاه عـقـولُ
وَبَرَزْتَ في لُبْسِ الخِلافة كالهـلا لِ جلاه في حُلَلِ الدُّجى التَّهْليلُ
خِلَـعٌ خَلعْن على القلوب مَسَـرَّةً سَـدِكاً بهـا[5] التعـظيمُ والتَّبْجيـلُ
نثـرت نُضَـاراً جـامـداً أعـلامهـا وتـكـادُ تجـري رِقَّـةً وتـسيـلُ
لقَضَى لها أنْ لاَ عديـلَ لِفَخْرِهـا رَبٌّ بَـرَاكَ فما[6] تـلاكَ عَـدِيْـلُ
أنتَ المهنـد مُنذُ سلَّتْـهُ العُـلا لم يخـلُ مِن مُهجٍ عليه تسيـلُ
مُـذْ هـزَّ قـائمَـهُ الإمـامُ تـألَّقت غـررٌ شُـدخن لمُلكـه وحجـولُ
والَـيْت دولـتـه فتِهـتَ بِـدَوْلَـةٍ مُـتكـلِّل بصـعيـدِهـا الإكـليـلُ

---

(١) هي كنية ابن أبي عصرون. انظر «وفيات الأعيان» ٣/ ٥٣.
(٢) في (ل) صدرته.
(٣) في (م) النقض.
(٤) في (ل) و(م) يوهنها.
(٥) في الأصل: سدكانها، وفي (ل) سدكاتها، والمثبت من (م). وسدكاً بها أي مولع بها. انظر «اللسان» (سدك).
(٦) في (م) فلا.

وَنَصــرْتَــهُ فحَــلاك أبيضَ دُوْنَــه — صَـرْف الزَّمـان إذا استكلَّ كليـلُ
قُــلِّدتَــه وَكِــلاكُــمـا مُـتَـلَهْـذِمٌ — عَضْبٌ فَـزَانَ المغمـد المَسْلُولُ
وحبا رِكابُك حين قر بِزحفه الْـ — ـقرآنُ واستخْـذَى لـهُ الإنجيلُ
بأَقْـبَّ أصفر مُشْرِفَ الهادي له الـ — ـتَّحْجيـل لـونٌ واللّمـا تحجيـلُ
قَسَمَ الدُّجى بين الغدائرِ والشَّوى — واعْتـامَ رَوْنَقَـه الأصيـلَ أصيـلُ
وتقـاسمَ الـرَّأْؤوه تـحتـك أنَّـه — حيزوم[1] صرَّف عِطْفَه جبـريـلُ ١/ ٨٥
يختـال في حبـك الْحُليِّ مخيَّلاً — أنَّ الـشَّـوامـخَ للبـدورِ خيـولُ
مُرْخَى الذَّوائبِ كـالعروسِ يـزينُه — طَـرْفٌ بـأطـرافِ الـرِّمـاحِ كحيـلُ
تتصـاعق النعـرات تحتَ لَبَـانِـه — إن شَبَّ زفْـرٌ وَاستجشَّ صَهِيْـلُ
لم يَحْبُ مِثْلَكَ مِثْلَه مُهْـدٍ ولـم — يُشْـلَلْ على بَـرْقٍ سـواه شليـلُ

وأنشده في هذه السنة أيضاً بحمص قصيدةً، منها:

الـدَّهْـرُ أنتَ ودارُك الـدُّنيـا وَمَن — في العَـدِّ بعدُ مؤمِّـل وحَسُـودُ
وأزمَّـةُ الأقدار طَـوْعُ يديـك والْـ — أيَّـامُ جُـنْـدُك والأنـامُ عَـبـيـدُ
فُتَّ الوَرى وعَقَدْتَ ناصيةَ المدى — بمُـذَمَّرِ[2] الشِّعْـرى فأين تـريد؟!
تـالٍ أبـاك فهـل سليمـان يـرى — في الـدَّست مَـهَّـدَ مُلْكَـه داودُ
جَلَّى وسُدْتَ مصلِّياً لا يُرفـع الـ — ـمَعْـدُومُ ما لم يَشْفَـعِ المـوجودُ
لمْ يُختـرم جـدٌّ نمـاك ولا أَبٌ — إن النَّبـاهـةَ في الخليفِ خـلودُ
شَمَخَتْ منـارُك في اليَفَاع وأمَّها — من لم يَسُـدْ فَأَرَتْـه كيفَ يسـودُ
وهَبَبْتَ لـلإسـلامِ وهـو مُصَـوِّحٌ — فـاهْتَـزَّ أهضـابٌ وَرَقَّ نـجـودُ
وفثـأت جمـرةَ صـالميه بِصَيْلَمٍ — يَضَـع الأَجِنَّـةَ يـومُهـا المَشْهُـودُ
خَـطَمَتْهُمْ فوقَ الخطيم* لوافحٌ — نـفس الأريـن لـوأرهـنّ بـرودُ
ورُمُوا على الجَوْلان منك بِجَوْلَةٍ — تـوئيـدهـا نسـر الضَّـلال وئيـدُ

(١) حيزوم: فرس جبريل عليه السلام. «القاموس المحيط» (حزم).
(٢) مذمر: القفا. «القاموس المحيط» (ذمر).

وَلَحَا عِظَامَهُمُ بِعِرْقَةَ* عارقٌ ... ما زلتَ تمخض جوَّه فتجودُ

وشللْت بالرُّوج(١) السُّروج وفوقها ... زَرْعٌ تحصِّدُه(٢) الرِّماحُ حَصِيْدُ

وعلى عَزازَ* عَنَوْا وثَلَّ عُروشَهُمْ ... ملكٌ مقيَّدُ مَنْ عَصَاه مقيدُ

وَبِتَلِّ باشِرَ* باشُروك فعافسوا ... أُهُبَ الأساود حَشْوهنّ أُسودُ

أوْدَوْا كما أوْدى بِعادٍ غَيُّها ... وعقوا كما اسْتَغْوَى الفَصِيْلَ ثَمُودُ

إنْ آلموا عقراً فإنك صالحٌ ... أو آلموا غَدْراً فإنَّك هُودُ

وزعْتَهُمْ فبكُلِّ مَهْبِطِ تَلْعَةٍ(٣) ... خدٌّ به من وازعٍ أُخدُودُ

وَعَصَبْتَهُمْ بعصائبٍ مِلْءِ الملا ... شتَّى وإنْ خلَّ البسالة عُودُ

آثارها محمودةٌ وإثارها ... مَشْهُودَةٌ(٤) وَشِعارُها محمودُ

لَبِستْ من اسمك في الكَرِيهة ملبساً(٥) ... يَبْلَى جديدُ الدَّهْرِ وهو جديدُ

وقصيرة الآجال طَوَّلَ باعَها ... بوعٌ يسامي هامَها وقُدودُ

مطرورةُ الأسلاب مُذْ هَزَّعْتَها ... تاه الهُدَى وتبختَرَ التَّوحيدُ

أَشْرَعْتَها فعلى شريعةِ أحمدٍ ... مِما جَنَتْهُ بوارقٌ وعُقودُ

ولكم نَشَرْتَ نظيمها في مَوْقفٍ ... تغريد صالي حَرِّه التَّغْرِيدُ

يجلو سناك ظلامَهُ ويحُلُّ ما ... عَقَدَتْ قناهُ لواؤك المعقودُ

في هبوةٍ زحم السماء رواقُها ... والأرض تَرْجُفُ(٦) تحتَهُ وتَميدُ

ضَرَبَتْ مُخَيَّمهَا فكان كُماتُها ... أوتادَهُ القُصوى وأنْتَ عَمودُ

في كلِّ يومٍ من فتوحك صادِحٌ ... هزِجُ الغِناء وطائرٌ غِرِّيدُ

تهدي لغانةِ كأسِهِ فَرْغانةٌ ... وتسيغ زبدة ما شداه زبيدُ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢١٥ من هذا الجزء.

(٢) في (ل) و(م) لمحصده.

(٣) في (م) قلعة.

(٤) في (م) مشهورة.

(٥) في (م) ميسمًا، وفي (ل) مبسماً.

(٦) في الأصل: تزحف، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

فغِرار سَيْفِك لـلأحـابشِ محبسٌ ومُثـار نَقعِـك للصَّعيـد صَعِيـدُ
لا تَعْـدَمَــنْ هــذا المقلَّـدَ أمــة مُلقــىً إليــه لــرعيهــا الإقليــدُ ١/٨٦
الْـورد قَــرٌّ والـمســارحُ رَحْبَـةٌ والـرِّفْـد مـدٌّ والـظِّلال مـديـدُ
والعيش أبلـجُ مشرق القَسَماتِ والْـ أشْجـار غــرٌّ والأصـائِـل غِيْـدُ
والمُلْك ممـدودُ الرِّواق منـوَّرُ الْـ آفـاق وضَّـاءُ الـمُنَـى محسـودُ
في دولـةٍ مُـذْ هَبَّ نَشْـرُ رَبيعهـا نُشِــر الـرُّفــاتُ وأثمرَ الجُلْمُـودُ
مـحـمــودَةُ الآثــارِ مـحـمــوديَّـة كــلُّ المـواسمِ عنـدَهـا تَعييـدُ

وقال يهنئه بليلة الميلاد، ويصف النَّازلين في الجبل من قلعة حلب قصيدةً منها:

هُنيت زورَيْ ذَرَاك صـومك والْـ ـميلاد جاءا والسَّعْدَ[1] في نَسَقِ
فـذاك بَـخَّلْتَ فيــه كـل نـدٍ وذاك أخـملتَ فيــه كُـلَّ تـقي
وَجْهٌ كصَدْرِ الحُسَامِ تَصْبُو له الْـ ـعَيْنُ وينقـدُّ الـقلب مِـنْ فَـرَقِ
ومُـقْـلَةٌ شَــوْقُــهـا لـيَـقْــظَتِـهـا شَــوْقُ لـحُـسَّــادِهــا إلـى الأَرَقِ
ومُــرْتَقًى تَـعْجَبُ الـسَّـمــاءُ لــه إذا استــطالتْ إليـه: كيف رَقِي؟
تَـوَّجْتَ شهبـاءَهـا بمُـشْــرِقـةٍ مُـشْـرِفـةٍ شُهْبُهـا على الأُفـقِ
جــوٌّ تهــاوى[2] مِنــه كــواكبُـه طَـرْفَـةَ طَـرْفِ رُجـومَ مُستَـرِقِ
فَــوارسٌ تُـذْهِـلُ الفــوارسَ أن تهـافتت من أرشـاقهـا الـرشق
من راكضٍ في الهواء أهوى من الْـ ـفتح مجـرَّ مـن تحتـه لبق
شـاوٍ من الحضر لـو تحاولَـهُ الْـ ـخُضـر لـزلَّتْ عن موطئٍ زَلَقِ
يقـول مَن دينـه الفـروسـة: مـا لاقـك إلا ضَـرْبٌ مــن الأَلَـقِ
بَـدائعُ تَغْبِطُ السَّمـاءُ بهـا الْـ أرْضَ وتُذكي الإشفاق في الشَّفقِ

---

(١) في الأصل: والعيد، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في الأصل و(ل) تهادى، والمثبت من (م).

في دولـةٍ جَمَّعَتْ إيـالـتهـا ... من بـدَّدَ الحُسْنَ كـل مُفْتـرق
تُـزَرُّ أطـواقُـهـا عـلى مـلِكٍ ... مكـتـفـلٍ رِزْقَ كُـلِّ مُـرْتـزِقِ
محمـودُ اسمـاً وَمِيسمـاً ونـدًى ... واعـتـصب الـدَّمَّ كـل مـرْتَفِقِ
طَبَّقَ طـوفـانُـه فلستَ تـرى ... إلّا مغيثـاً مشفٍ عـلى غَـرَقِ
يـا بحرُ لَا خُلُق تـدَّعي شَبَهـاً ... فـاتَ المدى مـا حَويتَ من خُلُقِ
مـلـكك هـذا الـذي تـمـلَّأه ... صِبَاه يجـري والـدَّهْرُ في طَلَق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين [وخمس مئة](1)

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرَّم بنزول نور الدين على حِصْن أَنْطَرْسُوس* في عسكره، وافتتاحه وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمانَ على النُّفوس، فأُجيبوا إلى ذلك، ورتَّب فيه الحَفَظَة، وعاد عنه، وملَك عِدَّةً من الحُصُون بالسَّبْي والسَّيف والإخراب والإحراق والأمان(2).

قال: وورد أيضاً ظَفَرُ رجال عَسْقلان بالإفرنج المجاورين لهم بغَزَّة، بحيث هلك منهم العددُ الكثير، وانهزمَ الباقون(3).

قلتُ: وقرأت في ديوان ابنِ منير يمدح نور الدين ويهنِّئُه بفتح أَنْطَرْسُوس* ويحمور* وعوده عنهما قصيدةً، منها:

أبداً تُباشِرُ وَجْهَ غَـزْوِك ضاحكـاً ... وتـؤوبُ منـه مُـؤَيَّـداً منصـوراً
تُـدْني لك الأمـلَ البعيدَ سَوَاهِمٌ ... مُـحِقَتْ أَهِـلَّتُهـا وَكُـنَّ بُـدُورا
مثـل السِّهام لـو ابتغى ذو أربـعٍ ... في الجـوِّ مُـطَّلَبـاً لكُنَّ طيـورا

(1) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(2) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.
(3) المصدر السابق.

نَبَذَتْ علائقها بحمصَ وأعلقت[١]   سِحْراً بمعرق عرقه الأُظْفورا

وعَدوْن صافيثاء لاح شوارها   قد أتْلعَتْ عُنقاً إليكَ مُشِيرا

القَلْبُ أنتَ فإن تعامى عن هُدًى   عُضْوٌ أهَابَ بِه فعاد بَصِيرا

عَرَفُوا مكانَكَ والظَّهيرة بينهم   يَفْرِي بياضُ أديمها دَيْجُورا

أين الذُّبالُ من الغزالةِ أشْرَقَتْ   وجهاً وطبَّقَتِ البسيطةَ نُورا   ٨٧/١

غضبانُ أقْسَمَ لا يَشيم حُسامه   والأرضُ تحمل في الكُفور كَفُورا

غَسَلَ العواصِمَ أمسِ من أدرانهم   واليوم رَدَّ به السَّواحل بُورا

لم يُبْقِ بين الحَوْلتَين وآمِدٍ*   وتراً لِمُضْطغنٍ ولاَ مَوْتُورا

أخلَى ديارَ الشِّرْكِ من أوثانها   حتى غدا ثالوثُهن نَكِيْرا[٢]

رَفَعَ القُصورَ على نَضائدِ هامِهم   من بَعد ما جَعَلَ القُصورَ قُبورا

بشواحِبِ الألْياط تقطو في الظَّلا   مِ قطاً وتهوي في الصَّباح نُسُورا

غادَرْتَ أنْطَرْسُوس* كالطِّرسِ امَّحى   رَسْماً وحمَّر دِرْعُها يحمورا*

وهي الزِّناد لفتنةٍ كانت على الْـ   إسلامِ أحكم كسرةٍ إكسيرا

هَتَمَتْ طرابلساً فأصبح ثَغْرُها الْـ   بَسَّامُ من عِزِّ الثُّغور ثَغِيرا

إقليدُها كانتْ وقد أنطَيْتَه[٣]   واسأل بِه مِمَّنْ دهَتْه خبيرا

إن الأُلى أمِنوا وقاعك بعدَها   غُرُّوا وقد ركبوا الأغَرّ غُرورا

ألقِ العصا فيمن أطاع ومَنْ عصى   منهم ودمر أرْضَهُم تَدْمِيرا

لاَ يُلهِهِم أنْ قد مَنَنْتَ وشُنَّها   شعواء تُصْلي الكافرينَ سَعِيرا

باكِرْ بركز قناً تُنَسِّفُ أُسَّها   والخيلَ صَوِّرْ كي تُزيرك صُورا

وتُريك لامعةَ التَّريك[٤] بساحةِ الْـ   أقْصى مُطَهِّرةً لها تَطْهيرا

أوَلَسْتَ من قومٍ إذا هزُّوا القَنَا   فتلوا معاصمهم لها تَسْوِيرا

---

(١) في (م) وأغلقت.

(٢) وهذا البيت وما بعده خلا البيت الأخير ساقط من (م).

(٣) أنطى: لغة في أعطى. انظر «اللسان» (نطا).

(٤) بيضة الحديد للرأس. انظر «اللسان» (ترك).

وإذا هُم خَطَبوا اليَراعَ عَزيزةً ... ساقوا الشِّفارَ على المهار مهورا
ألقى قسيماهم إليك أزِمَّةَ الْـ ... ـمُلك المطل على السُّها تأثيرا
ضَحِكَتْ لك الأيامُ واكتأب العِدَى ... قلقاً فجئتَ مُبَشِّراً ونَذِيرا
لا مُلك إلا ملكُ محمود الذي ... تَخِذَ الكِتابَ مُظاهِراً ووزيرا
تمشي وراءَ حُدُودِه أحكامُه ... تأتمُّهنَّ فَيُحْكِمُ التَّقْديرا
يَقْظانُ يَنْشُر عَدْلَه في دولةٍ ... جاءت لِمَطْوِيِّ السَّماحِ نُشورا
خَلَفَ الخلائفَ قائماً عنهم بما ... عَيُّوا به ألْوى ألدَّ غَيُورا
البرَّ والمعصومَ والمهديَّ والـ ... ـمأمونَ والسَّفَّاحَ والمنصورا
نُشِروا به فعهودُهُمْ وعهادهم ... يَمْتَحْنَ تحتَ لوائِهِ مَنْشُورا

وأنشده بحلب في هذه السَّنة قصيدةً، أوَّلُها:

المجدُ ما ادَّرَعَتْ ثَراكَ هضابُه ... وَتَنَقَّفَتْكَ شعوبُه وشِعَابُهُ
مَلْكٌ تكنَّفَ دينَ أحمدَ كِنَّه ... فأضاءَ نيِّرُهُ وصابَ شهابُه
فالعَدْلُ حيثُ تصرَّفَتْ أحكامُه ... والأمنُ حيثُ تَصَرَّمَتْ أَسْرَابُهُ
متهلِّلٌ والموتُ في نَبَراتِهِ ... يُرْجَى ويُرْهَبُ خوفُه وعقابُه
عَقَدَ اللِّواءَ وسار يَقْدُمُهُ وما ... حلَّتْ عقودَ تَميمِها[1] أترابُهُ
أَسدٌ فرائِسُهُ الفوارس والظُّبَى ... أظفارُه والسَّمْهَرِيَّةُ غابُهُ
طَبَعَ الحديدَ فكانَ منه جَنانُه ... وسِنَانُه وإهابُه وثِيابُهُ
وَيَهَشُّ إنْ كَبَتِ الوجوهَ كأنَّما ... أعداؤه تحتَ الوغى أَحْبَابُهُ
نُشِرَتْ بمحمودٍ شريعةُ أحمدٍ ... وأرى الصَّحابةَ ما احتذاه صِحَابُهُ
١/٨٨ ما غاب أصْلَعُ هاشم[2] فيها ولا الـ ... ـفاروقُ باءِ[3] بخطبه خَطَّابُهُ

---

(١) مفردها تميمة، وهي عوذة تعلق على الإنسان. انظر «اللسان» (تمم).
(٢) هو الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد ورد في صفته «أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه». انظر «الرياض النضرة» للمحب الطبري: ١٥٦/٢.
(٣) في (م) ناء.

أبنـاءُ قَيلة قـائمـون بِنَصْـرِه | إنْ أجلبت من قـاسطٍ أحـزابُـهُ
صَبَحـوا مُحلَّقـة البِـرْنس بحـالقٍ | حرش الضباب من القلوب ضبابُهُ
مـا زالَ يَغْلِبُ من بَغـاه ضـلالُـهُ | حتى أُتيـح من الهُـدَى غـلَّابُـهُ
مُلْقىً بوحش[1] الأصرمين تَـزيَّلَتْ | آرابُـهُ[2] وتـزايـلَتْ آلابُـه
دون الأُرنط[3] سخت به نجداتُـه | ونـجـاده وقِـرابـه وقُـرابُـهُ
سَلَبَتْـهُ دُرَّةَ تـاجـه يَـدُ ضَيْغمٍ | لم تنْجـه من بَأْسِـهِ أَسـلابُـهُ
وأتتـه تجلب جُـوسلين* جنـائبٌ | هَبَّتْ فقَـلَّ إلى القِتـال هبـابـه
أَسَـرَتْـهُ لا مَنَعَـتْ سُـرَاه وغـرُّه | بـالقـاعِ إنْ رامَ الـورودَ سَـرَابُـهُ
يمشي فَتُسْمِـعُـهُ قعـاقـعُ قَيْـدِه | هَـزَجـاً تقيءُ دمـاً لـه أنـدابُـهُ
لا تـلّ بـاشِـرِه* ولا كيسـونـه[4] | صَـدَّتْ منًى[5] عنه ولا عنتـابُـه*
ضَمِنَتْ شقـاوتـه سعـادَةُ صـافحٍ | غَـطَّى على إعنـاتـه إعتـابـه
مـا زال يَغْدِرُ ثم يغـدر قـادراً | حتّى أتـاه بجـامحٍ أصحـابُـهُ
قَصْرُ الأماني أن يُمَلِّىء عصرك الـ | إسلامُ مضروبـاً عليه[6] حِجَـابُـه
مَجْـرٌ يجـرُّ إلى الغنـائمِ قُبُّـهُ | وحمىً يُـزارُ على الفتوحِ قِبَـابُـه

وأنشده بحلب أيضاً في شوال من هذه السنة قصيدةً، منها[7]:

لـقـد أوطـأتَ ديـنَ الله عِـزًّا | أديـمُ الـشِّـعـريَـيْـنِ لـه رَغَـامُ
دعـاك وقـد تنـاوَشَتِ الـرَّزايـا | لـه أُهبـاً يـوزعهـا الـعُـذَامُ[8]

---

(١) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «لوحش».
(٢) مفردها الإرب: وهو العضو. «اللسان» (أرب).
(٣) هو نهر العاصي.
(٤) كذا في النسخ الخطية، ولعلها كيسوم. انظرها في كشاف الأماكن.
(٥) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: المنا: القدر، والله أعلم».
(٦) في (م) عليك.
(٧) في الأصل: أولها، والمثبت من (ل) و(م).
(٨) في الأصل و(ل) يودّعها، والمثبت من (م). ولعل الصواب: توزعها العُرَامُ.

فَقُمْتَ بنصره والنَّاسُ فوضى ... فئام[1] ذمَّ ما اقترفت فئامُ
جَذَبْتَ بضبعه من قَعْر يَمٍّ ... له من فوق مَقْسَمِهِ التِطَامُ
صببتَ على الصَّليب صليبَ بأسٍ ... قواه تحت كَلْكَلِهِ حُطَامُ
وَمِلْتَ على معاقِلهم فَخَرَّت ... وِلاءً مِثْلَ ما انتقضَ النِّظَامُ
بصَرْخَد* والخطيم* وفي عَزَاز* ... وقائِع هَزَّ مَشْهَدَها الأنامُ
ولو لم تَعْتَرِقْ وتشم لأمسى ... وأصبح لا عِرَاق ولا شآمُ[2]
ويوم بالعُرَيْمة* كان حَتْفاً ... على الإشراك أمْقَرَهُ العُرَامُ
لقُوك كأنَّ ما سلُّوه شيحٌ ... وما اعتقلوه من خَوَرٍ ثُمامُ
وهابَ* وقُورُسٍ* وبكَفْرلاثا* ... ذممتَ وأنتَ للجُلَّى ذِمامُ
صَدَمْتَهُمُ بأرعنَ مُرجحِنّ ... كأنَّ مَطَارَ أنْسُره غَمَامُ
وأيَّةُ لَيْلَةٍ لم تُلْفَ فيها ... لهم طَيْفاً يَروعُ به مَنَامُ
بنورِ الدين أُنشر كلُّ عَدْلٍ ... تعفَّتْ في الثَّرَى منه الرِّمامُ
وعاد الحقُّ بعد كلال حَدٍّ ... حمىً من أن تُراعَ له سَوام
تألَّقَ عَدْلُه وذَكَتْ سُطَاه ... فَلاَ حَيْفٌ يُخافُ ولا اهْتِضَامُ
بقاؤك خيرُ ما يرجوه راجٍ ... وأنْقَعُ ما يُبَلُّ به أُوام

---

(١) في (م) قيام، وهو تحريف.

(٢) هذا البيت في (ل) و(م) يأتي بعد «جذبت بضبعه...».

فصـــل

وفي هذه السَّنة ولد لنور الدين بحمص ابنٌ سماه أحمد، وهنَّأه به ابن مُنير في بعض قصائده، ثم توفِّي بدمشق، وقبره خَلْفَ قبر معاوية رضي الله عنه داخل[1] الحظيرة في مقابر الباب الصَّغير*. وقصيدة ابن منير قد تقدَّم بعضُها في أوَّل الكتاب[2]، ومنها في ذكر المولود:

تــوالـتِ الأعـيـادُ لا زلْـتَ لـهـا ... تُبلي ديـابيـج[3] البقـاء وتُجِـدْ

الفِـطْرُ والميلادُ والمـولـود لـو ... قـابـلَه بَـدْرُ التَّـمـامِ لَـسَجَـدْ 89/1

ثـلاثـةٌ تُـعْـرِبُ عـن ثـلاثـةٍ ... لمثلها يذخر[4] حمداً من حَمِـدْ

فَـتْـحٌ مبـيـنٌ وطـلابٌ مُـدْرك ... ودولـة مـا تـنـتـهـي إلـى أَمَـدْ

وله من أخرى:

وجئتَ بـأحمـدٍ فمـلأتَ حَمْـداً ... مـوارِدَ كـان معـدنُهـا عِـذَابـا

تهلَّل وَجْـهُ مُلْكِـكَ يَـوْمَ أَهْـدَتْ ... قَـوَابِلُه لَـكَ المَلِكَ اللُّبـابـا[5]

شَبِيْهُـكَ لا يُغـادرُ منـك شيئـاً ... سَنـاً وحَيـاً وبَـذْلاً واستـلابـا

قـسيـمُ الحَـمْـدِ إلا أَن حَـرْفـاً ... من اسمِـكَ زادَ للمعنى منـابـا

ألَا لله يـومٌ فُـرَّ عـنـه ... ورَكْبٌ نَصَّ بـالبُشْـرى الـرِّكـابـا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجَّه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بُصْرى*، ونزل عليه محاصراً لِسُرْخاك[6] واليه لمخالفته وجَوْرِه، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صَرْخَد*

---

(1) في الأصل و (ل): إذا دخل، والمثبت من (م).

(2) انظر ص (٨٤ ــ ٨٥) من هذا الجزء.

(3) مفردها: ديباج، وتجمع على دبابيج أيضاً. انظر «القاموس المحيط» (دبج).

(4) في الأصل يذكر، وفي (ل) نذكر، والمثبت من (م).

(5) اللباب، بالضم: الخالص من كل شيء. «اللسان» (لبب).

(6) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٦٦ من هذا الجزء.

لمشاهدته، فاستأذن مجاهدَ الدين واليه في ذلك، فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا فيه والٍ من قِبَلِك. وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النَّائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه، وتلقِّي مجير الدين بما يجب له. فخرج إليه في أصحابه ومعه المفاتيح، وأخلى الحِصْنَ من الرِّجال، ودخل إليه في خواصِّه، وَسُرَّ بذلك، وتعجَّب من فعل مجاهد الدين، وشكَرهُ على ذلك، وعاد إلى مُخيَّمه على بُصرى* وحاربها عِدَّة أيام إلى أن استقرَّ الصُّلْح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق[1].

قال: وفي شوَّال تُوفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الملحي، ودفن في مقابر الكهف[2]، وكان فيه أدبٌ وافر وكتابة حسنةٌ ونَظْم جيد. وتقدَّم والده في حلب في التدبير والسِّياسة وعَرْض الأجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السُّلْطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه بهمَذَان، وعهد إلى ابن أخيه مَلِكْشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل. وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه، ولم يمهله غير قليل حتى قبضَ عليه[3]، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود[4]، وهو بخُوزستان، يستدعيه إليه ليخطب له بالسَّلْطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو وجهه من منازع من السَّلْجُوقية، وحينئذٍ يطلب السَّلْطنة لنفسه. فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده، وسار إليه وهو بهَمَذان، واجتمع

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٩.

(٢) مقابر الكهف: في الصالحية من دمشق، فوق المدرسة الجهاركسية، والكهف يقع غربي مغارة الدم. انظر «القلائد الجوهرية»: ١/٥٥.

(٣) ثم هرب من سجنه واستقر بخوزستان ملكاً، وتوفي سنة (٥٥٥هـ). انظر «دولة آل سلجوق»: ٢١١، و«الكامل»: ١١/٢٦٣.

(٤) توفي سنة (٥٥٤هـ). انظر «الكامل»: ١١/٢٥٠ ـ ٢٥١.

به، وخدمه[1] خاصّبك خدمةً عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد، وألقى رأسه إلى أصحابه، فتفرّقوا، واستقرَّ محمد وثبتت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها. وكان قتل خاصبك سنة ثمانٍ وأربعين، وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب. وكان ابتداء أمره أنَّه كان من بعض أولاد التّركمان، فخدم السُّلْطان، فمال إليه وقدَّمه حتى فاق سائر الأمراء، واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشّاغلة للسُّلْطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتِّباعه لما كان يُقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم[2].

وذكر[3] الوزير يحيى بن هُبيرة[4] في كتاب «الإفصاح»[5] أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحابُ مسعود وأساؤوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتَّفق الرَّأي على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله ﷺ على رِعْل وذَكْوان[6] شهراً. فابتدأ هو والخليفة سِرًّا، كلٌّ واحد في موضعه يدعو سَحَراً، من ليلة تسع وعشرين من جُمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمس مئة، واستمرَّ الأمر على ذلك كلَّ ليلةٍ، فلمَّا كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة، كان موت مسعود على سريره، لم يَزِدْ عن الشهر

---

(١) في (ل) وخدم، وهو تحريف.
(٢) «الباهر»: ١٠٥ ــ ١٠٦، وانظر «الكامل»: ١١/ ١٦٠ ــ ١٦٣، و«تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٠٨ ــ ٢١٣.
(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).
(٤) سترد ترجمته ص ٤٤٠ ــ ٤٤١ من هذا الجزء.
(٥) هو الإفصاح عن معاني الصحاح، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٤٤٠ من هذا الجزء.
(٦) قبيلتان من بني سُلَيم، أجابتا عامر بن الطفيل إلى قتل القراء الدعاة الذين بعثهم رسول الله ﷺ لأهل نجد سنة (٤هـ)، وهم قتلى بئر معونة. انظر «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة، و«صحيح مسلم» كتاب المساجد باب استحباب القنوت، و«سيرة ابن هشام»: ٣/ ١٩٣ ــ ١٩٩.

يوماً ولا نقص[1] يوماً. ووصل القُصَّادُ بذلك من هَمَذَان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الدَّاعين. قال: وكـان الشَّيـخُ محمد بن يحيـى[2] يقول: لا أدلّ على وجود موجود أعظم من أنْ يُدْعى فيجيب.

ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وأربعين [وخمس مئة][3]

ففيها أخذت الفرنـج، خذلهم الله تعالى، عَسْقَلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتي إن شاء الله تعالى[4].

قال الرئيس أبو يعلى التَّميمي: وتواصلت الأخبارُ من ناحية نور الدين بقوَّة عزمه على جمـع العساكر والتُركمان، من سائر الأعمال والبلدان، للغزو في أحزاب الشِّرْك والطغيان، ولِنُصرة أهل عَسْقلان على الإفرنـج النَّازلين عليها، وقد ضايقوها بالزَّحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمـع الكثير. ١/٩٠ واقْتَضت الحال تَوَجُّه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضُدِ على الجهاد في ثالث عشر محرَّم، واجتمـع معه في ناحية الشمال، وقد ملك نور الدين الحِصْنَ المعروف بإفليس[5] بالسَّيف، وهو في

---

(١) في الأصل: ولا ينقص، والمثبت من (ل).

(٢) هو محمد بن يحيى بن علي بن مسلم الزبيدي الواعظ، ولد سنة (٤٦٠هـ) في زبيد، ودخل بغداد سنة (٥٠٩هـ) وتوفي سنة (٥٥٥هـ) وكان إماماً عابداً قدوة، يقول الحق وإن كان مراً، وهو من شيوخ ابن هبيرة. انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٠/١٩٧ ــ ١٩٨، وفيه ولد سنة (٤٨٠هـ) و«وفيات الأعيـان»: ٦/٢٤٣، و«سير أعـلام النبلاء»: ٢٠/٣١٦ ــ ٣١٩، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/٢٥١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) ٣/٣٢٦ من هذا الكتاب.

(٥) على الطريق من معرة النعمان إلى حلب.

غاية المَنَعة والحصانة، وقتل من كان فيه من الإفرنـج والأرمن، وحصل للعسكر من المال والسَّبْـي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس*، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حُماته، وتسهَّلَتْ أسباب ملكته. وقد تواصلت استغاثةُ أهل عَسْقلان واستنصارهم بنور الدين، فقضى الله تعالى بالخُلْف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارقٍ من الإفرنـج طرقهم، ولا عسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج*، وعزموا على مُعاودة النُّزول على بانياس* وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سببٍ ولا موجب، وتفرَّقوا، وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالماً في نفسه وجملته حادي عشر ربيـع الأوَّل، وعاد نور الدين إلى حِمْص، ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عَسْقلان، فقويت نفوسُ من بها بالمال والرِّجال والغِلال، وظفروا بعُدَّة وافرة من مراكب الفرنـج في البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها، والزَّحف بالبرج إليها[1]. واستمرَّ ذلك إلى أن تيسَّرت لهم أسبابُ الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه، وهجموا البلد، وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضَّرورة والغَلَبة إلى طلب الأمان، فأُجيبوا إليه، وخرج من أمكنهُ الخروج في البر والبحر إلى ناحية مِصْر وغيرها. وقيل إن في هذا الثغر المفتتح من العُدَد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يُحصر فيذكر. ولمَّا شاع هذا الخبرُ في الأقطار ساء سماعُه، وضاقت الصُّدور، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله، فسبحان من لا يُرَدُّ نافذ قضائه، ولا يُدفـع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه[2].

قال: وعرض بين الرَّئيس ابن الصُّوفي وبين أخويه عزِّ الدولة وزَيْنها

(١) في الأصل: إليهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٠ ــ ٣٢٢.

مشاحنات ومشاجرات، اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجيرُ الدين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم في القلعة، فامتنع من ذلك، وجلس في داره، وَهَمَّ بالتحصُّن عنه بأحدَاث* البلد والغوغاء، وآلت الحالُ إلى تمكُّن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرَّر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صَرْخَد* مع مجاهد الدين بزُان واليه بعد أن قرَّر له بقاء داره وبُسْتانه وما يخصُّه ويخصُّ أصحابه. وتقلَّد أخوه زين الدولة[1] مكانه، وأمر ونهى، ونفَّذ الأشغال على عادته في العجز والتَّقصير، وسوء الأفعال، والتماس الرشا على أقل الأعمال. ورأى مجير الدين عقيب ذلك التَّوصُّل إلى بَعْلَبَكَّ لتطييب نفس واليها عطاء الخادم، واستصحابه معه إلى دمشق لينوبَ عنه في تدبير الأمور؛ وعاد وهو معه. واستشعر مجاهد الدين بُزَان أن نيَّة مجير الدين قد تغيَّرت فيه، فاستوحشَ من عَوْده إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانِه في نفسه، فوعد بالإجابة، فعاد إلى داره بدمشق[2]. ثم هَجَسَ في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم، فدعاه ذلك إلى الخروج من البلد سرًّا طالباً صَرْخَد، فحين عَرَفَ خبره أنهضَ في طلبه وقُصَّ أثره، فأدرك وقد قَرُبَ من صَرْخَد*، فقبض عليه، وأُعيد إلى القلعة بدمشق، واعتُقل [بها][3] اعتقالاً جميلاً.

ثم تجدَّد من الرَّئيس الوزير حيدرة المقدَّم ذكره[4] أشياء ظهرت عنه، مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيَّب من المعرفة بالسعي

---

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١ زين الدين، وهو تحريف، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٤٢ وص ٢٢٣ من هذا الجزء.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) هو زين الدولة نفسه.

والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة عن القضاء النَّازل به، لسوء أفعاله، وقبح ظلمه، وخُبْثه. ثم عَدَلَ به الجانْدَارِية* إلى الحمَّام بالقلعة مستهلّ ذي القَعْدة، وضُربت عنقُه صبراً، وأخرج رأسُه، ونُصب على حافَةِ الخندق، ثم طيف به، والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه، وتفنُّنه في الفساد، ومقاسمة اللُّصوص وقُطَّاع الطريق على أموال الناس المستباحة، بتقديره[1] وتدبيره وحمايته، وكثر السُّرور بمصرعه، وابتُهج به[2]. ثم زحفت العامَّة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه، ومخازن غَلَّاته، وأثاثه وذخائره، فانتهبوا منها ما لا يُحصى، وغلبوا أعوان السُّلْطان وجنده عليها بالكثرة، فلم يحصل للسلطان من ذلك إلا النَّزْر اليسير. ورُدَّ أمر الرِّياسة والنَّظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد [بن علي][3] التَّميمي في اليوم المقدَّم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله، وسكنت الدَّهْماء، وبولغ في إخراب منازل الظَّالم ونَقْل أخشابها[4].

قال: وكان عطاء الخادم قد استبدَّ بتدبير الأمور، ومدَّ يده في الظُّلم، وأطلق لسانه بالهُجْر[5]، وأفرط في الاحتجاب، وقصَّر في قضاء الأشغال، فتقدَّم مجير الدين باعتقاله وتقييده، والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبكَّ وما فيها من مالٍ وغلال، ثم ضربت عنقه، ونهبت العوام والغوغاءُ بيوتَ أسبابه وأصحابه[6].

(١) في (ل) بتقريره، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٥.
(٢) في (م) وابتهج بالراحة منه، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٥.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٧٤ من هذا الجزء. وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦.
(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٥) الهجر: القبيح من الكلام. «اللسان» (هجر).
(٦) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السَّلَّار، الذي كانت رتبتُه قد عَلَتْ، ومنزلته في الوزارة قد تمكَّنت، كان لزوجته ولدٌ يُعرف بالأمير عبَّاس[1] قد قدَّمه، واعتمد عليه في الأعمال، ولعبَّاس هذا[2] ولدٌ[3] قدَّمه الوزير، وأنعم عليه، وأذِنَ له في الدُّخول بغير إذن إليه فدخل عليه وهو نائم في فرشته، فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل[4]، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره[5].

قلت: هو أبو الحسن علي بن السَّلار[6] وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشَّافعية بالإسكندرية للحافظ أبي طاهر السِّلَفي[7]، رحمه الله. وكان قتله في سادس المحرَّم بمواطأةٍ من الخليفة الملقب بالظَّافر بن الحافظ.

١/٩١ قال: وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البَلْخي[8] رئيس الحنفية، ودُفن في مقابر الباب الصغير* المجاورة لقبور الشُّهداء. وكان من التفقُّه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع

---

(١) ترجم له أبو شامة في ص ٣١٤ من هذا الجزء، وكان عباس قد قدم مصر من المغرب مع أبيه وأمه سنة (٥٠٩هـ) ونزلوا الإسكندرية، فلما توفي أبوه، تزوج والي الإسكندرية وقتئذٍ العادل بن السلار بأمه. انظر «الكامل»: ١٤٢/١١، و«وفيات الأعيان»: ٤١٨/٣.

(٢) في الأصل: ولهذا عباس، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) هو نصر بن عباس.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٥) انظر ص ٣١٠ من هذا الجزء.

(٦) كان والده السلار في طائفة عسكر سقمان بن أرتق صاحب القدس، ضمه الأفضل أمير الجيوش إليه بعد استيلائه على القدس سنة (٤٨٩هـ). انظر «الكامل»: ٢٨٢/١٠ ـ ٢٨٣، و«وفيات الأعيان»: ٤١٨/٣.

(٧) توفي سنة (٥٧٦ هـ) انظر ص ٥٤ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٨) هو علي بن الحسن بن محمد، له ترجمة في «مرآة الزمان»: ١٣٤/٨ ـ ١٣٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٧٦/٢٠، و«الجواهر المضية» ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٢.

والدين، والعفاف والتَّصوُّن، وحفظ ناموس العلم، والتَّواضع، والتودُّدِ إلى الناس على طريقةٍ مرضية، وسجيَّة محمودة[1].

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسين أحمد بن مُنير الشَّاعر[2] في جمادى الآخرة. ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشَّاعر أبو عبد الله محمد بن نَصْر بن صغير القَيْسَراني[3] من حلب، باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام، في الثاني والعشرين من شعبان[4].

قلت: هما شاعرا الشَّام في وقتهما، وقد شبَّهُهما العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة»[5] بالفَرَزْدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرضٍ سنذكره.

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٣.

(٢) ولد سنة (٤٧٣هـ)، له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ١/ ٧٦ ــ ٩٥، وانظر ترجمته في «بغية الطلب» ٣/ ١١٥٤ ــ ١١٦٤ ــ وفيه ولادته ٤٩٣، وهو خطأ ــ و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٢٣ ــ ٢٢٤. وقد جمع شعره كل من الدكتور سعود محمود عبد الجابر، وطبع في الكويت سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م. والدكتور عمر عبد السلام تدمري، وطبع في بيروت سنة ١٩٨٦ م. وهاتان الطبعتان ــ فيما اعتمداه من كتاب الروضتين ــ مشحونتان بالأخطاء والتحريفات لم أشر إليهما في الهامش لكثرتهما، والذي يقارن بين شعر ابن منير في كتابنا هذا وشعره فيما جمعه الدكتوران يجد الفرق واضحاً.

(٣) له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٩٦ ــ ١٦٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٢٤ ــ ٢٢٦، ولمحمد أنيس جرار كتاب «محمد بن نصر القيسراني، حياته وشعره» طبع في عمان سنة (١٩٧٤م)، وفي مجمع اللغة العربية بدمشق نسخة مصورة عن قطعة من ديوانه محفوظة في دار الكتب المصرية.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٢.

(٥) انظر «الخريدة» قسم شعراء الشام: ١/ ٧٩.

ومما قاله ابن منير من قصيدةٍ له:

أَيـا سيفاً أعزَّ الـدين منه الـ ـغِـرارُ العَضْبُ والنَّـوْم الغِـرارُ
مَـلأتَ جوانحَ الأقـطارِ رَجْفـاً كـأَنَّ الأرضَ خـامَـرَهـا دُوارُ
عـلاك حُلًى على الدُّنيـا فتاجٌ بِمَفْـرِقـهـا وفي يـدهـا سِـوارُ
أضاءَتْ شمسُ عَدْلك في دُجاهـا فكـلُّ زمـانِ سـاكِنِـهـا نَهَـارُ
تُحـرِّق مَنْ عَصَـاك وأنتَ مـاءٌ وتُغـرق مَنْ رَجـاك وأنـتَ نـارُ
ألا لِـلّهِ وجهـك والـمـنـايـا مـكـلّحـة ولـلبـيض افْـتِـرَارُ
هتكْتَ حِجـابَـهُ والنَّصْـرُ غَيْبٌ ولـلـهـبـوات طَـيٌّ وانـتـشـارُ
بِـطَعْـنٍ لـلقُـلُوبِ بـه انـتـظامٌ وضَـرْبٍ لـلرُّؤوس بـه انْـتِـثَـارُ
تـبـادره كـأَنَّ الـمـوتَ غُـنْـمٌ ومـا مـن عـادةِ البَـذْرِ البـدَارُ
أَنَخْتَ على الصَّليبِ مطاً صليباً بـه من صَـكِّ مبـركـه[1] هـدارُ
بمشـرفـةِ المَنَـاكب مقـربـاتٍ لهنَّ بـمتـن كـلِّ وغى حِـصَـارُ
جَنَيْـنَ[2] بـإنِّب* أنبَ العَنَاصي[3] وإضْـنَ ولـلقَـنَـا منـهـا ثِـمـارُ
وفي هـابٍ* أَهَبْتَ بهـا فجـاءت كما أجلى من الكشم[4] الصِّوَارُ[5]
وكم في فَجِّ حـارِمَ* من حريمٍ عَفَتْـهُ فـلا جـديـر ولا جِـدَارُ
وأنـطاكـيَّـةُ* اسْتَـنَّـتْ إلـيـهـا فـأَجْفَـلَ خَيْطُهـا[6] ولـه عِـرَارُ[7]
وصَبَّحَ في عَـزَازَ* بـهـا عـزازٌ فـأمسى وهـو وَعْثٌ أو خَبَـارُ[8]
يَشُقُّ بهـا دُجى الغَمَـراتِ عَسْفـاً جَـوَادٌ لا يُـشَـقُّ لـه غُـبـارُ

(١) في (م) مبرمه. (٢) في (ل) جنبن.

(٣) الأنْب: فاكهة هندية. والعناصي، مفردها عنصوة: القليل المتفرق من النبت. انظر «معجم متن اللغة»: ١/٢١٠، ٤/٢٢١.

(٤) الكشم: اسم للفهد. «اللسان» (كشم).

(٥) القطيع من البقر. «اللسان» (صور).

(٦) في الأصل: خبطها. والخيط: جماعة النعام. «اللسان» (خيط).

(٧) صوت ذكر النعام. انظر «اللسان» (عرر).

(٨) الخبار: ما استرخى من الأرض وتحفر. «اللسان» (خبر).

وله من أخرى:

وما يومُ الفرنجة مِنْكَ فَذٌّ ... فتحصر عدَّهُ خططُ الحسابِ
أجاشَ الأربعاءَ لهم خميساً ... بعيدَ الغَوْرِ مُلْتَطِمِ العُبابِ
وأحكم بالخطيم* لهم خطاماً ... أَمَرَّ بريمُهُ مُرَّ الضِّرابِ
مَشَوْا متساندينَ إلى صَلِيْبٍ ... تبرقع هبوة الصُّمِّ الصِّلابِ
تَلُفُّهمُ المنايا في الثَّنايا ... وتفجؤهم شَعوبُ[1] من الشعابِ
أطاشَتْ سَهْمَ[2] كَبْشِهُمُ* هَنَاةٌ ... فكنتَ ذُبابَ[3] طائشةِ الذُّبابِ
حللتَ التَّاجَ عنه وحَلَّ تاجاً ... مكانَ العِقْدِ من عقد الكعَابِ
أنافَ على العِقاب فكان أشهى ... وأبهى منه في ظلٍّ العُقابِ
فأَشْرَفَ وهو عن شَرَفٍ معوقٌ ... وأصعد وهو[4] غايةُ الآنصبابِ
تكاشِره الشَّوامِتُ وهو مُغْضٍ ... ثَناه مَناه عن رَجْعِ الجوابِ
بعيداً من قراعٍ وافتراعٍ ... يؤوبُ له إلى يومِ المآبِ
وكم سوطٍ بخيلك أقبلوه الـ ... ـصُّدور فكان سوطاً من عذابِ
تَركْتَهُمُ بأرضِ الشَّام شاماً ... لِظُفرٍ تتَّقيه أو لِنَابِ
هَتَكْتَ حِجابَه والشَّمْسُ وَسْنَى ... بشمسٍ لا تُوارى بالحجابِ
بأبيض من حَبيك الهند صافٍ ... مَصُون المتن مبتذل الذُّبابِ
له سمةُ الشُّيوخ صفاءَ شيب ... وفي خَطَراته نَزَقُ الشَّبابِ
ألا يا ناظِرَ الدُّنيا بعينٍ ... أرته علانَها خُدْعَ السَّرابِ
تَبطَّنَها فطلّقَها ثلاثاً ... على عزٍّ التملُّق والخلابِ
فلا يأوي إلى رأي شَعاعٍ ... ولا يثني إلى أملٍ خَرابِ
تَرفَّعَ عن محاورة[5] الأماني ... وحلَّقَ عن محاضرة التَّصابي

٩٢/١

---

(١) الشعوب: المنية. «القاموس المحيط» (شعب).
(٢) في (م) رأس.
(٣) الذباب: حد السيف. «القاموس المحيط» (ذب).
(٤) في (ل) و (م) هي.
(٥) في (ل) و (م) مجاورة.

صلاةُ الله كل ذُرورِ شمسٍ ... على مَثْوَى أبيك من التُّرابِ
فقد أَلْقَى إلى الإسلامِ عَضْباً ... يطبِّق في النَّوائب غير نابي
تجيشُ له رَوَاسٍ كالرَّواسي ... تُمَدُّ لها جِفانٌ كالجوابي

وله من أخرى:

مُظَفَّرُ العَزْمِ ممدودُ الرِّواق على ... معالمِ الدِّين يرفيها ويبنيها
رَدَّ الكنائس كُنْساً للهُدى فخبت ... نارُ الضَّلال ووارَتْها أثافيها
وأَوْرَدَ العلم عَدًّا من إيالته ... فاستَنَّ وافْتنَّ عبًّا في صَوَافيها
وَبثَّ للشِّرْكِ أشراكاً فما دَرَجَتْ ... طريدةٌ منه إلا اسْتَوْهَقَتْ فيها
يا بَدْرُ مُذْ أَشْرَقَتْ في الدَّسْتِ غُرَّتُه ... غِيثَ الرَّعيةُ واخْضَلَّتْ مَرَاعيها
أقامَ أحمدُ من محمودِها عَلَماً ... به استقامَ على البيضاء سارِيها
محيي شريعتِهِ من بعدِ ما انْهَدَمَتْ(١) ... واسْتَعْجَمَتْ بعد إفصاحٍ معانيها
شابَتْ مواهبه فيها مهَابَتُه ... حتى استقرَّت على سَمْتِ سَوَاريها

وله من أخرى:

عَزَّتْ سيوفُك فالعِراقُ عِراقُها ... والشَّام غير مدافعاتٍ شامُهَا
إن أُغمدت حَلَّ العزائِمَ حلُّها ... أو جُرِّدَتْ حَرَم الكَرَى إحرامُها
شَجِيَتْ عِدَاك بها فلا إشراقُها ... بمفازَةٍ منها ولا إعتامُها
سربت فصبَّحها بها يقظانُها ... هَدَأَتْ فمسَّتها بها أحلامُها
كالماءِ إلا أنَّ في رَشَفَاته ... ناراً حُشاشاتُ النُّفوسِ ضِرامُها
خفَّتْ على أيمانكم أوزانُها ... يومَ الوغى واسْتَثْقَلَتْها هامُها
حتى أَحَلْنَ الشَّام شاماً صَرْصَرَتْ ... فيه جَنَادِبُها وصدَّح هامُها
وَرَحَضْنَ أدْرانَ الجزيرةِ بعدما ... غُمِرَتْ بها وهداتها وإكامُها

---

(١) في (م): ما هدمت، وفي هامشها: ما همدت.

شَـطْراً أَبَـرْت ومثله أنْـظرتـه وَقْـع الخـطوبِ تَكُـرُّهـا أيامُهـا

بالخـابطـاتِ الغابَ تَـزْأَرُ أُسْدُه والمجفلي الحي اللِّقـاح صيامُها

أورَدْتَـهـا أجـمـاتِ أنـطاكـيَّـةٍ عَنقاً وقد شَبَّ الصدا إجمامُها

تلقى المَشـافِرَ في مـراشِفَ كُلَّما بَـرَدَتْ بهـا الأكبـادُ زادَ هيـامُهـا ٩٣/١

فَغَـدَتْ وقد عَـزَّ السراح سـراحُها وتـوزَّعـت في كُـنْسِهـا آرامُهـا

ومشى الضَّلال القَهْقَرى واستأصل الـ آذان مِن رَجْـعِ الأذانِ صِـلامُها

وغـداً يخلِّلُهـا الخليـلُ سـواحبـاً عَـذْباً يُمِـرُّ لها العِـذَابَ غمـامُها

غَضَبـاً لـدين الله حصَّ جنـاحـه بغيـاً وأدمى صفحتيـه لـدامُهـا

فـالآنَ رَدَّ الـنـورَ فـيـه نـورُه وانجابَ من تلك الهَنَاتِ ظَـلامُها

محمـودُ المحمـود إقـدامـاً إذا خـامَ الكماةُ وَزُلْـزِلَتْ أقـدامُهـا

الفارجُ الكُرَبِ العِظَامِ تضاجمت أشـدَاقُها وفَـرَى القلوبَ ضِغامُها

وله من أخرى:

أمـا الـرَّعـايـا فـإنَّهـا رَشَفَتْ لـديك نُعمىً عَـذْباً ثنـايـاهـا

سَلَكْتَ نَهْجَ العَدْلِ القويمِ بها فـأحـمـدت دينهـا ودُنيـاهـا

وكـم أُميتت خَـوْفـاً فـأَمَّـنَـهـا متـالفَ الـخَـوْفِ خَـوْفُـك اللهَ

لله أقـطارك الـتـي قـطرت لـهـا مُنَـاهـا إلى مَنَـايـاهـا

أَنَّـبَ فـي إنِّـب* فـوارسـهـا تـردى فتـردي أولاك أُخْـرَاهـا

أَشْجَتْ لهـاة البِـرِنْس هبـوتهـا وكم عتـا عـاتيـاً فـأَشْجَـاهَـا

وجُـوسلين* استسـاغ نـطفتهـا فـاحتلب الـذُّلَّ تحتَ مَغْـدَاهـا

رَدَّتْهُ صِفْـراً من كـلِّ مـا مَلَكَتْ يَـدَاهُ أيدٍ مـا ضَـلَّ مَسْـرَاهـا

جـويسُ جـاسَتْـك أَوْجُـهٌ لا رأَتْ بُؤسـاً وجـادَ الحيـا مُحَـيَّـاهـا

في سـريـة لـو تكـون فـارِسَهـا يـومئـذٍ مـا انْبَعَـثَ أَشْـقَـاهـا

لا زالَ ظِـلُّ النَّعْمـاء عن ملكٍ مـا الشَّمْسُ كفؤاً لـه إذا بـاهى

والله جـازيـه عـن معـبَّـدةٍ أعـزَّهـا الله مُـذْ تـولاهـا
محمـودُ المعـتلي إلى فلك الـ ـحَمْـدِ وثيـراً لـه ولايـاهـا
أعـطاكه جَـدُّك المتـوَّج بـالـ جِـدِّ ونـفسُ لله مَـغْـزَاهـا
نفسٌ عَـزُوفٌ عن الخنـا طبعت نَـزَّهـهـا الله يـومَ سَـوَّاهـا
أنـتَ الـذي سَـلَّم الأنـامُ لـه يُمْنَى طبـاقِ العُـلا ويُسْـراهـا
وأنتَ مـولى المُلوكِ قـاطبـةً من كان فَنَّا خُسْـرو شاهنشـاها[1]
والشِّعْـر هـذا لا قـول أحمـده أوَّه بـديـلٌ مـن قَـوْلَتي واهـا

وله من أخرى:

يا ابن الذي لم يَأْلُ في نجدةٍ[2] الـ إسـلام إدلاجـاً وتَـهْـجـيـرا
تـكنَّفَ الشَّـام وقـد شـامَ بَـر قَ الخـوفِ إنجـاداً وتـغـويـرا
وكفَّ كَلْبَ الـرُّومِ من بعد أَنْ أَنْـشَـبَـهُ نـابـاً وأُظْـفُـورا
فـأهـله رِقُّـك إن أنـصـفـوا رقًّـا بـحـدِّ السَّـيْـفِ مَسْـطُورا
بَدْرٌ هوى واسْتَخْلَفَ الشَّمْسَ في دَسْـتِـك إشـراقـاً وتـأثـيـرا

وله من أخرى:

مـلكٌ كسـا الإسـلامَ من ذَبِّـه بُـرْداً بِتَـدبيج الـظُّبى مُعْلَمـا
مَن أصبح الشَّـامُ بـه شـامـةً يَقْـطُرُ مـن قَتْـلِ عِـدَاه دَمـا
لـو لـم يقـم مُنْصلتـاً دُوْنَـهُ لم تَلْقَ فـي أقـطارِهـا مُسْلِمـا ١/٩٤

---

(١) هو عضد الدولة فناخسرو بن الحسن بن بويه، وهو أول من لقب بالشاهنشاه وتعني: ملك الملوك. انظر «السلوك» للمقريزي: ج ١/ق ٢٨/١، و«الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار» للدكتور حسن الباشا: ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢) في (م) نصرة.

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماة واهتمامه بالعرس وعَوْده إلى حلب:

الدَّهْرُ ما رُضْتَهُ بالجُودِ والباسِ مُقَسَّمٌ بين أغراسٍ وأعراسِ
فتح يعاقبه فَتْحٌ ومُطَّلبٌ داني المنال ومُلكٌ ثابتٌ راسي
نَصْراً ببُصرى* وصفحاً عن حماةَ لقد أَحْسَنْتَ للدَّاء حَسْماً أيها الآسي
يا ابنَ الذي عَنَتِ الدُّنيا لِدَوْلته من فاطميٍّ أعزَّته وعَبَّاسي

وله فيه:

غَدَا الدينُ باسمِكَ سامي العَلَمْ أمينَ العمادِ مكينَ القَدَمْ
لذلك لُقِّبْتَ نوراً له وقد أغطَشَ الظُّلْمُ فيه الظُّلَمْ
أضاءَتْ بِعَدْلِك آفاقُه وفَضَّتْ عُرَى الدِّين لما ادْلَهَمْ
ولم تمشِ رَهْواً[1] لِنصر الرُّها* ومثلُكَ أدركَ لمَّا عَزَمْ
ويومَ بسوطا* بَسَطْتَ الحِمام على الهضب من رُكْنها فانْهَدَمْ
وبُصرى* وصَرْخَد* لو لم تثر دِراكاً لكانا رَدِيفَيْ إرَمْ
ومُذْ فضَّ جيشك في الغوطتيـ ـنِ فضَّ الصَّليب له ما نَظَمْ
وفي كَفْرلاثا* وهابَ* حَلَلْـ ـتَ عَقْدَ البرنس* ببيض خُذُمْ[2]
معوَّدَةٍ أنها لا تُسَلُّ (م) إلا مقمقمةً للقِمَم
ويومَ بَسَرْفُود* جَرَّعْتَهُمْ أُجاجاً أغصَّهُمُ واصطَلَمْ
وفوقَ العُرَيمة* غشَّاهم عُرَامُ جيوشك سيلَ العَرِمْ
وأبتَ بكلبهُمُ في الكُبُولِ مباح الحريم مُذَالَّ[3] الحُرَمْ
وبارتهم* آذَنَتْ أَنَّها أبارَتْهُمُ فلْيَبُوؤوا بِذَمْ

---

(١) في (ل) رهقاً.
(٢) في (م) حزم.
(٣) في (ل) مذل.

بنَــوْهــا وأعــلَوْا ولـم يـعـلمـوا   بمـا خَطَّ في اللَّوْحِ منـك القَلَمْ
وأنــك خــارِمُ مــا أَحْـكَـمُـوه   ومِـنْ دِيـنـنـا راقِـعٌ مـا انْـخَـرَمْ
تَـرْفَـعُ من بعـدِ خَفْضٍ هُـدىً   وتـخفض مـن بعـد رَفْـعٍ صَـنَـمْ
سَمَكْتَ المـدارِسَ فـوقَ النُّجـوم   فكم مَنْجَمٍ تحتَهـا قـد نَـجَمْ
وعــاشَ الـحنيفـيُّ والـشَّـافـعي   بمـا شِـدْتَ منهـا وكـانـا رِمَمْ
وإن لم تكن هــاشميَّ الأُصــول   فـإنــك فَــرْعُ الهِــزَبْـرِ الهَـشِمْ
ومن يـدَّعي في العُـلا ما ادَّعَيْتَ   وأنت ابنُ من عــزٍّ لمَّــا احْتَكَمْ
وأُقْسِمُ مــا غــابَ مَيْتٌ سَقَـتْ   مـغــارِسَـه عيـنُ هــذي الشِّيـم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة، ونَفَسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القَيْسَراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد المَوْصلي[١]، وسيأتي شيءٌ من شعره، إلى أن قدم العماد الكاتبُ الشَّام في سنة اثنتين وستين، فتسلَّم هذا الأمر، وعَبَّر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغَزَواته بأحسن العبارات وأتمِّها نظماً ونثراً، وسيأتي كُلُّ ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة توفي صاحب مَارِدِين* حسام الدين تمرتاش، ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش ابن أُرْتُق.

قلت: وقد مدحه القَيْسَراني والعَرْقَلة[٢] وغيرهما من الشعراء.

(١) سيرد ذكره في ص ٤٠٢ من هذا الجزء.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من هذا الجزء.

ثم دخلت سنة تسعٍ وأربعين [وخمس مئة][1]

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين [مدينة][2] دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها أن الفرنـج ملكوا في السَّنة الخالية عَسْقلان؛ وهي مدينة فِلَسْطين حُسْناً وحَصَانةً. ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهَّفُ ولا يقدرُ على إزعاجهم عنها؛ لأن دمشق في طريقه وليس له على غيرها مَعْبَر، لاعتراض بلاد الإفرنـج في الوسط. وقوي الفرنـج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا القتل بها والنَّهْبَ والسَّبْي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنـج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد. ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنـج، واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نُهبوا من سائر بلاد النَّصرانية، وخيَّروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحبَّ وطنه سار إليه. وزالت طاعةُ مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مـع إنسان منهم كان يقال له مُؤَيِّد الدين بـن الصُّوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو، فجأروا[3] إلى الله تعالى، ودعَوْه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم، وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحبِّ عباده إليه، وأحسنهم طريقةً، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود، فحَسَّنَ له السعي في ملك البلدة وألقاه في رُوعه. فلما خطر له ذلك

١/٩٥

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٣) أي رفعوا صوتهم بالدعاء مـع تضرع واستغاثة. انظر «اللسان» (جأر).

أفكر فيه، فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذَّر عليه، لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم[١].

قلت : وكان قد سبق له سوابق قد تقدَّم ذكر شيء منها[٢]، ولذلك قال العَرْقَلَة يمدح أتابكه معين الدين أُنَر من قصيدة:

يظنُّ صلاحُ الدين فرسانَ جِلَّقٍ	كفرسانِهِ ما الأسد مثلَ الثَّعالبِ
غداً تطلع الشَّام الفرنج بفيلقٍ	مُعوَّدةٍ أبطالُهُ للمصائبِ
رجالٌ إذا قام الصَّليبُ تَصَلَّبَتْ	رماحُهُمُ في كل ماشٍ وراكبِ
لها اللَّيْلُ نَقْعٌ[٣] والأَسِنَّةُ أنجمٌ	فما غيرُ أبطالٍ وغيرُ جنائبِ[٤]

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك حينئذٍ لم يكن ملكاً يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني صاحب حماة؛ أحد أصحاب زَنْكي، وقد تقدَّم ذكره مراراً[٥]، وكأنه كان في مقدِّمة الجيش النُّوري لما قصد دمشق في المرتين الأُوْلَيين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زَنْكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها؟ وانضاف إلى ذلك كراهيته لِسفك دماء المسلمين، فإن الدَّم كان عنده عظيماً، لما كان قد جُبِلَ عليه من الرأفة والرَّحمة والعَدْل. فلما رأى الحال هكذا عمد[٦] إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها

(١) انظر «الباهر»: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٢) انظر ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ من هذا الجزء.
(٣) في (م) لها النقع ليل.
(٤) الأبيات في «ديوان عرقلة الكلبي»: ٦٠.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١١٥ من هذا الجزء.
(٦) في (م) عدل، ومثله في «الباهر»: ١٠٧.

واستماله، وواصلَه بالهدايا، وأظهر له المودَّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلاناً ــ ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين ــ قد كاتبني في المخامرة عليك، فاحْذَرْه. فتارةً يأخذ إقطاع أحدهم، وتارةً يقبض عليه. فلما خَلَتْ دمشق من الأمراء، قدَّم أميراً كان عنده يُسمَّى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوَّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكَّن من دمشق معه. فقبض عليه مجير الدين وقتله[1]، فقال له عند قتله: إنَّ الحيلة قد تمَّت عليك فلا تقتلني، فإنه سيظهر لك ما أقول. فلم يصغ إلى قوله، وقتله[2].

قلت: وفي بعض قصائد ابنُ منير ما يدلُّ على أن عطاءً هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث، فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم	لحُور نسائهم منهم نساءُ
هي الفِرْدَوْسُ أصبحَ وهو عافٍ	من العافي ومن خالٍ خَلاءُ
جِنَانٌ تعرفُ الجَنَّاتِ فيها	ولا رأيٌ هناك ولا رُواءُ
لأسمح صعبها ودَنَتْ قصاها	وأمكنكَ اقتيادٌ وامتطاءُ
ويا نِعْمَ العطاءُ عطاءُ رَبٍّ	توسَّطَهُ فأَنْشطَهُ عطاءُ
تفاءل باسمه فالفأل وَعْدٌ	يكون على ظُبَاك به الوفاءُ
هو السَّبب الذي شزَرَتْ قواه	وهذَّبه لخدمتك الصَّفَاءُ
وسَيْفٌ إن تَشِمه تَشِم حُساماً	وإنْ تُغْمِدْ فنارٌ بل ذُكاءُ
جنَّته لك السَّعادةُ قطف رأي	لنقب الخادِعِيك به هِناءُ[3]

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديثٌ، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لمّا بلغ مجير الدين ذلك. وعطاء هذا هو الذي يُنْسب

---

(١) مَرَّ أنه قتل سنة (٥٤٨هـ) انظر ص ٢٩١ من هذا الجزء.

(٢) «الباهر»: ١٠٧.

(٣) الهِناء: القَطِران. «القاموس المحيط» (هنأ).

إليه مسجد عطاء خارج الباب الشَّرْقي* بدمشق[1]، وجورة عطاء[2] ببيت أبيات*؛ وهي أرضٌ فيها أخشابٌ كبار من الحور تُرَبَّى أوتاداً[3] لجامع دمشق، وهي وَقْفٌ عليه. وقد مدحه العَرْقَلَة وغيرُه من الشُّعراء. 96/1

قال ابنُ الأثير: فلما قُتل عطاءٌ قوي طمعُ نور الدين في دمشق، فراسل أحداث* البلد وزناطرته* واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار إليهم وحاصرهم عشرة أيام. فكاتب مجير الدين الفرنج، وبذل لهم الأموال وقلعة بَعْلَبَكَّ إن رحَّلوا نور الدين عنه. فإلى أن اجتمعوا، وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق، فعادوا بخُفَّيْ حُنين. وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيَّق على من به، ثار الأحداثُ الذين كاتبهم نور الدين، وسلَّموا إليه البلد من الباب الشَّرْقي*، فدخله بالأمان عاشر صفر، وحصر مجيرَ الدين في القلعة، وراسله وبذل له الإقطاع الكثير، من جُملته مدينة حمص، فأجاب إلى تسليم القلعة، وسار إلى حمص[4].

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسدَ الدين شِيركُوه رسولاً إلى صاحب دمشق، فخرج في تجمُّلٍ عظيمٍ ومعه ألف فارس، فَعَظُمَ على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة. ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحدٌ من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين، ونزل بمرج القصب، وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يُعرِّفه بما جرى عليه. فسار نور الدين في عساكره، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وكانت الحرب في عاشر صفر، وتولَّى أسد الدين القتال، وأبلى الجهد، فكسر عساكرَ دمشق إلى

---

(1) في قرية الخامسين، وهي من القرى الدائرة. انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر: 2/81، «ثمار المقاصد»: 108، وانظر حاشيتنا رقم 2 ص 265 من هذا الجزء.

(2) انظر «غوطة دمشق»: 228.

(3) في الأصل و (ل) أوتاراً، والمثبت من (م). وكانت هذه الأوتاد تستخدم من أجل قبة النَّسْر في جامع دمشق. انظر «المذيل على الروضتين» حوادث سنة (613 هـ).

(4) «الباهر»: 107.

الأسوار من قبليِّ البلد، ولم يكن أحدٌ من المقاتلة على السُّور من ذلك الجانب، لأن نور الدين كان من شرقيِّها، وجُلُّ العسكر مقابلُه، ورأى من كان مـع نور الدين من الجَانْدَارِية* والحلبيين خُلُوَّ السُّور من المقاتلة، فتسرَّعوا إلى السُّور، وتعلَّقوا به، وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال: إن امرأةً كانت على السُّور، فدلَّت حبلاً فصعدوا فيه، وصار على السُّور جماعة، ونصبوا السلالم، وصَعِدَ جماعةٌ أُخرى، ونصبـوا علماً، وصـاحوا بشعـار نور الدين، فوقـع على أهل البلد الخِذْلان، وكُسِرَ بابُ البلد، ودخلت الخيَّالة منه، وملك نور الدين دمشق. وكان لأسد الدين اليد الطُّولى في فتحها، فولاَّه نور الدين أمرها، وردَّ إليه جميـع أحوالها. وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرَّحْبة*.

وقال الرَّئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرَّم وصل الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخَيَّم بناحية القَصَب من المرج في عسكرٍ يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقـع الاستيحاش منه، وإهمال الخروج إليه لتلقِّيه والاختلاط به، وتكرَّرت المراسلات فيما اقتضته الحال، ولم تُسْفر عن سَدَاد ولا نيل مُرَاد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغَلاَّت. ووصل نور الدين بعسكره إلى شِيركُوه ثالث صفر، وخيَّم بعيون الفاسريا* عند دُومَة*، ورحل في الغد، ونزل بيت الآبار* من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير، ووقـع الطِّرَادُ بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوماً بعد يومٍ، وتأكد الزَّحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي، فاندفـع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كَيْسان* والدَّباغة من قبليِّ البلد، وليس على السُّور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر، غير نفرٍ يسير لا يُؤبه لهم، فتسرَّع بعضُ الرَّجَّالة إلى السُّور، وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلاً، فصَعِدَ فيه، وحصل على السُّور، ولم يشعر به أحد، وتبعه

من تبعه، وأطلعوا علماً نصبوه على السُّور، وصاحوا: نور الدين يا منصور. وامتنع الأجناد والرَّعية من الممانعة لما هم عليه من المحبّة لنور الدين وعدله، وحُسْن ذكره. وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشَّرْقي*، فكسر أغلاقه وفتحه، فدخل منه العسكر، وسعَوْا في الطُّرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم. وفُتح باب توما* أيضاً ودخل [الناس][1] منه، ثم دخل نور الدين وخواصُّه، وسُرَّ كافَّة الناس من الأجناد والعسكرية، لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازلة الفرنج الكُفَّار. وكان مجير الدين لما أحسَّ بالغَلَبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه، وأُومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين، فطيَّب نفسه ووعدَه الجميل. ودخل نور الدين القلعة في يوم الأحد المقدَّم ذكره، وأمر بالمناداة بالأمان للرَّعيَّة، والمنع من انتهاب شيء من دُورهم، وتسرَّع قومٌ من الرَّعاع والأوباش إلى سوق علي* وغيره، فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيَّب نفوسهم، وأزال نفرتَهُمْ. وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدَّار الأتابكية؛ دار جَدِّه، وأقام أياماً، ثم تقدَّم إليه بالمسير إلى حمص في خواصِّه ومَن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه، بعد أن كتب له المنشور بإقطاعه عِدَّة ضياع بأعمال حمص، برسمه ورسم جُنْده، وتوجَّه إلى حمص على القضيَّة المقرَّرة. ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرَّعيَّة من القُضَاة والفقهاء والتُّجَّار، وخوطبوا بما زاد في إيناسهم وسرور نفوسهم، وحُسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدُّعاء له، والثَّناء عليه، والشكر لله تعالى على ما أصاره[2] إليه. ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطِّيخ*،

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في «ذيل تاريخ دمشق» ما أصاروه، وهو وهم.

١/٩٧ وسوق البقل، وضمان الأنهار، وأنشأ بذلك المنشور، وقريء على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر النَّاسُ بصلاحِ الحال، وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه، ونُصْرة أعلامه(١).

وقال ابن الأثير: لما استقلَّ(٢) نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرُمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً(٣) عامّاً.

قلت: قد تقدَّم ذكره في أوَّل الكتاب(٤)، وسيأتي منه أشياء مفرَّقة فيما بعد.

قال: وألقى الإسلامُ جِرَانه(٥) بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكُفَّار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشَّام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين. وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين، فخاف أن يحدث ما يشقُّ تلافيه، بل ربما تعذَّر، لا سيما مع مجاورة الإفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعَوَّضه عنها مدينة بالِس*، فلم يرضها، وسار عن الشَّام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النِّظاميَّة*، وتوفي(٦) بها(٧).

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦ ـ ٣٢٩.

(٢) في «الباهر»: استقر.

(٣) «الباهر»: ١٠٧.

(٤) انظر ص (٣٨ ـ ٤٢) من هذا الجزء.

(٥) أي ثبت واستقر. انظر «أساس البلاغة» و«اللسان» (جرن).

(٦) وذلك سنة (٥٦٤ هـ). وكان ولي دمشق وهو حدث سنة (٥٣٤ هـ) كما مرَّ ص ١٢٨ من هذا الجزء. انظر ترجمته في «مرآة الزمان»: ٨/ ١٧٢، و«وفيات الأعيان»: ٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦. و«العبر» للذهبي ٤/ ١٨٥ ـ ١٨٦، و«الوافي بالوفيات» ٦/ ١٨٨. وفي «تاريخ الفارقي» أنه كان مقيماً في بغداد سنة (٥٧٢ هـ) انظر الحاشية رقم (١) ص (٣٢٨) من «ذيل تاريخ دمشق».

(٧) انظر «الباهر»: ١٠٧ ـ ١٠٨.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنـج كافَّةً، وعلموا أنه لا يقعد عن غزو بلادهم، والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص وتقرَّبوا إليه. ثم إن مَنْ بتلٍّ باشر* راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حَسَّان المَنْبِجي؛ وهو من أكابر أمراء نور الدين، وإقطاعه مَنْبِـج*، فأمره أن يتسلَّمها منهم. فسار إليها، وتسلَّمها[1]، وحصَّنها، ورفـع إليها ذخائر كثيرة[2].

فـصـل

قال الرَّئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بُزان أُطلق يوم الفتـح من الاعتقال[3]، وأعيد إلى داره. ووصل الرئيس مُؤَيَّد الدين المسيّب إلى دمشق مـع ولده النَّائب عنه في صَرْخَد* إلى داره، مُعوِّلاً على لزومها، وتَرْك التعرُّض لشيءٍ من التصرُّفات والأعمال. فبدَا منه من الأسباب المُعْرِبة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهـج السَّدَاد والرَّشاد، ما كان داعياً إلى فساد النِّيَّة فيه. وكان في إحدى رجليه فتـح قد طال به ونسيه[4]، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه، وأسقط قوَّته، مـع فهاق مُتَّصل[5] وقُلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابـع ربيـع الأوَّل، ودُفن في داره، واستبشرَ الناسُ بهلاكه، والرَّاحة من سوء أفعاله[6].

---

(١) مَرَّ أنه تسلمها سنة (٥٤٦هـ) ونور الدين يحاصر دمشق. انظر ص ٢٦٧ مـن هذا الجزء.

(٢) انظر «الكامل»: ١١/١٩٩، والخبر غير موجود في «الباهر».

(٣) انظر ما تقدم من خبر اعتقاله ص ٢٩٠ من هذا الجزء.

(٤) كذا في النسـخ الخطية، وفي «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٢٩ «ونسر» أي نقض. انظر «معجم متن اللغة»: ٥/٤٤٧.

(٥) أي نزيف دائم. انظر «اللسان» (فهق).

(٦) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٢٩.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظَّافر بن الحافظ[1]، وأقيم ولده عيسى مُقامه، وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقَّبوه بالفائز[2]، وعباسٌ الوزير[3]. ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس المسلمين[4] طلائع بنُ رزِّيك[5] ـ وهو من أكابر الأمراء المقدَّمين، والشجعان المذكورين ـ لما انتهى إليه الخبر ـ وهو غائب عن مصر ـ قلق لذلك وامتعض، وجمع واحتشد، وقصد العودَ إلى مصر. فلما عرف عَبَّاسٌ بما جمع خاف الغَلَبة، فتأهَّبَ للهرب في خواصِّه وأسبابه وحُرَمه، وما تهيأ من ماله، وسار مُغِذًّا، فلما قَرُبَ من أعمال عَسْقَلان وغزَّة خرج إليه جماعةٌ من خيَّالة الإفرنج، فاغترَّ بكثرة من معه وقلَّة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه، وانهزموا أقبح هزيمة، هو وابنه الصَّغير[6]، وأُسر ابنه الكبير الذي قتل العادلَ بن السَّلار، مع ولده وحُرَمه، وماله وكُرَاعه[7]، وحصلوا في أيدي الفرنج، ومن هرب لقي من الجوع والعطش شِدَّة، ومات العدد الكثير من النَّاس والدَّوابِّ، ووصل في أثر هروبهم فارس المسلمين، ووضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من نجَّاه الهرب على أشنع صفةٍ من العَدَم والعُرْي في آخر ربيع الآخر[8].

---

(1) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٦ من هذا الجزء.

(2) توفي سنة (٥٥٥هـ) انظر ص ٣٨٩ من هذا الجزء، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(3) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٩٢ من هذا الجزء.

(4) في النسخ الخطية: فارس الدين، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٠، وسيأتي على الصواب بعد عدة أسطر. وانظر «الاعتبار»: ٤٥.

(5) سترد ترجمته ص ٣٩٠ من هذا الجزء، وأخباره مبثوثة في أثنائه.

(6) سيرد أن عباساً وابنه قتلا في المعركة. انظر ص ٣١٤ من هذا الجزء.

(7) الكراع: اسم يجمع البغال والخيول والجمال. وقيل: الخيل والسلاح. انظر «اللسان» (كرع)، و«صبح الأعشى»: ٣/٤٧٨.

(8) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

قلت: وفي ذلك يقول عُمارة اليمني[1] من قصيدةٍ له:

لكم يـابني رُزِّيـك لا زال ظِلُّكم   مواطِنُ، سُحْبُ الموتِ فيها مواطِرُ
سَلَلْتُمْ على عَبَّاس بيضَ صوارمٍ   قهـرتم بها سُلْطانَـه وهو قـاهِـرُ

وذكر الأمير أُسامة بن مُنقذ في «كتاب الاعتبار» أن نصر بنَ عباس لما قَتَل ابن السَّلَّار وتوزَّر أبوه عَبَّاس كان نصر يُعاشر الخليفة الظَّافر ويخالطه، وعبَّاس كارهٌ لذلك مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القَوْم وضَرْبِ بعض النَّاس ببعضٍ حتى يفنوهم. وشرَعَ الظَّافر مع ابن عباس في حمله على أبيه[2]، ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك، فنهيتُه، فأطلَعَ والدَه على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به، وقرَّر معه قتلَ الظَّافر، وكانا يخرجان متنكِّرين، وهما تِرْبان سنُّهما واحد. فدعاه إلى داره، ورتَّب من أصحابه معه في جانب الدَّار نفراً، ثم لما استقرَّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سَلْخ محرَّم سنة تسع وأربعين وخمس مئة، ورماه[3] في جُبِّ الدار. وأصبح عباس جاء إلى القصر ضحوة نهارٍ للسَّلام، [فجلس][4] في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظَّافر، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى زِمام القصر[5]

---

(١) سيرد الحديث عنه في ٢/ ٢٨٢ وما بعدها. من هذا الكتاب..

(٢) كان الظافر يرمي إلى قتل عباس، وأن يصير ولده نصر في الوزارة مكانه. انظر «الاعتبار»: ٤٢.

(٣) في (م) وزره، أي حمله. يقال: وزر يزر: إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة. انظر «اللسان» (وزر).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) قال القلقشندي: «وظيفة زمام القصور بمثابة زمام الدور في زماننا». وزمام دار تعني الخادم الموكل بحفظ الحريم. ولفظ «زمام» أصلها زنان ومعناه: النساء، ودار: ممسك، فيكون المعنى: ممسك النساء، بمعنى الموكل بحفظ الحريم، إلا أن العامة والخاصة قلبوا النونين فيه بميمين وأصبح يطلق لقب زمام دار على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام الخصيان، وهذه الوظيفة هي إحدى وظائف خدام الخليفة =

وقال: ما لمولانا ما جلس للسَّلام؟ فتبلَّد[1] الأُستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: مالك لا تجاوبني؟ قال: يا مولاي، مولانا ما ندري أين هو. قال: مثلُ مولانا يضيع! ارجع واكشف الحال. فمضى ورجع، فقال: ما وجدنا مولانا. فقال[2]: يبقى النَّاس بلا خليفة! ادخل إلى الموالي إخوته يخرجُ منهم واحدٌ لنبايعه. فمضى[3] وعاد، وقال: الموالي يقولون لك: ما لَنا في الأمر شيء، والدُنا عزله عنا، وجعله في الظَّافر، والأمر لولده بعده. قال[4]: أخرجوه حتى نبايعه[5].

١/٩٨

قال: وعَبَّاسٌ قد قتل الظَّافر، وعزم على أن يقول لإخوته أنتم قتلتموه، ويقتلهم. فخرج ولدُ الظافر، ولعلَّ عمره خمس سنين، يحمله الأُستاذ، فأخـذه عَبَّاس فحمله وبكى، وبكى النَّاس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه، وهو حامله، وفيه أولاد الحافظ[6].

قال ابن منقذ: ونحن في الرِّواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجلٍ من المِصْريين، فما راعنا إلاَّ قومٌ قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة، فإذا السُّيوف تختلف على إنسانٍ، فقلت لغُلامٍ لي أَرْمَنِيّ: أبصر من هذا المقتول. فمضى وعاد [وقال][7]: ما هؤلاء مسلمين! هذا مولاي أبو

= من الأستاذين المحنكين ــ أي الذين يدورون عمائهم على أحناكهم ــ وهم من أجل الخدام، وأقربهم إلى الخليفة وأخصهم به. انظر «صبح الأعشى»: ٤٨١/٣، ٤٨٤ ــ ٤٨٥، ٤٥٩/٥ ــ ٤٦٠.

(١) في (م) فتبلَّه.
(٢) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: عباس.
(٣) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: زمام.
(٤) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: عباس.
(٥) انظر «الاعتبار»: ٤١ ــ ٤٤.
(٦) المصدر السابق.
(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، وواحدٌ قد شقَّ بطنَهُ يجذب مصارينَهُ. ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربةُ سيف، والدَّم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجرَّد قال: وكان ذلك اليوم من أشدِّ الأيام التي جرت علي، لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميعُ خلقه(١).

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في «ديوانه»(٢) قال: كان لعبَّاس أربع مئة جمل تحمل أثقاله، ومئتا بغل، ومئتا جنيب(٣)، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع [عشر](٤) ربيع الأول سنة تسعٍ وأربعين وخمس مئة، وقد قام عليه أهل مصر وعسكريَّتُها؛ فارسُهُمْ وراجلُهم، تقدم بشدِّ خيله وبغاله وجماله ليتحمَّل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره، وقد ملأت ذلك الفضاء إلى قصر السُّلْطان إلى الإيوان، خرج غلامٌ يقال له عنبر كان على أشغاله، وغلمانُه كلُّهم تحت يده، فقال للجمَّالين والخَربَنْدية(٥) والرِّكابية(٦): روحُوا إلى بيوتكم وسيِّبوا الدَّوابَّ. ففعلوا ذلك، وانحاز هو إلى المصريين

---

(١) انظر «الاعتبار»: ٤١ ـ ٤٤.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ولم أجد الخبر في «ديوانه» المطبوع، والخبر في «الاعتبار»، مع اختلاف في الإيراد.

(٣) جمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان أو الأمير في الحروب استعداداً لاحتمال الحاجة إليها. انظر «تكملة المعاجم العربية». دوزي: ١/٢٩٦.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) هم المكارون، مفردها المكاري: الذي يكري دابته، أي يؤجرها. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي ١/٣٥٧، و«معجم متن اللغة»: ٥/٥٩.

(٦) هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه. انظر «التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: ١٦١.

يقاتله معهم. وكان ما جرى من تهميل[1] الدواب لُطفاً من الله تعالى به، فإنها سَدَّت الطريق بينَه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلقٍ كثير، ونحن في قلة ما نبلـغُ خمسين رجلًا، وغلمان عباس ـ مماليكه ـ في ألف ومئتي غلام بالخيول الجياد والسِّلاح التَّام، وثماني مئة فـارس من الأتراك، خرجوا كلهم من باب النَّصْر، ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطَّابية فراراً من القتال. فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال والبغال، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عبَّاس من باب النصر، وجاؤوا في إثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره. وكان عباس قد أحضر من العرب نحواً من ثلاثة آلاف فارس يَتَقَوَّى بهم على المصريين، واستحلفهم، ووهبهم هباتٍ عظيمة. فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدَّ قتال ستة أيام، يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف اللَّيل، ثم يركبون ويهدُّون خيلهم على جانب النَّاس، ويصيحون صيحةً واحدة، فتجفل الخيلُ وتقطـع، ويخرج إليهم منها ما فيه مُنَّة وقوة فيأخذونه، فكان ذلك سببُ هلاك خيله، وتمكُّنِ الإفرنـج منه، واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصدُ الفرنـج إليه[2].

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعه ضُحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليه وأخذوا منه حَسَباً[3] على أموالهم وأنفسهم

---

(١) في الأصل: تمهيد، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م). أي تركها مهملة، انظر «الاعتبار»: ٤٨.

(٢) انظر «الاعتبار»: ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) في «الاعتبار»: ٥٠ «ولما أراد العرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا إذا عدنا». قلت: لعلها بمعنى الأمان لهم.

وبيوتهم ظناً منهم أن له عودةً إليهم، وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس. ويوم الأحد صبَّحهم الإفرنـج وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم، فقتلوا عباساً وابنه الأوسط[١]، وأسروا ابنَه الأكبر[٢]، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخـذوا نساء عبـاس وخزائنـه، وأسـروا أولاداً لـه صِغـاراً وانصرفوا[٣].

قلتُ: عباس هذا هو عباس بن أبـي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الحِمْيَري، ويلقب بالأفضل رُكن الدين، ويكنى بأبـي الفَضْل، ورأيتُ علامته في الكتب أيام وزارته: «الحمد لله وبه أثق». وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عَمَّ جودُ الأَفْضَل السَّيِّدِ الوَرَى وأغنى غَناءَ الغَيْثِ حيثُ يَصُوبُ[٤]

ومن أبيات لابن أسعد[٥] فيه لما قَتَلَ الظَّافر[٦]:

وأَنْفَقَ من إنعـامهم في هـلاكهم وأَظْهَـرَ ما قـد كانَ عنـه يُنافِقُ[٧]
ومـدَّ يـداً هم طـوَّلـوهـا إليهم وحلَّتْ بـأهل القَصْـر منه البـوائقُ
سقى رَبَّه كأسَ المنايا وما انقضى له الشَّهْرُ إلا وهو للكأسِ ذَائِق[٨]

---

(١) في «الاعتبار»: ٥٠ حسام الملك.

(٢) هو نصر بن عباس، ناصر الدين، وقد بعثه الفرنـج في قفص من الحديد إلى أخت الظافر، وذلك سنة (٥٥٠هـ) فقُطعت يده، وضُرب بالمقارع، وقص لحمه، ثم صلب فمات، فبقي معلقاً شهوراً ثم أحرق. انظر «وفيات الأعيان» ٣/٤٩٣، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/٢٠٧.

(٣) انظر «الاعتبار»: ٥٠.

(٤) البيت في «ديوانه»: ١٦٢.

(٥) انظر ص ٤٠٢ من هذا الجزء.

(٦) في هامش الأصل: «حاشية: أبيات ابن أسعد هذه من قصيدة مَدْحِ الصالح بن رزيك، أولها «أيرجـع عصر بالجزيرة رائقُ».

(٧) هذا البيت هو في «الخريدة» صدر بيت وعجز بيت آخر:

ولما رأى عبـاس للغـدر مـذهبـاً وأظهـر مـا قـد كـان عنـه ينـافق
وأنفق من إنعـامهم في هـلاكهم جـزاء بـه عمـري خليق ولائق

(٨) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤، وهي في «تكملة ديوانه» مستدركة من المصدر المذكور.

وكان عبَّاس قد تخيَّل من أُسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصَّالح من المودَّة والمصافاة، فأحضره واستحلفه أنه لا ينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى نفَّذ من أستاذيٍّ داره* من يدخل على حُرَمه إلى داره، فأخذ أهله وأولاده، فتركهم عند أهله وأولاده، وقال له: قد حملتُ ثقلهم عنك، لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ـ يعني ولده ناصر الدين ـ وبإخوانه. فلما خرجوا، ونُهبت دورُهم ودوابُّهم عَجَزَ عن حمل من يخصُّه، فأعادهم أسامة من بِلْبيس*، ونفَّذ إلى الملك الصَّالح يقول له: قد نفَّذت أهلي وأولادي إليك، وأنت وليُّ ما تراه فيهم. فأنزلهم في دارٍ، وأجرى عليهم الجاري الواسع، وأحسن إليهم غاية الإحسان. وكان يكاتبه في الرُّجوع إلى مصر، وهو يتلطَّف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسبه إلى وحشة قلبه من القصور، ونفوره من المصريين. فنفَّذ إليه يقول له: تصل إلى مكَّة في الموسم، ويلقاك رسولي إليها يسلِّم إليك مدينة أُسوان، وأنفذ إليك أهلك، وأمدّك بالأموال، وهي ـ كما علمت ـ الثَّغْر بيننا وبين السُّودان، وما يسُدُّ ذلك الثغر مثلك. وأكثر من الوعد، وذكر رغبته في قُرْبه، ورعايته ما بينه وبينه من قديم الصُّحبة. فاستأذن أُسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته. فقال: يا فلان، ما تساوي الحياة الشتات والرُّجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان. ومنعه من ذلك بإحسانه، ووعده أن يستخلص أهله. فكتب أسامة إلى الملك الصَّالح يعتذر ويسأله تسيير أهله. وتردَّدت بينهما مكاتبات، وأشعار مُتَّصلات، إلى أن سيَّرَهم، وهم نيِّفٌ وخمسون نسمة، في الإكرام والاحترام إلى آخر ولايته. وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم، وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه. ووصله بعضُ أصحابه من دمشق، وهو بالعسكر النُّوري بحلب، فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسر بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه، ولم يصلوا إلى دمشق إلا

١/٩٩

بأنفسهم، وأن متملِّك الإفرنـج أعطاهم خمس مئة دينار أصلحوا منها حالهم، واكترَوْا ظَهْراً إلى دمشق[1]، فقال أسامة:

إلـى الله أشكو فُرْقةً دَمِيَتْ لها ... جُفُوني وأذْكَتْ بالهُموم ضَميري
تمادَتْ إلى أَنْ لاذَتِ النَّفْسُ بالمنى ... وطـارَتْ بها الأشـواقُ كلَّ مَـطيـرِ
فلمـا قضَى اللَّهُ اللقـاءَ تعـرَّضَتْ ... مساءةُ دهْري في طريقِ سُروري[2]

فصـــل

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيـع الأوَّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر [محمد][3] نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحـج، وأقام أياماً وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: هذا هو ابن الدَّاية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخوته، وسيتكرَّر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أُخوتـه، وقد مدحه الشعراء. قال القَيْسَراني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى مِنْ قَبْلِ هذا لما بَعْدُ ... فأُقْسِمُ لولا المجدُ ما عُرِفَ المَجْدُ
كـريمٌ سَمَتْ أوصـافُـه لِعُفـاتـه[4] ... قـرائن كـل اثنين[5] بينهمـا عِقْـدُ
محيَّـاه والبُشْـرى ويُمنـاه والنَّـدى ... ونجـواه والدُّنيـا وتقواه والـزُّهْدُ[6]

---

(١) انظر «الاعتبار»: ٤٦، ٤٩ ــ ٥١، ٥٦ ــ ٥٨.

(٢) الأبيات في «ديوانه»: ٧٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) العفاة: الأضيـاف وطلاب المعروف. «اللسان» (عفا).

(٥) في الأصل: اثنتين، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في (م) ونجواه والتقوى ودنياه والزهد.

ففي قربه الزُّلْفى وفي وَعْدِه الغِنَى وفي نَيْله الحُسْنى وفي رأيه الرُّشْدُ
إذا وَجْهُ نورِ الدين قابل مَجْدَه فَقُلْ في كمالِ البَدْرِ قابلَه[1] السَّعْدُ

وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[2]، وولي الحرمين ولدُه قاسم بن هاشم[3]؛ وهو الذي أرسل عُمارة اليمني [الفقيه][4] الشَّاعر إلى الديار المِصْرية، وسيأتي ذكره[5].

قال أبو يعلى: وفي ثامن جُمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مِصْر بأن عدَّةً وافرة من مراكب الفرنج من صِقِلِّية وصلت إلى مدينة تِنِّيس* على حين غَفْلَةٍ من أهلها، فهجمت عليها، وقتلت وأسرت، وسَبَتْ ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام، وتركتها صِفْراً. وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سَلِمَ واختفى، وضاقت الصُّدور عند استماع هذا الخبر المكروه[6].

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين أبي منصور محمد بن عبد الصَّمد بن الطَّرَسُوسي، وكان ذا هِمَّةٍ ماضية، ويقظة

---

(١) في (م) قارنه.
(٢) ولي هاشم بعد أبيه سنة (٥٢٧هـ)، وفي سنة (٥٣٩هـ) حدثت فتنة في الموسم بينه وبين أمير الحاج، نهب فيها أصحاب هاشم الحجاجَ وهم في المسجد يطوفون ويصلون. انظر «النكت العصرية»: ٣١ ــ ٣٢، و«الكامل»: ١١/١٠٣، و«العقد الثمين»: ٧/٣٦١ ــ ٣٦٢ و«سمط النجوم العوالي»: ٤/٢٠٤، و«خلاصة الكلام»: ٢٠، وضبط «فليته» من «تاج العروس» (فلت).
(٣) قتل سنة (٥٥٦هـ). انظر «العقد الثمين»: ٧/٣٢ ــ ٣٦ و«سمط النجوم العوالي»: ٤/٢٠٤، وفي «خلاصة الكلام»: ٢٠ قتل سنة (٥٥٧هـ).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) انظر ص ٣٢٢ من هذا الجزء. وص ٣٠٠ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٦) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣١.

[مضيئة] ومروءة ظاهرة في داره وولدِه، ومن يلمُّ به من غريبٍ ووافد، وقد نفذ أمره وتصرُّفه في أعمال حلب في الأيام النُّورية، وأثَّر في الوقوف أثراً حسناً توفَّر به ارتفاعها[1]، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال[2].

ثم دخلت سنة خمسين [وخمس مئة][3]

ففيها تسلَّم نور الدين بَعْلَبَكَّ من واليها ضحَّاك، وذكر ابنُ الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان ضحَّاك البِقاعي ينوبُ ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطَّف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها، واستولى عليها[4].

وقال ابنُ أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتَّصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتبَ نور الدين في تسليم بعلبك، فأنفذ إليه وتسلَّمها منه، وألحقه بأصحابه. قال: ورأيتُ بعض المؤرِّخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد، وولَّى القلعة رجلاً يقال له ضحَّاك. فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضَحَّاكاً، وتوسَّط أسد الدين [في][5] أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيَّره إلى دمشق، فأقام فيها، وردَّ نظر دمشق إليه، وولَّى ولده

١/١٠٠

(١) أي إيرادها، انظر «معجم متن اللغة»: ٢/٦٢١.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣١، وما بين حاصرتين منه، وانظر «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»: ٤/٢٢٧ ــ ٢٢٨.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) انظر «الكامل»: ١١/٢٢٨.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من مطبوع الروضتين طبعة وادي النيل: ١/١٠٠.

تُورانشاه شِحْنَكية* دمشق، فساسها أحسن سياسة، ولم يزل بها إلى أن توفي، [فولى](١) صلاح الدين شِحْنَكِيَّة دمشق.

قلت: هذا وهم. تُورانشاه هو الملك المُعَظَّم شمس الدولة(٢) الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شِحْنَكية* دمشق؟ وأما كونه ولي الشِحْنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيتُ ما يؤكده. قرأتُ في «ديوان العَرْقَلَة»: وقال يهنئه(٣) بالشحنكية بدمشق وهو في دار عمه أسد الدين شِيركُوه ابن شاذي:

قلتُ لحُسَّادك زيدوا في الحَسَدْ ... قد سكَنَ الدارَ وقد حاز البَلَدْ
لا تعجبوا إنْ حَلَّ دارَ عَمِّه ... أما تَحُلُّ الشمسُ في بُرْجِ الأَسَدْ(٤)

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوصَ الشَّامِ توبوا من ذنوب ... تكفِّرها العقوبةُ والصِّفَادُ
لئن كان الفَسَادُ لكم صلاحاً ... فمولاي الصَّلاح لكم فَسَادُ(٥)

وله فيه:

رُوَيْدَكُمُ يالصوصَ الشَّآم ... فإني لكمْ ناصحٌ في مقالي
وإياكُمُ وسميَّ النَّبيّ (م) ... يوسفَ ربِّ الحِجَا والجمالِ
فذاك مقطِّعُ أيدي النِّساء ... وهذا مُقَطِّعُ أيدي الرِّجالِ(٦)

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٧٥ من هذا الجزء. ومعنى تورانشاه: ملك الشرق. انظر «وفيات الأعيان»: ١/٣٠٩.
(٣) أي يهنىء شمس الدولة تورانشاه.
(٤) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٣٦.
(٥) «ديوان عرقلة»: ٣٥ ــ ٣٦.
(٦) «ديوان عرقلة»: ٨٧.

قال ابن أبـي طي: وولي صلاح الدين شِحْنَكِيَّة* دمشق والديوان، فأقام فيه أياماً، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعةٍ جرت بينه وبين صاحب الديوان أبـي سالم بن هَمَّام[1]. فأنفذ نور الدين وأخذ ابن هَمَّام وحلَقَ لحيته، وطيف به في دمشق.

قلتُ: وابن هَمَّام هذا هو الذي ذكره الشنباشي[2] في قصيدته وأشار إلى حَلْقِ لحيته بقوله:

كـأبي سـالم بن هَمَّـامٍ لمـا قـامَ للنُّصْحِ عـاد يمشي مُلَثَّمْ

ثم قـال ابن أبـي طي: واستخصَّ نورُ الـدين صلاحَ الـدين وألحقـه بخواصِّه، فكان لا يفارقه في سَفَرٍ ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحبُّ لعب الكرة[3].

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصَّة بالملك قليـج أرسلان بن الملك مسعـود بن [قليـج أرسلان بن] سليمان بن قتلمش[4] ملك قُونية* وما والاها، فملك عِدَّةً من قلاعها وحصونها بالسَّيْف والأمان، وكان الملك قليـج أرسـلان وأخواه ذو النـون ودولات مشتغلين بمحاربـة أولاد

---

(١) أبو سالم بن همَّام الحلبي، ولي مشارفة الديوان بدمشق بعناية أسد الدين شيركوه نائب دمشق وقتئذٍ، فظهرت منه جنايات وسعايات فقبض عليه، واعتقل، ثم خرج أمر نور الدين سنة (٥٥١هـ) بالكشف عن سعاياته، فحلقت لحيته، وأركب حماراً مقلوباً، وخلفه من يعلوه بالدرة، ثم طيف به في أسواق دمشق بعد سخام وجهه، ونودي عليه: هذا جزاء كل خائن ونمام. ثم نفي إلى حلب. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٦، وانظر عن وظيفة مشارفة الديوان «قوانين الدواوين»: ٣٠٢ ـ ٣٠٣، و«نهاية الأرب»: ٣٠٤/٨.

(٢) لم أهتد إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.

(٣) هي ما كان يسمى وقتئذٍ بالجوكان. انظرهـا في كشاف المصطلحات.

(٤) توفي سنة (٥٨٨هـ) وكان قد وزع بلاده على أولاده سنة (٥٨٦هـ) فارتكب بذلك سياسة خاطئة كانت سبباً في تفكك وحدة الحكم لأول مرة. انظر «الكامل»: ٨٧/١٢ ـ ٨٩، وما بين حاصرتين منه، و «الدول الإسلامية»: ٣١٤/١ وسيرد خبر وفاته ص ٣٤٩ =

الدانشمند[1]، ونُصروا عليهم في وقعةٍ كانت بأقصرا* في شعبان. فلما عاد قليج أرسلان، وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عَظُمَ عليه هذا الأمر واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمعاتبة[2] والإنكار، والوعيد والتهديد، فأجابه نور الدين بحُسْنِ الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينها مستمراً على هذه الحال[3]، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق[4].

قال: وولي الأسطول المصري مقدَّمٌ شديد البأس، بصير بأشغال البحر، فاختار جماعةً من رجال البحر يتكلَّمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابَهم، ونهضَ بهم في عدَّة من المراكب الأسطولية، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن، والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرُّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور، وقد ذُكر له أنَّ فيه شَخْتورة[5] روميَّة [كبيرة][6] فيها رجالٌ كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقَتَلَ من فيها، واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد عنها في البحر، فظفر بمراكب حُجَّاج الفرنج، فقتل وانتهب وأسر، وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى[7].

قلتُ: وفي هذه السَّنة ورد أمر الخليفة ببغداد ـ وهو المقتفي ـ إلى

= من الجزء الرابع.

(1) الدانشمنديون حكموا في الأناضول. انظر عن دولتهم باختصار كتاب «الدول الإسلامية»: 1/328 ـ 331.

(2) في النسخ الخطية: بالمكاتبة، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: 333.

(3) المصدر السابق.

(4) «ذيل تاريخ دمشق»: 332.

(5) هي سفينة تجارية كبيرة، ويقال شختورة أيضاً للسفينة الصغيرة التي بسار واحد أو بمجدافين. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: 1/733.

(6) ما بين حاصرتين ليس في الأصل وفي (ل): كبيرة رومية، والمثبت من (م).

(7) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: 332.

أمير الحرمين قاسم بن هاشم[1]، يأمره أن يركِّبَ على باب الكعبة المكرَّمة بابَ ساج[2] جديداً قد ألبس جميع خشبه فضَّة وطُلي بذهب، وأن يأخُذَ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسيِّرَ إليه خشب الباب القديم مجرَّداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته. ذكر ذلك الفقيه عُمارة الشَّاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفِضَّة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف دِرْهم، فتوجَّهتُ إلى زَبيد وعدن من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججتُ في الموسم منها، فدفعتُ لأمير الحرمين ماله، وألزمني الترسُّل عنه إلى مصر، يعني مرة ثانية، بسبب جنايةٍ جناها خَدَمُه على حاج مصر والشَّام[3].

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين [وخمس مئة][4]

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدِّين قلعة حارِم*، وهي حصن غربيّ ١/١٠١ حَلَب بالقُرْب من أنطاكية، وضيَّق على أهلها؛ وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج، من قَرُبَ منها ومن بَعُدَ، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطانٌ من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوَّتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذبِّ عنه، بما عندهم من العَدد والعُدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارِم* وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه. فَفَعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نورَ الدين في الصُّلْح على أن يعطوه حصَّة من أعمال حارِم، فأبى أن

(١) سلف ذكره ص ٣١٧ من هذا الجزء.
(٢) الساج: الخشب الذي يجلب من الهند. انظر «اللسان» (سوج).
(٣) انظر «النكت العصرية»: ٤١ ــ ٤٢.
(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد. وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدةٍ. فذكر أبياتاً[1] من قصيدةٍ لابن مُنير. وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين[2]. فإمَّا أن يكون ابن مُنير قال هذا الشعر في غير هذه الغَزَاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة.

وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه ويهنئه بالعود من غَزَاة حارِم:

ما فَوْقَ شَأْوِكَ في العُلا مزدادُ	فعلامَ يُقلقُ عَزْمَكَ الإجهادُ
هِمَمٌ ضَرَبْنَ على السَّماء سُرَادِقاً	فالشُّهْبُ أطنابٌ لها وعِمَادُ
أنتَ الذي خَطَبَتْ له حُسَّادُه	والفَضْلُ ما اعْتَرفَتْ به الحُسَّادُ
قامَ الدَّليل وسلَّم الخَصْمُ اليَلَنْـ	ـدَدُ[3] وانجلى للآثر الإسْنَادُ
زهَرت لدولتك البلادُ فَرَوْحُها	أرِجُ المهبِّ ودَوْحُها ميَّادُ
أحيا ربيعُ العَدْلِ مَيْتَ رُبوعها	فالبَرْضُ[4] لُجٌّ والهشيمُ مَرَادُ[5]
فالعيش إلا في جنابك ميتة	والنَّوم إلا في حِماك سُهادُ
وإذا العِدَى زرعوا النِّفاق وأحصدوا	كيداً فَعَزْمُكَ ناقضٌ حَصَّادُ
بالمُقْرَبات[6] كأنَّ فوقَ مُتُونها	جِنَّ الملا وكأنَّها أَطْوَادُ
تذأى ومن وحي الكُماةِ صفورُها	فالزَّجْرُ قَيْدٌ والنِّدَا قَيَّادُ
سُحْبٌ إذا سَحَبَتْ بأرضٍ ذَيْلَها	فالحَزْن سَهْلٌ والهِضَابُ وهادُ

---

(١) انظر «الباهر»: ١٠٩ ــ ١١٠، و«الكامل»: ٢٠٨/١١ ــ ٢٠٩.

(٢) انظر ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

(٣) اليلندد: الشديد الخصومة. «اللسان» (لدد).

(٤) البرض: الماء القليل. انظر «اللسان» (برض).

(٥) أي موضع ارتياد. انظر «اللسان» (ورد).

(٦) الخيل التي تكون قريبة معدة، التي ضمرت للركوب، مفردها: المقربة. انظر «معجم متن اللغة»: ٥٢٢/٤.

يهدي النَّواظر في دُجُنَّةِ نَقْعِها بَدْرٌ بسرجِك نَيِّرٌ وقَّادُ[1]
أَلْبَسْتَ دِيْنَ محمدٍ يانورَه عِزًّا له فَوْقَ السُّها[2] إسآد[3]
ما زلت تَسْمُكُه[4] بميَّاد القنا حتى تشقَّف عودُه المُنْآدُ
لم يبق مُذ أَرْهَفْتَ[5] عَزْمَك دونَه عَدَدٌ[6] يُرَاعُ به ولا استِعْدَادُ
إن المَنَابرَ لو تُطيقُ تكلُّماً حَمِدَتْكَ عن خُطبائها الأَعْوادُ
ولئن حَمَتْ مِنْكَ الأعادي مُهلةً فَلَهُمْ إلى المَرْعَى الوبيِّ معاد
وَلَكَمْ لَكُمْ في أرضهم من مَشْهَدٍ قامتْ به لِظُباكُمُ الأَشْهادُ
مُلقٍ بأطرافِ الفرنجة كَلْكَلاً طَرَفاه ضَرْبٌ صادِقٌ وجِلادُ
حاموا فلما عايَنُوا خَوْضَ الرَّدى حاموا برائشِ كَيْدِهم أو كادُوا
ورجا البرنس* وقد تبرنس ذِلَّةً حرماً بحارِم* والمصاد مَصَادُ
ضَجَّتْ ثعالبُه فأَخْرَسَ جَرْسَها بيضٌ تناسب في الحديدِ حِداد
وَسَواعِدٌ ضَرَبَتْ بهنَّ وبالقَنَا من دونِ مِلَّةِ أحمدَ الأسدادُ
يُرْكَزْن في حَلَبٍ ومن أفنانها تجني فواكِهَ أمنِها بَغْدَادُ
يا مَنْ إذا عَصَفَتْ زعازِعُ بأسه خَمَدَتْ جحيمُ الشِّرْكِ فَهْيَ رَمَادُ
عجباً لقومٍ حاولوك وحاولوا[7] عوداً فواتاهم إليه مُرَادُ
ورَأَوْا لواءَ النَّصر فَوْقَك خافِقاً فأقامَ منهم في الضُّلوعِ فُؤادُ

---

(١) هذا البيت والذي قبله ساقط من (م).
(٢) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. انظر «اللسان» (سها).
(٣) الإسآد: سير الليل. انظر «اللسان» (سأد).
(٤) في الأصل: تسكمه، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) في (م) راهقت.
(٦) في (م) عدداً، وهو وهم.
(٧) في (ل) وجاولوا.

من مُنْكِرٌ أن ينسِفَ السَّيلُ الزُّبىَ[1]	وأبـوه ذاك الـعـارِضُ الـمـدَّادُ
أو أن يعيدَ الشَّمْسَ كاسِفَةَ السَّنا	نـارٌ لهـا ذاك الشِّهـابِ زِنـادُ
لا ينفـعُ الآباء ما سمكوا من الْـ	ـعـلْيـاءِ حتَّـى تـرفـعَ الأولادُ
ملكٌ يُقَيِّـدُ[2] خـوفُـه ورجـاؤه	ولـقلَّمـا تـتـضافـر[3] الأَضْدَادُ

1/102

وقال يهنئه بالنَّصر يوم حارِم* قصيدةً أولُها:

* لملكك ما نشاءُ[4] من الدَّوامِ *

[يقول فيها][5]:

حَـظِيْتَ من المعالي بـالمعـاني	ولاذَ النَّـاسُ بَعْـدَكَ بـالأسـامي
عـزيـزَ المُنْتَمى عـالي المـراقي	بعيـد المُـرْتَمى غـالي المسـامي
فمـا أحـدٌ إلى العليـاء يُـدْلي	بِمَحْـتِـدِك الـقسيميِّ القسـامي
أبـوك الـمُعْـتَلي قـممَ الأعـادي	إذا اسْتَعَـرَتْ مـذامـرةُ القُمـامِ
زكـا عِـرْقُ العِـراقِ وقـد تكنَّى	بـه وأطـال من شَمَـمِ الشَّـآمِ
وجـدُّك جَـدَّ حتى قـال قَـوْمٌ	على الفَلَكِ ابتنى عَمَـدَ الخيامِ
فَـخَـرت فـفُـتَّ آبـاءً عِـظَامـاً	إذا فَخَـرَ المُنَـافِـرُ بـالعِـظَامِ[6]
وقـفنـا والـنَّـواظِـرُ مسـجـدات	وروح الـعِـزّ داريُّ الـخِـتـامِ
أسـاطِرَ كـالـزُّبُـورِ مفصَّـلات	كـأنَّـا مِـن صـلاةٍ في نِـظَامِ
لـدى مـلكٍ سَجَـايـاه سِجَـالٌ	تَـعَـاقَبُ بين عَـفْـوٍ وانـتـقـامِ

(1) مفردها الزُّبْية: الرابية التي يعلوها الماء. انظر «اللسان» (زبي).
(2) في (م) تقيد.
(3) في الأصل: تتظافر، والمثبت من (ل) و(م).
(4) في (م) تشاء.
(5) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(6) أي بالموتى.

فـأَهْـلَلْنَـا لســالِفَـتَـيْ هِـلالٍ وكـفَّـرنْـا لضـاحـكـتـي حُسَـامِ
ذَهِلْنَـا والسِّماطُ يُخـالُ سِمْـطاً وقـد سَجَـدَ المقـاوِلُ للسَّـلامِ
هـل الدَّسْتُ استقـلَّ بليثِ غابٍ أم الفَلكُ ارْتَـدَى بَـدْرَ التَّمـامِ
كـريمٌ أكْثَـرَتْ يـدُه أيادي الـ ـعُفـاة[1] وقلَّلَتْ عَـدَدَ الكِـرَامِ
وخيـرُ سمـاعـه ضَـرْبُ مُـدَامٍ إذا طَـربَ الملوكُ إلى المُـدَامِ
تـطيـر بـه إلى العليـاء نَفْسٌ غَـروبٌ[2] عن مـلاءمـة المَـلاَمِ
سقَى اللَّهُ العَـوامِـل من جبـالٍ شققـن النَّقْـع عن نَقْـعِ الأُوام
فكَمْ أَنْـتَجْـتَ من أَمَـلٍ عـقيـمٍ بـهـا وحَسَـمْتَ مـن داءٍ عُقَـامِ
بـإِنَّبٍ* والـرِّعـال كـأَنَّ ثـولاً تـطـاوَحَ تـحتَ عيـر من إيام[3]
وأيـدي الخيل تَـذْرَعُ لُجَّ[4] بحرٍ من الـدَّم مزبـد الثَّجَّيْن طامي
مقـامٌ كنتَ قُـطْبَ رحـاه أرجى مـقـامٍ بيـن زَمْـزَمَ والـمَـقَـامِ
أَحَلْتَ الـدينَ فيـه وكـان هِمًّا[5] عـزيـز القـوم مُعْتَـدِل القَـوَامِ
رميتَـهُـمُ بـأرعـن مـرجحـنٍّ أبـارَهُـمُ وكـنـتَ أبـرَّ رامـي
وفي شجـراء حـارِمَ* شـاجـرتهم سـواهمُ كـالسهـام بكـالسِّهـامِ
نـظائـر[6] حمَّمت لهم حِمـامـاً تـطايـر تحتـه مثـل الحَـمَـامِ
فلو قـد مُثِّلَ الإسـلامُ شخصـاً لـرشَّف مـا وطئت من السِّلام[7]
حمـاه وقـد تنـاعسَ كُـلُّ راعٍ وقـامَ وقـد تقـاعَسَ كُـلُّ حـامِ
فـأكْـذَبَ مُـدَّعين هَفُـوا وغـرُّوا بـأنَّ الأرضَ تـخلـو مـن إمـامِ

(١) العفاة: طلاب المعروف. «اللسان» (عفا).
(٢) في (م) عزوف.
(٣) الرعال: مفردها رعلة، وهي الخيل. والثول: جماعة النحل. العير: الحمار الوحشي. وإيام: الدخان.
(٤) في الأصل: ثبج، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) الهمّ: الشيخ الفاني. «القاموس المحيط» (همم).
(٦) في الأصل: مهملة، وفي (م) تطاير، والمثبت من (ل).
(٧) الأحجار «القاموس المحيط» (سلم).

أُولي الأبصار كم هذا التعاشي عن النُّورِ المبين بل التَعَامي

عن القمرِ الذي يجلوه ظِلُّ الْـ ـعواصمِ في ضيا اللَّيلِ التِّهامي

هو المهديُّ لا مَنْ ضلَّ فيه كثير واستخفَّ سوى[1] هشامِ

وقائمُ عصرِنا لا ما تمنَّى به من صَوْغِ أَضْغاثِ المَنَامِ

بنور الدين أُنشر كلُّ حقٍ أُطيلَ ثواؤه تحت الرِّجامِ

وطالت قُبَّةُ الإسلامِ حتَّى اسـ ـتوت بين الفوارس والنَّعامِ

تطابقَ لاسمِه لَفْظٌ ومعنًى أحلَّاه الطِّباق على الأنامِ

جرى قُدَّامه ابنُ سُبُكْتِكِين[2] وقبل الوَبْلِ هَيْنَمَةُ الرِّهامِ

وكان من النجوم بحيث تومي إليه من غَيَابات التكامي

وجئت فصارَ أشمخ ما بناه لما شَيَّدْتَ ألطا من رُغامِ

أطاعك إذْ أطَعْتَ الله جَدٌّ رَكِبْتَ به الزَّمانَ بلا زمامِ[3]

ألا يا رُبَّما اتفق الأسامي وفاضل بينها دَرَجُ التَّسامي

جنى شرفاً من استغواه حَتْفٌ إليك وكم حياةٍ من حِمَامِ

ترشفك الكُماةُ وأنتَ موتٌ كأنَّك من طِعَانٍ في طَعَامِ

١٠٣/١

(١) في (م) هوى.

(٢) هو محمود بن سبكتكين. فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة. توفي سنة (٤٢١هـ)، وأخباره مشهورة مبثوثة في كتب التاريخ. انظر «وفيات الأعيان»: ٥/١٧٥ ـ ١٨١.

(٣) هذا البيت في (ل) و(م) يرد آخر الأبيات.

فصـــل

قال الرَّئيس أبو يعلى: توجَّه نورُ الدين إلى ناحيـة حلب في بعض عسكره في الرَّابـع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنـج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم، وصادفه في طريقه المبشِّرُ بظفر عسكره الحلبـي بالإفرنـج المفسدين على حارِم*، وقَتْلِ جماعة منهم وأسرهم، ووصل مـع المبشِّر عِدَّةٌ وافرة من رؤوس الإفرنـج المذكورين، وطيف بها في دمشق[1].

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها، وتفقُّد أحوالها، واستقرَّت الموادعة بينه وبين ولد السُّلطان مسعود[2] صاحب قُونية*، وزال ما كان حدَث بينهما[3].

وفي شوال تقرَّرت الموادعة والمُهادنة بينه وبين ملك الإفرنـج[4] مُدَّة سنة كاملة، أولها شعبان، وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صوريَّة[5]، وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمـان والمواثيق المشدَّدة[6].

قال: وفي العشر الأخير من ذي الحجة غدر الإفرنـج، ونقضوا ما كان استقرَّ من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدَّة وافرة من الفرنـج في البحر،

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٣.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٦.

(٤) هو Baldwin III، انظره في كشاف الأعلام.

(٥) أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس. انظر «صبح الأعشى»: ٣/٤٤١.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٦.

وقوَّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس*، وقد اجتمع فيها من جشارات[1] خيول العسكرية والرَّعية وعوامل فلاحي الضِّياع، ومواشي الجَلَّابين[2] والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى فيذكر، للحاجة إلى الرَّعي بها والسكون إلى الهُدْنة المستقرَّة، ووقع للمندوبين بحفظها تقصير، فانتهزوا الفُرْصة، واستاقوا جميعَ ما وجدوه، وأفقروا أهله منه، مع من أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا ظافرين غانمين آثمين. والله عادلٌ في حكمه، يتولى المكافأة لهم، والإدالة منهم[3].

وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السَّنة الآتية[4].

[قلت][5] وفي هذه السنة توفي القاضي أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادُوس؛ كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دِمْياط، ذكره العمادُ الكاتب في «الخريدة»[6]، وأثنى عليه. ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في أول[7] الصَّلاة:

وَفَاتِرِ النِّيَّةِ عِنِّيْنِها ... مَعْ كَثْرَةِ الرِّعْدَةِ والهِزَّةْ
مُكَبِّرٌ سبعينَ في مرَّةٍ ... كأنَّهُ صلَّى على حَمْزَةْ[8]

(1) مفردها جشار، وهو مكان رعي الماشية وغيرها. انظر «صبح الأعشى»: 11/171، و«التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: 85، و«تكملة المعاجم العربية» لدوزي 1/195 وفي «تاج العروس» (جشر): الجشر: إخراج الدواب للرعي، وقد جشرها يجشرها جشراً.

(2) أي تجار الماشية الذين يجلبونها ويبيعونها. انظر «اللسان» (جلب).

(3) «ذيل تاريخ دمشق»: 337.

(4) انظر ص 340 من هذا الجزء.

(5) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م). وهذا الخبر يأتي في نسخة (م) بعد خبر وفاة أبي البيان.

(6) انظر «خريدة القصر»: قسم شعراء مصر: 1/226 ـ 234.

(7) في الأصل: آخر الصلاة، وفي (ل) سقطت الكلمتان، والمثبت من (م)، وفي «الخريدة» كان يكبر كثيراً في الصلاة.

(8) «خريدة القصر»: قسم شعراء مصر: 1/226.

وله في صفة كتاب:

مِـدَادُه في الـطِّرْسِ لمَّا بـدا ... قَـبَّـلَهُ الـصَّـبُّ ومـن يَـزْهَـدُ
كـأَنَّما قـد حـلَّ فيـه اللَّمَى[1] ... أو ذابَ فيـه الحَجَرُ الأَسْـوَدُ[2]

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظِّمه كثيراً ويُسَمِّيه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لا يتمكَّن من اقتباس فوائده غالباً إلا في ركوبه من القَصْر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر، فَيُسَايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر.

قال[3]: وفي يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوَّل من السنة توفي الفقيه الزَّاهد أبو البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحَوْرَاني[4]، وكان حسنَ الطريقة مذ نشأ صبياً[5] إلى أن قضى، متديناً تقياً، عفيفاً سخياً، مُحباً للعلم والأدب، والمطالعة للغة العرب. وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر باب الصغير* المجاورة لقبور الصَّحابة من الشُّهداء، رضي الله عنهم، يومٌ مشهود، من كثرةِ المتأسِّفين له والمثنين عليه[6].

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزَّلازل بالشَّام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثَّاني والعشرين من شعبان[7] وافت زلزلةٌ

---

(١) اللمى: سمرة الشفتين واللثات، يستحسن «اللسان» (لما).

(٢) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٣٠.

(٣) أبو يعلى.

(٤) له ترجمة في «مرآة الزمان»: ٨/ ١٣٩، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٢١٣ ـ ٢١٤، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٣١٨ ـ ٣٢٠، و«مختصر تنبيه الطالب»: ١٦٠ ـ ١٦١، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٦٤ من هذا الجزء.

(٥) في (م) صيناً، والمثبت من الأصل و(ل)، وفي «ذيل تاريخ دمشق» صيتاً، وهي تصحيف.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٣.

(٧) في النسخ الخطية: ربيع الأول والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٤.

هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الليل، ثم جاء بعد ذلك ثلاثٌ دونهنَّ، بحيث أُحصين ستَّ مرَّات. وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع النَّاس منها في أول النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع كثيرة، وانهدام بُرْج من أبراج أفامية* بهذه الزَّلازل المباركة[1]. وذكر أن الذي أُحصي[2] عددُه منها تقدير الأربعين، وما عُرف مثل ذلك في السِّنين الماضية، والأعصار الخالية. وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار، وبالليل ثانيةٌ في آخره، وفي أول شهر رمضان زلزلةٌ مروِّعة، وثانية، وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأُخرى هائلة أيقظت النِّيام، وروَّعت القلوب انتصاف الليل. وفي ليلة نصف رمضان زلزلةٌ هائلة أعظم مما سبق، وعند الصَّباح أُخرى، وفي الليلة التي تليها زلزلتان أوَّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة. وفي ثاني[3] شوال زلزلة أعظم مما تقدَّم، وفي سابعه، وسادس عشره[4]، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه. ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه، برأفته بهم، ورحمته لهم، فله الحمد والشكر. لكن وردت الأخبارُ من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها، وانهدام مساكنها. وأما شَيْزَر* فإنَّ الكثير من مساكنها انهدم على سُكَّانه بحيث قتل منهم العدد الكثير. وأما كَفْر طاب* فهرب أهلُها منها خوفاً على

١/ ١٠٤

---

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي أصل «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٥، فغيَّرها محققه إلى «الهائلة»، وما أدري ما وجه وصف هذه الزلازل بالمباركة، إلا أن يكون لما ألحقته بالفرنجة من أضرار أيضاً، والله أعلم.

(٢) في الأصل: وذكر أنه أحصي، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م) ثالث.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٥ الثالث عشر منه.

أرواحهم. وأما حماة فكانت كذلك. وأما باقي الأعمال الشَّامية فما عُرف ما حدث فيها من هذه القُدْرة الباهرة[1].

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين [وخمس مئة][2]

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلةٌ عظيمةٌ، وتلاها أخرى، وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال[3] بعظيم تأثير هذه الزلازل[4].

وفي ليلة الخامس والعشرين من جُمادى الأُولى وافت أربعُ زلازل، وضجَّ الناس بالتَّهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان. وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بأنَّ هذه الزلازل أثَّرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم، وكذا في حمص، وهدمت مواضع فيها، وفي حماة وكَفْر طاب* وأفامية*، وهدمت ما كان بُني من مهدوم الزلازل الأُول، وحُكِي أن تيماء* أثرت فيها هذه الزلازل تأثيراً مهولاً[5].

وفي رابع رجب نهاراً وافت بدمشق زلزلةٌ عظيمة لم يُر مثلُها فيما تقدَّم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم، وهربوا من الدُّور والحوانيت والسَّقائف، وانزعجوا، وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فصِّ الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادة مثله، ثم وافت عقيبها زلزلة في الحال، ثم سكنتا بقدرة من حَرَّكهما. ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٤ ـ ٣٣٦.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٣) في النسخ الخطية: الشام، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

المذكور زلزلة، وفي وسطه زلزلة، وفي آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس، وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت، وليلة الأحد، وليلة الاثنين، وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح. ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوسَ ذِكْرُه، بحيث انهدمت حماة وقلعتها، وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان، والأطفال والنّسوان، وهم العدد الكثير والجمّ الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير. وأما شَيْزَر* فإن رَبَضَها سَلِمَ إلا ما كان خرب أولاً، وأما حِصْنُها المشهور فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن مُنْقذ[1] ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً. وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا، وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها. وأما حلب فهُدمت بعضُ دورها، وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب* وأفامية* وما والاها ودنا منها وبعُدَ عنها من الحصون والمعاقل إلى جَبْلة* وجُبَيْل* [فأثرت بها الآثار المستبشعة]، وأتلفت سَلَمْيَة* وما اتصل بها إلى ناحية الرَّحبة* وما جاورها، ولو لم يدرك العبادَ والبلاد رحمةُ الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخَطْبُ أفظع[2].

وقد نَظَم في ذلك من قال:

رَوَّعَتْنا زلازلٌ حادثاتٌ	بقضاءٍ قَضاهُ ربُّ السَّماءِ
هَدَمَتْ حِصْنَ شَيْزَرٍ وحماةً	أَهْلَكَتْ أهلَهُ بسوء القضاءِ
وبلاداً كثيرةً وحُصُوناً	وثغوراً مُوَثَّقات البِناءِ
فإذا ما رَنَتْ عيونٌ إليها	أَجْرَتِ الدَّمْعَ عِنْدَها بالدِّماءِ

---

(١) هو الأمير ناصر الدين محمد بن سلطان. انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٤٨، وسيرد ذكره ص ٣٥٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣ ـ ٣٤٤، وما بين حاصرتين منه.

وإذا ما قضى من الله أَمْرٌ سابقٌ في عباده بالمَضَاءِ
حار قَلْبُ اللَّبيبِ فيه ومَنْ كا نَ له فِطْنَةٌ وحُسْنُ ذكاءِ
وتراه مسبِّحاً باكيَ العيـ ـنِ مَرُوعاً من سخطة وبلاءِ
جَلَّ ربي في ملكه وتعالى عن مقال الجُهَّال والسُّفهاءِ[1]

١/١٠٥ قال: وأما أهل دمشق، فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التَّاسع والعشرين من رجب ارتاع النَّاس من هولها، وأجفلوا من منازلهم والمسقَّف إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى، فَفُتِحَ البَلَدُ وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء، وأقاموا عِدَّة ليال وأيامٍ على الخوف والجزع، يسبِّحون ويهلِّلون، ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللُّطْفِ بهم والعفو عنهم[2].

قال: وفي الرَّابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة روَّعت الناس وأزعجتهم، لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشَّام من تتابع الزَّلازل فيها. ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنَّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجُدْرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها هدمت ما كان عُمر فيها من بيوت يلتجأ إليها، وأنها دامت فيها أياماً كثيرة في كلِّ يوم عدَّة وافرة من الرَّجفات الهائلة، يتبعها صيحات مختلفات تُوفِي على أصوات الرُّعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر. وتلا ذلك ردفات[3] متوالية أخف من غيرهنَّ. فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة عشاء الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها هزَّة خفيفةٌ. وكذا ليلة العاشر من ذي القعدة، وفي غدها

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٤.
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٥.
(٣) في (ل) رجفات، ومثلها في «ذيل تاريخ دمشق».

زلازل، وليلة الثالث والعشرين، والخامس والعشرين منه أيضاً زلازل، نفر الناسُ من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة، وضجُّوا بالتكبير والتهليل، والتَّسبيح والدُّعاء، والتضرُّع إلى الله تعالى. وفي يوم الجمعة، انسلاخَ ذي القعدة، وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس[١].

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشَّام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدُّها بمدينة حماة وحصن شَيْزَر*، فإنهما خربا بمرَّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين* والمعرَّة*، وغيرهما من البلاد والقرايا. وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدَّمت الأسوار والدُّور والقلاع، ولولا أنَّ الله تعالى منَّ على المسلمين بنور الدين، جمع [العساكر] وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الفرنج بغير حصار ولا قتال[٢].

قال: ولقد بلغني من كثرة الهَلْكَى أنَّ بعض المعلِّمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لِمُهِمّ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدُّور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلمُ: فلم يأتِ أحدٌ يسأل عن صبيٍّ كان له في المكتب[٣].

قلتُ: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مُؤَيِّد الدولة أُسامة بن مُرشد بن مُنْقذ: وقال في الزلازل التي أهلكت كثيراً من أهل الشام، وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمس مئة، وهلك بها من هلك من الخَلْقِ، فكان نحواً من عشرة آلاف نسمة، قال: وكتب هذا المكتوب والزلازلُ إلى الآن تتعاهد البلاد:

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٢) «الباهر»: ١١٠، وما بين حاصرتين منه.
(٣) المصدر السابق.

نِمْنَا عـن المـوتِ والمعـادِ وأصـ ـبحنـا نَظَـنُّ اليقيـنَ أحـلامـا
فحـرَّكتنا هـذي الـزَّلازلُ أي[1] تيقَّـظُوا كم ينـامُ مَنْ نـامـا[2]

وقال أيضاً:

أيهـا الغـافلونَ عن سَكْـرَةِ المـو تِ وإذْ لا يسـوغُ في الحَلْقِ ريقُ
كم إلى كم هذا التَّشاغـل والغَفْـ ـلة حار السَّاري وضَـلَّ الـطريقُ
إنمـا هَـزَّتِ الـزلازلُ هـذي الـ أَرْضَ بـالغـافلين كي يَسْتَفِيقُـوا[3]

وقال في الزَّلازل أيضاً، وقد سكن الناس بعد الدُّور والنُّزْهة في أكواخٍ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الرَّاحمين ارْحَمْ عبادك من هذي الزَّلازل فهي الهُلْك والعَطَبُ
مـاجت بهم أرضُهُمْ حتى كـأنَّهُمُ رُكَّابُ بحرٍ مـع الأنفاس تَضْطَرِبُ
فنصفُهم هَلَكُـوا فيهـا ونصفـهمُ لمصـرع السَّلَفِ الماضين يَـرْتَقِبُ
تعوَّضوا من مشيدات المنازل بالـ أكـواخِ فهي قبورٌ سَقْفُهـا خَشَبُ
كـأنَّهـا سُفُـنٌ قـد أقبلتْ وهُم فيها فلا ملجـأٌ منها ولا هَـرَبُ[4]

وقال يرثي أهلَه الذين هلكوا بالزلازل بحصن شَيْزَر* قصيدةً منها[5]:

ما اسْتَدْرَجَ الموتُ قومي في هلاكهمُ ولا تخـرَّمهم[6] مثنـىً وَوُحْـدَانـا
فكنتُ أصبـرُ عنهم صَبْرَ مُحْتَسِبٍ وأحملُ الخَطْبَ فيهم عَزَّ أَوْ هانـا

---

(١) في «الديوان»: أن.
(٢) البيتان في «ديوانه»: ٢٩٠.
(٣) الأبيات في «ديوانه»: ٢٨٧.
(٤) لم أجد الأبيات في «ديوانه» المطبوع.
(٥) في هامش الأصل: «حاشية: هذه القصيدة التي تقدم منها في أول الكتاب بيتان تمثل بهما المؤلف بالخطبة عند ذكر نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله تعالى».
قلت: انظر ص ٢٨ من هذا الجزء.
(٦) اقتطعهم واستأصلهم. «اللسان» (خرم).

وأَقْتَدِي بالـوَرَى قَبْلِي فكم فَقَدُوا ... أخاً وكم فـارقُـوا أَهْـلاً وجيـرانـا

لكنَّ سَقْبَ[1] المنايا وسطَ جمعهمُ ... رَغَـا فخرُّوا على الأذقـان إذعانـا

وفـاجَـأَتْهُمْ من الأيَّـام قـارعـةٌ ... سقتهمُ بكؤوس المـوتِ ذَيْفَانـا[2]

ماتوا جميعاً كَرَجْـعِ الطَّرْفِ وانقرضوا ... هـل ما تـرى تاركٌ للعين إنسـانـا

أَعْـزِزْ عليَّ بهم من معشـرٍ صُبُـرٍ ... على الحفيظة إنْ ذو لُوثـةٍ[3] لانا

لم يتركِ الدَّهْرُ لي من بَعْدِ فَقْدِهِمُ ... قلبـاً أُجَشِّمُـه صَبْـراً وسُـلْوانـا

فـلو رَأَوْنـي لقالوا مـاتَ أَسْعَدُنـا ... وعـاشَ للهَمِّ والأحـزانِ أَشْقَـانـا

106/1

لم يتركِ الموتُ منهم من يخبِّرني ... عنهم فَيُـوضِـحُ مـا قـالـوه تِبْيَـانـا

بادُوا جميعاً وما شادُوا فـوا عَجباً ... للخَـطْـبِ أهلكَ عُمَّـاراً وعُمْـرانـا

هـذي قصـورُهُم أَمْسَتْ قبـورَهُمُ ... كذاك كانـوا بها مِنْ قَبْـلُ سُكَّانا

ويـحَ الزَّلازلِ أَفْنَتْ مَعْشَرِي فإذا ... ذكرتُهم خِلْتُني في القومِ سَكْرانا

لا ألتقي الدَّهْرَ من بعد الزَّلازلِ ما ... حييتُ إلَّا كسيـرَ القَلْبِ حَيْـرَانـا

أَخْنَتْ على مَعْشَرِي الأَدْنَيْنَ فاصْطَلَمَتْ ... منهم كهـولاً وشُبَّـانـا ووِلْـدَانـا

لم يَحْمِهم حِصْنُهم منها ولا رَهِبَتْ ... بـأسـاً تنـاذَره الأقـرانُ أزمـانـا

إنْ أَقْفَرتْ شَيْزَرٌ* منهم فهم جعلوا ... منيـعَ أسوارِها بيضـاً وخِرْصانا[4]

هُمْ حَمَوْهَا فلو شاهَدْتَهـا[5] وهم ... بهـا لشاهَـدْتَ آسـاداً وخَفَّـانـا[6]

تراهمُ في الوَغَى أُسداً ويومَ ندىً ... غَيْثاً مُغيثاً[7] وفي الظَّلْماء رُهْبانا

بنـو أبـي وبنـو عَمِّي دَمِي دَمُهُمْ ... وإن أَرَوْنـي مُنـاواةً وشَـنْـآنـا

---

(1) السقب: ولد الناقة. «اللسان» (سقب).

(2) السم القاتل: «اللسان» (ذيف).

(3) رجل ذو لوثة: بطيء متمكث ذو ضعف. «اللسان» (لوث).

(4) مفردها خرص، وهو سنان الرمح. «اللسان» (خرص).

(5) في الأصل: شاهدتهم، والمثبت من (ل) و(م).

(6) اسم مأسدة. انظر «اللسان» (خفن).

(7) في «الديوان»: هتوتاً.

يُطَيِّبُ النَّفْسَ عنهم أَنَّهم رَحَلُوا   وخلَّفوني على الآثار عَجْلانا[1]

وكتبَ إليه الصَّالح بن رُزِّيك قصيدةً يعزِّيه عن أهله، منها:

بأبي شَخْصُك الذي لا يغيبُ   عن عِياني فهْو البعيدُ القريبُ
يا أَخِلَّايَ بالشَّآمِ لئن غِبْـ   ـتُم فَشَوْقي إليكُمُ لا يغيبُ
غَصَبَتْنا الأيامُ قُرْبَكُمُ مِنْـ (م)   ـا ولا بدَّ أن تُرَدَّ الغُصُوبُ
كَرِهَ الشَّامُ أهلَه فهو محقو   قٌ بألَّا يُقيمَ فيه لَبيبُ
إن تجلَّتْ عنه الحروبُ قليلاً   خَلَفَتْها زَلازِلٌ وخُطُوبُ
رَقَصَتْ أَرْضُه عَشِيَّةَ غَنَّى الرَّ (م)   ـعْدُ في الجوِّ والكريمُ طَرُوبُ
وَتَثَنَّت حِيْطانُه إذْ أمالَتْـ   ـها شَمالٌ بِزَمْرِها وجَنُوبُ
لا هُبُوبٌ لنائمٍ من أمانيـ   ـه وللعاصفاتِ فيها هُبُوبُ
وأرى البَرْقَ شامتاً ضاحِكَ السِّنِّ (م)   وللجوِّ بالغمامِ قُطُوبُ
ذكَروا أنَّهُ تَذُوبُ به السُّحْـ   ـبُ فما للصُّخور أيضاً تَذُوبُ
أبِذَنْبٍ أصابها قَدَرُ اللَّـ   ـه فللأرضِ كالأنامِ ذُنوبُ
إنَّ ظَنِّي والظَّنُّ مِثْلُ سهامِ الرَّ (م)   مي منها المُخْطِي ومنها المُصِيْبُ
إنَّ هذا لَأنْ غدَتْ ساحةُ القُدْ   سِ وما للإسلامِ فيها نَصِيْبُ
منزلُ الوحي قبلَ بعث رَسُولِ اللَّـ (م)   ـه فهو المحجوجُ والمحجوبُ
نَزَلَتْ وَسْطَه الخنازيرُ والخَمْـ   ـرُ وبارَى النَّاقوسَ فيه الصَّليبُ
لو رآه المسيحُ لم يَرْضَ فعلاً   ذَكَرُوا أنَّه له مَنْسُوبُ
أبعدُ النَّاسِ عن عبادةِ رَبِّ النَّـ (م)   ـاس قَوْمٌ إلهُهُمْ مَصْلُوبُ   ١٠٧/١

---

(١) العجلان: الثاكل الواله. انظر «تاج العروس»: (عجل). والقصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٣٠٦ ـ ٣٠٩.

لَهْفَ نفسي على ديارٍ من السُّكـ (م) ـانِ أَقْوَتْ [١] فليس فيها عَـرِيبُ[٢]
فاحْتَسِبْ ما أصابَ قَوْمَك مجدَ الدِّ (م) ين واصبر فـالحـادثـات ضُـروبُ
إن تَـخَـصَّـصْـكُـمُ نـوائـبُ مـا زا لت لكم دون من سِواكم تَنُوبُ
فكـذاك القنـاةُ يُكْسَـرُ يـومَ الـرَّ (م) وْعِ منها صَدْرٌ وتبقى الكُعوبُ[٣]

وقرأت في «ديوان العرقلة»: كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مـع عبيدٍ غلامِ المولى ـ وكان عبيد هذا موصوفاً بالثِّقَل ـ في بيت بمدينة حماة يوم الزلزلة، فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هُما فيه. فقال العرقلة:

قُـلْ لصلاحِ الـدِّين ربِّ النَّدَى بـلِّـغ[٤] عُـبـيـداً كـلَّ مـا أمَّـلَهْ
بـثِقْـلِهِ لـمَّـا تـصـاحـبـتُـمـا سَـلَّمك الله مِـنَ الـزَّلْـزلَـهْ[٥]

وقـرأت[٦] فـي بعـض كتـب أبـي الحسيـن الـرَّازي[٧] عـن شيـوخـه أنـه وقـع بدمشق في ذي القَعْدة سنة خمس وأربعين ومئتين زلازل عظيمة حُكي عنها نحوٌ مما مضى ذكره وأكثر، نسأل الله تمام العافية[٦].

---

(١) أقفرت وخلت. «اللسان» (قوا).
(٢) أحد. «اللسان» (عرب).
(٣) في (م) كعوب. والقصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٧، ١٥٣، ١٦٤، ٢٩٦.
(٤) في (م) نوِّلْ.
(٥) البيتان في «ديوان عرقلة الكلبي»: ٨٨، استدركهما محققه من كتابنا هذا.
(٦ ـ ٦) ما بينهما ساقط من (م).
(٧) هو محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد ـ والد تمام الرَّازي المحدث المشهور ـ أصله من الري، واستوطن دمشق، وكان من كبار المحدثين، له مصنفات، منها: تسمية كُتَّاب أمراء دمشق، وتسمية أمراء دمشق في أيام بني العباس، ومؤلفاته لم تصلنا، وهي من موارد ابن عساكر في «تاريخه»، توفي سنة (٣٤٧ هـ)، انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي ٣/ ٩١ ـ ٩٢ و «معجم المؤرخين الدمشقيين»: ١٧ ـ ١٨.

فصـــل

قال الرَّئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيـع الأول توجَّه نور الدين إلى ناحية بَعْلَبَك لتفقُّد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الفرنـج الملاعين على تلك الأعمال[١].

وفي خامس عشر ربيـع الأول ورد المُبَشِّر من العسكر المنصور برأس الماء[٢] بأنَّ نصـرة الدين أمير أميران[٣] لما انتهى إليه خبر الفرنـج أنهم قد أنهضوا سريَّة وافرة العدد إلى ناحية بانياس* لتقويتها، أسرع النهضة إليهم، وعِدَّتهم سبـع مئة فارسٍ سوى الرَّجَّالة، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حُماتها، فأوقـع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضـع كُمناء من شجعان الأتراك، واندفـع المسلمون بين أيديهم في أول المجال، وظهر عليهم الكمناء، فأنزل الله نصره على المسلمين، بحيث لم ينـجُ منهم إلاَّ القليل، وصاروا بأجمعهم بين قتيلٍ وجريـح، ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحدُّ كثرةً، ومحقت السُّيوف عامَّة رجَّالتهم من الإفرنـج ومسلمي جبل عاملة[٤] المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعُدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمـع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوماً مشهوداً. وأُنفذ إلى نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ جماعةٌ من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً[٥].

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨.

(٢) في حوران، شمالي درعا.

(٣) في النسخ الخطية: ناصر الدين، وهو تحريف، وهو الأخ الأصغر لنور الدين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب. انظر ص ١٥٥ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: عالة، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البُشْرى الثَّانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنَّه قد ظفر من المشركين بسريَّة وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال، فانهزمت، وتخطَّف التركمان منهم من ظفروا به(١).

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجمِّ الغفير، واجتمعوا بنور الدين، وتقرَّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنُّزول على بانياس*، وقدِمَ نور الدين دمشق في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجَّه. وأمر بالنداء بدمشق في الغُزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث* والمُطَّوِّعة والفقهاء والصُّوفية [و](٢) المتدينين خَلْقٌ كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول(٣).

وفي سابع ربيع الآخر، عقيب نزول نور الدين على بانياس* ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس، يتضمَّن كتابه الإعلام بورود المُبَشِّر من معسكر أسد الدين بناحية هُونين(٤) في التركمان والعرب بأن الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ أنهضوا سريَّةً من أعيان مُقدَّميهم وأبطالهم تزيد على مئة فارس سوى أتباعهم، لكبس المذكورين، ظناً منهم بأنهم في قُلٍّ(٥)، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنَوْا منهم وثبوا إليهم كالليُّوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٩.

(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ١/ ١٠٧، و«ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) بلد في جبال عاملة. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٤٢٠.

(٥) أي قلة. «اللسان» (قلل).

والسلب، ولم يبق منهم إلاَّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعُددهم من الخيول المنتخبة، والطَّوارق(١)، والقُنْطاريات(٢) إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور(٣).

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدِّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس* في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسَّيْفِ قَهْراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه، وسقُوط البُرْج المنقوب وهجوم الرِّجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونَهْب ما حواه، وانهزام من سَلِمَ إلى القلعة وانحصارهم بها، وأنَّ أخْذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطىء، والله يسهِّله ويعجله(٤).

قال: واتَّفق بعد ذلك أن الفرنج تجمَّعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري(٧) صاحب بانياس* ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك، وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان، ويسلِّمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوا ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الإفرنج في جمعه من الفارس والرَّاجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العَسْكَرَيْن؛ النَّازل على بانياس* لحصارها، والنَّازل على الطَّريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السِّياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها، واستخلصوا من كان فيها، وحين

١/١٠٨

(١) مفردها طارقة. وهي الترس. «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/٤١.

(٢) مفردها قنطارة، وهي الرمح. «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/٤١٣.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠.

(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٥) هو Humphry، انظره في كشاف الأعلام.

شاهدوا ما عمَّ بانياس من إخراب سورها ومنازل سُكَّانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها[١].

قال: وفي تاسع جُمادى الأولى سقطت الأطيار بالكتب من المعسكر النُّوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين ــ أعز الله نصره ــ لما عرف أنَّ معسكر الكفرة الإفرنج على الملَّاحة؛ بين طبريَّة وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب، وجَدَّ في السير، فلما شارفهم وهم غارُّون، وشاهدوا راياته قد أظلَّتهم، بادروا بلبس السِّلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجَّل الملك نور الدين، فترجَّلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسِّهام وخِرْصان الرِّماح[٢]، حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحِمام، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وتمكَّنوا من فرسانهم قتلاً وأسراً، واستأصلت السُّيوفُ الرَّجَّالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم[٣] لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جُمْلة القتلى، ولم يعرف له خبر[٤]، ولم يُفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله إلى رحمة الله تعالى، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيداً، مثاباً مأجوراً، رحمهما الله. وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعُددهم، وكُراعهم[٥] وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً. ووصلت

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤١.

(٢) مفردها خرص، وهو سنان الرمح. «اللسان» (خرص).

(٣) هو Baldwin III، انظره في كشاف الأعلام.

(٤) أفلت بأعجوبة إلى صفد. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٥٥٣.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٣٠٩ من هذا الجزء.

الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رَتَّبوا على كلِّ جملٍ فارسين من أبطالهم ومعهما رايةٌ من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عِدَّة، والمقدَّمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرسٍ، وعليه الزَّرَدية[1] والخوذة، وفي يده راية، والرَّجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يُحصى لهم عدد، من الشُّيوخ والشبان، والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله ـ تعالى ذِكْرُه ـ كافَّةَ المسلمين من هذا النصر المبين، وأكثروا شكر الله تعالى، والدعاء لنور الدين المحامي عنهم، والرَّامي دونهم، والثناء على مكارمه، والوصف لمحاسنه[2].

ونُظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

مـا رأينـا فيمـا تقـدَّم يـومـاً	كـامـلَ الحُسْنِ غـايـةً في البهـاءِ
مِثْـلَ يـومِ الفـرنج حين عَلَتْهُمْ	ذِلَّـةُ الأسْـرِ والبـلا والفَنَـاءِ[3]
وبـرايـاتهمْ على العِيسِ زُفُّـوا	بيـن ذُلٍّ وحَسْـرَةٍ وعَنَـاءِ
بعـد عِـزٍّ لهـم وهيبـةِ ذِكْـرٍ	في مصـاف الحـروب والهَيْجـاءِ
هكـذا هكـذا هـلاكُ الأعـادي	عنـد شنِّ الإغـارة الشَّعْـوَاءِ
شؤم أَخْـذِ الجشار[4] كـان وَبـالاً	عَمَّهُمْ في صَبـاحهـم والمسـاءِ
نقضـوا هُـدْنـةَ الصَّـلاحِ بجهـلٍ	بَعْـدَ تـأكيـدِهـا بحُسْنِ الـوَفـاءِ
فلقـوا بَغْيهم بمـا كـانَ منهم[5]	مـن فسـادٍ بـجهلهـم واعْتِـدَاءِ

---

(١) درع مزخرف «تكملة المعاجم العربية»: ١/٥٨٥.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٣) في المصدر السابق: والشقاء.

(٤) انظر ص ٣٢٩ من هذا الجزء.

(٥) في «ذيل تاريخ دمشق» فيه، وهو تصحيف.

لا حمى اللهُ شَمْلَهُمْ من شَتَاتٍ   بِمَواضٍ تفوقُ حَدَّ المَضَاءِ
فجزاء الكَفورِ قَتْلٌ وأَسْرٌ   وجَزَاء الشَّكُورِ خَيْرُ الجَزَاءِ
ولِرَبِّ العِبادِ حَمْدٌ وشُكْرٌ   دائمٌ مَعْ تواصلِ النَّعْماءِ[1]

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملُّكها وتدويخها، والله المعين والموفِّق[2].

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا، وأكثروا العيث، واتَّصل ذلك بنور الدين فأَنْهَدَ إليهم عسكراً كثيفاً، فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس*، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدَّ حصار، حتى افتتحها في الثَّامن والعشرين من ربيع الأول، وأَخَذَ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعةً من خَيَّالتها، واتَّصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج، فلبس لأُمَتَه[3]، وتقدَّم في جماعةٍ من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرِّجال بلقاء الفرنج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسَخين يقتل ويأسر، وغَنِمَ منهم غنيمةً حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجَّه في وجهته مُؤَيَّداً. ١٠٩/١

(١) الأبيات ما عدا البيت الأول في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) اللأمة: الدرع، وقيل: السلاح، وإنما سمي لأمة لأنها تلائم الجسد وتلازمه. انظر «اللسان» (لأم).

فصـــل

قال الرَّئيس أبو يعلى: وفي العشر الثَّاني من جُمادى الآخرة تواصلت الأخبار بوصول ولد السُّلْطان مسعود[1] في خَلْق كثير للنُّزول على أنطاكية، وأوجبت الصُّورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الإفرنـج، وتكرَّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات، بحيث فسد الأمر ولم يستقرَّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرِّ عزه في بعض عسكره، وأقرَّ باقيه ومقدَّميه مـع العرب بإزاء أعمال المشركين[2].

قال: وفي ثالث رجب توجَّه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها لتجديد مشاهدتها، والنَّظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها[3].

ثم قال بعد ذلك: قد تقدَّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند انتهاء الخبر إليه بتجمـع أحزاب الفرنـج ـ خذلهم الله تعالى ـ وقَصْدِهم لها، وطمعهم [فيها][4] ـ بحكم ما حدث من الزلازل والرَّجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها ـ لحمايتها والذبِّ عنها، وإيناس من سَلِمَ من أهل حمص وشَيْزَر*، وكفَرْطاب*، وحماة وغيرها، بحيث اجتمـع إليهم العدد الكثير والجمُّ الغفير، من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخَيَّم بهم بـإزاء جَمْـعِ الفرنـج

---

(١) انظر حاشيتنا رقـم ٤ ص ٣٢٠ مـن هذا الجزء. وفي أصل «ذيل تاريـخ دمشق» يوافق نسخنا، استعاض المحقق عنه بالسلطان محمود، وهو وهم منه، خلط فيه ما بين سلاجقة العراق، وسلاجقة الروم.

(٢) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٤٣.

(٣) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٤٣.

(٤) ما بين حاصرتين من «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٤٨.

بالقُرْب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارسٌ منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حادٍّ، فلما اشتدَّ به، وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شِيْرِكُوه، وأعيان الأمراء والمقدَّمين، وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرَّر معهم كَوْنَ أخيه نُصْرة الدين القائم في منصبه من بعده، والسَّادّ لثُلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة وشدَّة البأس، ويكون مقيماً بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة. فلما تقرَّرت اشتدَّ به المرض، فتوجَّه في مِحَفَّةٍ* إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجَّه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج. وتواصلت الأراجيف بنور الدين، فقلقت النفوس، وانزعجت القلوب، فتفرَّقت جموعُ المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شَيْزَر*، وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. وتجمَّع من عِدَّة جهات خَلْقٌ كثير من رجال الإسماعيليَّة وغيرهم، وظهروا عليهم، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شَيْزَر. واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين[1] في وجهه الأبواب، وعصى عليه، فثارت أحداثُ حلب، وقالوا: هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه. فزحفوا في السِّلاح إلى باب البلد، وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد، وقامت الأحداث على والي القلعة باللَّوْم والإنكار والوعيد، واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جُمْلتها إعادة رسمهم في التأذين «حيَّ على خَيْرِ العَمَل، محمدٌ وعليٌّ خَيْرُ البَشَر»، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسنَ القولَ لهم والوعد، ونزل في داره وأنفذَ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حَيٌّ في نفسه وما كان إلى ما فُعل حاجة. فقيل: الذَّنب في ذلك للوالي. وصَعِدَ إلى القلعة من شاهد نور الدين حيًّا

(١) هو مجد الدين ابن الداية.

يفهم ما يقول وما يقال له. فأنكر ما جرى وقال: [أنا][1] أصفحُ للأحداث عن هذا الخطل، ولا أؤاخذهم بالزَّلل، وما طلبوا إلاَّ صلاحَ حال أخي وولِيِّ عهدي من بعدي. وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأَنِسَتِ القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصُرفت الهمم إلى مكاتبات المقدَّمين، بالعَوْد إلى جهاد الملاعين. وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حَرَّان* وما أضيف إليها، وتوجَّه نحوها. ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد، سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب، ووصل إليها في خيله، واجتمع بنور الدين فأكرم لُقياه، وشكر مَسْعاه، وشرعوا في حماية الأعمال من شَرِّ عُصَب الكفر والضَّلال[2].

قال: ونظمتُ هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حَسُنَتْ صِفَاتُك يا زماني	وَفُزْتُ بما رَجَوْتُ من الأماني
فكم أصبحتُ مُرْتاعاً لخوفٍ[3]	فبدِّلْتَ المخافةَ بالأمانِ
وجاءتنا أراجيفُ بِمَلْكٍ	عظيمِ الشَّأْنِ مسعودِ الزَّمانِ
فَرَوَّعْتَ القلوب من البرايا	وصارَ شُجَاعُها مِثْلَ الجَبَانِ
وثارَتْ فِتْنَةٌ يُخشى أذاها	على الإسلام في قاصٍ ودانِ
ووافى بعد ذاك بشيرُ صِدْقٍ	بعافيةِ المليك مع التَّهاني
فولَّى الخوفُ منهدمَ المباني	وعاد الأمنُ معمورَ المغاني[4]

١١٠/١ قال ابنُ أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شَيْزَر*،

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٨ ـ ٣٥٠.

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٠ مرعوباً مخوفاً.

(٤) الأبيات في المصدر السابق.

فخرج نور الدين وأخذها من بني مُنْقذ، وسلَّمها إلى مجد الدين ابن الدَّاية، وسار إلى سَرْمِين*، لأنه بلغه حركة الفرنـج، فاعترضَهُ هناك مرض أشفى منه، فأحضر شِيركُوه، وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الأمر بعده لأخيه نُصْرة الدين أمير أميران. فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصُّفَّر* خوفاً أن يتحرك الفرنـج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، مهنئاً له بالعافية. وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مُدَّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سَيَّره إلى حَرَّان*، وجعل وليَّ عهده أخاه قُطْب الدين صاحب المَوْصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه، فتحزَّم لأمره، وتقرَّب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار، وشَحَن الطُّرقات والسُّبُل بالرِّجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والدَّاخلين إليها.

قلت: ولابنِ مُنير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرضٍ غير هذا:

يـا شمسُ لا كَسْفٌ ولا تَكْـدَارُ ... ولا خَـلَتْ مـن نُـورِكَ الأنـوارُ
البَـدْرُ مَنْقُـوصٌ وأنتَ كـامـلٌ ... لـك الـسَّـرايـا ولـه الـسَّـرَارُ
بـرؤك لـلإسـلام مـن أدوائـه ... بُـرْءٌ وفـي أعـدائـه بَـوارُ
مـا أنت إلا السَّيْفُ صَدَّ صـدأً ... عـن مَتْنِـهِ مَضْـرَبُـه البَتَّـارُ
لو كان محمولاً أذىً عن مُنْفِسٍ ... لَـحَـمَـلَتْـهُ دُوْنَـك الأبْـصَـارُ
ولو فَدَتْ أرضٌ سمـاءً ساقت الـ ... ـملوكَ في فـدائِـكَ الأمْـصـارُ
أنتَ غيـاثُ مَحْلهم إنْ أجدبـوا ... وخـيـرهُـم إن ذُكـر الـخِـيَـارُ
وفي سـريـر الملك منهـا ملكٌ ... لله فـي سَـرَّائـه[1] أسـرارُ

(١) في (م) أسراره.

خَيْــرُ ملوكِ الأرضِ جَــدًّا وأبــاً ... إن هَــزَّ عِـطْفَي مــاجـدٍ نِجَــارُ
مَــدَّ عـلى الــدِّيـن رِوَاقَ دَوْلَــةٍ ... تـنــازعت أسـمــارَهــا السُّـمَّــارُ
عــلَّتْ بــنــايــاه وحَــلَّتْ يــدَه ... فـهي عـليــه الــسُّــور والـسِّــوارُ
محمــودُ المحمـودُ عصــرُ ملكه ... فـلِلْحَيَــا مِـن مُــزْنِــهِ اعْتِـصــارُ
يــا نــورَ ديـنٍ أَظْلَمَــتْ آفــاقُــه ... لَــوْ لَــمْ تــبــلَّج هــذه الآثــارُ
لله أيَّــامُــك مــا تــخــطُّه ... بــالمِسْـك من إسفـارِهـا الأَسْفارُ
سَلِمْتَ لـلإسـلامِ تـرعى سَرْحَـهُ ... إذا وَنَــى رُعــاتُــه وجــارُوا
شكـوتَ فـالـدُّنيـا على سُكَّــانها ... قــرارةٌ جــانَـبَـهــا الـقَــرَارُ
كادَتْ تموتُ الأرضُ من إشفـاقِها ... لــولا شــفــاءٌ رَدَّهــا تُــمــارُ
زرَّتْ عليــك التُّـرك جَيْبَ نسب ... يــحــسُــدُهــا بِــزِّيــه نــزارُ
لا عَـدِمت منـك الأمـاني رَبَّهـا[1] ... معــطىً من الإقبــالِ مــا يختــارُ
مـا سمح الـدَّهْـرُ بـأن تبقى لنا ... فـكــلُّ جُـرْحٍ مَسَّــنــا جُـبَــارُ

وله من قصيدة أخرى:

لا نُــؤَدِّي لأنْـعُــمِ الله شُــكْــرا ... بِــكَ يــا أعــظمَ البـريَّــةَ قَــدْرا
زَوْرُ عَــشْــرٍ وافــى لإقــلاعِ داءٍ ... جعــلا المنة الممنَّــاة[2] عَشْــرا
أَمَّ مَــغْــنــاك ضــامِــنــاً أنَّ أيَّــا ... مَكَ تُفني الأحقابَ عَصْراً فعصرا
في محــلٍّ لــه السِّمــاكــانِ سمــكٌ ... وجــدود لهــا المـجــرَّة مجــرى
أيهــا العــادِلُ المُــظَفَّــر لا قَصَّـ (م) ... ـتْ شَبا الدَّهـر من شباتـك ظُفْرا
جَعَــلَ الله مـا استهــلَّ من الأَشْـ ... ـهرِ ينهـلُّ في مغــازيك نَصْــرا
أبــداً ينشــر التَّهــاني على ســا ... حاتِك الزَّهْرُ في المـواسمِ نَشْرا

---

(١) في الأصل و(م) ربها، والمثبت من (ل).

(٢) في (ل) المهناة.

أنتَ أسرى الملوكِ نَفساً وقِنساً[١] وإلى أَسْرِهِمْ من الطَّيفِ أَسْرَى ١١١/١
مَلِكٌ عنـدَه المشـاربُ تُسْتمـ ـرَى وأخلاف الجود تُمرى فتُفْرَى
فَلَكَ الله مِـنْ مـثـمِّـرِ بَـذْر يصطفي صالحاً ويحصُد أَجْرا
عش لمُلكٍ أصبحتَ في الدَّسْت منه فوق كسرى عَدْلاً وشَعْباً وكَسْرا
تفطر الطَّيِّبات للفطر فطراً وتعمُّ الأعداء في النَّحْرِ نَحْرا
يقتني من كُسَاك أنفس ملبو سٍ ويُقْنيك منه أطولَ عُمْرا
أنت تُملي ونحنُ ننظمُ ما تَنْـ ـثُرهُ الغُرُّ مِنْ مساعيك نَثْرا
صَرَفَ الله عنك عينَ زمانٍ بك صارَتْ بعدَ الإصابة عَبْرَى
وتوالَتْ لكَ الفُتوحُ إلى أنْ تملأَ الخافقين نَهْياً وأمرا
كلما أَنْهَجَتْ[٢] ملابسُ نُعمى وتملَّيْتَهُنَّ جدَّدْتَ أُخرى

وقال القَيْسَراني من قصيدة:

أشرق البهو[٣] يا جبينَ الهلالِ فحلاه لوجهك المُتلالي
عن ليالٍ حَجَبْنَ عنَّا سَنَاها إنما غيبةُ الهلالِ ليالي
لم يكن ما ألمَّ بالجسمِ شَكْوى فتُهنَّا لِوافدِ[٤] الإقبالِ
لا ولا كان زائراً من سَقَامٍ إنما كان طائفاً من خَيَالِ
وعكةٌ أَقْلَعَتْ[٥] وأنتَ صحيحٌ ويصُحُّ النَّسيمُ بالإعتلالِ
أَوَمَا هذه السماء سَرار الـ ـبَدْرِ فيها على طريقِ الكمالِ
نعمةُ الله لا يخصُّ بها الخا لقُ إلا من كان منه بِبَالِ
ولباسٌ من المَثُوبةِ والغُفْـ ـرانِ أُلْبِسْتَ ضافيَ الأذيالِ
فهنيئاً لك البقاء وإن كا ن هناءً يخصُّ فيه المعالي

---

(١) في (ل) «حاشية: القنس: الأصل». قلت: انظر «اللسان» (قنس).

(٢) أي بليت. انظر «اللسان» (نهج).

(٣) كذا في النسخ الخطية، وفي طبعة وادي النيل: ١/١١١ البدر.

(٤) في (م) لنافد.

(٥) في (م) أقلقت. وأقلعت عنه الحمَّى: تركته. «القاموس المحيط» (قلع).

والتُّقى والنَّدى ومَقْرَبَـةُ[1] الخيْـ ـلِ وبيض الظُّبى وسُمْر العوالي
والخِـلالُ التي إذا مـا تخلّت[2] صَدَرَتْ منك عن كريمِ الخِلالِ
إنْ وَقَتْـكَ النُّفـوس مـا تتوقَّى فحقيقٌ فـدا المُوالي[3] المـوالي
أوتحصَّنْتَ في شعـارٍ من التَّقْـ ـوَى فما زلتَ منه في سِرْبالِ
فشفـى الله مَنْ أجـلُّ دوائَـيْـ ـه صريحُ الدُّعـاءِ والإبتهالِ
مَلِكٌ أبْـدَلَ المخـافـةَ بـالأمْـ ـنِ وأضحى يُعَـدُّ في الأبْـدَالِ
وهْـو تـاجُ الملوكِ فـالملك العا طل حَالٍ به على كُلِّ حالِ
وإذا النَّيِّـران غـابـا فنـورُ الـدِّ (م) ين شَمْسٌ فَجْـرِيَّـةُ الآصـالِ
قـد أرت وجهك العُـلاَ مايـريها وهـي مـرآةُ صـالحِ الأعمـالِ
وقضى الله أنَّ نجمَـك في الأنـ ـجُم سـامٍ وأن جَـدَّك عـالِ
كـل يـوم هـذا المحيا محيىً بـالتهـاني على يـد الإقبـالِ

فصـــل

في ذكر حِصْن شَيْزَر* ووِلاية بني مُنْقِذ

قال ابنُ الأثير: وهو حصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار، وهو من أمنـع القلاع وأحصنها، على حجرٍ عالٍ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قُطـع الطريق في وسطه، وجُعل عليه جسر من خشب، فإذا قُطـع ذلك الخشب[4] تعذَّر الصُّعود إليه. وكان لآل مُنْقِذ الكنانيين يتوارثونه من أيام

(١) أي التي تكون قريبة معدة، ضمرت للركوب. انظر «معجم متن اللغة»: ٥٢٢/٤ وفي (م) مقودة.
(٢) في الأصل و(ل) تحلت، والمثبت من (م).
(٣) الضبط من الأصل.
(٤) في «الباهر»: ١١٠ الجسر.

صالح بن مِرْدَاس[1] إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المُقَلَّد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم، بعد أبيه أبي الحسن علي[2]، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بِشَيْزَر* سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، وكان شجاعاً كريماً، صوَّاماً قوَّاماً. فلما حضره الموتُ استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي؛ وهو والد أُسامة، فقال: والله لا وليتها، ولَأخرُجَنَّ من الدُّنيا كما دخلتُها. وكان عالماً بالقرآن والأدب، كثيرَ الصَّلاح، فولَّاها أخاه أبا العساكر سُلْطان بن علي، وكان أصغر منه، فاصطحبا أجمل صحبةٍ مُدَّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عِدَّة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا؛ منهم عِزُّ الدولة أبو الحسن علي[3]، ومُؤَيَّد الدولة أسامة بن مُرْشد، وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كَبِرَ فجاءه أولاد، فحسدَ أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صِغَر أولاده وكِبَر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما، فغيَّروا كلًّا منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبياتٍ جيدة في معناها، وكلُّهم كان أديباً شاعراً، فمنها: ١١٢/١

ظَلُومٌ أَبَتْ في الظُّلْمِ إلا تماديا وفي الصَّدِّ والهِجْران إلَّا تناهيا

---

(١) استولى على حلب سنة (٤١٤هـ) على الأرجح، وقتل سنة (٤٢٠هـ) انظر «الكامل»: ٢٢٧/٩ ـ ٢٣١، و«وفيات الأعيان»: ٤٨٧/٢ ـ ٤٨٨، و«زبدة الحلب»: ٢٢٧/١ ـ ٢٣٢.

(٢) سديد الملك، وهو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ وذلك سنة (٤٧٤هـ)، وكانت بيد الروم، وتوفي سنة (٤٧٥هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٤٠٩/٣ ـ ٤١٠.

(٣) قتل شهيداً في غزة سنة (٥٤٥هـ) له كتاب في التاريخ مفقود هو «البداية والنهاية» نشر منه شذراتٍ الدكتور إحسان عباس في «شذرات من كتب مفقودة في التاريخ»: ١٢٥. انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ٥٤٨/١ ـ ٥٥١، و«معجم الأدباء»: ٢١٤/٥ ـ ٢٢٠، و«الوافي بالوفيات»: ١٩١/٢٢ ـ ١٩٢، وفيه أنه استشهد بعسقلان سنة (٥٤٦هـ).

شَكَتْ هَجْرَنا في ذاك والذَّنْبُ ذَنْبُها فيا عجباً من ظالمٍ جاءَ شاكيا

وطاوَعَتِ الواشين فيَّ وطالما عَصَيْتُ عذُولاً في هَوَاها وواشِيا

ومالَ بها تِيْهُ الجمال إلى القِلى وهيهاتَ أن أمسي لها الدَّهْرَ قاليا

ولا ناسياً ما أَوْدَعَتْ من عُهودِها وإنْ هي أَبْدَتْ جفوةً وتَناسيا

ولما أتاني من قريضِك جَوْهَرٌ جَمَعْتَ المعالي فيه لي والمعانيا

وكنتُ هَجَرْتُ الشِّعْرَ حيناً لأنه تَوَلّى بِرغمي حين وَلَّى شبابيا

وأينَ من السِّتين لَفْظٌ مُفوَّفٌ إذا رُمْتُ أَدْنى القَوْلِ منه عَصَانيا

وقلتُ أخي يرعى بنيَّ وأُسرتي ويحفظ عَهْدي فيهمُ وذِماميا

ويجزيهمُ ما لَمْ أكلِّفه فِعْلَه لنفسي فقد أَعْدَدْتُه من تُراثيا

فَمَالَك لما أن حنى(١) الدَّهْرُ صَعْدتي(٢) وثَلَّمَ مني صارِماً كان ماضيا

تنكَّرْتَ حتى صارَ بِرُّك قَسْوَةً وقُرْبُكَ منّي جفوةً وتنائيا

فأصبحتُ صِفْر الكفِّ مما رجوتُه كذا(٣) اليَأْسُ قد عفَّى سبيلَ رجائيا

على أنني ما حُلْتُ عما عَهِدْتَه ولا غَيَّرَتْ هذي السّنونُ وِدَادِيا

فلا غَرْوَ عند الحادثات فإنَّني أراكَ يميني والأنامَ شِماليا

تهنَّ بها عذراء لو قُرنت بها نجومُ السَّماءِ لم تُعَدَّ دراريا

تحلَّتْ بِدُرٍّ من صفاتِك زانَها كما زانَ منظومُ اللآلي الغوانيا

وعش بانياً لِلجُود ما كان واهناً مُشيداً من الإحسانِ ما كان واهيا(٤)

---

(١) في (م) حمى، وهو تصحيف.

(٢) الصَّعْدة: القناة المستوية، يشبه بها القامة المستقيمة. انظر «اللسان» (صعد).

(٣) كذا في النسخ الخطية، وفي «الباهر»: أرى، ومثله في «تاريخ دمشق» لابن عساكر، و «الخريدة»، و«معجم الأدباء».

(٤) انظر «الباهر»: ١١٠ ــ ١١١، والقصيدة في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/١٦٨/أ مع اختلاف في بعض الألفاظ، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٥٦٠ ــ ٥٦١، و«معجم الأدباء»: ٥/٢٢٨ ــ ٢٣٠.

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، قلب أخوه لأولاده ظهر المجنِّ، وبادأهم بما يسوؤهم، وتمادتِ الأيام بينهم إلى أن قَوِيَ عليهم، فأخرجهم من شَيْزَر. وكان أعظم الأسباب في إخراجهم[1] ما حُدِّثتُ به عن مُؤيَّد الدولة أُسامة بن مرشد قال: كنتُ من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس، فبَيْنَا أنا بشَيْزَر وإذا قد أتاني إنسان فأخبرني أن بِدجْلة، يقاربُها، أسداً ضارياً، فركبتُ فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أُعلم أحداً من النَّاس لئلا أُمنع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلتُ عن فرسي وربطته، ومشيت نحوه، فلما رآني قصدني ووثب، فضربتُه بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزتُ عليه، وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدتُ إلى شَيْزَر، ودخلتُ على والدتي وألقيت الرأس بين يديها، وحدثتها الحال. فقالت: يا بني، تجهَّز للخروج من شَيْزَر، فوالله لا يُمكِّنك عَمُّك من المقام، ولا أحداً من إخوتك، وأنتم على هذه الحال من الإقدام والجُرْأة. فلما كان الغدُ أمر عمي بإخراجنا من عنده، وألزمنا به إلزاماً لا مُهلة فيه، فتفرَّقنا في البلاد. فقصدوا الملك العادل نور الدين[2]، وشكَوْا إليه ما لقوه من عمهم، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم، لاشتغاله بجهاد الفرنج، ولخوفه من أن يسلِّم شَيْزَر

---

(1) في ٢/ ٤٣٢ من هذا الكتاب ذكر العماد أن خروجهم كان سنة (٥٢٤ هـ)، وهو وهم منه، لأن خروجهم كان ــ كما ذكر ــ بعد وفاة مرشد أبي أسامة، ووفاته سنة (٥٣١ هـ).

(2) رواية ابن الأثير هذه غير دقيقة، لأن أسامة حين خرج هذه المرة وهي سنة (٥٣٢ هـ) قصد دمشق وأقام بها ثماني سنين، ثم رحل منها إلى مصر سنة (٥٣٩ هـ) ولم يكن نور الدين قد ملك بعد، وقد اتصل به بعد عوده من مصر سنة (٥٤٩ هـ) كما سلف ص ٣١٥ وانظر «الاعتبار» ط: حتي: ٤ ــ ٦، وط: قاسم السامرائي: ٢٧ ــ ٢٩ و «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٢/ ٣٥٢/ أ.

إلى الفرنـج، وبقي في نفسه. وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنـج، فاشتدَّ ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحدٌ كان بالحصن، فبادر إليها وملكها، وأضافها إلى بلاده، وعمرها وأسوارها، وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة، وكل ما خرب بالشَّام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت[1].

١/١١٣

قلتُ: وسيأتي ذكر أسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين[2]؛ وهي السَّنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شَيْزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أُنَر؛ أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدةً أولها:

وَلُـوا فلمَّا رَجَـوْنا عَـدْلَهُمْ ظَلَمـوا ... فليتَهُم حَكَمُـوا فينـا بمـا عَلِمُـوا

مـا مَـرَّ يـومـاً بفكـري مـا يَـريبهُمُ ... ولا سَعَتْ بـي إلى ما ساءهم قَدَمُ

ولا أضعتُ لهم عَهْداً ولا اطَّلَعَتْ ... على ودائِعِهم في صَـدْريَ التُّهَمُ

فَلَيتَ شِعْري بمَ استوجبتُ هَجْرَهمُ ... ملُّوا فَصَـدُّهُمُ عن وَصْليَ السَّأمُ

حَفِظْتُ ما ضَيَّعُوا أَغْضَيْتُ حين جَنَوْا ... وفَيْتُ إذ غَدَرُوا واصلتُ إذْ صَرَمُوا

حُرِمْتُ ما كنتُ أرجـو من وِدَادِهُمُ ... ما الرِّزْقُ إلا الذي تجري به القِسَمُ

وبَعْدُ لو قيلَ لي ماذا تحبُّ ومـا ... تختارُ[3] من زينةِ الدُّنيا لقلتُ هُمُ

لهم[4] مجال الكَرَى من مُقْلَتيَّ ومن ... قلبـي محلُّ المُنَى جارُوا أو اجْتَرَمُوا[5]

تبـدَّلـوا بـي ولا أبغي بهم بَـدَلاً ... حَسْبـي همُ أنصفوا في الحُكْمِ أو ظَلَمُوا

---

(١) انظر «الباهر»: ١١٢.

(٢) انظر ٢/٤٣٢ من هذا الكتاب.

(٣) في «الديوان»: وما مناك.

(٤) في «الديوان»: هم.

(٥) أذنبوا، انظر «اللسان» (جرم).

بلِّـغ أميري معين الدين مألُكَةً[1] ... من نـازحِ الـدَّارِ لكنْ ودُّه أَمَمُ

وَقُلْ له أنتَ خَيْرُ التُّرك فَضَّلَكَ الـ ... ـحيـاءُ والدِّين والإِقْـدَامُ والكَـرَمُ

هـلَّا أَنِفْتَ حَيـاءً أو محـافـظةً ... من فِعْلٍ ما أَنْكَرَتْهُ العُرْبُ والعَجَمُ

أَسْلَمْتَنـا وسيـوفُ الهِنْـدِ مُغْمَـدَةٌ ... ولم يُـرَوَّ سِنـانَ السَّمْهَـرِيِّ[2] دَمُ

وكنتُ أَحْسَبُ من والاك في حَرَمٍ ... لا يعتـريـه بـه شَيْبٌ ولا هَـرَمُ

وما طُمانُ بـأَوْلى من أُسامـةَ بالـ ... ـوفـاءِ لكنْ جَرَى بـالكائنِ القَلَمُ

هَبْنَـا جَنَيْنا ذُنُـوبـاً لا يكفِّـرُهـا ... عُذْرٌ فماذا جَنَى الأطفـالُ والحُرَمُ

ألقيتَهُمْ في رضا[3] الإفرنـج متَّبعاً ... رضا عِدىً يُسْخِطُ الرحمنَ فِعْلُهُمُ

جَـرِّبْهُمُ مِثْـلَ تجـريبي لِتَخْبُـرَهُمْ ... فللرِّجـال إذا مـا جُـرِّبـوا قِيَـمُ

وهي طويلة[4]. وطُمان المذكور خادم تركيٌّ كان لأتابك* ملك الأمراء زَنْكي بن آق سُنْقُر، هرب من خدمته إلى دمشق، فطلبه ولـجَّ فيه، فاشتمل عليه مُعين الدين للجنسيَّة وحماه، فلمَّا لـجَّ فيه سَيَّره إلى العرب، وقام له بما يحتاجه إلى أن رَدَّه لخدمته بدمشق.

وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مـع عَبَّاس ـ كما سبق ذكره[5] ـ وأسر الفرنـج أخاه نجم الدولة محمد بن مُرْشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سُلْطان، صاحب شَيْزَر*، الإعانة في فكاكه فلم يفعل. قال: وادَّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحُسْنَ ذكره للملك العادل نور الدين، رحمه

---

(١) رسالة. «اللسان» (ألك).

(٢) الرمـح الصليب العود. «اللسان» (سمهر).

(٣) في «الديوان»: يد.

(٤) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٤٠ ـ ٤١، ١٤٦ ـ ١٤٨، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٥٣٤ ـ ٥٣٧.

(٥) انظر ص (٣١٠ ـ ٣١٦) من هذا الجزء.

الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدَّمي الدَّاوِيَّة* يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر[1].

وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين ابن الشَّهْرُزُوري[2] أنشدَ نورَ الدين:

مُلْكُ بني مُنْقِذٍ تولَّى ... وكان فوقَ السِّماك سُمْكُهْ
فَاعْتَبِرُوا وانْظُروا وقُولوا ... سبحانَ مَنْ لا يَزُول مُلْكُهْ

والمعروف مُلك بني بَرْمَك، فغيَّره المنشد لمَّا تمثَّل به في غرضه، فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكلُّ مُلْكٍ إلى زَوَالٍ ... لا يعتري ذا اليقين شَكُّهْ
إنْ لم يَزُلْ بانتقالِ حالٍ ... أزال ذا المُلْك عنه هُلْكُهْ
والله ربُّ العِبادِ باقٍ ... وهالِكٌ نِدُّه وشِرْكُهْ
فَقُلْ لمن يَظْلِمُ البَرَايا ... غَرَّك إمهالُه وتَرْكُهْ
تنسى ذنوباً عليك تُحْصى ... يحصرها نَقْدُه وحكُّهْ
كم ناسكٍ نُسْكُه رياءٌ ... أوبقَهُ في المعاد نُسْكُهْ
فاحْذَرْ فما يختفي عليهِ ... مِنْ عبدهِ صِدْقُهُ وإفْكُهْ[3]

١/١١٤

وما أحسنَ ما قال أسامة في كِبَرِه:

مع الثَّمانين عاثَ الضَّعْفُ في جَلَدي ... وساءني ضَعْفُ رِجْلي واضطرابُ يَدَي
إذا كتبتُ فخطِّي جِدُّ مضطربٍ ... كخطِّ مُرْتَعِشِ الكفَّين مُرْتَعِدِ
فاعجبْ لِضَعْفِ يدي عن حَمْلِها قلماً ... مِنْ بَعْدِ حَطْمِ القَنَا في لَبَّةِ الأَسَدِ

---

(١) انظر «الاعتبار»: ٥٠، و«ديوان أسامة»: ١٤٩.

(٢) سترد ترجمته في ٢/ ٤٢٦ من هذا الكتاب.

(٣) لم أجد الأبيات في «ديوانه».

وإنْ مَشَيْتُ وفي كَفِّي العصا ثَقُلَتْ رِجلي كأني أَخُوضُ الوَحْلَ في الجَلَدِ
فَقُــلْ لمن يتمنَّى طـول مُــدَّتــه هذي عواقبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ[1]

فــصــل
في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصَرَتِ الأخبارُ بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضمَّ إليه من عسكر الموصل وغيره، بحيث قتل منهم العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرَّقين مفلولين خاسرين، بعد المضايقة والتَّناهي في المحاصرة والمصابرة[2].

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السُّلْطان غياث [الدنياو][3] الدين أبـي الحارث سنجر بن أبـي الفتـح بن ألب أرسلان، سلطان خُرَاسان، عقيب خلاصه من الشِّدَّة التي وقـع فيها، والأسر الذي حصل فيه[4]، وكان يحبُّ العدل والإنصاف للرعايا، حسن السيرة، جميل الفعل، وقد عَلَتْ سِنُّه وطال عمره[5]. وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السَّنة إلى نور الدين بالتشوُّق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعـاله، وإعلامه ما منَّ الله عليه به من خلاصه من الشِّدَّة التي وقـع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك التركمان، بحيلةٍ دَبَّرها، وسياسةٍ

---

(١) الأبيـات في «الاعتبار»: ١٨٢، مـع اختـلاف في اللفظ، و«سير أعـلام النبلاء»: ٢١/١٦٧.
(٢) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٤٣.
(٣) ما بين حاصرتين من (م).
(٤) كان ذلك سنة (٥٤٨هـ)، انظر «الكامل»: ١١/١٧٦، وما بعدها.
(٥) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٤٥، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٣٦٢ ـ ٣٦٥.

أحكمها وقرَّرها، بحيث عاد إلى منصبه من السَّلْطنة المشهورة، واجتماع العساكر المتفرِّقة عنه إليه(١).

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلِّص الدين أبي البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جَرَادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتباً بليغاً، حسنَ البلاغة نظماً ونثراً، مُسْتَحْسَنَ الفنون من التَّذهيب البديع، وحُسْنِ الخَطِّ المحرَّر على الأُصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن وتوقُّد الفِطْنة والذَّكاء(٢).

وقال: وفي رابع [عشر](٣) شوَّال ورد الخبر من ناحية بُصرى* بأن واليها فخر الدين سُرخاك(٤) قُتل غيلة بموافقةٍ من أعيان خاصَّته، وكان فيه إفراط في التحرُّز واستعمال التيقُّظِ، ولكنَّ القضاء لا يُغالب ولا يدافع(٥).

قال: وفي أوائل ذي القَعْدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقَّب بصلاح الدين(٦) وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زَنْكي، وتقدَّم عنده بالمناصحة وسَدَاد التدبير، وحُسْنِ السِّفارة وصواب الرأي، ولما عَلَتْ سِنُّه ضَعُفَ عن ركوب الخيل، وألجأته الضَّرورة إلى الحمل في المحفَّة* لتقرير الأحوال، والنَّظر في الأعمال، ولم ينقص من حسه

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨، وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٢/٤٢٧ ـ ٤٢٨، و«سير أعلام النبلاء»: ٢/٣٦٢ ـ ٣٦٥.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٥، وله ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢١٩ ـ ٢٢٣، وفيه منتخبات من شعره، وذكر أنه توفي بعد سنة خمس وخمسين، وانظر «معجم الأدباء»: ١٦/١٦ ـ ١٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٦ سرخال، وهو تصحيف. والضبط من الأصل.

(٥) انظر المصدر السابق، وقد سلفت بعض أخباره في ص (٢٦٦، ٢٦٨) من هذا الجزء.

(٦) هو صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني، مرت أخباره في أثناء هذا الجزء.

وفهمه ما يُنكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولادُه في منصبه وولايته[١].

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة [فقهاء][٢] بَلْخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيتُ أفصحَ من لسانه ببلاغتَيْه العربية والفارسية، ولا أسرعَ من جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلماً في كتابته: أبو الحياة محمد بن أبي القاسم بن عمر السُّلَمي[٣]، ووعظ في جامع دمشق عِدَّة أيام، والنَّاس يستحسنون وعظه، ويستظرفون فنَّه، وسلاطة لسانه، وسرعة جوابه، وحِدَّة خاطره، وصفاء حِسِّه[٤].

قال ابنُ الأثير: وفيها في ذي الحِجَّة توفي الأمير عز الدين أبو بكر الدّبيسي صاحب جزيرة ابن عُمر، وكان من أكابر الأمراء، يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلاً حازماً، ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قُطْب الدين مودود بن زَنْكي، صاحب المَوْصِل، أخو نور الدين[٥].

ثم دخلت سنةُ ثلاث وخمسين [وخمس مئة][٦]

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرَّم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشَّام ــ خذلهم الله تعالى ــ بمضايقتهم لحصن حارم

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٧.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) الضبط من (ل).
(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٧ ــ ٣٤٨.
(٥) انظر «الباهر» ١١٢ ــ ١١٣. وقد سلف ذكر الدبيسي ص ١٥٧ من هذا الجزء.
(٦) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق(١) إلى أن ضعف ومُلك بالسيف، وتزايد طمعهم في شنِّ الغارات في الأعمال الشَّامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرُّق العساكر الإسلامية، والخُلْف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، ولله المشيئة التي لا تُدافع والأقضيةُ التي لا تُمانع(٢).

وقال: وفي صفر ورد الخبر والمُبَشِّر بنزول نور الدين من حلب للتوجُّه إلى دمشق، واتَّفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شنِّ الغارات على أعمال حَوْران والإقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والإخراب في الضياع، والنَّهب والسَّبي والأسر، وقَصْد داريا* والنزول عليها في انسلاخ صفر، وإحراق منازلها وجامعها، والتَّناهي في إخرابها، وظهر إليهم العسكريَّة والأحداث، وهموا بقصدهم والإسراع إلى لقائهم وكفِّهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكُفَّار ـ خذلهم الله تعالى ـ كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الإقليم. ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول، سالماً في نفسه وجملته ولُقي بأحسن زِيٍّ وترتيب وتجمُّلٍ، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وابتهجوا، وبالغوا في شكر الله تعالى على سلامته وعافيته، والدُّعاء له بدوام أيامه، وشرعَ في تدبير أمر الأجناد، والتأهُّب للجهاد(٣).

١/١١٥

قال: وفي أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق

---

(١) في (م) المناجيق، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»، وكلاهما صحيح، مفردها منجنيق، وهو من أسلحة الحصار، يقذف به الأحجار واللهب. انظر «صبح الأعشى»: ٢/١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٠ ـ ٣٥١.

وافر من عسكرها إلى غَزَّة وعَسْقلان، وأغاروا على أعمالها، وخرجَ إليهم من كان بهما من الفرنـج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلاً وأسراً، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين.
وقيل: إن مقدَّم الغُزاة في البحر ظفر بعدَّة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنـج، فقتل وأسر منهم العددَ الكثير، وحاز من أموالهم وعُدَدهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافراً غانماً[1].

قلتُ: وأرسل إلى مُؤَيِّد الدولة أُسامة بن منقذ من مصر وزيرُها الملك الصَّالـح أبو الغارات طلائـع بن رُزِّيك قصيدةً يشرحُ فيها حال هذه الغَزَاة، ويحرِّض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما مَنَّ الله تعالى عليه من العافية والسَّلامة من تلك المرْضَة المقدَّم ذِكْرُها[2]. وكان كثيراً ما يكاتبُه طالباً منه إعلام نور الدين بالغَزَاة لحثِّه عليها، وأوَّل هذه القصيدة:

ألا هكذا في اللهِ تمضي العزائمُ ... وتُنْضى[3] لدى الحَرْبِ السُّيوفُ الصَّوارِمُ
وتُستنزل الأَعداءُ من طَـوْدِ عزِّهم ... وليسَ سوى سُمْر الرِّماحِ سلالمُ
وتُغْزَى جيوشُ الكُفْرِ في عُقرِ دارِها ... ويـوطـا حِمـاهـا والأنـوف رَوَاغِمُ
وَيُـوفي الكِرامُ النَّـاذرون بِنَـذْرِهم ... وإن بُـذِلَتْ فيها النُّفـوسُ الكرائِمُ
نَذَرْنا مَسِيرَ الجيشِ في صَفَرٍ فما ... مضى نِصْفُه حتَّى انْثَنى وهو غانمُ
بعثناه من مِصْرٍ إلى الشَّامِ قاطعاً ... مفـاوِزَ وَخْدُ العِيس فيهن دائِمُ[4]
فمـا هالَـه بُعْـدُ الـدِّيـارِ ولا ثنى ... عـزيمتَه جُهْـدُ الظَّمـا والسَّمائمُ[5]

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١.
(٢) انظر ص ٣٤٧ من هذا الجزء.
(٣) في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٢٠ تمضي. ونضا السيف من غمده وانتضـاه: إذا أخرجه. «اللسان» (نضا).
(٤) أي إسراع الإبل فيهن دائم. انظر «معجم متن اللغة»: ٧٢٢/٥.
(٥) مفردها سموم، وهي الريح الحارة. «اللسان» (سمم).

يهجِّر والعُصْفُورُ في قَعْرِ وكره ... ويَسْرِي إلى الأعداءِ واللَّيْلُ[1] نائمُ
تُبَاري خيولاً ما تزالُ كأنَّها ... إذا ما هي انقضَّتْ نُسورٌ قَشَاعِمُ[2]
يسيرُ بها ضِرْغامُ[3] في كلِّ مأزِقٍ ... وما يَصْحَبُ الضِّرْغامَ إلا الضَّرَاغِمُ
وَرُفْقَتُهُ عينُ الزَّمانِ وحاتِمٌ ... ويحيى وإنْ لاقى المنيَّةَ حاتِمُ[4]
وواجَهَهُمْ جمعُ الفرنجِ بحملةٍ ... تَهُونُ على الشُّجعان فيها الهزائمُ
فلقَّوْهُمُ زُرْقَ الأَسِنَّةِ وانْطوَوْا ... عليهم فلم يرجعْ[5] من الكُفْر ناجِمُ
وما زالتِ الحربُ العَوَانُ[6] أشدُّها ... إذا ما تلاقى العَسْكَرُ المتضاجِمُ[7]
يُشَبِّهُهُمْ من لاحَ جَمْعُهُمُ له ... بلُجَّةِ بحْرٍ مَوْجُها متَلاطِمُ
وعادوا إلى سَلِّ السُّيوفِ فَقُطِّعَتْ ... رؤوسٌ وحُزَّتْ للفرنجِ غَلَاصِمُ[8]
فلم يَنْجُ منهم يوم ذاكَ مُخَبِّرٌ ... ولا قيل هذا وحدَه اليومَ سالمُ
نُقَتِّلُهُمْ بالرَّأْي طوراً وتارةً ... تدوسُهُمُ منا المَذَاكي[9] الصَّلادِمُ[10]
فقولوا لنورِ الدين لا فُلَّ حَدُّه ... ولا حَكَمَتْ فيه اللَّيالي الغواشِمُ

---

(١) في «ديوان أسامة»: والنجم.

(٢) مفردها قشعم، وهو من النسور المسن الضخم. انظر «اللسان» (قشعم).

(٣) هو ضرغام بن عامر بن سوار، تولى وزارة مصر سنة (٥٥٨هـ) وقتل سنة (٥٥٩هـ) وسيرد ذكره في حوادثها. انظر «الكامل»: ٢٩٠ ــ ٢٩١، ٢٩٨ ــ ٢٩٩، و«وفيات الأعيان»: ٢/٤٤٠، و«النكت العصرية»: ٣٥ وص ٤٠٧ وما بعدها من هذا الجزء..

(٤) عين الزمان، وحاتم، ويحيى، أسماء قواد في الجيش الفاطمي.

(٥) في «ديوان أسامة» ينجم.

(٦) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة. انظر «اللسان» (عون).

(٧) أي المختلف. وفي «ديوان أسامة» المتصادم.

(٨) مفردها الغلصمة: اللحم الذي بين الرأس والعنق. «اللسان» (غلصم).

(٩) المذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد انتهاء قروحها سنة أو سنتان وذلك استتمام القوة، وقروحها: أي انتهاء أسنانها، وإنما تنتهي في خمس سنين. انظر «اللسان» (ذكا، قرح).

(١٠) مفردها: الصِّلْدِم والصُّلادم، وهو الشديد الحافر، وقيل: القوي الشديد من الحافر. «اللسان» (صلدم).

تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولاتَهِن   وتُظهرْ فتوراً إن مَضَتْ منك حازِمُ*
فما مِثْلُها تُبدي احتفالاً به ولا   تُعَضُّ عليها للملوكِ الأباهمُ
فعندَك من ألطاف رَبِّك ما به   عَلِمْنا يقيناً أنَّه بك راحِمُ
أعادكَ حيًّا بعد أن زَعَمَ الورى   بأنك قد لاقيت ما الله حاتمُ
بِوقْتٍ أصابَ الأرضَ ما قد أصابَها   وحلَّتْ بها تلك الدَّواهي العظائمُ
وخَيَّمَ جيشُ الكفر في أرضِ شَيْزَرٍ*   فَسِيْقَتْ سبايا واستُحِلَّت محارِمُ
وقد كانَ تاريخ الشآم وهُلكُه   ومن يحتويه أنَّه لك عادِمُ 116/1
فَقُمْ واشكرِ الله الكريمَ بنهضةٍ   إليهمْ فَشُكْرُ اللَّهِ للخَلْقِ لازِمُ
فنحنُ على ما قد عَهِدْتَ نَرُوعُهُمْ   ونَحْلِفُ جَهداً أنَّنا لا نسالمُ
وغاراتُنا ليستْ تَفَتَّرُ عنهمُ   وليس يُنَجِّي القومَ منَّا الهزائمُ
فأسطولُنا أضعافُ ما كان سائراً   إليهمْ فلا حِصْنٌ لهمْ منه عاصمُ
ونرجو بأنْ نجتاحَ باقِيَهُمْ بهِ   وتُحوى الأسارى منهمُ والغَنائمُ(1)

وكتب إليه أيضاً:

يا سَيِّداً يسمو بهمَّـ (م)   ـته إلى الرُّتَبِ العَلِيَّهْ
فينالُ منها حين يُحْـ   ـرَمُ غَيْرُه أوفى مَزِيَّهْ
أنتَ الصَّديقُ وإن بَعُدْ   تَ وصاحبُ الشِّيَمِ الرَّضِيَّهْ
نُنْبيك(2) أنَّ جيوشَنا   فَعَلَتْ فِعالَ الجاهِلِيَّهْ
سارَتْ إلى الأعداءِ من   أبطالها مثنى سَرِيَّهْ
فتُغيرُ هذي بُكْرَةً   وتُعاوِدُ الأُخرى عَشِيَّهْ
فالويلُ منها للفرنـ   ـج فقد لقوا جَهْدَ البَلِيَّهْ

---

(1) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: 220 ـ 224، و«ديوان طلائع بن رزيك»: 135 ـ 142.
(2) في «ديوان طلائع بن رزيك»: 173 يهنيك، وهو تحريف.

جـاءَتْ رؤوسـهـم تـلو ... حُ على رؤوس السَّمْهَرِيَّهْ[1]
وقلائعٌ[2] قد قُسِّمَتْ ... بين الجنودِ على السَّوِيَّهْ
وخلائقٌ. كَثُرَتْ من الـ ... أسرى تقادُ إلى المَنِيَّهْ
فانهضْ فقد أنبيتُ مجـ ... ـدَ الدِّين بالحال الجَلِيَّهْ
والممْ بنورِ الدِّين وآعْـ ... ـلمْهُ بهاتيك القَضِيَّهْ
فهْو الذي ما زال يخـ ... ـلص منه أفعالاً وَنِيَّهْ
ويبيدُ جَمْعَ الكُفْرِ بالْـ ... ـبيضِ الرِّقاقِ المَشْرَفِيَّهْ[3]
فعساه ينهضُ نهضةً ... يفني بها تلك البَقِيَّهْ
إمَّا لنُصْرَةِ دِيْنِهِ ... أو مُلْكِه أو للحَمِيَّهْ[4]

وكتب إليه أيضاً:

أيها المُنْقِذِي[5] لأنتَ على البُعْـ ... ـدِ صديقٌ لنا ونِعْمَ الصَّديقُ
ليس فيما نأتيه من بِرٍّ أفعا ... لك للطالب الحقُوقِ عُقوقُ[6]
فلهذا نرى مواصلة الكُتْـ ... ـبِ تباعاً إليك مما يَليقُ
ونُناجيك بالمهمَّاتِ إذْ أنْـ ... ـتَ بإلقائها إليك خَلِيْقُ

---

(١) السمهري: الرمح الصليب العود. «اللسان» (سمهر).
(٢) هي الخيل المجنوبة، ففي «النكت العصرية»: ٤٦ «وخيلهم قلائع مجنوبة»، وفي «ديوان طلائع»: بدائع، وهي تحريف.
(٣) السيوف المشرفية منسوبة إلى المشارف، وهي قرى من أرض اليمن. انظر «اللسان» (شرف).
(٤) الأبيات في «ديوان طلائع بن رزيك»: ١٧٣، وأشار جامعه في هامشه أن الأبيات في «ديوان أسامة بن منقذ»، ولم أجدها في المطبوع منه.
(٥) نسبة إلى منقذ، وهو أحد أجداد أسامة.
(٦) هذا البيت والذي يليه وردا في نسخة الأصل في آخر القصيدة. وأثبتناهما بما يتناسب مع نسختي (ل) و (م) و «الديوان».

وأهمُّ المُهِمِّ[1] أمْـرُ جـهـادِ الْـ ـكُفْـرِ فـاسمعْ فعنـدنـا التَّحْقيقُ
واصَلَتْهُمْ مِنّـا السَّرايـا فأشجـا هُـمْ بُكُـورٌ مـنّـا لهـم وطُـروقُ
وأبـاحَتْ[2] دِيارَهُمْ فـأبـادَ الـ ـقـومَ قَـتْـلٌ مـلازِمٌ وحـريـقُ
وانتـظرنـا بِزَحْفِنا بُـرءَ نـور الدِّ (م) يـن علمـاً مِنّـا بـأنْ سيُـفِيـقُ
وهُـو الآنَ فـي أمـانٍ مـن الـلـ ـه ومـا يعتـريـه أمـرٌ يَعُـوقُ
مـا لهذا المُهِمِّ مثلُك مجدَ الدِّ (م) ين فـانهضْ بـه فـأنـتَ حقيـقُ
قُـلْ لـه لا عَـداه رأيٌ ولازا لَ لـديـه لكـلِّ خَيْـرٍ طـريقُ
أنتَ في حَسْمِ داء طاغية الكُفْـ (م) ـار ذاك المـرجـوُّ والمـرْمُـوقُ
فـاغْتَنِمْ بـالجهـادِ أجـرَك كي يلـ ـقى[3] رفيقاً له ونِعْمَ الرَّفِيْقُ[4]

١١٧/١

فأجابه أُسامة بقصيدةٍ منها:

يا أميرَ الجُيـوشِ ما زال لـلإسـ ـلامِ والـدين منـك رُكْنٌ وثيقٌ
أَسْمَعَـتْ دعـوةُ الجـهـادِ فلبَّـا هـا مليـكٌ بـالمَكْـرُمـاتِ خَلِيقُ
مَـلِكٌ عـادِلٌ أنـارَ بـه الـدِّيـ ـنُ فَعَمَّ الإسـلامَ منه الشُّـروقُ
مـا لهُ عن جهـاده الكُفْـرَ والعَـدْ لِ وفعْـلِ الخيرات شُغْـلٌ يَعُوقُ
هـو مِثْلُ الحُسَـامِ صَـدْرٌ صقيـلٌ لـيِّنٌ مَـسُّـه[5] وحـدٌّ ذليـقُ[6]
ذو أنـاةٍ يخـالهـا الغِـرُّ إهمـا لًا وفيهـا حَتْفُ الأعـادي المُحيقُ
فـاسْلَمَا لـلإسلامِ كَهْفَيْنِ مـا طرَّ (م) زَ ثـوبَ الـظلام بَـرْقٌ خفـوقُ[7]

---

(١) في «الديوان» الأمور.
(٢) في الأصل: فأباحت، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) في «ديوان أسامة»: تُلفى.
(٤) القصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٣٦، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٠٣.
(٥) في (ل) متنه.
(٦) حاد «اللسان» (ذلق).
(٧) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٣٦ ـ ١٣٧، ١٨٨ ـ ١٨٩.

وكتب الصَّالح إليه أيضاً:

قُلْ لابنِ مُنْقِذٍ الذي [قد][1] حاز في الفَضْلِ الكَمالا
فلِذَاك قد أضحى الأنا مُ على مكارمِه[2] عِيالا
كم قَد بعثنا نحوكَ الْـ أشْعارَ مُسْرِعَةً عِجالا
وصَدَدْتَ عنها حين رَا مَتْ من محاسِنِكَ الوِصَالا
هلَّا بَذَلْتَ لنا مقا لًا حينَ لم تَبْذُلْ فِعالا
مع أنَّنا نُوليكَ صَبْـ ـراً في المودَّةِ واحتمالا
ونبِّئْكَ الأخبارَ إن أضحت قِصاراً أو طِوَالا
سارَتْ سَرَايانا لِقَصْـ ـدِ الشَّام تَعْتَسِفُ الرِّمالا
تُزْجي إلى الأعداءِ جُرْ دَ الخيلِ أتباعاً تَوَالى
تمضي خِفَافاً للمُغا رِ[3] بها وتأتينا ثِقالا
حتى لقد رامَ الأعا دي من ديارِهُمُ ارتحالا
وعلى الوُعَيْرة[4] مَعْشَرٌ لم يعهدُوا فيها القِتالا
لما نَأَتْ عمَّن يحفُّ (م) بها يميناً أو شِمالا
نَهَضَتْ إليها خَيْلُنا من مِصْرَ تحتملُ الرِّجالا
والبيضَ لامعةً وبيـ ـضَ الهندِ والأَسَلَ النِّهالا
فَغَدَتْ كأنْ لم يعهدُوا في أرضها حَيًّا حِلالا[5]
هذا وفي تَلِّ العجو ل[6] مَلأنَ بالقَتْلى التِّلالا[7]

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٢) في «ديوان أسامة»: فضائله.

(٣) المغار: الإغارة. «اللسان» (غور).

(٤) حصن قرب وادي موسى، قبلي بيت المقدس. «معجم البلدان»: ٣٤٦/٥، ٣٨٠.

(٥) الحلال: جمع بيوت الناس، واحدتها: حلة. «اللسان» (حلل).

(٦) في الأصل و (ل): العجال، والمثبت من (م). ومثلها «ديوان أسامة».

(٧) في (م) القلالا. مفردها قُلَّة، وهي أعلى الجبل. «اللسان» (قلل).

إذ مَـرَّ مُـرِّي* لـيس يـلْـ ـوي نـحـو رُفْقَتِـهِ اشْتِغـالا
واشْـتَـاقَ عَـسْـكَـرُنـا لـه أهـلاً يـحـبُّـهُـمُ ومـالا
وسَـرِيَّـةُ ابـنِ فُـريـجٍ الطَّـ (م) ـائيِّ طـالَ بـهـا وَصَـالا
سـارَتْ إلى أرض الـخـلـيـ ـلِ فلم تَـدَعْ فيـهـا خِـلالا
فـلو آنَّ نـورَ الـدِّيـن يـجـ ـعَـلُ فعْلَنـا فيـهـم مِثَـالا
وَيُـسَـيِّـرُ الأجـنـادَ جَـهْـ ـراً كـي يُـنـازِلَـهـم نِـزَالا
ووفـى[1] لـنـا ولأهـل دَوْ لـتـه بـمـا قـد كـان قـالا
لـرأيـتَ لـلإفـرنـجِ طُـرًّا (م) فـي مـعـاقِـلها اعـتـقـالا
وتـجـهَّـزوا لـلسَّـيْـرِ نَـحْـ ـوَ الغَـرْبِ أو قَصَدُوا الشَّمـالا
وإذا أبـى إلَّا اطِّـرا حـاً لـلـنَّصِـيْـحَـةِ واعْـتِـزَالا
عُـذْنـا بـتـسـليـمِ الأمـو رِ لـحُكْمِ خـالِقِنـا تَعـالى[2]

١/١١٨

فأجابه ابنُ منقذ بقصيدةٍ منها:

يـا أَشْـرَفَ الـوزراءِ أخـ ـلاقـاً وأكْـرَمَـهُـمْ فَـعـالا
نَـبَّـهْـتَ عـبـداً طـالـمـا نَـبَّـهْـتَـهُ قَـدَراً وحـالا
وَعَـتَـبْـتَـهُ فَـأَنَـلْـتَـهُ فـخـراً ومـجـداً لـن يُـنـالا
لـكـن ذاك الـعَـتْـبَ يُـشـ ـعِـلُ في جـوانحـه اشتعـالا
أسـفـاً لـجَـدٍّ مـالَ عـنـ ـه إلـى مـسـاءتـه ومَـالا
أمـا الـسَّـرَايـا حـيـن تـر جِـعُ بـعـد خِفَّتِـهـا ثِقـالا[3]
فـكـذاكَ عـاد وفـودُ بـا بِـك مـثـقـلـيـن ثـنـاً[4] ومـالا

(١) في «الديوان» ويفي.
(٢) القصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢١٣ ـ ٢١٥، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٢٤ ـ ١٢٦.
(٣) هذا البيت والذي يليه ساقطان من (م).
(٤) في «الديوان» نثاً.

وَمَسِيْرُهـا فـي كـلِّ أَرْ ... ضٍ تبتغي فيها المجالا

فكذاك فَضْلُكَ مثلُ عَدْ ... لِكَ في الدُّنا سارا وجَالا

فاسلَمْ لنا حتى نرى[1] ... لك في بني الدُّنيا مِثالا

واشْدُدْ يَدَيْكَ بودِّ نو ... رِ الدين والقَ به الرِّجالا

فهو المحامي عن بلا ... دِ الشَّامِ جمعاً أَنْ تُذَالا[2]

ومُبِيْدُ أملاكِ الفِرَنْـ ... ـجِ وجَمْعَهُمْ حالاً فحالا

مَلِكٌ يتيه الدَّهْرُ والدُّ (م) ... نيا بِدَوْلَتِهِ اخْتِيالا

جَمَعَ الخِلال الصَّالحا ... تِ فلم يَدَعْ منها خِلالا

فإذا بدا للنَّاظِريـ ... ـنَ رَأَتْ عيونُهُمُ الكَمالا

فبقيتُما للمُسْلميـ ... ـنَ حِمًى وللدُّنيا جَمالا[3]

وكتبَ إليه الصَّالح في القصيدة المقدَّم ذِكْرُها[4] في الزلازل:

وَلَعَمْرِي إن المُناصِحَ في الديـ ... ـنِ[5] على الله أجرُه مَحْسُوبُ

وجهادُ العدوِّ بالفِعلِ والقَوْ ... لِ على كلِّ مُسْلمٍ مَكْتُوبُ

ولك الرُّتبةُ العَلِيَّةُ في الأمـ ... ـرَيْن مُذْ كنتَ إذ تَشُبُّ الحروبُ

أنتَ فيها الشُّجاع مَا لَكَ في الطَّعْـ ... ـنِ ولا في الضِّرابِ يوماً ضريبُ

وإذا ما حَرَّضْتَ فالشَّاعر المُفْـ ... ـلِقُ فيما تقوله والخطيبُ

وإذا ما أَشَرْتَ فالحَزْمُ لا يُنْـ ... ـكِرُ أنَّ التَّدْبيرَ منك مُصِيْبُ

لك رأيٌ يقظانُ[6] إن ضَعُفَ الرَّأْ ... يُ على حاملي الصَّليبِ صَليبُ

---

(١) في (ل) ترى.

(٢) أي تهان. انظر «اللسان» (ذيل).

(٣) «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢١٥ ــ ٢١٧.

(٤) انظر ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ من هذا الجزء.

(٥) في «ديوان أسامة» للدين.

(٦) في «ديوان أسامة»: مذ قطُّ.

فانهض الآن مُسْرِعاً فبأمثا لِك مازَال يُدْرَكُ المَطْلُوبُ
أَلْقِ منَّا[1] رسالةً عند نور الدِّ (م) ين ما في إلقائها ما يُريبُ
قُلْ له دامَ مُلْكُه وعليه مِنْ لباسِ الإقبال بُردٌ قَشِيْبُ
أيها العادِلُ الذي هو للدِّيـ ـنِ شبابٌ وللحُروبِ شَبِيبُ[2]
والذي لم يزل قديماً عن الإسـ ـلامِ بالعَزْمِ منه تُجْلَى الكُروبُ
وغداً منه للفرنج إذا لاَ قُوه يومٌ من الزَّمان عصيبُ
إنْ يَرُمْ نَزْفَ حِقْدِهم فلأشطا نِ[3] قناهُ في كلِّ قَلْبٍ قَلِيْبُ
غَيْرُنا مَنْ يقولُ ما ليس يُمضيـ ـه بفعلٍ وغَيْرُك المَكْذُوبُ
قد كَتَبْنَا إليكَ ما وَضَحَ الآ نَ[4] بماذا عنِ الكتابِ تجيبُ
قَصْدُنا أن يكونَ مِنَّا ومنكم أجلٌ في مسيرنا مَضْرُوبُ
فَلَدينا من العساكرِ ماضا قَ بأدناهُمُ الفَضَاءُ الرَّحِيْبُ
وعلينا أَنْ يَسْتَهِلَّ على الشَّا مِ مكانَ الغيوثِ مالٌ صَبِيْبُ 119/1
أَوْ تَرَاها مِثْلَ العَروسِ ثَرَاها كلُّه من دَمِ العِدَى مَخْضُوبُ
لِطَنِيْنِ السُّيوفِ في فَلَقِ الصُّبْـ ـحِ على هامِ أهلِها تَطْرِيْبُ
ولجمعِ الحشودِ من كلِّ حِصْنٍ سَلَبٌ مُهْمَلٌ لهم ونُهوبُ

---

(1) في «ديوان أسامة»: وألق عنا.

(2) هو شبيب بن يزيد الشيباني، أحد كبار ثوار الخوارج، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان مشهوراً بقوته وشجاعته، كان يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد. غرق سنة (٧٧هـ) على أحد الأقوال. انظر أخباره في «الكامل»: ٣٩٣/٤ وما بعدها، و«وفيات الأعيان»: ٤٥٤/٢ ـ ٤٥٨، و«البيان والتبيين»: ١٢٨/١ ـ ١٢٩.

(3) مفردها شطن، وهو الحبل الطويل، الشديد الفتل يستقى به، وتشد به الخيل. «اللسان» (شطن).

(4) في «ديوان أسامة» فأوضح لنا الآن.

وبحـول الإلـه ذاكَ ومَنْ غـا　　لَبَ ربي فـإنَّـه مَـغْـلُوبُ[1]

وكتب إليه أيضاً:

أيهـا السَّائرُ المجدُّ إلى الشَّـا　　مِ تَبَـارَى[2] رِكـابُـه والخيـولُ
خُـذْعلى بلدةٍ بها دارُ مجد الدِّ (م)　　يـن لاَ رِيـع رَبْعُهـا المـأهـولُ
وتـعـرَّفْ أخبـارَه وَاقْـرِه منَّـ (م)　　ـا سلاماً فيه العِتابُ يجـولُ
قُلْ له أنتَ نِعْمَ ذُخْرُ الصَّديقِ الـ　　ـيـومَ لكنَّـك الصَّـديقُ المَلُولُ
مـا ظَنَّنـا بـأنَّ حـالَـكَ في القُرْ　　بِ ولا البُعْـدِ بـالمـلال يَحُولُ
لا كِتـابٌ ولا جـوابٌ ولا قَـوْ　　لٌ بـه لـليقيـنِ منـا حُـصُـولُ
غَيْـرَ أَنَّا نُـواصِلُ الكُتْبَ إذ قصَّـ (م)　　ـرَ منك البَرُّ الكريمُ الـوَصُـولُ
ذاكـرينَ الفَتْـحَ الـذي فتح اللَّـ　　ـهُ علينـا فالفَضْلُ[3] منه جميـلُ
جـاءنا بعـد مـا ذكـرنـاه في كُتْـ　　ـبٍ أتـاكـم بهـنَّ منـا رَسُـولُ
أن بعضَ الأسطُولِ نالَ من الإفـ　　ـرنجِ مـا لا يَنَـالُـه التَّـأْمِيـلُ
سـارَ في قِلَّةٍ ومـا زالَ بـاللَّـ　　ـه وصِـدْقِ النِّيَّاتِ يَنْمي القليـلُ
وبقـايـا الأسـطول ليسَ لـه بَعْـ　　ـدُ إلى جانبِ[4] الشَّآمِ وُصُـولُ
فحـوى من عكَّـا وأَنْطَرْسوس[5]　　عِـدَّةً لم يُحِطْ بهـا التَّحْصِيـلُ
جَمْـعَ دِيْوِيَّةٍ[6] بهِمْ كـانتِ الإفـ　　ـرنـجُ تَسْطُو على الورى وتَصُولُ
قَيْـدَ في وَسْطِهم مُقَـدَّمُهُمْ مُهْـ　　ـدَى[7] إلـينـا وجِيْـدُه مَغْلُولُ

---

(١) انـظر «ديوان أسـامة بن منقـذ»: ١٦٥ ـ ١٦٦، و«ديوان طـلائـع بن رزيـك»: ٦٣ ـ ٦٥.

(٢) في (م): تبارك.

(٣) في «ديوان أسامة»: فالصنع.

(٤) في «ديوان أسامة»: ساحل.

(٥) في «ديوان أسامة»: انطرطوس، وكلاهما صحيـح. انظرها في كشاف الأماكن.

(٦) هم الداوية، انظر كشاف المصطلحات.

(٧) في (م) و«ديوان أسامة»: يهدى.

بعدَ مَثْوَى جماعةٍ هلكوا بالسَّـ (م) ـيفِ منهـا الغـريقُ والمَفْلُولُ[1]
هـذه نـعمـةُ الإلـه وتـعـديـ ـدُ أيـادي الإلـه شيءٌ يَـطُول
أَبْلِغَنْ قـولَنـا إلى الملك العـا دلِ فهـو المرجُـوُّ والمَـأْمـولُ
قُلْ له كم تُماطِلُ الدَّيْنَ في الكُفَّـ (م) ـارِ فاحْذَرْ أن يغضبَ المَمْطُولُ
سِرْ إلى القُدْسِ واحْتَسِبْ ذاك في اللَّـ ـهِ فبالسَّيرِ منك يُشْفَى الغليـلُ
وإذا مـا أبـطا مَسِيْـرُكَ فـاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنا ونِعْمَ الـوكيـلُ[2]

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أميرَ الجُيوشِ يا أَعْدَلَ الحُكَّـ (م) ـامِ في فِعْـلِهِ وفيمـا يقـولُ
أنتَ حلَّيْتَ بالمكـارمِ أهـل الـ ـعَصْـرِ حتَّى تَعَرَّفَ المَجْهُـولُ
وَقَسَمْتَ الفـرنجَ بالغَـزْوِ شَـطْرَيْـ ـنِ فهـذا عـانٍ وهـذا قَتِيـلُ
بـالـغَ العَبْـدُ في النِّيـابـةِ والتَّحْـ ـريضِ وهـو المُفَـوَّه المَقْبُـولُ
فـرأى من عَزِيْمَـةِ الغَزْوِ مـا كا دَتْ لـه الأَرْضُ والجبالُ تميـلُ
وإذا عـاقَتِ المقـاديـرُ فـاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنَا ونِعْمَ الـوكيـلُ[3]

وكتب الصَّالح إليه جواباً قصيدته الطائية التي أولها:

هي البَدْرُ لكنَّ الثّريا لها قُرْطُ ومِنْ أَنْجُم الجَوْزَاء في نَحْرِها سِمْطُ

ثم قال بعد وصف السُّيوف:

ذَخَرْنـا سُـطاهـا للفـرنـج لأنَّهـا بهم دونَ أهلِ الأرضِ أَجْدَرُ أن تَسْطُو

(١) في (م) و«ديوان أسامة»: والمقتول.
(٢) انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٤٠، ٢١٧ ـ ٢١٨، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٢٨ ـ ١٣٠.
(٣) في «ديوان أسامة»: ١٤٠ ـ ١٤١ أبيات من القصيدة، لم يرد فيه مما عندنا إلا البيت الأول.

١٢٠/١ وقد كاتبوا في الصُّلْح لكنْ جَوابُهُمْ بحضرتنا ما تُنْبِتُ الخَطُّ[١] لا الخَطُّ
سُطُورُ خُيولٍ لا تُغِبُّ ديارَهُمْ لها بالمواضِي والقَنا الشَّكْلُ والنَّقْطُ
إذا أَرْسَلَتْ فَرْعاً[٢] من النَّقْعِ فاحماً أثيثاً[٣] فَأَسْنانُ الرِّماحِ لها مُشْطُ
رَدَدْنا به ابن الفُنْشِ عنَّا وإنما يُثَبِّتُه في سَرْجه الشَّدُّ والرَّبْطُ
فَقُولوا لنور الدين ليس لجائفِ الـ جِراحاتِ[٤] إلا الكيُّ في الطِّبِّ والبَطُّ[٥]
وحَسْمُ أُصولِ الدَّاءِ أَوْلَى بعاقلٍ لبيبٍ إذا اسْتَوْلَى على المُدْنَفِ الخِلْطُ[٦]
فَدَعْ عنك ميلاً للفرنج وهُدْنَةً بها أبداً يُخْطي سِوَاهُمْ ولم يُخْطُوا
تأَمَّلْ فكم شَرْطٍ شَرَطْتَ عليهمُ قديماً وكم غَدْرٍ به نُقِضَ الشَّرْطُ
وشَمِّرْ فإنَّا قد أَعنَّا بكلِّ ما سألتَ وجَهَّزْنا الجيوشَ ولن يُبْطُوا[٧]

قال العماد في كتاب «الخريدة»: الصَّالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك سلطان مصر في زمان الفائز، وأول زمان العاضد، ملك مصر، واستولى على أمر صاحب القصر، ونفق في زمانه النَّظْم والنثر، وقرَّب الفضلاء، واتخذهم جُلَساء، ورحل إليه ذوو الرَّجاء، وأفاضَ على الدَّاني والقاصي العطاء. وله قصائدُ كثيرةٌ مستحسنة نفَّذها إلى الشَّام، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام، وما يُصَدِّق أحدٌ أن ذلك شعره؛ لجودته، وإحكام مباني حكمته، وأقسام معاني

(١) الخط: أرض ينسب إليها الرماح الخطية في البحرين. انظر «اللسان» (خطط).
(٢) الفرع: الشعر التام. «اللسان» (فرع).
(٣) شعر أثيث: غزير طويل. «اللسان» (أثث).
(٤) الجائفة: الطعنة التي تنفذ إلى الجوف. «اللسان» (جوف).
(٥) بَطُّ الجرح: شقه. انظر «اللسان» (بطط).
(٦) رجل خِلْط: مخالط العقل. انظر «اللسان» (خلط).
(٧) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٧٥ ـ ١٧٨، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ٨٤ ـ ٨٧، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٧٦ ـ ١٧٧.

بلاغته، فيقال: إن المهذَّب ابن الزُّبير[1] كان ينظم له، وأن الجليس بن الجبَّاب[2] كان يُعينه، وله ديوان كبير[3] وإحسان كثير[4].

ولما جلسْ في دَسْت الوزارة نظم هذه الأبيات بديهةً:

انْظُرْ إلى ذي الدَّار كم ... قد حَلَّ ساحتَها وَزِيرُ
ولَكَمْ تبختَرَ آمناً ... وَسْطَ الصُّفوفِ بها أميرُ
ذَهَبُوا فلا والله ما ... يبقى الصَّغيرُ ولا الكبيرُ
ولِمِثْلِ ما صاروا إليـ ... ـهِ من الفَنَاءِ غداً نَصِيرُ[5]

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب بحدوث زلزلةٍ رَوَّعَتْ أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع من مساكنها، ثم سكنت بقدرة محرِّكها سبحانه وتعالى. وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة في دمشق روَّعت وأقلقت، ثم سكنت[6].

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير، توفي سنة (٥٦١ هـ)، وسيرد ذكره في ٢/ ٢٥ من هذا الكتاب. عند ذكر أخيه القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير.

(٢) توفي سنة (٥٦١ هـ)، وسترد ترجمته في ٢/ ٦ من هذا الكتاب.

(٣) يبدو أن ديوانه فُقِدَ، وقد جمع شعره الدكتور أحمد أحمد بدوي، وطبعه في مصر سنة (١٩٥٨م)، ثم استدرك عليه محمد هادي الأميني، وطبع ديوانه في النجف سنة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م) وعلى هذه الطبعة كانت إحالاتنا فيما ورد من شعره.

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٧٣ ــ ١٧٤.

(٥) الأبيات في المصدر السابق، والقصيدة بتمامها في «ديوان طلائع بن رزيك»: ٧٦ ــ ٧٨.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١.

وفي التاسع من ربيع الآخر بَرَزَ نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب* في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفرة. وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعَه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قَرُبَ منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيَّالة الفرنج ورجَّالتها، وقد كمنوا لهم فغنموهم، وقُتل أكثرهم وأُسر الباقون، وفيهم[(1)] ولد المقدَّم المتولي حصن حارِم*، وعادوا سالمين[(1)] بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارسٍ واحد[(2)].

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأول جُمادى الآخرة من السَّنة وافى في البقاع مطر هَطَّال بحيث حدَث منه سيلٌ أحمر كما جَرَتْ به العادة في تنبوك[(3)] الشتاء، ووصل إلى برَدَى، ووصل إلى دمشق، وكَثُرَ التعجب من آثار قُدْرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت[(4)].

قال: وفي ليلة الثالث والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أُخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغَدَاة. وورد[(5)] الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمَّعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقى الجمعان، واتَّفق أن عسكر الإسلام حدَث فيه فشل لبعض المقدَّمين، فاندفعوا وتفرَّقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتاً مكانَه في عِدَّة يسيرة من شجعان غِلْمانه وأبطال خواصِّه

(1 ـ 1) ما بينهما ساقط من (م).

(2) «ذيل تاريخ دمشق»: 351 ـ 352.

(3) في اللغة: انتبك: ارتفع، فلعل المعنى في ارتفاع الشتاء، أي في شدته. انظر «معجم متن اللغة»: 5/388.

(4) «ذيل تاريخ دمشق»: 352.

(5) في الأصل: ووصل، والمثبت من (ل) و(م).

في وجوه الفرنـج، وأطلقوا فيهم السِّهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولُّوا منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجَّى الله ــ وله الحمد ــ نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى، وشدَّة بأسه، وثبات جأشه، ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيَّمه سالماً في جماعته، ولامَ من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنـج، وتفرَّق جمـع الفرنـج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصُّلـح والمهادنة وحرص على ذلك، وتردَّدَتْ بين الفريقين مراسـلات، ولم يستقرَّ بينهمـا حال، وعـاد نور الدين إلى دمشق سالماً[1].

قلت: وذكر أبو الفتـح بَنْجير بن أبـي الحسن بن بَنْجير الأشتري[2]؛ المعيد ــ كان ــ بالمدرسة النِّظامية*، في سيرة مختصرة جَمَعها لنور الدين، وقد تقدَّم شيءٌ منها، رحمهما الله قال: وبلغنا أنَّ نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ستٍّ[3] وخمسين وخمس مئة، فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مـع شرذمة قليلة، وطائفةٍ يسيرة، واقفاً على تلٍّ يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكـر الكُفَّـار بحيث اختلط رجَّالة المسلمين مـع رجَّالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولِّياً وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميـع قلبه، مناجياً رَبَّه بسـرِّه يقول: يـا رَبَّ العباد، أنـا العبد الضَّعيف، ملَّكْتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النِّيابة، عمرتُ بلادك، ونصحتُ عبادك، وأمرتُهُمْ بما أمرتني به، ونهيتُهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزمَ المسلمون، وأنا لا أقدر على دفـع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيِّك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سَلَّمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيِّك. فاستجابَ الله

١٢١/١

(١) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٥٢.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦٢ من هذا الجزء.
(٣) كذا قال بنجير، وقد وهم، والصواب سنة ثلاث وخمسين كما ساقه أبو شامة في حوادثها.

تعالى دعاءه، وأوقع في قلوبهم الرُّعب، وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنُّوا أنَّ الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأنَّ عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد. فوقفوا وما أقدموا عليه.

قال: ولولا ذلك الإلهام[1] من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصَّفَّين يطلُبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل بِخُطْلُخ الزَّاهد[2]؛ مولى الشَّهيد بالخروج إليهما، فخرج، وجال بينهما ساعة، وحمل على واحدٍ منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعَهُ، ورجع إلى قريب صفِّ الكُفَّار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدَّثنا الشيخ داود المَقْدِسي خادم قبر شعيب، على نبينا وعليه السَّلام، قال: كان أعطاني مَلِكُ القدس بغلة كنتُ راكباً عليها ــ يعني في ذلك اليوم ــ واقفاً مع الملك العادل، فلما وصل الكُفَّار وقربوا منا شمَّت بغلتي رائحة خيل الكفار، فصهلت تطلبُ خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي، فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولو لا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشّرْذِمة القليلة، والطَّائفة اليسيرة. فتحقق ذلك في قلوبهم، فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه قال: فترجَّل كلُّ من كان مع الملك العادل وتشفَّعوا إليه، وباسوا الأرضَ بين يديه، وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع وفي هذا الإقليم، فإن جرى ــ والعياذ بالله ــ وَهْنٌ وضَعْفٌ من استيلاء الكُفَّار على المسلمين مَنِ الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلَف هذا الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان

(١) في الأصل و (ل): إلهام، والمثبت من (م).

(٢) سيرد ذكره في حوادث سنة (٥٦٥ هـ) حين استولى الفرنج على حصن عكار، وكان له. انظر ٢/١٤١ من هذا الكتاب.

فرسه كرهاً، ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع. فلما عرف الكفار ذلك، وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين، ندموا على ذلك ندامةً عظيمة.

قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسَر الملكُ العادل الكُفَّارَ وقتل منهم مقتلةً عظيمة وأسر منهم خلقاً كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين[1] صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصَل في الجريدة[2] ألف أسير مع التركمان. هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القُدْس، ودخل إلى قليعة؛ فلما جَنَّ عليه اللَّيل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبو يعلى: وفي رجب تجمَّع قومٌ من السُّفهاء العوام، وعزموا على التَّحريض لنور الدين على إعادة ما كان أَبْطَلَ وسامحَ به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ* وعرصة البقل والأنهار، وصانهم من إعنات شرار الضُّمَّان وحوالة الأجناد*. وكرَّروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيامَ بعشرة آلاف دينار بيض، وكتبوا بذلك حتى أُجيبوا إلى ما راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من المقدَّمين والأعيان والرَّعايا، فما اهتدوا إلى صواب، ولا نجح لهم قصدٌ في خطاب ولا جواب، وعسفوا النَّاس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضَّجيج والاستغاثة إلى نور الدين، فصرف همَّه إلى النَّظر في هذا الأمر، فنتجت له السعادةُ وإيثارُ العدل في الرَّعية الإعادة إلى ما كان عليه، فأمر في عاشر رمضان بإعادة الرسوم المعادة إلى ما كانت عليه، من إماتتها وتعفية أثر ضُمَّانها، وأضاف إلى ذلك تبرُّعاً من نفسه، إبطال ضمان الهريسة والجُبْن

(١) انظر ترجمته ص ٣٦٠ من هذا الجزء.

(٢) الجريدة: العسكر الخيالة لا رجَّالة فيهم. انظر «اللسان» (جرد).

واللَّبن، ورَسَمَ بكتابة منشورٍ يُقرأ على كافَّة الناس بإبطال هذه الرُّسوم جميعها وتعفية ذكرها، فبالـغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثَّناء عليه، والنَّشْر لمحاسنه[١].

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصـل الحاجب محمـود المُسْتَرْشِدي من ناحية مصر بجواب ما تحمَّله من المراسلات من الملك الصَّالـح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدَّمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النُّورية، وأنواع الأثواب المصرية، والجياد العربية. وكانت فرقةٌ من الإفرنـج ــ خذلهم الله ــ قد ضربوا لهم في المعابر، فأظفر الله بهم، فلم يفلت منهم إلا القليل النَّزْر. ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفره بجملةٍ وافرة من الفرنـج تناهز أربـع مئة فارس، وتزيد على ذلك في ١٢٢/١ ناحية العريش من الجفار، بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلبُ[٢].

قال: وقد كانت الأخبار تناصرت من ناحية القُسْطنطينية في ذي الحِجَّة ببروز ملك الرُّوم[٣] منها بالعدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الإسلامية، ووصوله إلى مروج الدِّيباج[٤] وتخييمه فيها، وبَثّ سراياه للإغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوماً من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن افتتـح من أعمال لاوين ــ ملك الأرمن ــ عِدَّة من حصونه ومعاقله. ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدَث من الروم، وبعثهم[٥] على استعمال التيقُّظ، والتأَهُّب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم[٦].

---

(١) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٥٢ ــ ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو الأمبراطور Manuel، انظر كشاف الأعلام.

(٤) واد بين الجبال، بينه وبين المصيصة عشرة أميال. انظر «معجم البلدان»: ١٠١/٥.

(٥) في (م) ويحثهم.

(٦) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٥٤.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود، فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر الله، ومعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرة[١]، فكاتَبَ أصحاب الأطراف فتحرَّكوا، ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه مَلِكْشاه قصد هَمَذَان، ودخلها في عسكر كبير ونهبها، وأخذ نساء الأمراء الذين معه[٢] وأولادهم، فاختلط العسكر وتفرَّقوا، وعاد محمد نحو هَمَذَان، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعَّثوا دار السُّلْطان[٣].

قلتُ: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوَّل المحدِّث المنفرد بعلوِّ رواية كتاب «الجامع الصَّحيح» للبخاري، رحمه الله تعالى[٤].

ثم دخلت سنة أربع وخمسين [وخمس مئة][٥]

قال أبو يعلى: في أول يوم منها وافت زلزلةٌ عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها[٦].

---

(١) سترد ترجمته ص ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: كان معه، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «الباهر»: ١١٣ ـ ١١٤.

(٤) هو عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم، السجزي، الهروي، الماليني، سماه أبوه محمداً، فغيره شيخه عبد الله الأنصاري إلى عبد الأول، وكناه بأبي الوقت، وقال له: الصوفي ابن وقته. ولد عبد الأول سنة (٤٥٨هـ)، وقدم بغداد سنة (٥٥٢هـ) وقد انتهى إليه علو الإسناد، وتوفي فيها عن خمس وتسعين سنة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٣٠٣ ـ ٣١١، وقد ذكر فيه الإمام الذهبي قصة رحلته ماشياً وهو دون العاشرة من هراة إلى بوشنج مع والده طلباً للحديث الشريف.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٤.

وكان قد عرض لنور الدين مرضٌ تزايد به بحيث أضعفَ قوَّته، ووقع الإرجاف به من حُسَّاد دولته، والمُفْسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرَّعايا وأعيان(١) الأجناد، وضاقت صدور قُطَّان الثغور والبلاد خوفاً عليه، وإشفاقاً من سوءٍ يصل إليه، لا سيما مع أخبار الرُّوم والفرنج، ولما أحسَّ من نفسه بالضَّعف تقدَّم إلى خواصِّ أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمتُ على وصيَّةٍ إليكم بما قد وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين. إني مشفق على الرَّعايا وكافَّة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين، والظَّلَمة الجائرين، فإن أخي نُصْرة الدين أعرفُ من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي الأمير قُطْب الدين مودود؛ متولِّي المَوْصِل، لما يرجعُ إليه من عقلٍ وسَدَاد، ودين وصحة اعتقاد. فحلفوا له، وأنفذ رُسَلَه إلى أخيه بإعلامه صورة الحال ليكون لها مستعداً. ثم تفضَّل الله تعالى بإبلاله من المرض وتزايد القوَّة في النفس والحس(٢)، وجلس للدخول إليه والسَّلام عليه. وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رَتَّبَ في الطرقات من يحفظ السَّالكين فيها، فظفر المقيمُ في مَنْبِج* برجلٍ حمَّال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولِّي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحمِّلها، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم؛ متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حُجَّابه، إلى أخيه نُصْرة الدين أمير أميران صاحب حَرَّان* بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لِتُسَلَّم إليه. فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها، فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين

---

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٥ وأعوان.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق»: والجسم.

عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين. وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جَعْبَر* يخبر بقطع نُصْرة الدين الفرات مُجِدًّا إلى دمشق، فأنهضَ أسدَ الدين في العسكر المنصور لردِّه ومنعه من الوصول، فاتَّصل به خبرُ عوده إلى مقرِّه عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسدُ الدين إلى دمشق، ووصلت رُسُلُ الملك العادل من ناحية المَوْصِل بجواب ما تحمَّلوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره، متوجِّهاً إلى ناحية دمشق، فلما فصل عن المَوْصل اتصل به خبر عافيته، فأقام بحيث هو، وأنفذ وزيره جمالَ الدين أبا جعفر محمد بن علي[1] لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زِيٍّ وأبهى تجمُّلٍ، وخرج إلى لقائه الخَلْقُ الكثير[2].

قال: وهذا الوزير قد ألهمه الله [تعالى][3] من جميل الأفعال وحميد الخلال[4]، وكرم النفس، وإنفاق أمواله في أبواب البِرِّ والصِّلات، والصدقات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السَّلام، ومكَّة ذات الحرم، والبيت المعظَّم، شرَّفه الله تعالى، ما قد شاع ذكره، وتضاعف عليه حمدُه وشُكْره. واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعد الإكرام له، وتوفيته حقَّه من الاحترام، وأَصْحَبَهُ برسم قطب الدين أخيه وخواصِّه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة، وتوجَّه معه الأمير أسد الدين[5].

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب[6] تلقَّاه

---

(١) سترد ترجمته ص ٤٢٠ من هذا الجزء.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: الأخلاق.

(٥) المصدر السابق: ٣٥٦.

(٦) في (ل) كتب فوقها بخط دقيق: صح.

موكب نور الدين، وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وأنزل في دار ابن الصوفي، وأُكرم غاية الإكرام، وأُعيد إلى صاحبه شاكراً عن نور الدين، ١/١٢٣ وسَيَّر معه الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً إلى قطب الدين بالشُّكْر له والثناء عليه، وأنفذت معه هدايا سَنِيَّة، فسار وعاد إلى حلب مُكرَّماً، فوجد نور الدين عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج في بلد حَوْرَان، فسار في صحابته، ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناسَ بالتجهُّز لقتال الفرنج، ثم أنهض[1] أسدَ الدين في قطعةٍ من العسكر للإغارة على بلد صيدا، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسرَ عالماً عظيماً، وغنم غنيمةً جليلة، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلتُ: وهذا هو ما تقدَّم ذكره بعد المرضة الأولى[2] وكأن ابن أبي طي جعل المرضتين واحدةً بحلب، وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق، وهو الأصح، والله أعلم.

فصل

قال أبو يعلى: كان قد وصل من ملك الرُّوم رسولٌ من معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعال[3]، وقوبل بمثل ذلك. وحكى عن ملك الفرنج ـ خذله الله ـ أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرَّرت؛ والمهادنة انعقدت، والله يردُّ بأس كل

(١) في (ل) و(م) أنهد، وكلاهما بمعنى. انظر «اللسان» (نهد).
(٢) انظر ص ٣٤٧ من هذا الجزء.
(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٦، وبغال، وهو تصحيف.

واحدٍ منهما إلى نحره، ويذيقه عاقبة غدره ومكره[1].

قال: ووردت أخبار من ناحية ملك الرُّوم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعاقل الإسلامية، فبادر نور الدين بالتوجُّه إلى البلاد الشَّامية لإيناس أهلها من استيحاشهم من شَرِّ الرُّوم والإفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فسار في العسكر صوب حمص وحماة وشَيْزَر*[2].

قال: وفي ثالث ربيع الأول[3] وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النِّيام وأزعجت اليقظى، وخاف كلُّ ذي مسكن مضطربٍ على نفسه وعلى مسكنه[4].

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هَبَّتْ ريح عاصفٌ شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثِّمار، صيفيَّها وشتويَّها، وأفسدت بعض الأشجار، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت[5].

قال: وتجدَّدَتْ المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم، بعد تكرر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأُجيب ملك الرُّوم إلى ما التمسه من إطلاق مقدَّمي الإفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم[6]. وقابل ملكُ الروم هذا الفضل بما يُضاهيه من الإتحاف بأثواب الدِّيباج الفاخرة، المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الدِّيباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية. ثم رحل عقيب ذلك

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق» ٣٥٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٧ في ليلة الأحد الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) انظر ص ١٩٦ من هذا الجزء.

في عساكره من منزله عائداً إلى بلاده مشكوراً محموداً ــ ولم يؤذ أحداً من المسلمين ــ في العشر الأوسط من جُمادى الأولى، فاطمأنَّتِ القلوب بعد انزعاجها وقلقها(١).

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قُطْب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدَّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والإفرنج سِماطاً عظيماً هائلاً تناهى فيه، وفَرَّق من الحُصُن العربية والخيول والبغال العددَ الكثير، ومن الخِلَع من أنواع الدِّيباج المختلف وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهوداً في الحُسْن والتجمُّلِ. واتفق أن جماعةً من غرباء التركمان وجدوا من النَّاس غفلة باشتغالهم بالسِّماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني سامة(٢) وغيرهم، واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في أثرهم فريقاً وافراً من العسكر، فأدركوهم واستخلصوا منهم جميعَ ما أخذوه، وأُعيد إلى أربابه(٣).

قال: وتقرَّرَ الرأي النُّوري على التوجه إلى مدينة حَرَّان* لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نُصْرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصَّلاح، فرحل في عسكره أول جمادى الآخرة فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرَّر الحال على أمانٍ(٤) من بها، وسلِّمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقُرِّرت أحوالها، وأُحسن النظر في أحوال

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٧ ــ ٣٥٨.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق»: أسامة، وهو تصحيف، وسامة هو ابن لؤي بن غالب، أحد أجداد العرب. انظر «جمهرة أنساب العرب»: ١٧٣، وما بعدها.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨ إيمان، وهو تصحيف.

أهلها، وسلَّمها للأمير زين الدين [عليّ][1] على سبيل الإقطاع، وفوَّض إليه تدبير أُمورها[2].

ثم دخلت سنة خمس وخمسين [وخمس مئة][3]

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بُزَان بن مامين؛ أحد مقدَّمي أمراء الأكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوفٌ بالشجاعة والبسالة والسَّماحة، مواظبٌ على بث الصِّلات والصَّدقات في المساكين والضعفاء والفقراء، مع الزمان في كلِّ عصر ينقضي وأوان، جميل المحيًّا، حسن البِشْر في اللِّقاء. وحمل من داره بباب الفراديس* إلى الجامع للصَّلاة، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه[4]، فدفن فيها في اليوم، ولم يخلُ من باكٍ عليه، ومُؤَبِّن له، ومتأسِّف على فقده؛ لجميل أفعاله وحميد خلاله[5].

قلتُ: وله أوقاف على أبواب[6] البر منه المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدَّد، والأُخرى قبالة

---

(١) ما بين حاصرتين من (ل)، وانظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) هي المدرسة المجاهدية البرانية، وتسمى الآن مسجد السادات المجاهدية، يقع في سوق العمارة الجوانية على باب العمارة، وهو ما كان يسمى بباب الفراديس قديماً. انظر «ثمار المقاصد»: ٢٢٣، و«منادمة الأطلال»: ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٩، وقد سلفت بعض أخباره في أثناء هذا الجزء.

(٦) في الأصل: وجوه، وكتب فوقها بخط دقيق: أبواب، وكأنه تصحيح لها، وهو المثبت في (ل) و (م).

١٢٤/١ [باب][1] دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين[2] رحمه الله تعالى. وله وقفٌ على من يقرأ السُّبع كلَّ يوم بمقصورة الخَضِر بجامع دمشق؛ وغير ذلك. وقد مدحه العَرْقَلَةُ[3] وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهلِّ صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القُرَشي[4]؛ قاضي دمشق، إلى الملك العادل نور الدين رقعةً يسأله فيها الإعفاء من القضاء، والاستبدال به، فأجاب سؤاله، وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين ابن الشَّهْرُزوري[5]؛ وهو المشهور بالتقدُّم ووفور العلم، وصفاء الفهم، والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنَّزاهة، وتجنُّب الهوى والظلم. واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه، على أن القضاء من بعض أدواته، واستقر أن يكون النائبَ عنه عند اشتغاله ولدُه[6].

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصَّدقة الجارية بعده على الفقراء كل يوم جمعة وإليه ينسب الشُّبَّاك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مُدَّة، ويصلُّون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى ههنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التَّميمي، فإنه آخر كتابه. وفي هذه السنة توفي رحمه الله تعالى[7].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وسيرد ذكره دار سيف ص ٤١٥ من هذا الجزء.

(٢) هي المدرسة المجاهدية الجوانية، انظر كشاف الأماكن.

(٣) انظر «ديوان عرقلة الكلبي» ٧٨ ــ ٨٠، وغيرها.

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ٧٣ من هذا الجزء.

(٥) سترد ترجمته ٤٢٦/٢ من هذا الكتاب.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٩ ــ ٣٦٠.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٨ من هذا الجزء.

قال ابن الأثير: وفي سنة خمس وخمسين توفي أمير المؤمنين المقتفي بن المستظهر، ومولده سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المُظَفَّر يوسف، ولقِّب المستنجد بالله. فأقَرَّ ابنَ هُبيرة[1] على وزارته[2].

قال: وفيها حَجَّ زين الدين عليٌّ وأحسن إلى النَّاس في طريق مكَّة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخِلْعة كانت طويلة، وكان قصيراً جداً، فمدَّ يده إلى كمراته[3] وأخرج ما شَدَّ به وسطه، وقصَّر الجُبَّة، فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم.

قلت: وفي هذه السنة توفي المستخلف بمصر، الملقَّب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ؛ وهو آخر خلفاء مصر. ووصل من الصَّالح بن رُزِّيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه:

هناءً بنعمى قَلَّ عن قَدْرِها الشُّكْرُ ... وصبراً لِرُزْءٍ لا يقومُ به الصَّبْرُ
مضى الفائز الطُّهر الإمام وقام بالْـ ... إمامة فينا بعدَه العاضِدُ الطُّهْرُ
إماما هُدًى، لله في نَقْلِ ذا إلى ... كرامته وفي إقامةِ ذا سِرٌّ
فعش أبداً واسلم لهم يا كفيلهم ... تدافعُ عنهم كلَّ حادثةٍ تَعْرُو[4]

---

(١) في هامش (ل): «حاشية: وكان الوزير ابن هبيرة رجلاً عالماً، صار صاحب قول في مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله».

(٢) انظر «الباهر»: ١١٤.

(٣) كمرات جمع، مفردها كمر كلمة فارسية تعني الحزام، وكان زين الدين يشد على وسطه كل ما يحتاج إليه. انظر «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» لدوزي (الترجمة العربية): ٣١٣ ــ ٣١٤، و «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» المجلد ٥٠/ ٤٨٨ و٢/ ٤٠ من هذا الكتاب.

(٤) لم أجد الأبيات في المطبوع من «ديوان أسامة».

ثم دخلت سنة ست وخمسين [وخمس مئة][1]

قال ابن أبـي طَيّ[2]: في هذه السنة حَـجَّ أسد الدين من الشَّام، وخرج في تجمُّلٍ[3] عظيمٍ وشارة رائعة، واستصحب معه من الأزواد والكُسَى أشياء عظيمة ويقال: إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب. وحَـجَّ علي كوجك المعروف بزين الدين من العراق، وحَـجَّ ملهم[4] أخو ضِرْغام وزير مصر، فكان الموسم[5] بهؤلاء الثلاثة كثيرَ الخير، واستغنى بسببهم أهلُ الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً، وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوماً عظيماً.

وقال أيضاً: فيها قُتل الصَّالـح بـن رُزِّيك بمصر[6]، وكان سبب قتله أن عَمَّة العاضد عملت على قتله، ونفَّذَت الأموال إلى الأمراء، فبلـغ ذلك الصَّالـح، فاستعاد الأموال، واحتاط على عمة العاضد. قال: وإنما كرهَتْهُ عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحِفْظِهِ للأموال، وقَتَلَ الصَّالـحُ بسببها جماعةً من الأمراء ونكبهم، وتمكَّن من الدولة تمكناً حسناً. ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقومٍ من السُّودان مالاً جزيلاً

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) في (م) الحلبـي.

(٣) في الأصل: محمل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في الأصل: معه، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقـم ٣ ص ٣٦٤ مـن هذا الجزء، وممن حـج أيضاً في هذا العام الأمير أسامة بن منقذ. انظر ص ٣٩٦ مـن هذا الجزء وص ٨٤ من الجزء الثاني.

(٥) في الأصل: الموكب، وعلى هامشه: الموسم، وكأنه تصحيح له، وهو المثبت في (ل) و (م).

(٦) سلفت بعض أخباره وأشعاره، وفي «كتاب «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» لعمارة اليمني أخبار وافية عنه، وله ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٧٣/١ ــ ١٨٥، و«وفيات الأعيان»: ٥٢٦/٢ ــ ٥٣٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٣٩٧/٢٠ ــ ٣٩٩، وانظر حاشيتنا رقـم ٣ ص ٣٧٥ مـن هذا الجزء.

حتى أوقعوا به الفعل: جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله، وسلَّم على العاضد، وخرج من عنده، فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصَّيحة، فعثر الصَّالح بأذياله، فطعنه أحدُهم بالسَّيف في ظاهر رقبته، فقطع أحد عمودي الرَّقبة، وحُمل إلى باب القصر، وأُصيب ولده رُزِّيك في كتفه. ولما حصل الصَّالح في داره أوصى ولده رُزِّيك، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل، ورَخُصَ سعر الشعر، وانخفض عَلَم العِلْم، وضاق فضاء الفضل، وعَمَّ رُزْءُ ابن رُزِّيك، وملك صَرْفُ الدَّهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ، منحوسة الجَدّ[1]، منكوسة الرَّاية، معكوسة الآية، إلى أن ملكها يوسفها الثاني[2]، وجعلها مغاني المعاني، وأنشر رميمها، وعطَّر نسيمها، وتسلَّم قصرها، والتزم خصرها[3]. قال زين الدين الواعظ[4]: عمل فارسُ المسلمين؛ أخو الصَّالح دعوةً في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلَّمها إلي:

١/١٢٥

أنستُ بكمْ دهراً فلما ظعنتُمُ اسْـ ـتَقَـرَّتْ بقلبـي وحشـةٌ للتفـرُّقِ

ومنها:

وأعجب شيءٍ أنَّني يـوم بَيْنِكُـمْ بقيتُ وقلبـي بين جنبيَّ مـا بقي

أرى البُعْـدَ مـا بيني وبين أحبَّتي كَبُعْدِ المدى ما بين غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

---

(١) كذا أعجمت الكلمتان في (ل) و(م)، وفي «الخريدة»، قرأها المحقق منحوسة الحظ، ثم غير الكلمة الثانية من عنده إلى «منسوخة الجد» مخالفاً أصله من دون نص يؤيده.

(٢) يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب.

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٧٤ ـ ١٧٥.

(٤) هو علي بن إبراهيم بن نجا، أبو الحسن، المعروف بابن نُجَيَّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة (٥٩٩ هـ) بمصر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في سنة وفاته. وهو الذي نَمَّ على عمارة اليمني وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنقهم صلاح الدين كما سيمر في ٢/ ٢٨٢، وانظر ٣/ ٢١٣، ٣٨٠.

ألا جدِّدي يا نفسُ وجداً وحسرةً   فهـذا فِـراقٌ بعـده ليسَ نلتـقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرَّة، وقُتل في شهر رمضان[1].

قلت: ولعُمارة اليمني ولغيره في الصالح مدائح ومراثٍ جليلة، وقد أثنى عليه كثيراً في كتاب «الوزراء المصرية» وقال: لم يكن مجلس أُنسه ينقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. قال: وكان مرتاضاً، قد شَمَّ أطراف المعارف، وتميَّز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحبُّ الأدب وأهله، يُكرم جليسه، ويبسُط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبيَّة في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السُّنَّة وسمع كلامهم[2].

قال: ودخلتُ عليه قبل أن يموت بثلاث ليال، وفي يده قرطاس قد كتبَ فيه بيتين من شعره عملهما في تلك السَّاعة، وهما:

نحنُ في غَفْلَةٍ ونومٍ وللمو   تِ عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ
قد رحلنا إلى الحِمام سنيناً   ليت شِعْري متى يكونُ الحِمامُ[3]

قال: ومن عجيب الاتِّفاق أني أنشدتُ ابنه مجد الإسلام في دار سعيد السُّعداء، ليلة السَّادس عشر من شهر رمضان، أو السَّابع عشر، قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدِّه   وأنت يمينٌ إن سطا وشِمالُ
لَرُتْبَتُهُ العُظْمى وإن طالَ عُمْرُه   إليكَ مصيرٌ واجبٌ ومآلُ
تخالسك اللَّحْظُ المصونُ ودونَها   حجابٌ شريفٌ لا انقضى وحجالُ

---

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٨٤.
(٢) انظر «النكت العصرية»: ٤٥، ٤٨.
(٣) «النكت العصرية»: ٤٨ ــ ٤٩.

قال: فانتقل المُلك بعد ثلاثٍ[1] إليه.

قال: ومما رثيته به ـ وإن [كان][2] كثيراً ـ قولي:

أفي أهل ذا النَّادي عليمٌ أسائِلُهْ ... فإني لما بي ذاهبُ اللُّبِّ[3] ذاهِلُهْ
سمعتُ حديثاً أَحْسُدُ الصُّمَّ عنده ... ويَذْهلُ واعِيْه ويَخْرَسُ قائِلُهْ
فقد رابني مِنْ شاهدِ الحال أنني ... أرى الدَّسْتَ منصوباً وما فيه كافِلُهْ
وأني أرى فوقَ الوجوه كآبةً ... تدُلُّ على أَنَّ الوجوه ثواكِلُهْ
دعوني فما هذا بوقتِ بكائه ... سيأتيكُمُ طَلُّ البكاءِ ووابِلُهْ
ولِمْ لا نبكِّيه ونندُبُ فَقْدَهُ ... وأولادُنا أيتامُهُ وأرامِلُهْ
فياليت شِعْري بعد حُسْن فَعَاله ... وقد غاب عَنَّا ما بنا الدَّهْرُ فاعِلُهْ
أَيُكْرَمُ مثوى ضيفكم وغريبكم ... فيسكن أم تُطْوى ببينٍ مراحِلُهْ[4]

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طَمَعُ المرءِ في الحياةِ غُرورُ ... وطويلُ الآمالِ فيها قصيرُ

ومنها:

ولكم قَدَّرَ الفتى فأتَتْهُ ... نُوَبٌ لم يُحِطْ بها التَّقْديرُ
فَضَّ ختمَ الحياةِ عنك حِمامٌ ... لا يراعي إذناً ولا يستشيرُ
ما تخطَّى إلى جلالِكَ إلا ... قَدَرٌ أمرُه علينا قديرُ
يا أميرَ الجيوشِ هل لك عِلْمٌ ... أَنَّ حَرَّ الأسى علينا أميرُ
إنَّ قبراً حَلَلْتَهُ لَغَنِيٌّ ... إنَّ دهراً فارَقْتَهُ لفقيرُ
انطوى ذلك البِساطُ وعَهْدي ... وهو بالعِلْمِ والنَّدَى مَعْمُورُ

---

(١) «النكت العصرية»: ٤٩.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٣) في (م) القلب.

(٤) «النكت العصرية»: ٥٠.

لا تـظنّ الأنـام أنـك مَـيْـتٌ | لـم يَـمُـتْ مَنْ ثـنـاؤه مَـنْـشُـورُ
إنْ مضى كـافـلٌ فهـذا كفيـلٌ | أو وزيـرٌ يـغِـبْ فـهـذا وزيـرُ
دولـة صـالـحيَّـةٌ خَـلفتْـهـا | دولـةٌ عـادليَّـة لا تـجـورُ
أَعْـقَبَ الـدَّهْـرُ بؤسَـه بنـعيمٍ | رُبَّ حُـزْنٍ في الطَّيِّ منه سـرورُ
١٢٦/١ مـا شَكَـوْنـا كَسْـرَ النَّـوائب حتى | قيل في الحالِ كَسْـرُكُـمْ مجبورُ
نَصَـرَ النَّـاصـر العُـلا بـالعـوالي | وَلَنِعْـمَ المـولـى ونِعْـمَ النَّـصِيْـرُ

وقال أيضاً يرثيه، ويذكر الظَّفَر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقَرافة، قصيدة طويلة، منها:

قد كنت أشرَقُ من ثِمَادِ مدامعي | أسفـاً فكيفَ وقـد طَمَى التَّيَّـارُ
عَمَّ الورى يوم الخميس وخَصَّني | خَـطْبٌ بأَنْفِ الـدَّهْـرِ منه صَغَـارُ
مـا أوحشَ الدُّنيـا غـديَّةَ فـارَقَتْ | قُـطْبـاً رحى الـدُّنيـا عليـه تُـدَارُ
خَـربَتْ ربوعُ المكـرمات لـواحـدٍ | عَمَـرَتْ بـه الأجـداثُ وهي قِفارُ
نَعْشُ الجـدودِ العـاثـراتِ مُشَيَّعٌ | عَشِيَتْ بـرؤيـةِ نَعْشِـهِ الأَبصـارُ
نعشٌ تَـوَدُّ بناتُ نَعْشٍ لـو غَدَتْ | ونـظامُـهـا أسفـاً عـليـه نِـثَـارُ
شَخَـصَ الأنـامُ إليه تحتَ جِنازةٍ | خُفِضَتْ لـرفعةِ قَـدْرِهـا الأقـدارُ
سـارَ الإمـامُ أمـامَهـا فَعَلِمْتُ أَنْ | قـد شَيَّعَتْهـا الخمسـةُ الأبـرارُ
ومشى الملوكُ بهـا حُفاةً بعـد مـا | حَـفَّتْ مـلائكـةٌ بهـا أطـهـارُ
فكـأنَّهـا تـابـوتُ مـوسى أُودِعَتْ | فـي جـانبيـه سكيـنـةٌ ووَقـارُ
لكنَّـه مـا ضَمَّ غيـرَ بقيَّـةِ الـ | إسلامِ وهْـو الصَّـالح المختـارُ
أَقْـطَنْتَـهُ دارَ الـوِزارةِ ريثـمـا | بُنيت لنقلتـه الكـريمـةِ دارُ
وتغـايـرَ الهَـرَمـان والحرمانِ في | تـابـوتـه وعلى الكـريمِ يُغـارُ
آثـرتَ مِصْراً منه بالشَّرف الذي | حَسَـدَتْ قـرافَتَهـا لـه الأمصـارُ
وَجَعَلْتَهـا أمنـاً بـه ومثـابـةً | تـرجـو مثـابةَ قَصْـدِهـا الـزُّوَّارُ

قــد قلتُ إذ نقلوه نقلةَ ظـاعنٍ ... نَــزَحَــتْ بــه دارٌ وشَطَّ مــزارُ
مـا كـان إلا السَّيفَ جَـدَّد غِمْـدَه ... بســواه وهْــو الصَّــارمُ الـبَتَّــارُ
والبَــدْرَ فــارق بُــرْجَــه متبــدِّلاً ... بُــرْجــاً بــه تـتشَعْشَـعُ الأنــوارُ
والـغيـثَ رَوَّى بَلْدَةً ثـم انتحـى ... أُخــرى فَنَــوْءُ سَحــابِــه مِــدْرَارُ
يـا مُسْبِـلَ الأستــار دون جـلالــه ... مــاذا الـذي رُفِعَتْ لــه الأستـارُ
مـالي أرى الـزُّوَّارَ بعـد مهابـةٍ ... فــوضــى ولا إذنٌ ولا استئـمــارُ
غَضِبَ الإلـه على رجالٍ أقـدَموا ... جهـلاً عليـك وآخــرينَ أشـاروا
لا تعجبا لِقُـدَارِ نـاقـةِ صـالـحٍ ... فلكـلِّ دَهْـرٍ نـاقـةٌ[1] وقُــدَارُ[2]
واخجلتـا للبِيضِ كيف تـطاوَلَتْ ... سَفَهـاً بأيـدي السُّودِ وهي قِصـارُ
واحَسْــرتـا كيف انفَــرَدْتَ لأَعْبُـدٍ ... وعبيــدُكَ الـسَّـاداتُ والأَحْــرارُ
رَصَدُوك في ضيقِ المجالِ بحيثُ لا الـ ... ــخَـطِّيُّ مـتَّسـعٌ ولا الـخَـطَّارُ
مـا كانَ أقصـر باعهم عن مثلها ... لــو كنتَ متــروكـاً ومـا تختـارُ
ولقــد ثَبَتَّ ثبـاتَ مُقْتَــدِرٍ علـى ... خِــذْلانهم لـو سـاعَـدَ المقـدارُ
وتعثَّـرَتْ أقـدامُهُمْ بــك هـيبــةً ... لـو لم يكن لك بـالـذُّيـول عِثَارُ
أُحْـلِلْتَ دارَ كــرامــةٍ لا تنـقضـي ... أبــداً وحَــلَّ بـقــاتـليـك بَــوَارُ
يا ليتَ عَيْنكَ شـاهَدَتْ أحـوالَهم ... من بعدِها ورأَتْ إلى مـا صاروا
وَقَـعَ القِصاصُ بهم وليسوا مَقْنعـاً ... يُــرْضي وأينَ من السَّمـاء غُبـارُ
ضـاقَتْ بهم سَعَةُ الفِجَاج وربما ... نــامَ الـعـدوُّ ولا يـنـامُ الـثَّـارُ
وتــوهَّـمــوا أن الـفِــرارَ مـطيَّـةٌ ... تنجي وأينَ مـن القَـضَـاءِ فِـرارُ
طاروا فمدَّ أبـو الشجاع لصيدِهم ... شَـرَكَ الـرَّدَى فكـأنَّهم مـا طـاروا ١/١٢٧
فتهنَّ بـالأجـرِ الجـزيـل ومِيْتَـةٍ ... دَرَجَـتْ عليهــا قَبْـلَكَ الأخيــارُ

---

(١) في هامش الأصل و (ل) خ صالح، وهي رواية (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٨ من هذا الجزء.

مـات الـوصيُّ بهـا وحمـزةُ عمُّـه ... وابنُ البتــولِ وجعفــرُ الـطَّيَّــارُ
نِلْتَ السَّعــادَةَ والشَّهــادَةَ والعُــلا ... حيًّـا ومَـيْـتــاً إنَّ ذا لَـفَــخــارُ
ولقــد أَقَــرَّ العينَ بـعــدَكَ أروعٌ ... لــولاه لم يـكُ للعُــلا اسْتِقْــرَارُ
النَّـاصِرُ الهـادي الـذي حَسَنـاتُـهُ ... عـن سـيِّئـاتِ زمـانـنـا أعــذَارُ
لمَّــا استقـامَ لحفظِ أُمَّــةِ أحمـدٍ ... عُمـرت بـه الأوطـانُ والأوطـارُ[1]

ثـم دخـلـت سنة سبـع وخمسين [وخمس مئة][2]

قال ابن الأثير: فيها جمـع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم* وحصرها، وجَدَّ في قتالها، فامتنعت عليه؛ لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنـج وشُجعانهم، واجتمـع الفرنـج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحِّلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافَّ، فلم يجيبـوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطَّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده. وممن كان معه في هذه الغَزَاة الأمير مُـؤَيَّد الدولة أسامة بن مُرْشد بن مُنْقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج؛ فلما دخله عامئذٍ كتب على حائطه:

لك الحمدُ يا مولاي كم لك مِنَّةٍ ... عليَّ وفَضْلٍ لا يحيطُ به شُكْـري
نَزَلْتُ بهذا المسجـد العامَ قـافلاً ... من الغَزْوِ موفورَ النَّصيبِ من الأَجْرِ
ومنه رَحَلْتُ[3] العِيس في عاميَ الذي ... مضى نحوبيت الله ذي الرُّكْن والحِجْرِ[4]
فأدَّيْتُ مَفْروضي وأسقطتُ ثقل ما ... تحمَّلْتُ من وِزْرِ الشَّبيبة عن ظَهْري[5]

---

(١) وردت بعض أبيات من القصيدة في «النكت العصرية»: ٦٣ ـ ٦٥. مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٣) في (م) دخلت.
(٤) في (م) مضى نحو بيت الله والركن والحجر.
(٥) انظر «الباهر»: ١١٦.

قلتُ: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضاً بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها، فكتب على لوحٍ من رُخام:

احذرْ من الدُّنيا ولا تغترّ بالعُمْرِ القصيرِ
وانظرْ إلى آثارِ مَنْ صَرَعَتْهُ منَّا بالغُرورِ
عمروا وشادوا ما ترا هُ من المنازلِ والقُصُورِ
وتحوَّلوا من بعد سُكْ ناها إلى سُكْنى القُبُورِ[1]

قلت[2]: ابنُ أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل صاحب صور، ويلقَّب عين الدَّولة، مات سنة خمسٍ وستين وأربع مئة، واستولى على صور ابنه النَّفيس[2].

ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين [وخمس مئة][3]

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد*، وهو للفرنج، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلْبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رِجْله شِبْحة[4]، فنزل

(١) «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٨١.
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) هي التي تربط بها يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٧١٩/١، و«معجم متن اللغة»: ٢٦٦/٣.

إنسانٌ من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلَّفي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوقة والغِلْمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام، ونصبها على بحيرة قَدَس* على فرسخٍ من حمص، وبينها وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً. ولما نزل على بحيرة قَدَس اجتمع إليه كلُّ من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُّ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري. ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدَّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر، وفرَّق ذلك جميعه على من سَلِمَ، وأما من قُتل[1] فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله. فعاد العسكر كأنَّه لم يُفقد منه أحد.

١٢٨/١

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة؛ لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوَّة أن يمنعنا.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر الخرج إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مئتي ألف دينار، سوى غيرها من الدوابِّ والخيام والسِّلاح وغير ذلك. وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند، ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أُخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادَّعى شيئاً كثيراً

(١) في «الباهر»: وأما من قتل أو أسر.

علم بعضُ النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه. فأعاد الجواب: لا تكدِّروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدراراتٍ كثيرةً وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُّوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل. فغضب من هذا وقال: والله[1] إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، «فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم»[2]. كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهامٍ لا تخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيبٌ في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها[3]، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا[4].

قلتُ: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد* يقول أبو الفرج

---

(1) في (ل) إني والله.

(2) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذا حديث حسن صحيح، أورده الترمذي عن أبي الدرداء، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: أبغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون أو تنصرون بضعفائكم. وأخرج النسائي من حديث سعد عن النبي ﷺ قال: إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم. وفي «صحيح البخاري» عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم. والله أعلم».

قلت: حديث أبي الدرداء عند الترمذي في «جامعه» (١٧٠٢)، وحديث سعد عند النسائي في «المجتبى» (٣١٧٨) وعند البخاري في «صحيحه» (٢٨٩٦).

(3) إليها: ليست في (م).

(4) انظر «الباهر»: ١١٦ ـ ١١٨.

عبد الله بن أسعد[1] المَوْصلي نزيل حمص، من جُملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله[2] تعالى، أوَّلها:

ظُبى المواضي وأطرافُ القَنا الذُّبُلِ ... ضوامِنٌ لك ما حازوه من نَفَلِ[3]

وكافِلٌ لك كافٍ ما تحاوِلُه ... عِزٌّ وعزمٌ وبأسٌ غير مُنْتَحَلِ[4]

وما يَعِيْبُكَ ما حازوه[5] من سَلَبٍ ... بالخَتْلِ قد تُؤسر[6] الآسادُ بالحِيَلِ

وإنَّما أَخْلَدُوا جُبْناً إلى خُدَعٍ ... إذْ لم يكن لهمُ بالجيشِ من قِبَلِ

واستيقظوا وأرادَ اللَّهُ غفلتَكُمْ ... لِيَنْفُذَ القَدَرُ المحتومُ في الأَزَلِ

حتى أتوكم ولا الماذيُّ[7] من أَمَمٍ ... ولا الظُّبى كَثَبٌ من مُرْهَقٍ عَجِلِ

قَناً لَقًى وقِسِيٌّ غيرُ مُوتَرَةٍ ... والخيلُ عازبة تَرْعَى مع الهَمَلِ[8]

ما يصنَعُ اللَّيثُ لا نابٌ ولا ظُفُرٌ ... بما حوالَيْهِ من عُفْرٍ ومن وُعُلِ

هلَّا وقد رَكِبَ الأُسْدُ الصُّقورَ وقد ... سلُّوا الظُّبى تحتَ غاباتٍ من الأَسَلِ

وإنَّما هُمْ أضاعوا حَزْمَهُمْ ثِقَةً ... بِجَمْعِهِمْ ولَكَمْ من واثقٍ خَجِلِ

بني الأَصافِرِ[9] ما نِلْتُم بمكْرِكُمُ ... والمَكْرُ في كلِّ إنسانٍ أَخُو الفَشَلِ

وما رَجَعْتُم بأَسْرى خابَ سَعْيُكُمُ ... غيرَ الأراذِلِ[10] والأتباع والسَّفَلِ

---

(١) في الأصل أبو الفرج أبو عبيد الله، وفي (ل) عبيد الله، والمثبت من (م) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٠٢ من هذا الجزء.

(٢) في (م) رحمهما الله.

(٣) في (ل) ثَقَل.

(٤) في (ل) و(م) منتقل، وعلى هامش (ل) خ منتحل.

(٥) في «الديوان» و«الخريدة»: ما نالوه.

(٦) في «الديوان» و«الخريدة» توتر.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٤ من هذا الجزء.

(٨) في «الخريدة» الحمل.

(٩) في «الديوان»: بني الأصيفر.

(١٠) في «الديوان» الأصاغر.

سَلَبْتُمُ الجُرْدَ مُعْراةً[1] بلا لُجُمٍ ... والسُّمْرَ مَرْكُوزةً والبيضَ في الخِلَلِ

هل آخذُ الخيلِ قد أَرْدَى فوارِسَها ... مثالُ آخذِها في الشَّكْلِ والطِّوَلِ

أم سالِبُ الرُّمْحِ مركوزاً كسالبه ... والحربُ دائرةٌ من كفِّ مُعْتَقِلِ

جيشٌ أصابَتْهُمُ عَيْنُ الكمالِ وما ... يَخْلُو من العين إلَّا غيرُ مُكْتَمِلِ

لهم بيومِ حُنَيْنٍ أُسوةٌ وهمُ ... خَيْرُ الأنامِ وفيهم خاتَمُ الرُّسُلِ

سَيَقْتَضِيكمْ بِضَرْبٍ عند أَهْوَنِهِ ... البيضُ كالبيضِ والأَدْرَاعُ كالحُلَلِ

مَلْكٌ بعيدٌ من الأَدْناسِ ذو كَلَفٍ ... بالصِّدْقِ في القولِ والإخلاصِ في العَمَلِ

ومنها:

فالسُّمْرُ[2] ما أصبحَتْ والشَّمْسُ ما أَفَلَتْ ... والسَّيفُ ما فُلَّ والأَطْوادُ لم تَزُلِ

كَمْ قد تجلَّتْ بنورِ الدين من ظُلَمٍ ... للظُّلْمِ وإنجاب للإضلال من ظُلَلِ

قُلْ لِلْمُوَلِّين كُفُّوا الطَّرْفَ من جُبُنٍ ... عند اللِّقاءِ وغضُّوا الطَّرْفَ من خَجَلِ

طَلَبْتُمُ السَّهْلَ تَبْغُونَ النجاةَ ولو ... لُذْتُمْ بمَلْكِكُمُ لُذْتُمْ إلى جَبَلِ

أَسْلَمْتُموه وَوَلَّيتُمْ فَسَلَّمَكُمْ[3] ... بِثَبْتَةٍ لو[4] بَغَاها الطَّوْدُ لم يَنَلِ ١٢٩/١

فقامَ فَرْداً وقد ولَّتْ جَحافِلُه ... فكانَ من نَفْسِهِ في جَحْفَلٍ زَجِلِ

في مَشْهَدٍ لو لُيوثُ الغِيلِ تَشْهَدُهُ ... خَرَّتْ لأذقانِها من شِدَّةِ الوَهَلِ[5]

وَسْطَ العِدَى وحدَه ثَبْتَ الجَنانِ وقد ... طارَتْ قلوبٌ على بُعْدٍ من الوَجَلِ[6]

يَعُودُ عنهم رُوَيْداً غيرَ مُكْتَرِثٍ ... بهم وقد كَرَّ فيهم غيرَ مُحْتَفِلِ

يَزْدَادُ قُدْماً إليهم من تَيَقُّنِهِ ... أَنَّ التَّأَخُّرَ لا يَحْمِي[7] من الأَجَلِ

---

(١) في (م) أعراء.

(٢) في «الخريدة» فالشمس، وإخالها تصحيفاً.

(٣) في الأصل و(ل) فأسلمكم، والمثبت من (م) و«الديوان» و «الخريدة».

(٤) في (م) أو.

(٥) في «الديوان» الوجل.

(٦) في «الديوان» الوهل.

(٧) في (ل) لا ينجي.

ما كان أَقـربهم من أَسْرِ أَبْعَـدِكُمْ لو أَنَّهم لم يكونوا منه[1] في شُغُلِ
ثبـاتُهُ في صُـدُورِ الخيل أَنْقَـذَكُمْ لا تَحْسِبوا وَثَبَاتِ الضُّمَّـر الذُّلُـلِ
ما كل حينٍ تُصابُ الأُسْدُ غـافلةً ولايُصيبُ الشَّديدَ البَطْشِ ذوالشَّلَلِ [2]
والله عَـوْنُـك فيمـا أنتَ مُـزْمِعُـهُ كمـا أعـانـك في أَيَّـامِـكَ الأُوَلِ
كم قد ملكتَ لهم مُلْكاً بلا عِوَضٍ وحُـزْت من بَلَدٍ منهـا بـلا بَـدَلِ
وكـم سَقَيْتَ العَوَالي من طُلَى مَلِكٍ وكم قَرَيْتَ العَوَافي من قَرا بَطَلِ
لَا نكَّبَتْ سَهْمَكَ الأقدارُ عن غَرَضٍ ولا ثَنَتْ يدَكَ الأيامُ عن أَمَـلِ [3]

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:

غيري بأكثر هذا النَّاس ينخدعُ ـ القصيدة[4]

فإنَّ كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون، وقد أحسنا معاً، عفا الله عنهما.

وعبد الله بن أسعد[5] هذا فقيه فاضل وشاعر مُفْلِق، كان مدرِّساً بحمص يعرف بابن الدَّهَّان، وله ترجمة في «تاريخ دمشق»[6]. وقد ذكره العماد

---

(١) في «الديوان»: عنه.
(٢) فـي هامش نسخة (ل): لو قال:
بعض الأحايين تلقى الأسد غافلة وقد يصيب القويَّ البطش ذو الشلل.
لكان أقرب إلى المراد. نبه عليه محمد البُصروي.
(٣) القصيدة بتمامها في «ديوان ابن الدهان»: ٧٠ ــ ٧٧، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢٨٩ ــ ٢٩٢، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٨/٥٢٠أ ــ ٥٢١أ.
(٤) انظر «ديوان المتنبي» بشرح أبي البقاء العكبري: ٢/٢٢١ ــ ٢٣٤.
(٥) في الأصل: عبيد الله بن أسعد، وفي (ل) عبيد بن أسعد، والمثبت من (م) وهو ما ذكرته مصادر ترجمته.
(٦) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٨/٥٢٠أ ــ ٥٢١/ب.

الكاتب في «خريدته»[1]، فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضاً في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين، وست وسبعين، وثمان وسبعين، إن شاء الله تعالى[2].

وفي هذه السنة ـ أعني سنةَ ثمانٍ وخمسين ـ توفي عبد المؤمن بن علي؛ خليفة المهدي محمد بن تُومَرْت؛ صاحب المغرب، وولي بعده ابنُه يوسف[3].

ثم دخلت سنة تسع وخمسين [وخمس مئة][4]

ففيها سار أسد الدين شِيركُوه بن شاذي إلى مصر المرَّة الأولى؛ وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النُّورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية.

وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب ـ وهو الأكبر ـ ابنا شاذي، من بلد دُوِيْن؛ وهي بلدةٌ من آخر بلاد أَذْرَبِيجَان مما يلي الرُّوم، وأصلهما من الأكراد الرَّوَادِية[5]؛ وهذا القبيل من أشرف[6] الأكراد، وقدما العراق، وخدما

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٩٤، وانظر ترجمته أيضاً في «وفيات الأعيان»: ٣/ ٥٧ ـ ٦١، و«سير أعلام النبلاء» ٢١/ ١٧٦ ـ ١٧٧، وقد حقق ديوانه، وأعد تكملته عبد الله الجبوري، وطبع في بغداد سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. وكانت وفاة ابن أسعد سنة (٥٨١ هـ) على أصح الأقوال كما سيأتي ٣/ ٢٤٧ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ٢/ ٣٥٥، ٣/ ٥٧، ١١١، ٢٤٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر عن ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، ويوسف بن علي كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»: ١٧٨ وما بعدها.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٥) بطن من الهَذَبانية، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٣٩.

(٦) في (ل) و(م) هو أشرف.

مجاهد الدينِ بِهْرُوز الخادم[1]، وهو شِحنة* العراق، فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحُسْنَ سيرةٍ فجعله دُزْدَاراً* بتَكْريت*، وهي لـه، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلما انهزم أتابك زَنْكي الشهيد؛ والد نور الدين، بالعراق من قراجة السَّاقي؛ وهو أتابك داود بن السُّلْطان محمود[2]، وذلك زمن المسترشد بالله، سنة ستٍّ وعشرين وخمس مئة، وصل إلى تَكْريت، فخدَمهُ نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دِجْلَة هناك، وتبعَهُ أصحابـه، فأحسن نجم الـدين صُحْبتهم وسيَّرهم. ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بِتَكْريت* لملاحاةٍ جَرَت بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين، فأخرجهما من تَكْريت[3].

وقيل: إن أيوب كان يحسن الرِّماية، فرمى شخصاً من مماليك بِهْرُوز بسهمٍ فقتله، فخشي على نفسه، فتوجَّه نحو الشام وخدم مـع زَنْكي. وقيل:

---

(١) في هامش الأصل «حاشية، قال المؤلف: في «تاريـخ ابن الدبيثي» بهروز بن عبد الله أبو الحسن، الخادم الأبيض الملقب مجاهد الدين، مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي، ولي الإمارة بالعراق نيفاً وثلاثين سنة، وبنى رباطاً للصوفية على دجلة عند سوق المدرسة النظامية، ورباطاً آخر للخدم أعلى البلد، وعمر النهروان، وأجرى فيه الماء بعد أن كان قد خرب سنين، وكان حسن السيرة، توفي ببغداد في رجب سنة أربعين وخمس مئة، ودفن برباط الخدم الذي أنشأه بعد أن صُلِّيَ عليه بجامـع السلطان بظاهر البلد، والله أعلم». قلت: انظر «المختصر المحتاج إليه من تاريـخ الدبيثي»: ١/ ٢٦٥ وبهروز: بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء، وضم الراء، وسكون الواو وبعدها زاي، وهو لفظ أعجمي، معناه: يوم جيـد على التقديم والتأخير على عادة كلام العجم. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٤٢، وانظر ٢/ ٢٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) في «الكامل»: ١٠/ ٦٧٥، أن قراجة الساقي هو أتابك الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد.

(٣) انظر «الباهر»: ١١٩.

لما قَتَلَ أسدُ الدين شيركُوه النَّصْراني ـ وكان عزيزاً عند بِهْرُوز ـ هرب إلى المَوْصِل، والتحق أيوب به. وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمانٍ وستين[1].

ثم إن أيوب وشِيركُوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وصارا من جُمْلة جُنْده. فلما فتح حصن بَعْلَبَك جعل نجم الدين دُزْداراً* فيه. فلما قُتل الشهيد حَصر عسكرُ دمشق نجمَ الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي ـ وقد قام بالملك بعد والده ـ يُنْهي الحال إليه، فلم يتفرَّغ لبعلبك، وضاق الأمر على من بها، وخاف نجمُ الدين أن تؤخذ عَنْوَةً ويناله أذًى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأُجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه، وسَلَّم القلعة، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع[2] والتقدُّم، وصار عنده من أكابر الأمراء[3].

واتصل أخوه أسد الدين شِيركُوه بالخدمة النُّورية بعد قتل الشَّهيد ـ وكان يخدمه في أيام والده ـ فقرَّبه نور الدين وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجزُ عنها غيرُه لشجاعته وجُرْأته، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى صارت له حمص والرَّحبة* وغيرهما؛ وجعله مقدَّم عسكره. ١/١٣٠

فلما تعلَّقت الهمة النُّورية بملك دمشق أمر أسدَ الدين، فراسل أخاه نجم الدين ـ وهو بها ـ في ذلك، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يُرادُ منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لمَّا ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل، لاسيِّما نجم الدين، فإن

---

(١) انظر ٢/٢٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) في (م) بما حلف عليه له من الإقطاع.

(٣) انظر ص ١٧٤ من هذا الجزء.

جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك، إلَّا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يُؤمر بذلك.

فلما كان سنة تسعٍ وخمسين عزم[1] نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم[2] ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين، فَسَيَّره[3].

وكان سببُ ذلك أن شاوَرَ بن مُجير أبا شجاع السَّعْدي[4]، وهو الملقَّب أمير الجيوش الذي يقول فيه عُمارة من جُمْلَة قصيدة:

ضَجِرَ الحديدُ من الحديد وشاوَرٌ   في نَصْرِ آلِ محمدٍ لم يَضْجَرِ
حلَفَ الزَّمان ليأتينَّ بمثله   حَنِثَتْ يمينُك يا زَمانُ فَكَفِّرِ[5]

وهو وزير الملقَّب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين[6] بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمانٍ وخمسين [في][7] سادس ربيع الأول، إلى نور الدين مستنجداً به على من أخذَ منه منصبَه قهراً.

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب وعجز صاحبُ المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقَّعوا للقاهر منهم ورتَّبوه ومكَّنوه، فإن قوَّتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم، وهو الملقَّب عندهم بالسُّلْطان، وما كانوا يرون المكاشفة[8]، وأغراضهم مستتبَّة وقواعدهم مستقرَّة من أول زمانهم على هذا المثال.

وكان شاوَرُ قد غلب على الوزارة، وانتزعها من بني رُزِّيك، وقَتَلَ

---

(1) في (م) وعزم.
(2) في (م) لم.
(3) انظر «الباهر»: ۱۱۹ ــ ۱۲۰.
(٤) انظر نسبه في «وفيات الأعيان»: ٤٣٩/٢.
(٥) انظر «النكت العصرية»: ۷۳.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ۲ ص ۲۲٦ من هذا الجزء.
(۷) ما بين حاصرتين من (ل).
(۸) في الأصل و(ل) الكاشفة، والمثبت من (م). وانظر «النوادر السلطانية»: ٣٦.

العادلَ بن الصَّالح بن رُزِّيك الذي وزر بعد أبيه، [واسمُه][1] رُزِّيك، ويلقب بالنَّاصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي من الإسكندرية، واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش، على ما ذكره عُمارة اليمني في كتاب «الوزراء المصرية». وقال: غرس منه للدولة، بل للملَّة، شجرةً مباركة متزايدة النماء، أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء[2].

ثم خرج على شاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضِرْغام بن سِوَار ويلقب[3] بالمنصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبَل، فغلبه وأخرجَهُ من القاهرة وقَتَلَ ولدَه طيئاً، واستولى على الوزارة.

فرحل شاوَر إلى الشَّام قاصداً خدمة نور الدين، مستصرخاً به ومستنصراً، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعودَ إليها، ويكون له فيها حصَّة ـ ذكرها له ـ ويتصرَّف على أمره ونَهْيه واختياره. ونور الدين يُقدِّم في ذلك رجلاً ويؤخِّر أُخرى، تارةً تحملُه رعاية قصد شاور وطلب الزِّيادة في الملك والتقوِّي على الفرنج، وتارةً يمنعه خطرُ الطَّريق وكون الفرنج فيه، إلا أن يوغلوا في البرِّ فيتعرَّضُوا لخطرٍ آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً. ثم استخار الله تعالى، وأمر أسد الدين بالتجهُّزِ للمسير معه قضاءً لحق الوافد المستصرخ، وجساً للبلاد، وتطلعاً على أحوالها. وكان هوى أسد الدين في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يُبالي بمخافة. فتجهَّزَ وسار مع شاوَر في جُمادى الآخرة[4] من سنة تسعٍ وخمسين. هكذا ذكر ابنُ الأثير، والعماد الكاتب[5]. وقال القاضي

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) «النكت العصرية»: ٥٤.

(٣) في (م) وتلقب.

(٤) عند ابن الأثير والعماد الكاتب: جمادى الأولى.

(٥) انظر «الباهر»: ١٢٠ ـ ١٢١، و«الكامل»: ١١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، «وسنا البرق الشامي» ١/ ٦٠.

ابن شدَّاد: كان ذلك سنة ثمانٍ وخمسين[1]، والقول في ذلك قولهما، فقد بيَّنا أنَّ قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين، وإرسالَ نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين.

قالوا: وأمر نورُ الدين أسدَ الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة. وساروا جميعاً، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره لِيَشْغَلَهُمْ عن التعرُّض لأسد الدين، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسدُ الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه، فهرب المنازع لشاوَر في الوزارة، وقُتل، وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً وتمكَّن من منصبه[2].

وكان عُمارة قد مدح ضِرْغاماً بقصيدةٍ منها:

وأحقُّ من وَزَرَ الخلافةَ مَنْ نشا ... في حَضْرَةِ الإكرامِ والإجلالِ
واختصَّ بالخُلَفاءِ وانكشَفَتْ له ... أسرارُها بقرائنِ الأحوالِ
وتصرَّفَ الوزراءُ عن آرائه ... كتصرُّفِ الأسماءِ بالأفْعالِ[3]

قال عُمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج، وكنت أسكنُ صَفَّ الخليج بالقاهرة، قلتُ ارتجالاً:

أرى حَنَكَ الوزارة صار سيفاً ... يَجُذُّ بحدِّه صِيد الرِّقابِ
كأنَّك رائدُ البلوى وإلا ... بشيرٌ بالمنيَّةِ والمُصَابِ[4]

١٣١/١ ولعُمارة اليمني من قصيدةٍ مدح بها شاور، وذكر وزارتيه:

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٦.
(٢) انظر «الباهر»: ١٢١، و«الكامل»: ٢٩٩/١١.
(٣) «النكت العصرية»: ٧٦.
(٤) «النكت العصرية»: ٧٧.

فنُصرتَ[1] في الأولى بضربٍ[2] زَلْزَلَ الـ ... أقدامَ وهْي شَديدةُ الإقدامِ
ونُصرتَ في الأخرى بضربٍ صادقٍ ... أضحى يطيرُ به غُرابُ الهَامِ[3]
أدركت ثأراً وارتجعتَ وزارةً ... نزعاً بِسَيْفِك من يَدَيْ ضِرْغامِ[4]

وكان ضِرْغامُ أولاً من أصحاب شاور وأتباعه، وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله من قصيدةٍ له:

كانت وزارتُك القديمةُ مَشْرَعاً ... صَفْواً ولكنْ كُدِّرَتْ غُدْرَانُها
غَصَبَتْ رجالٌ تاجَه وسريره ... مِنْ بَعْدِ ما سَجَدَتْ له تِيْجانُها[5]

وله من قصيدةٍ أُخرى في شاور:

وزيرٌ تَمَنَّتْهُ الوزارةُ أولاً ... وثانيةً عفواً بغير طِلابِ
فخانته في الأُولى بطانةُ ودِّه ... وربَّ حبيبٍ في قميصِ حُبابِ[6]
وجاءته تبغي الصُّلْح ثانيَ مَرَّةٍ ... فلم يرضَ إلا بعد ضَرْبِ رِقابِ

ولم يُغلب وزيرٌ لهم وعاد غير شاور. وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مُدَّة الحمل. نَصَّ عُمارة على ذلك، وقال: قُتل ولدُه طيّ يوم الجمعة الثامن[7] والعشرين من رمضان، وجاز رأسُه على رُمْحٍ تحت الطِّيقان، والنِّساء يولولن بالصُّراخ، وكان فيهن واحدةٌ تحفظ قولي في الصَّالح:

---

(١) في الأصل و(م): ونصرت، والمثبت من (ل).
(٢) في «النكت العصرية» برعب.
(٣) في هامش الأصل: بلغ.
(٤) «النكت العصرية»: ٨٩.
(٥) «النكت العصرية»: ٨٤.
(٦) الحباب: الحية، والحباب: شيطان. انظر «اللسان» (حبب).
(٧) في (م) الثاني، وهو تحريف.

أيُنْسَى وفي العينينِ صورةُ وَجْهِهِ الـ ـكريمِ وعَهْدُ الإنتقالِ قَرِيْبُ

فما زالت تكرِّره[1] حتى رأت رأس ضِرْغام[2].

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جُمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر[3].

قال: وقلتُ في ذلك:

وَنَزَعْتَ مُلْكَكَ مِنْ رجالٍ نازَعُوا فيه وكُنْتَ به أَحَقَّ وأَقْعَدا

جَذبوا رِدَاءك غاصبين فلم تَزَلْ حتى كَسَوْتَ القَوْمَ أرديةَ الرَّدَى

وبردْتَ قَلْبَكَ من حَرارة حُرْقَةٍ أَمَرَتْ نسيمَ اللَّيلِ ألاّ يَبْرَدا[4]

تاريخُ هذا[5] نِلْتَهُ في مِثْله يوماً بيومٍ عبرةً لمن اهتدى

حَملتْ به الأيامُ تسعةَ أَشْهُرٍ حتى جَعَلْنَ له جُمادى مَوْلدا[6]

وله فيه أيضاً في ذلك:

لله درُّك موتوراً أَقَضَّ به دَسْتٌ وسَرْجٌ[7] وأجفانٌ ومُضْطَجَعُ

ما غِبتَ إلا يسيراً ثم لُحْتَ لنا والثَّأْرُ مُسْتَدْرَكٌ والمُلكُ مُرْتَجَعُ

قَضيَّة لم يَنَلْ منها ابنُ ذي يَزَنٍ إلا كما نِلْتَ والآثارُ تُتَّبَعُ

فافَخَرْ على الحيِّ من قَيْسٍ ومن يَمَنٍ أبا شُجاعٍ فليسَ الحقُّ يَنْدَفِعُ[8]

---

(١) في الأصل: مكررة، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) «النكت العصرية»: ١٢٩.

(٣) «النكت العصرية»: ٨١.

(٤) في (م) تبردا.

(٥) في «النكت» تأريخ دين.

(٦) «النكت العصرية»: ٨١.

(٧) في الأصل سرج ودست، والمثبت من (ل) و(م) و«النكت العصرية».

(٨) «النكت العصرية»: ٨٥.

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قَـرَّره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً. وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشَّام، فأَنِف أسدُ الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقرَّ، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوَّابه فتسلَّموا مدينـة بِلْبِيـس* ، وحكم على البلاد الشَّرْقية، فأرسل شاور إلى الفرنـج يستمدُّهم ويخوِّفهم من نور الدين إن ملَك مصر. وكان الفرنـج قد أيقنوا بالهلاك إنْ ملَكها نور الدين، فهم خائفون. فلما أرسل شاوَر إليهم يستنجدهم ويطلبُ منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فَرَجٌ لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته، والمبادرة إلى نُصْرته، وطمِعُوا في ملك ديار مصر. وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهَّزوا وساروا. فلما بلـغ نور الدين خَبَرُ تجهُّزهم للمسير[1] سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنـج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا؛ لعلمهم أن الخطر في مُقامهم إذا ملَك أسدُ الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم. فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملكُ القُدْس[2] في الباقين إلى مصر. وكان قد وصل إلى السَّاحل جمـعٌ كثير من الفرنـج في البحر لزيارة البيت المقدَّس، فاستعانَ بهم ملك الإفرنـج، فأعانوه، وسار بعضُهم معه، وأقام بعض في البلاد يحفَظُها.

فلما قارب الفرنـجُ مصر فارقَها أسدُ الدين وقصد مدينة بِلْبيس، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصَّن به، فـاجتمعت العساكـر المصريـة ١٣٢/١ والفرنجية، ونازلوا أسدَ الدين بمدينة بِلْبيس، وحصروه بها ثلاثة أشهر، وقد امتنـع أسدُ الدين بها وسورُهـا من طين، قصير جـداً، وليس له خنـدق

(١) في (ل) إليه.

(٢) هو الملك Amalric وتسميه المراجع أيضاً: أموري أو عموري أو مري. انظر كشاف الأعلام.

ولا فصيل[1] يحميها، وهو يُغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً، فبينا هم كذلك إذ أتاهم الخبرُ بهزيمة الفرنـج بحارِم*، وملك نور الدين الحصن، ومسيره إلى بانياس*. فحينئذ سُقط في أيديهم، وأرادوا العودَ إلى البلاد[2] ليحفظوها، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يُدْركوها إلا وقد ملكها، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[3]. وراسلوا أسد الدين في الصُّلْح، والعود إلى الشَّام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك، لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنـج في السَّاحل[4].

قال ابنُ الأثير: فحدَّثني من رأى أسد الدين حين خرج من بِلْبيس*، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لَتٌّ[5] من حديدٍ يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنـج ينظرون قال: فأتاه فرنـجي من الفرنـج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنـج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى لك معهم بقية! فقال شِيركُوه: يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثلَه، كنتُ والله أضـع سيفي، فلا أُقتَل حتى أقتُل رجالاً، وحينئذ يقصدُهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم، فيملك بلادَهم، ويُفْني من بقي منهم، ووالله لو أطاعني هؤلاء ـ يعني أصحابَه ـ لخرجتُ إليكم أولَ يوم، لكنهم امتنعوا، فَصَلَّب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنـج هذه الديار ومبالغتهم في

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٦ من هذا الجزء.
(٢) في (م) بلادهم.
(٣) انظر ص ٤٣٧ من هذا الجزء.
(٤) انظر «الباهر»: ١٢١ ـ ١٢٢، و«الكامل»: ١١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.
(٥) الفأس العظيمة، وهي فارسية معربة. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٤١.

صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه، وسار شِيركُوه إلى الشَّام وعاد سالماً[1].

وقال العماد الكاتب: وصل شاوَر إلى نور الدين ملتجئاً، فألفاه على عدوه معدياً مشكياً، وسيَّر معه أسد الدين على قرارٍ عَيَّنه، وأمرٍ بَيَّنه، وبُغيةٍ يدركها، وخطَّةٍ يملكها، ومَحجَّةٍ واضحة في الملك يسلكها. فمضى معه ونَصَرَه، وأصفَى له مَشْرَعَه، واستردَّ له موضعَهُ، وأظهره بعلوِّه، وأظفره بعدوِّه، فلما باد خصمه، بدا وصمه، وغدر بعهده، وأخلف في وعده. وكان قد رَاسل الفرنج وهَدَاهم في حرب الإسلام، فوصلوا، فتحصَّن شِيركُوه ومن معه بمدينة بِلْبيس*، فحاصَره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر، من مستهلِّ رمضان إلى ذي الحِجَّة، فبذلوا له قطيعةً فانصرف عنهم، وعاد إلى الشَّام وفي قلبه من شرِّ شاور الإحن، وكيف تمَّت بغدره تلك المِحَن[2].

قلتُ: وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله في مدح شاورَ، وذكر الإفرنج، فقال:

وأنقذتَ من مصرٍ عدوًّا بمثله	فلله من ظُفْرٍ فَلَلْتَ وناب
صَدَمْتَ جُموعَ الكُفْرِ والشَّامِ صَدْمَةً	أقمتَ بها للقومِ سوقَ ضِرابِ
وقد جَرَّدَتْ أجنادُ مِصْرَ عزائماً	مضارِبُها في الصَّخْرِ غير نوابي
تولَّوا عن الإفرنج فادحَ ثقلِها	ودارَتْ رَحَاها منهمُ بهِضَابِ
أقامَتْ دروعُ الجُنْدِ تسعينَ ليلةً	ثياباً لهم ما بُدِّلَتْ بثيابِ
وهم بين مطروحٍ هناك وطارحٍ	وبين مُصِيْبٍ خصمَه ومُصَابِ

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر، واستصحب معه

---

(١) انظر «الباهر»: ١٢٢، و«الكامل»: ١١/٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦٠ ـ ٦١، ٦٢.

ابنُ أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعله مُقَدَّم عسكره وصاحب رأيه، وكان لا يفصل أمراً ولا يقرِّر حالاً إلا بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة، والفكرة الصَّحيحة، واقترانِ النصر بحركاته وسكناته. فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وَقْعٌ عظيم، وخافه أهلُ مصر، ونَصَرَ شاور على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرَّر قواعِدَه، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلم أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجردَّ الإيهام والمحال.

وكان ابتداءُ رحيله عنها متوجِّهاً إلى الشَّام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مُدَبِّراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدِّثاً بذلك نفسه، مقرِّراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين[1].

قلتُ: ولِفعل شاور ما فَعَل مع أسد الدين وصفَه الشعراءُ بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده، على ما سنذكره، وبقي متخوِّفاً من أسد الدين. فقال عَرْقَلة الكلبي من جُملة قصيدةٍ له:

وهَلْ هَمَّ يوماً شِيرَكُوه[2] بجِلَّقٍ ... إلى الصَّيدِ إلا ارتاعَ في مِصْرَ شاوَرُ
هو المَلِكُ المنصورُ والأَسَدُ الذي ... شذا ذِكْرِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ سائِرُ[3]

في ذي الحِجَّة من هذه السنة احترقت جيرون* بعد رجوعِ أسد الدين إلى دمشق، فقال العَرْقَلَة يمدحه ويذكر ذلك:

جارَ صَرْفُ الرَّدى على جَيْرونِ ... وسقَى أهلَها كؤوسَ المَنُونِ

---

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٣٦ ـ ٣٧، والنص مضطرب لتقديم وتأخير فيه، لم يتنبه له المحقق.

(٢) بتحريك الراء لضرورة الشعر.

(٣) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٥٢.

أصبحَتْ جَنَّـةً وأَمْسَتْ جحيمـاً ... تتلظَّى بـكـلِّ قَلْبٍ حـزيـنِ

كيف لا تُـذْرَفُ الدُّمـوع عليها ... وَهْي في الشَّامِ نزهـةٌ للعيـونِ

حَبَّذا حِصْنُها الحصينُ لقد كا ... ن جمـالاً لكـلِّ حِصْنٍ حَصِينِ

أيُّ سيفٍ سـطا على دارِ سَيْفٍ ... وزَبُـونٍ أتـى بـحَـرْبٍ زَبُـونِ

خِلْتُ نيـرانَهـا وكـلَّ ظـلامٍ ... نـارَ لـيلى تـلوحُ لـلمـجنـونِ

كم غنيٍّ اليمينِ أمسى فقيـراً ... وفـقيـرٍ أمسـى غـنـيَّ الـيمـيـنِ

كـلَّ حينٍ لها حـريقٌ جـديـدٌ ... ليتَ شِعْري ماذا لها بعد حينِ

كـلُّ هـذا البلاء عـاقبـة الفِسْـ ... ـقِ وشُـرْبِ الخمـورِ والتَّلْحِينِ

ولـقـد رَدَّهـا بعـزمٍ وحَـزْمٍ ... أسـدُ الدين غـايـةُ المسكين[١]

وحمى الجامعَ المقدَّسَ والمشْـ ... ـهَـدَ من جمرهـا بمـاءٍ معينِ

مَـلِكٌ فِعْـلُه بِـدَلْجـةَ[٢] والبـا ... ب فَعـال الإمـام في صِفِّين[٣]

فصـــل
في فَتْـحِ حارِم*

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ـ يعني سنةَ تسعٍ وخمسين ـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنـج وقصَدَهم، واجتمعوا على حارِم، فضرَبَ معهم المصافَّ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم،

(١) في الأصل: المسلمين، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) قرية بصعيد مصر من غربي النيل في الجبل بعيدة عن الشاطىء. انظر «معجم البلدان»: ٢/٤٦٠.

(٣) انظر «ديوان عرقلة»: ١٠٥ ـ ١٠٦، والقصيدة مستدركة فيه من كتابنا هذا.

ووقـع في الإسار إبرنس أنطاكية[1]، وقومص طرابلس[2]، وابنُ لجوسلين، ودُوك الرُّوم[3]، وذلك في رمضان[4].

وقال في «الخريدة»: كانت نوبة البقيعة نوبةً عظيمة على المسلمين، وأَفْلَتَ نورُ الدين في قُلٍّ[5] من عسكره، ثم كسر الإفرنـج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقُتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفاً، وأُسر من نجا، وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميـع ملوكهم، وكان منحاً عظيماً، وفتحاً مبيناً[6].

قال ابن الأثير: والسَّبب في هذا الفتـح أن نور الدين لما عاد منهزماً، على ما سبق[7]، من غزوة ناحية حصن الأكراد*، أقبل على الجد والاجتهاد، والاستعداد للجهاد، والأخذ بثاره، وغزو العدوِّ في عُقْر داره، وليرتق ذلك الفَتْق، ويمحو سِمَةَ الوَهْن، ويعيد رونق الملك. فراسل أخاه قُطْبَ الدين بالمَوْصِل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن[8] ونجم الدين ألبـي بماردِين*، وغيرهم من أصحاب الأطراف.

---

(١) هو Bohemond III بوهمند الثالث. انظر كشاف الأعلام.

(٢) هو Raymond III ريموند الثالث. انظر كشاف الأعلام وص ٣٥١ من الجزء الثاني.

(٣) هو القائد البيزنطي قسطنطين كولومان. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٥٩٧. وقد أطلق سنة (٥٦٩ هـ) انظر ٢/٢٧٦ من هذا الكتاب.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦١ ـ ٦٢.

(٥) أي قلة. انظر «اللسان» (قلل). وفي طبعة وادي النيل ١/١٣٣: في أقل من عشرة من عسكره، وهي زيادة مقحمة ليست في نسخنا الخطية، وما أدري كيف أثبتها د. محمد حلمي في نشرته للكتاب، وهي لا توجد في الأصل الذي اعتمد عليه! وهذه الزيادة أربكت د. شكري فيصل في تحقيقه لنص «الخريدة».

(٦) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢٨٨، ٢٩٠.

(٧) انظر ص ٣٩٧ من هذا الجزء.

(٨) أي حصن كيفا. انظر كشاف الأماكن.

أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجداً، وعلى مقدِّمة عسكره زين الدين نائبه.

وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصُّه: على أيِّ شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصَّوْمِ والصلاة، فهو يلقي نفسَه والناس معه في المهالك. وكلُّهم وافقه على ذلك. فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهُّز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدَّها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنَّهب، ويستمدُّ منهم الدُّعاء، ويطلبُ منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحدٍ من أولئك ومعه[(1)] أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين[(1)] ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلا بدَّ من إجابة دعوته. ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكراً. فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارِم*، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، ومقدَّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية*، والقمص صاحب طرابلس* وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدُّوك معهم وهو رئيس الرُّوم ومقدَّمُها، وجمعوا من الرَّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، قد ملؤوا الأرض وحجَبُوا بِقَسْطلهم[(2)] السماءَ، فحرَّض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شُجعان الرجال. فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرْتاح[(3)]، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم

(1 ـ 1) ما بينهما ساقط من (م).

(2) القسطل: الغبار الساطع. انظر «اللسان» (قسطل).

(3) حصن منيع كان من أعمال حلب. انظر «معجم البلدان»: 1/140 ـ 141.

إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا علم عِمٍّ[1]، وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغَمِّ، ثم تيقَّنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين.

فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولُّوا الأدبار، وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الفَرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بالعدوِّ مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم، فيميل عليهم من ١/ ١٣٤ بقي من المُسْلِمِين، ويضعُوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم. فكان الأمر على ما دَبَّروا؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر المَوْصِل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيَّالتهم ولم يُمْعنوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادَفوا راجلهم على الصَّعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرَّجين؛ فَسُقِط في أيديهم، ورأوا أَنَّهم قَدْ ضلُّوا، وخضعت رقابُهم وذلُّوا. فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحينئذٍ حمي الوطيس، وباشر الحربَ المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة. وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَاث الطُّيور، فمزَّقوهم بَدَداً، وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف.

(١) قرية بين حلب وأنطاكية، انظر «معجم البلدان»: ٤/ ١٥٧.

وأما الأسرى فلم يحصوا كثرةً، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أُسروا، وهم الذين من قبل ذُكروا[1].

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوِّها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القُسْطنطينية وسلَّموها إليه، ومجاورة بيمند[2] أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الرُّوم.

وبثَّ سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء[3] وغير ذلك، وعادوا سالمين. ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمالٍ جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم[4].

وقال الحافظ أبو القاسم: كَسَرَ نورُ الدين الرُّوم والأرمن والفرنج على حارِم*، وكان عدَّتهم ثلاثين ألفاً. قال: ووقع بيمنت في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمالٍ عظيم أنفقَهُ في الجهاد[5].

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أو قُبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل، ومرَّغ وجهه وتضرَّع، وقال: يا رب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك،

---

(١) انظر ص ٤١٦ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤١٦ من هذا الجزء.

(٣) كذا في النسخ الخطية، ولعلها السويدية، مدينة فوق اللاذقية على الساحل السوري.

(٤) «الباهر»: ١٢٢ ــ ١٢٥، و«الكامل»: ١١/٣٠١ ــ ٣٠٤.

(٥) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/١٤٧ ب.

فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط؟ يشير إلى أنك يا رب إن نَصَرْتَ المسلمين فدينَك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحقٍّ للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم، انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَن هو محمود الكلب حتى يُنصر! وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمسٍ وستين عند رحيل الفرنج عن دِمْياط بعد نزولهم عليها[1]، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذٍ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شِيركُوه كما سبق، وهذا من عجيبِ ما وقع واتفق.

فصــــل

في ذكر وزير المَوْصِل جمال الدين، الجَوَاد الممدَّح، ووفاته في هذه السنة رحمه الله [تعالى][2].

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنَّفاته، وأثنى عليه ثناء عظيماً حسناً. فمما ذكره في كتابه الموسوم «بنُصرة الفَترة وعُصرة الفِطرة، في أخبار الوزراء السَّلْجوقية»[3] أن قال: ذكرُ جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور. كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي؛ وهو صاحب[4] الوزير شمس المُلك بن نِظام الملك، وكان أبوه أبو منصور

---

(١) انظر ٢/ ١٤٣ من هذا الكتاب.

(٢) ما بين حاصرتين من (ل).

(٣) اختصره الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، وسماه «تاريخ دولة آل سلجوق» طبع المختصر غير مرة. ونحن نحيل في توثيق هذه الأخبار على طبعة دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٨م).

(٤) في (م) حاجب، ومثله في «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣.

فَهَّاداً في عهد السُّلْطان مَلِكْشاه بن ألب أرسلان، وابنه الكامل[1] أديبٌ لبيب، وزادت أيامه في السمو [وأيامنه في النمو][2] حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء. وقد كان زوَّجَ بنتاً له ببعض أولاد أخوال العزيز ــ يعني عم العماد الكاتب ــ قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله تعالى على ولده جمال الدين أبـي جعفر محمد، وخرَّجه في الأدب ودرَّجه في الرُّتَب، فأول ما رتَّبه في ديوان العَرْض السُّلْطاني المحمودي، وغلب في تحليته [ذكر][3] الأبلج، فنعتَه الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج. واتفق أنه لما تولى زَنْكي بن آق سُنْقُر الشَّام تزوج بامرأة الأمير كُنْدُغْدي[4] وولدها خاصْبَك[5] بن كُنْدُغدي؛ من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها، فرتَّبه العزيز لخاصْبَك وزيراً، فسار في الصحبة، وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الهشاشة، بهي البشاشة؛ فتوفرت مُنى زَنْكي على منادمته، وقَصَرَ صباحه ومساءه على مساهمته، وعوَّل عليه في آخر عمره في إشراف ديوانه، وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زَنْكي جُود، ولا عُرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يُحَصِّل له إلى خزانة زَنْكي استبقاءً لجاهه، واستعلاءً به على أشباهه، فمكَّنه زَنْكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرَّ بإساءته، ومنهم من انتفع بإحسانه.

ولما قُتل زَنْكي صار للدولة الأتابكية ملاذاً، وللبيت الآق سُنْقُري معاذاً،

---

(١) في «دولة آل سلجوق»: وابنه الكامل نجيب.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) الضبط من الأصل و(م).

(٥) الضبط من الأصل.

١٣٥/١ واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته.

وجرى بين جمال الدين الوزير، وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة المَوْصِل واستولى، فعاش بنداه الجود، وعشا إلى ناديه الوفود، وعادت به المَوْصِل قِبْلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سُعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعَمَّر الحرمين الشريفين، وشمل بالبِرِّ أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، وأجرى بحر السماح، ونادى: حيَّ على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظُ الفِصاح، وأتوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق، وقُصد من كل بلد سحيق، وقصده العظماء، ومدحه الشعراء.

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد [بن][1] الصيفي، المعروف بحيصَ بيص[2]. قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أولها:

يا لَلصَّوارِمِ والرِّماحِ الذُّبَّلِ ... نَصْراً ومن أنجدتما لم يُخْذَلِ
لو شئتُما ومشيئةٌ بمشيئةٍ ... جادَ الزمانُ وبالعُلا لم يَبْخَلِ
فاقْني فخارك يا مُجاشعُ واعلمي ... أني لكم من هِمَّتي في جَحفلِ
أنا فارسُ اليومينِ يوم مقالةٍ ... ووغىً أصولُ بصارمي وبمِقْوَلي[3]
ظَلَمَتْ، فضائِليَ المَقاوِلُ مثلَما ... ظَلَمَتْ جمالَ الدينِ مأوى العُيَّلِ
مَدَحُوه كي يحووا مناقبَ نَفْسِهِ ... فطَمَتْ فسالَتْ بالمدائحِ من عَلِ
فأتيتُ أبذلُ ما استطعتُ ومن يُرِدْ ... نَقْلَ الخِضَمِّ إلى المزادةِ يَخْجَلِ
شَمْسٌ من الإحسانِ عَمَّ ضياؤها ... بل آيةٌ جاءت بحُجَّةِ مُرْسَلِ

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣ ـ ١٩٤.

يُعْطي الجزيلَ لسائلي معروفه ... ويجودُ بالنُّعمى إذا لم يُسألِ
وتزيدُه شوسُ الخُطوبِ طلاقةً ... فيكون أبسمَ ما يُرى في المُعْضِلِ
ثَقُلَتْ به الأعناقُ من مِنَنِ النَّدى ... فالهامُ مُطْرِقةٌ لذاك المُثْقِلِ
فإذا تلاقى النَّاسُ كان حديثُهم ... عن كلِّ جَفْنٍ بالحجالة مُسْدَلِ
أُسراء معروف الوزير فكلُّهم ... عافٍ تراه مُطْلَقاً كَمُكَبَّلِ
من سمْرَقندَ[1] إلى تِهامةَ شاهدٌ ... فَضْلَ الجمالِ على الحَيا المُتَهَلِّلِ
السُّحْبُ تُمْطِرُ ما تُظِلُّ وجُودُه ... يَسْري ودارُ مُقامه بالمَوْصِلِ
وتَقَرُّ عينُ محمدٍ بمحمدٍ ... مُحيي دَرِيسَيْ عِلْمِهِ[2] والمَنْزِلِ
معمارُ مَرْقَدِه وحافظُ دينه ... ومعينُ أمَّتِه بجودٍ مُسْبِلِ
جَعَلَ المدينةَ مِصْرَ ريفٍ[3] آهِلاً ... نشوانَ يمرح بالنعيمِ المُخْضلِ
فكأنَّها[4] بالخِصب من قُربانه ... بَلَدٌ على شَطِّ الفُراتِ السَّلْسَلِ
فلو آنه في عَصْرِهِ نَزَلَتْ له ... في مَدْحِهِ سُوَرُ الكتابِ المُنْزَلِ
عَبْدٌ أخٌ في ضيفه وَوِدَادِه ... لا يستحيلُ وسيِّدٌ في المَحْفِلِ
خِرْقٌ يُناطُ قميصُهُ ورداؤه ... بُعبابِ زَخَّار وهَضْبَةِ يَذْبُلِ[5]

وقال العماد [الكاتب][6]. وكنت أنا في ذلك العهد متفقهاً ببغداد، واتفق حضوري بالمَوْصِل [في ذي القعدة][7] سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة، فحضرتُ عند جمال الدين بالجامع في جُمْعتين، وتكلَّمْتُ عنده مع الفقهاء في مسألتين. ومما مدحته به قصيدة، أوَّلها:

---

(١) سكنت الميم لضرورة الشعر. (٢) في «خريدة القصر»: شرعه.
(٣) في الأصل و (ل): ربعاً، والمثبت من (م) وهو يوافق ما في «الخريدة».
(٤) في الأصل و(ل) فكأنما، والمثبت من (م).
(٥) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/٣٠١ ــ ٣٠٣. وفي «ديوانه» ٢/٣١٠ ــ ٣١٥.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٧) ما بين حاصرتين من (م).

أظنُّهـمُ وقـد عَـزَمُـوا ارتحـالا ثَـنـوا عَنَّـا جَـمـالا لا جِـمـالا
سَـرَوْا والصُّبْـح مُبْيَضُّ الحـواشي فلما حالَ عَهْـدُ الـوَصْـلِ حـالا
هم اعتـادوا المَـلاَل فكيفَ ملُّوا وِصَـالَـهُـمُ ومـا مـلُّوا الـمَـلالا
أحـادي عِيْسِـهم بـاللَّهِ رِفْـقـاً فـإنَّ الـسَّيْـرَ أورثـهـا الكَـلالا
وعُـجْ نحـو الأراك بهـا فـإنـي أراه لاجـتـمـاعِ الـشَّـمْـلِ فـالا
سقى صَوْبُ الحَيَا تَلَعـاتِ نجـدٍ وحـيًّـا بـالحمى تـلك الـتِّـلالا
أخـلائي وهـل في النَّـاسِ خِـلٌّ بـه أُخْـلـي مـن الأحـزانِ بـالا
لئن لم أشفِ صدري من حَسُودي ولـم أُذِقِ الـعِـدَى داءً عُـضَـالا
فـلا أَدْرَكْـتُ مـن أدبي مُـرَاداً ولا صـادَفْتُ من حَسَبي مَنَـالا
ولا وَخَـدَتْ إلـيكـم بـي جِمـال[1] ولا والـيـتُ مـولانـا الـجَـمـالا
هـو المُغْني إذا مـا المرءُ أَقْـوَى هو المُنْجي إذا ما الخَـطْـبُ هالا
وقـائـلةٍ أفـي الـدُّنـيـا كـريـمٌ سـواه فقلت لا وأبـي الـعُـلا لا
أطَلْتَ على الـورى كَرَمـاً وفَخْـراً كـذلـك من حَـوَى هـذين طـالا
وحُـزْتَ المجدَ عن كَسْبٍ وإرثٍ فيـا صَدْرَ الـورى حُزْتَ الكمالا
خُصِصت بكـلِّ مَنْقَبَـةٍ وفَضْـلٍ تعـالى من حَباكَ بـه تعـالى[2]

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه، منهم العرقلة، له من قصيدة:

[يهـوى تجنّيـه والصُّـدودَ كمـا يهوى المعالي محمدُ بنُ علي[3]]
جـمـالُ دينِ الإلـه خيـرُ فتـىً لـلـرِّزْقِ أقـلامُـهُ ولـلأَجَـلِ
مُعْطي القُرى والقِرى لقاصـدِه من غيـر مَنٍّ والخيـلِ والخَـوَلِ
مِثْلُ فتـوحِ الـفـاروق نـائِـلُهُ شَرْقاً وغَرْباً في السَّهْـلِ والجَبَلِ

(١) في الأصل: جمالاً، وفي (ل) ولا وخدت بي إليكم جمال، والمثبت من (م).
(٢) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وفي «الديوان» أهوى.

من قال لم يَحْوِ ذا ويسكن ذي أصبحَ مما يقولُ في خَجَلِ
محمدُ خاتَمُ الكِرامِ كما سميُّهُ كانَ خاتَمَ الرُّسُلِ[1]

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدةٍ:

كسا الحَرَمينِ لِبْسَة عَبْدِ شَمْس وهاشم غُرَّتي نسلِ الخليلِ
ولِلْبلدِ الأمينِ أجدَّ أمناً تكنَّف مِثْلَه جَدَث الرَّسُول
عَشَيْتُم يا ولاةَ الأمرِ عمَّا أتيحَ له مِنَ الأثرِ الجميلِ
وطارَ لها وأشفقتم فشدَّ الـ ـسيدين على عُرى المَجْدِ الأثيْلِ
بيوتٌ بالحجازِ مقدَّساتٌ رماها الدَّهْرُ بالخَطْبِ الجليلِ
وكانَ أذالَهُنَّ فصابَ صوناً لمن آوتْه من ولد البَتُول
مآثرُ باقياتٌ يوم يُجْنَى الـ ـمقال ويُجتنى[2] طيبُ المقيلِ
وكم للمَوْصِلِ الحدباء مما تُنيل يداه من ريفٍ ونيل
بَرُود الصَّفْح مَلْتَهِبُ الحَواشي مَهِيْبُ البَطْشِ فرَّاسُ الدخول

ولأبي المجد [بن][3] قسيم الحَمَوي فيه من قصيدة:

أغرّ تبصرُ منه النَّاسَ في رَجُلٍ واللَّيْثَ في بَشَرٍ والبَدْرَ في غَضَنِ[4]
سما بهمَّته في المَكْرُماتِ إلى علياءَ تَقْصُرُ عنها هِمَّةُ الزَّمَنِ
يلقاك واضحَ ليلِ الفِكْرِ راجحَ نيـ ـل الكفِّ طاهرَ ذيل السِّرِّ والعَلَنِ
ماضي العزيمةِ ميمونُ النقيبة، رئـ ـبال الكتيبةِ عَيْنُ القائلِ اللَّسِنِ
إذا تكلَّم واسْتَجْليتَ غُرَّته في مَحْفِلٍ رُحت حالي العين والأُذُنِ

---

(١) انظر «ديوان عرقلة الكلبي»: ٨٥ ـ ٨٧ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.
(٢) في (م) ويشترى.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩١ من هذا الجزء.
(٤) الغضن: الدرع. انظر «اللسان» (غضن).

كـأَنَّ فـي الدَّسْتِ منه حين تنظره شمسَ النهار وصَوْبَ العارِضِ الهَتِنِ

قال ابن الأثير: وفي شعبان من هذه السنة، وهي سنة تسعٍ وخمسين وخمس مئة، توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وكان قد خدَمَ الشهيد، فولاه نَصِيبين*، وظهرت كفايتُه، فأضاف إليه الرَّحبة*، فأبان عن كفايةٍ وعِفَّة، وكان من خواصِّه فجعله مشرف مملكته كلِّها، وحكَّمه تحكيماً لا مزيد عليه، حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكَفَرْتُوثي[1] يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى الشهيد أتابك قبلي ويخرجُ بعدي. ولم يزل كذلك إلى أن قُتِلَ الشهيد، ثم وزر لولدَيْ الشهيد سيف الدين ثم قُطْب الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهودٌ ومواثيق على المُصَافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونَه ويقعون فيه عند زين الدِّين، فنهاهم.

١/١٣٧

وكانت المَوْصِل في أيامه ملجأً لكل ملهوف، ومأمناً لكلِّ خائف، فسعى به الحُسَّاد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدَّق بها[2]. فلم يمكنه أن يغيِّر عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع على زين الدين من غيَّره عن مصافاته ومؤاخاته، فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة المَوْصِل، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لأن خواصَّ قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قُبض تبسَّطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين[3]. فبقي جمالُ الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض، ومضى لسبيله عظيم القدر والخَطَر،

(١) نسبة إلى كفرتوثا: قرية من أعمال الجزيرة، قرب ماردين. انظر «معجم البلدان»: ٤/٤٦٨، و«اللباب»: ٣/٤٥.

(٢) في «الباهر»: فيتصرف بها.

(٣) «الباهر»: ١١٨ ـ ١١٩.

كريم الوِرْدِ والصَّدَر، عديم النظير، في سَعَة نفسٍ، لم يُرْوَ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروَّة[1].

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصُّوفي ــ وهو رجلٌ من الصَّالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ــ قال: لم يزل الجمال[2] مشغولاً بأمر آخرته مُدَّة حبسه، وكان يقول: كنتُ أخشى أن أُنقل من الدَّسْت إلى القبر. قال: فلما مرض قال لي بعضَ الأيام: يا أبا القاسم، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرِّفْني. فقلت في نفسي: قد اختَلط الرجل. فلما كان الغد أكثرَ السؤالَ عن ذلك الطائر، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلتُ له: جاء الطائر. فاستبشر، ثم قال: جاء الحق. وأقبل على الشهادة وذِكر الله تعالى، وتُوفي. فلما توفى طار ذلك الطائر. قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

ودفن بالمَوْصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شِيركُوه عهداً؛ من مات منا قبل صاحبه حمله الحيُّ إلى المدينة ــ على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام ــ فدفنَه بها في التُّرْبة التي عملتها، فإن أنا مُتُّ فامضِ إليه وذكِّره. فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمِلَه به إلى مكة والمدينة، وأمر أنْ يحجَّ معه جماعةٌ من الصوفية ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النُّزول والرَّحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد: الصلاة على فلان. ففعلوا ذلك، فكان يُصَلِّي عليه في كل مدينة خلقٌ كثير، فلما كان في الحِلَّة* اجتمع النَّاس للصلاةِ عليه، فإذا شابٌّ قد ارتفع على موضع عالٍ، ونادى بأعلى صوته:

(1) «الباهر»: ١٢٧.
(2) في (ل) جمال الدين.

سَرَى نَعْشُه فوقَ الرِّقابِ وطالما سَرَى بِرُّه[1] فوقَ الرِّكابِ ونائِلُهْ
يَمُرُّ على الوادي فتُثني رمالُه عليه وفي النَّادي فتبكي أرامِلُهْ[2]

فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة، وصلُّوا عليه بالحَرَم، وحملوه إلى المدينة فصلُّوا عليه أيضاً، ودفنُوه بالرِّباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي ﷺ خمسة عشر ذراعاً[3].

قلت: كذا قال ابن الأثير، وقد[4] رأيت المكان[4] ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي ﷺ لا نفسَ القبر الشريف[5]، زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه[5].

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال، رحيماً بالنَّاس، متعطفاً عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدَّد

---

(١) في (م) جوده، ومثله في «الباهر».

(٢) في هامش الأصل «حاشية، قال المؤلف: وجرى نحو هذا للوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حِنْزَابة، كان أبوه وزيراً للمقتدر، ووزر هو لكافور الإخشيدي بمصر، ومات بها سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة، وحمل منها إلى الحرمين، فخرجت الأشراف من مكة والمدينة، فحجوا به وردوه إلى المدينة في الدار التي كان أعدها لذلك جوار مسجد النبي ﷺ، وكان مكرماً لأهل العلم، وله معروف كثير. ذكرت ما جاء عنه في ذلك في ترجمته في «تاريخ دمشق»، رحمه الله. فجرى للوزير أبي جعفر ما كان قد جرى للوزير جعفر، رحمهما الله تعالى. وبلغني أن الحيص بيص الشاعر [لما] رأى نعش الوزير جمال الدين، وأُنشد البيتان، ارتجل هو بيتين:

سَرَى نَعْشُه فوقَ الرِّقابِ وإنَّه لَأجدَرُ من يَسْري عليها ومَنْ يَرْقَى
فما عنقٌ إلا له فيه مِنَّةٌ تلازِمُهُ كالطَّوْقِ في عُنُقِ الوَرْقا

قلت: ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٣) «الباهر»: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٤ ـ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥ ـ ٥) ما بينهما ساقط من (م).

بناء مسجد الخَيْف بمِنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُيِّر وبُني غيره سنة ست وسبعين وخمس مئة، وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة[1]، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وست مئة. ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن [له][2] فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن [أبي] هاشم[3] خِلَعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه. وعمر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج التي يُصْعَدُ فيها إليه، وكان النَّاس يلقون شدةً في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمان[4] في طريق معمولة تحت الجبل مبنيَّة بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيراً. وكان يعطي أهل نَعْمان كُلَّ سنة مالاً كثيراً ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحُجَّاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحةً عظيمة[5].

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه السلام[6]، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضَنْكٍ وضُرٍّ معهم. رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحَّم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من

---

(١) الفضة. انظر «قاموس الفارسية»: ٧٤٧، و«معجم متن اللغة»: ٥/٥٢٧.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) وهو عيسى بن فليتة، وجده الأعلى أبو هاشم محمد بن جعفر، تولى مكة بعد قتل ابن أخيه قاسم بن هاشم، وذلك سنة (٥٥٦هـ) وبقي أميراً عليها حتى توفي سنة (٥٧٠هـ). انظر «العقد الثمين»: ٦/٤٦٥ ــ ٤٧٠، و«خلاصة الكلام»: ٢٠ ــ ٢١، وما بين حاصرتين من «الباهر»: ١٢٨، وانظر حاشيتنا رقم ٣، ص ٣١٧ من هذا الجزء.

(٤) واد بين مكة والطائف، على ليلتين من عرفات، انظر «معجم البلدان» ٥/٢٩٣.

(٥) «الباهر»: ١٢٨.

(٦) في (ل) و (م) صلى الله عليه وسلم. وقد أكمله من بعده نور الدين، انظر ص ٣٣ من هذا الجزء.

بالمدينة أن يدعوَ له، لأنّا كُنّا في ضرٍّ وضيق ونكد عيشٍ مع العرب، لا يتركون لأحدنا[1] ما يواريه ويشبع جَوْعته، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا؛ فكيف لا ندعو له[2]! ١٣٨/١

قال: وكان الخطيبُ بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسُّور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها! وسمعتُ عن مُتولِّي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء، سوى الإدرارات والتعهُّدات، قال: كان [له][3] كل يوم مئة دينار أميرية يتصدَّق بها على باب داره[4].

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناسُ مثلها الجسر الذي بناه على دِجْلة عند جزيرة ابن عمر* بالحجر المنحوت والحديد والرَّصاص والكِلْس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه. وبنى أيضاً جسراً على نهر الأريار عند الجزيرة أيضاً. وبنى الرُّبط بالمَوْصِل، وسِنْجار*، ونَصِيبين*، وغيرها، وقصده الناس من أقطارِ الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الخُجَنْدي[5]؛ رئيس

(١) في الأصل: لأحد، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) «الباهر»: ١٢٨.
(٣) ما بين حاصرتين من (ل) و(م).
(٤) «الباهر»: ١٢٨ ــ ١٢٩.
(٥) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: لما رجع الخجندي من عنده مدحه بأبيات، منها:

جئت إلى بابك فرداً وقد رجعتُ من نعماك في قافِلَهْ»

ثم أتبعها الناسخ بالحاشية التالية: «ليس في أصل الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى الذي نقلت منه هذه النسخة الذي هو بخطه غير هذه الحاشية الصغيرة، وهذه الحاشية التي أذكرها ــ إن شاء الله تعالى ــ وجدتها في نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد =

أصحاب الشَّافعي، رضي الله عنه، بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة هَمَذَان، قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلاً، وكذلك غيرهما من الصُّدُور والعلماء ومشايخ الصُّوفية، وصارت المَوْصِلُ في أيامه مقصداً وملجأ[1].

وكان أحبَّ الأشياء إليه إخراجُ المال في الصَّدَقات، وكان يضيِّق على نفسه وبيته ليتصدَّق. حكى لي والدي قال: كنتُ يوماً عنده وقد أُحضر بين

= الكاتب، وهي منقولة من أصل المؤلف الذي بخطه ومقروءة عليه، وأظن المؤلف سها عن إثباتها في نسخته، وهي: قال العماد في «كتاب السلجوقية»: لما نهد بوزابة من فارس ومعه الملكان محمد بن محمد [كذا] وملكشاه ابنا محمود بن ملكشاه؛ يعني لأخذ السلطنة من عمهما مسعود بن محمد بن ملكشاه، فلما قرب من أصفهان تلقاه صدر الدين الخجندي، وفتح له أبوابها، فدخل دار مملكتها، وأجلس الملكين على السرير الألب أرسلاني، ثم خرج بهما على سمت همذان. فذكر الحديث في كسره وقتله، ثم بعث إلى أصفهان ـ يعني السلطان مسعود ـ بالإيقاع بمن خرج على السلطان، فخرج منها ـ يعني الخجندي ـ وزحف العوام إلى المدينة فأحرقوها، ونهبوا دار كتبها، وتشتت بنو الخجندي، فقصد صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل، فأوردهما جمال الدين الوزير من إنعامه وإكرامه المنهل المنهل، ومضى جمال الدين إلى الحج، وأقام صدر الدين، وبحر جود الوزير له متلاطم اللجج، ثم انصرف عنه مملوء الحقائب، محبوًّا بالمواهب، فعمل في جمال الدين الوزير أبياتاً من جملتها:

جئت إلى بابك فرداً وقد رجعت من نعماك في قافله

ووصل إلى أصفهان، فتوفر أهلها على خدمته، وافترضوا إقامة حرمته، وعاد أخوه جمال الدين من الحج، وسار مع قافلة همذان، ثم وصل الخبر بأن السلطان ـ يعني مسعوداً ـ قد رضي عنه وعن أخيه، وأعاد إليهما الرياسة بأصفهان.

هذه الحاشية كلها نقلتها على صورتها من النسخة المذكورة وذلك بعد فراغي من نقل هذه النسخة من أصل الشيخ المؤلف الذي بخطه، ولله الحمد، وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه. اهـ». قلت: انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٠١ ـ ٢٠٣، وترجمة صدر الدين الخجندي محمد بن عبد اللطيف في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧، وفيه توفي سنة (٥٥٢ هـ).

(٥٥٢هـ).

(١) «الباهر»: ١٢٨ ـ ١٢٩.

يديه قُنْدُز[1]، ليُعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير، اشتروا لي قُنْدُزاً بدينارين وتصدَّقوا بثلاثة دنانير. قال: فراجعناه غيرَ مَرَّة فلم يفعل[2].

قال: وحكى لي من أثق إليه من العدول بالمَوْصِل أن الأقوات تعذَّرت في بعض السنين بها وغَلَت الأسعار، وكان بالمَوْصِل رجل من الصَّالحين يقال له الشيخ عمر المَلَّاء[3]، فأحضره جمال الدين وسلَّم إليه مالاً، وقال له: تخرج هذا المال على مستحقه، وكلما فرغ أرسلْ إليَّ لأنفذ غيره، فلم تمضِ إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئاً آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه، فقال جمال الدين للرسول: والله ما عندي شيء، ولكن خذ هذه المحافر التي في داري فبيعوها وتصدَّقوا بثمنها إلى أن يأتينا شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر. فبيعت المحافر وتصدَّقوا بثمنها وعرَّفوه ذلك، فلم يكن عنده ما يرسله، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العِمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع، وقال للرسول: قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة. فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدَّق بثمنها[4].

قال: وحكى لي بعضُ الصُّوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النَّسَائي؛ شيخ الشيوخ[5] بالمَوْصِل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق

(١) هو القندس، ثعلب الماء، تتخذ من جلده فراء فاخرة يلبسها السلاطين. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٢٩ ــ ١٣٠.
(٢) «الباهر»: ١٢٩.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٥ من هذا الجزء.
(٤) «الباهر»: ١٢٩.
(٥) شيخ الشيوخ، لقب يطلق على متولي الإشراف على رجال الطرق الصوفية. انظر «الألقاب الإسلامية» للدكتور حسن الباشا: ٣٦٦ ــ ٣٦٧.

إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك. ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمَّالين يحملون أحمالاً من النَّصافي والخام، وإذا قد جاء نائبُ جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماشٌ كثير، وثمانية عشر ألف دينار، وعِدَّة كثيرة من الجمال. فقال لي: تأخذ هذه الأحمال، وتسير إلى الرَّحبة*، فتوصل هذه الرِّزْمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلاناً العربي، فتوصل إليه هذه الرِّزْمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها السَّلام، توصِّل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدَّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى. قال: فسرنا كذلك إلى وادي القُرى، فرأينا به نحو مئة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوفُ الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار. فانقلبت المدينة بالدُّعاء له. ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أَمَرَنا[1].

قال: وحكى لي والدي قال: رأيتُ جمال الدين وقد حضر عنده رجلٌ فقيه قبل أن يصير وزيراً، فطلب منه شيئاً، وتردَّد إليه عِدَّة أيام، ثم انقطع، فسأل عنه، فقيل: إنه سافر. فشقَّ ذلك عليه، ثم قال: هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب. ورَدَّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل: إنه سار نحو مارِدين*. فأرسل إليه خِلْعَةً ونفقة إلى مارِدين[2].

---

(١) «الباهر»: ١٢٩ ــ ١٣٠.
(٢) «الباهر»: ١٣٠.

قال: ولو رُمتُ شرحَ مفردات أعماله لأطلتُ وأضجرت، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها(١).

[قلت](٢): وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين في الموصل(٣) سنة خمس وخمسين وخمس مئة، وأنا متوجِّه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة، فعرض عليَّ الدخول إلى دارٍ في الموصل، فامتنعت، ونزلتُ بخيمتي على الشط، فكان مدة مقامي [كل](٤) يوم يركب يجوز على الجسر نحو نِينَوَى(٥)، وأتابك قد ركب إلى المَيْدَان، وينفذ إلي يقول: اركب، فأنا واقف أنتظرك. فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث. فوجدتُ يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلتُ له: في نفسي شيء يتردَّدُ من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك، وما يتفق [لي](٦) خلوة، وقد خلونا السَّاعة. قال: قل. قلت: أقول [لك](٧) ما قاله الشَّريف الرضي:

١٣٩/١ ما ناصَحَتْك خفايا الودِّ من أحدٍ ... ما لم يُصِبْك بمكروهٍ من العَذَلِ
مودَّتي لك تأبى أن تُسامحني ... بأن أراكَ على شيءٍ مِنَ الزَّللِ

وقد بسطتَ يدَك في إنفاق المال في الصَّدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولا تصبر نفوسهم عليه، ولو أنَّ الإنسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف

(١) في الأصل و(ل) تركناها، والمثبت من (م)، وانظر «الباهر»: ١٣٠.
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) في (ل) و (م): الموصلي.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) قرية بالموصل، وتسمى قرية يونس بن متى. انظر «معجم البلدان»: ٥/٣٣٩.
(٦) ما بين حاصرتين من (ل) و(م).
(٧) ما بين حاصرتين من (م).

المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزاك الله خيراً، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه. ففارقتُه وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشَّام، ونُكب جمال الدين ومات في الحبس[1].

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[2] في هذا الوزير الجَوَاد لما نكب:

ما حَطَّ قَدْرَكَ من أوج العُلا القَدَرُ ... كلا ولا غَيَّرَتْ أفعالَكَ الغِيَرُ
أنت الذي عَمَّ أهلَ الأرض نائِلُه ... ولم يَنَلْ شأوَه في سُؤْدَدٍ بَشَرُ
سارَتْ صفَاتُك في الآفاقِ واتَّضَحَتْ ... وصدَّقَ السَّمْعُ عنها ما رأى البَصَرُ
فاصبرْ لِصَرْفِ زمانٍ قد مُنِيْتَ به ... فآخِرُ الصَّبْرِ يا طودَ النُّهى الظَّفَرُ
فما تَرَى أحداً في الخَلْقِ يَسْلَمُ مِنْ ... صروفِ دَهْرٍ له في أهله غِيَرُ
سَعَوْا بقصدِك سِرًّا واستتبَّ لهم ... ولو سَعَوْا نحوه جَهْراً لما قَدَرُوا
لولا الأماني التي تحيا النُّفُوسُ بها ... لمتُّ من لَوْعةٍ في القَلْبِ تَسْتَعِرُ[3]

ومنها في ذِكْر الشيخ عمر المَلاَّء:

وأَصْدَقُ النَّاسِ في حِفْظِ العُهُودِ إذا ... مَيَّزْتَ بالفِكْرِ أحوالَ الوَرَى عُمَرُ
الزَّاهِدُ العابدُ البَرُّ التقيُّ ومن ... يزورهُ ويقوِّي أزره الخَضِرُ[4]

(١) النص في القسم المفقود من كتاب الاعتبار، استدركه محققه من كتابنا هذا. انظر «الاعتبار»: ٢١ ــ ٢٢. طبعة د. السَّامرائي.

(٢) نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر، ولد سنة (٥١٠هـ)، وتوفي سنة (٥٧٩هـ) وكان فقيهاً أديباً شاعراً، انظر ترجمة في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ٢/٣٦١ ــ ٣٨٤، و«وفيات الأعيان»: ٢/١١٣ ــ ١١٤، وفيه توفي سنة (٥٩٩هـ) وهو وهم. و«المختصر المحتاج إليه»: ١/٢٧٩ ــ ٢٨٠. وانظر ص ٤٥٧ من الجزء الثاني.

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٣٧٢.

(٤) المصدر السابق: ٢/٣٧٣. وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من هذا الجزء.

وقال العَرْقلة يرثي جمال الدين الوزير والصَّالح بن رُزِّيك:

لا خَيْرَ في الدُّنيا ولا أهلِها بعد جمالِ الدِّين والصَّالحِ
بَحْرانِ لولا دَمْعُ باكيهما ما كانَ ماءُ البَحْرِ بالمالحِ [1]

قال ابن الأثير: وقال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشَّهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاققة فيها، ما يدلُّ على تمكُّنه من الكفاية[2]. فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشَّهيد، وجمالُ الدين وزيرُه حينئذٍ، وقد تمكَّن زين الدين عليٌّ بن بُكْتِكِين في الدولة تمكناً عظيماً، وتقدَّم عند قطب الدين جماعةٌ من أصحابه، فكان جمال الدين مع تمكُّنه وعلوِّ محلِّه يهمل بعض الأمور، قال: فقلت له يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام[3] الشهيدية؟ ما أرى الآن منها شيئاً! فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء. فقال: أنت صبي غِرٌّ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسِبُهُ، ذلك الوقت كان لنا صاحبٌ[4] متمكن قوي العزم، لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يَتَلَوَّن بأقوال أصحابه، فحفظناه، فكان ما أفعله هو الكفاية. وأما الآن فلنا سُلْطان غير متمكن، وهو محكومٌ عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية[5].

(١) البيتان ليسا في «ديوانه».
(٢) في الأصل و(ل) الكفاة، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل: أيام، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) أي عماد الدين زنكي.
(٥) «الباهر»: ٨٢ ـ ٨٣.

ثم دخلت سنة ستين وخمس مئة

قال ابن الأثير: فيها فتح نور الدين قلعة بانياس* من الفرنج. وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارِم*، وأَذِنَ لعسكر المَوْصِل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها. فسار نور الدين مجدًّا إلى بانياس لعلمه بقلَّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها، وضيَّق عليها وقاتلها. وكان في جُملة عسكره أخوه نُصْرة الدين أمير أميران، فأصابه سَهْمٌ أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيتَ أن تذهب الأخرى.

[قلت: وفي نصرة الدين هذا يقول أحمد بن منير من قصيدة له:

يا نُصْرَةَ الدِّين الذي عَزْمُهُ ... منهُ تُرَجَّى نصرةُ الدِّينِ
وابن الذي زَلْزَلَ من خَوْفِهِ ... ما بين أغماتِ إلى الصِّين

قال ابن الأثير][1]: وجدَّ في حصارِها، وسمع الفرنجُ بذلك فجمعوا [له][2]، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم* وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدة، ورجالاً عِدة.

وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتمٌ بِفَصٍّ ياقوت من أحسن الجوهر[3]، فسَقَط من يده في شَعْراء بانياس* ـ وهي كثيرةُ الأشجار ملتفة الأغصان ـ فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفَصُّ عَلِمَ به، فأعاد بعضَ أصحابه في طلبه ودَلَّهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع. فعادوا إليه ١/١٤٠

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، و(ل)، والمثبت من (م). قلت: أغمات، قرب مراكش في المغرب. انظر «معجم البلدان»: ١/٢٢٥.
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) في (ل) الجواهر.

فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشَّاميين، وأظنُّه أحمد بن منير، من جملة قصيدة يمدحُه بها ويهنئه بهذه الغَزَاة وعود الفَصِّ الياقوت:

إن يمْتَرِ الشُّكَّاك فيك فإنَّك الـ ... مهديُّ مطفىءُ جَمْرَةِ الدَّجَّالِ
فلعودةِ الجَبَلِ الذي أضللته ... بالأمسِ بين غياطلٍ[1] وجبالِ
مسترجعاً لك بالسَّعادةِ آيةً ... رَدَّتْ مطال الفال غير مُطَالِ
لم يُعْطَها إلا سليمانٌ وقد ... نِلْتَ الرِّفاءَ بموشكِ الإعجالِ
زجرٌ جَرَى لسرير مُلْكِكَ أنه ... كسريره عن كُلِّ جَذْرٍ عالِ
فلو البِحَارُ السَّبْعَةُ اسْتَهْوَيْنَهُ ... وأَمَرْتَهُنَّ قَذَفْنَهُ في الحالِ[2]

قلت: هذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغَزَاة؛ فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين[3]،وفَتْحُ بانياس*كما تراه في سنة ستين وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه، يعني نور الدين، ويهنئه بالعود من غزاة وضياع فَصٍّ ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد، شِرَاه ألف ومئة دينار. وفي نسخة: وَوِجْدان خاتمٍ ضاع منه في الصَّيد قيمته ألف ومئة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص. فذكر القصيدة، وأولها:

* يوماك يوم ندًى ويوم نِزال *

يقول فيها:

أَخْرَسْتَ شِقْشِقَةَ الضَّلالِ وقُدْتَه ... قودَ الذَّلولِ أطاعَ بعد صِيال
ورميتَ دارَ المشركين بصَيْلَمٍ ... ألقحتَ فيها الحَرْبَ بعد حِيالِ
وسَعَرْتَ بين تريبهم وترابهم ... ذُعْراً يُشيبُ نواصيَ الأطفالِ
فوق الخطيم وقد خَطَمْتَ زَعِيمَهُمْ ... ضَرْباً سوابِقُهُ بغير توالي

---

(١) مفردها غيطلة، وهي اجتماع الشجر والتفافه. انظر «اللسان» (غطل).

(٢) انظر «الباهر»: ١٣٠ ــ ١٣١، و«الكامل»: ١١/٣٠٤ ــ ٣٠٥.

(٣) انظر ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

ضَـرْبـاً مـلأَتَ فـرنجـةً من حـرِّه ... رُهْبـاً بـه سَيْفُ الصَّقـالب صـالي
وبفَـجٍّ حـارمَ أحـرمتْ لقـراعهم ... هيمٌ أحلن النـوم غيـر حَـلالِ
عَجَموا على الجسر الحديد حديدَها ... نـبعـاً يـعـاذِمُـهُ أُديـردُ صَـالِ
زلـزلْتَ أرضَهُمْ بـوقـعِ صـواعقٍ ... أعـطينـا أمنـاً من الـزِّلـزالِ
في مـأزِقٍ شَمَّـرْتَ ذيلك تحتَـهُ ... والنَّصْـرُ فـوقَـك مُسْبِلُ الأذيـالِ
فـي دولـةٍ غَـرَّاءَ محـمـوديَّـةٍ ... سَحَبَتْ رداءَ الحَمْدِ غير مُـذَالِ
تُنسي الفتوحُ بها الفتوحَ، وتجتَنى ... زُهـر المقال بباهـرِ الأفعـالِ
لَبِسَتْ بنـورِ الـدِّين نـور حـدائق ... ثـمـراتُـهـنَّ غـرائـبُ الأفـضـال
ملكٌ تحجَّب في السـريـر بزأرةٍ ... زرَّتْ حـواشيهـا عـلى رئبـالِ
تنجـابُ عن ذي لبـدتين شَـذَاتُـه ... في بُـرْدَتي بَـدَلٍ من الأبـدالِ
رَفَـعَ الـرِّواقَ بـروقِ أنـطاكيَّـةٍ ... فـرمى الخليجَ بمـرهق البَلْبـالِ
بَـدْرٌ لأربـعَ عَشْـرَةَ اقتبسَ السَّنـا ... من خمسَ عَشْـرَةَ سورة الأنفـالِ
فـوزُ المآل أخـاضـه مـاءَ الطُّلى ... وسـواه يُقعـده احتيـازُ المـال
متقسِّمٌ بـين الـقسيمين الـعُـلا ... عن عمٍّ عمٍّ أو مخـايـل خـالِ
لا زِلْتَ تـطلُـعُ من ثنايا جَحْفَلٍ ... يقفـو لـواءك كـاللوى المِنْهَـالِ
تغزو فَتَنْهَبُ أو تؤوبُ فَتُنْهِبُ الـ ... ـعافين سَلْبَ قناً وكَسْبَ نِصَالِ
لك أن تطلَّ على الكواكبِ راقياً ... ولحـاسديـك بُكـاً على الأطـلالِ

ومما يناسِبُ هذه السعادة في وِجْدانِ الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتمٍ عظيم القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرَّشيد أخذه، فطلبه منه فامتنـع، فألـحَّ عليه فيه، فحنق الرشيد ومَرَّ على جسر بغداد فرماه في دِجْلَة. فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثَمَّ، وأمر الغَطَّاسين أن يلتمسوه، ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأوَّل، فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدِّين حِصْنَ بانياس* كان ولد معين الدِّين أُنَر الذي سَلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفتَ إليه وقال له: للناس بهذا الفتحِ فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جلدة والدك من [نار][1] جهنم[2].

١٤١/١

وقد تقدَّم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها[3].

وفيها[4] توفى[5] وزير بغداد عون الدين أبو المُظَفَّر يحيى بن محمد بن هُبَيْرة الشَّيْبَاني، من بني ذُهْل بن شَيْبَان بن ثَعْلَبَة بن الحِصْن. وكان عالماً ديناً مدبراً حنبليَّ المذهب، وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده، وله عدة مصنفات، منها: «الإفصاح في شرح الأحاديث الصحاح»[6]. وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة. توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث

---

(١) ما بين حاصرتين من (م). (٢) انظر «الباهر»: ١٣١.

(٣) كان ذلك سنة (٥٤٣هـ) انظر ص ١٩١ من هذا الجزء.

(٤) خبر وفاة ابن هبيرة ساقط من (م).

(٥) في «المنتظم»: ٢١٦/١٠ مات مسموماً.

(٦) هو شرح للجمع بين الصحيحين لأبي عبد الله الحميدي الأندلسي، المتوفى سنة (٤٨٨ هـ)، طبع باسم الإفصاح عن معاني الصحاح، طبعت قطعة منه، فيها شرح حديث «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، نشرها الطباخ في حلب سنة (١٩٢٨ م)، طبع الجزء الأول منه، وهو شرح مسانيد العشرة المشهود لهم بالجنة، بتحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد سنة (١٩٨٦ م) انظر ترجمة الوزير ابن هبيرة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٩٦ ـ ١٠٠ و «المنتظم»: ١٠/ ٢١٤ ـ ٢١٧، و «مرآة الزمان»: ٨/ ١٥٩، وما بعدها و «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٣٠ ـ ٢٤٤، و «الفخري في الآداب السلطانية» ٣١٢ ـ ٣١٥ (ط. دار صادر) و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٤٢٦ ـ ٤٣٢، و «ذيل طبقات الحنابلة» ١/ ٢٥١ ـ ٢٨٩، و «المنهج الأحمد» ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٦٢، و «المقصد الأرشد» ٣/ ١٠٥ ـ ١١٠. وقد صنف ابن المارستانية كتاباً في سيرته، لم يصلنا انظر ٢/ ٢٠٠ من هذا الكتاب، وقد ذكرت ولادته في أغلب المصادر سنة تسع وتسعين وأربع مئة، والأصح ما هو مثبت، انظر «وفيات الأعيان» ٦/ ٢٤٢.

عشر جُمادى الأولى سنة ستين وخمس مئة. ورئيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء. ومولده في ربيع الآخر سنة سبعٍ وتسعين وأربع مئة بقرية من أعمال دُجَيْل تعرف بالدُّور[1]، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأوْلى الأمور ستر العيوب.

[نجز الجزء الأول من كتاب الروضتين،
ويليه الجزء الثاني
ويبدأ بحوادث سنة (٥٦١)]

(١) من نواحي بغداد. انظر «معجم البلدان»: ٢/٤٤٣، ٤٨١.

المحتوىٰ